تاريخ الكتابة التاريخية

تأليف: هاري إلمر بارنز

ترجمة: د. محمد عبد الرحمن برج

تاريخ الكتابة التاريخية

تاريخ الكتابة التاريخية

تأليف

هارى إلمر بارنز

ترجمة

د. محمد عبد الرحمن برج

مراجعة

د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الجزء الأول



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٤

تصـــدير

بقلم : دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ كرسي التاريخ بكلية الآداب
جامعة القاهرة

انقضت أزمنة كان ينظر فيها إلى التاريخ على أنه مجرد قصص يراد به المتعة حينا والعظة أحيانا ، واندثرت عصور اعتبر فيها كل من خاض فى أحداث التاريخ مؤرخا . وها نحن نعيش فى زمن نرى فيه التاريخ علما له قوانينه وقواعده ومنهجه التى لا يعيها إلا المؤرخ المصقول الذى يجمع بين الحاسة التاريخية المرهفة والوعى العلمى المتين .

حقيقة إننا كثيرا ما نصادف أناسا يخوضون فى التاريخ على غير أساس سوى التقاط بعض المعلومات التاريخية والتظاهر بعرضها رغبة فى التعالم ، ولكن ما أكثر الأدعياء فى كل علم وفن ، وما أخطر هؤلاء الأدعياء على كل علم وفن .

وإذا كان التاريخ هو محور العلوم الانسانية كلها ، لأنه هو الذى يوضح كيف نشأ الانسان ويتتبع تطوره على مدى الأيام والعصور وجهوده فى تسخير الطبيعة لخدمته والخطوات التى بنى بها حضارته لبنة بعد أخرى وكيف كان ينهض بعد كبوة ويكبو بعد نهضة .... إذا كانت هذه بعض أوجه التاريخ ، فإن هذا كله كفيل بأن يجعل من التاريخ علم دراسة وتحقيق وتحليل ومقارنة ونقد ، بحيث لا يكون كل من يحاول الكتابة فى التاريخ أو كل من يروى قصة من قصص الماضى مؤرخا .

والحق إن التاريخ يعمل فى محيط أصعب من المحيط الذى يعمل فيه أى علم معروف ، مما يجعل مهمة المؤرخ الأمين تفوق فى صعوبتها مهمة أى عالم آخر . فعالم الجغرافيا أو الفيزياء أو الكيمياء أو الجيولوجيا أو الطب عليه أن يجرى تجاريبه ويثبت مشاهداته ويقارن ويعلل ليصل إلى النتيجة التى يرضى عنها . أما المؤرخ الحق فعليه ـ علاوة على ما سبق ـ أن يغربل الحقائق ويصفيها وينقيها ويميز بين ما هو واقعى وما هو ملموس . فليس كل ما هو منقوش على الآثار أو مدون فى بطون المخطوطات حقيقة خالصة وإنما فيه الحقيقى وفيه المزيف ، ومنه الصادق ومنه الكاذب . ‌هنا تكمن الصعوبة التى تواجه المؤرخ الحق ، إذ عليه أن يجمع المعلومات والوثائق المتباينة عن الحدث الواحد ، ويسجل الملاحظات المختلفة عن كل حدث أو واقعة ، ثم يسلك طريقا شاقا من الفحص والنقد والمقارنة ، مجردا نفسه تجريدا تاما عن الهوى ـ حتى يصل إلى ما يؤمن بأنه اليقين .

على أن التاريخ لم يصل إلى هذه الدرجة من الدقة العلمية والتقيد بأصول البحث إلا بعد أن مر التاريخ نفسه بأدوار طويلة ، تبلغ فى قدمها قدم الإنسان نفسه على ظهر الأرض ، الأمر الذى يثير نوعا من التساؤل حول تاريخ التدوين التاريخى أو تاريخ علم التاريخ . ومع النهضة الحديثة التى يشهدها العالم ظهرت عدة مؤلفات باللغات الأوربية تعالج تاريخ فن التدوين التاريخى وكيف تشكلت الكتابة التاريخية فى كل عصر من العصور بطابع معين خاص ، أو بعبارة أخرى توضح ما أسهم به كل عصر وكل مدرسة فى تطور الكتابة التاريخية . وبكل أسف ظلت المكتبة العربية حتى اليوم خلوا تماما ـ أى كتاب أو بحث فى هذا الموضوع ، مما يشكل فراغا واضحا فى هذه المكتبة يجب أن نعترف به لنتلافيه .

وهكذا جاء اختيار هذا الكتاب ـ الذى نقدمه اليوم للقارئ فى مشروع المكتبة العربية ـ للترجمة اختيار موفقا ، لأنه سيسد فراغا ملموسا فى تلك المكتبة ، وخاصة أنه من خيرة الكتب وأحدثها فى موضوعه . أما مؤلف الكتاب فهو الأستاذ هارى إلمر بارنز ـ أحد المرموقين فى حقل الدراسات التاريخية ، امتاز كتابه بأنه موسوعه فى تاريخ تدوين التاريخ ، وهو موضوع لا يستطيع أن يوفيه حقه من البحث أى مؤرخ عادى وقد صدر هذا الكتاب بالإنجليزية أول مرة سنة ١٩٣٧ ثم أعيد طبعه مرتين الأولى سنة ١٩٣٨ والثانية سنة ١٩٦٣ . والطبعة الأخيرة مزيدة ومنقحة ، وهى التى قام الدكتور محمد برج ببذل جهد كبير فى ترجمتها إلى اللغة العربية .

ولا أريد فى هذا التصدير أن أخوض فى موضوع الكتاب وخطته ، فقد شرح المؤلف ذلك بالتفصيل فى المقدمتين اللتين كتبهما لكتابه ، حسبما يرى القارئ فى الصفحات التالية . على أنه ينبغى أن أشير إلى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية لم تكن بالمهمة السهلة لطول الحقبة التى عالجها ، وكثرة المصطلحات والأسماء التى ترددت فيه ، والتى تدخل فى كافة فروع علم التاريخ بل فى معظم فروع المعرفة الإنسانية . ولا أنكر أنى أشفقت على نفسى ووقتى من مهمة مراجعة هذا الكتاب ، إذ رغم الجهد الكبير الذى بذله فيه المترجم ، فإن مسئولية المراجعة الأمينة تقتضى دائما من المراجع أن يسير مع المؤلف الأوربى ومع المترجم العربى كلمة كلمة ليطمئن إلى تأدية المعنى الذى أراده المؤلف بدقة وأمانة ، وذلك فى أسلوب يتقبله القارئ العربى ويفهمه فى غير صعوبة . ولكنه للإيمان بأهمية موضوع الكتاب وحاجة المكتبة العربية إليه هو الذى جعلنى أضحى بما ضحيت به من جهد ووقت فى مراجعته ، إلى جانب الجهد المرموق الذى بذله المترجم فى ترجمته .

والله أسأل أن يوفقنا فيما ذهبنا إليه من خدمة المكتبة العربية والقارئ العربى .

مقدمة لطبعة دوفر (١٩٦٣)

صدرت هذه الطبعة الجديدة من كتاب «تاريخ الكتابة التاريخية» تلبية لرجاء الكثيرين وطلبهم ، من أساتذة التاريخ بالجامعات الذين أقروا أن هذا الكتاب هو الوحيد الذى يحوى عرضاً كاملاً لصناعة كتابة التاريخ فى مجلد واحد . وأوضح لى هؤلاء الأساتذة ، أن الحاجة ماسة لاستخدام هذا الكتاب مرشداً ومدخلاً لمن يتابع دراسة مناهج الكتابة التاريخية والأسلوب التاريخى على مر العصور . وأنه لاغنى عنه بأى حال فى تحقيق هذه الأغراض — وكان أن ازداد الطلب على هذا الكتاب زيادة كبيرة ، بعد أن نفد فى السنوات العشرة الأخيرة — حتى استطعت أن ألبى رغبة القراء بفضل مساعدة السيد هيوارد سيركر مدير مؤسسة دوفر للطباعة .

وأرى لزاماً علىّ من باب المصارحة وتوضيح الأمور ، أن أبين ماهية هذه الطبعة المنقحة . ذلك أنها فى حقيقة أمرها هى نفس الكتاب الذى صدر سنة ١٩٣٧ ، والذى أدخلت عليه بعض التصميمات ، فأعيد طبعه سنة ١٩٣٨ . ولاينبغى أن تنتقص هذه الحقيقة من قيمة هذه الطبعة الأخيرة ، وذلك إذا مانظرنا إليها من زاوية الغرض من إعدادها . فهذا الكتاب بالذات ، هو الذى طلب المعنون إعادة طبعه ، لأنه يحقق غرضهم ، ويسد حاجة غيرهم من بقية المشتغلين بالدّراسات التاريخيّة ، وهم الذين يريدون كتاباً أساسيا ، يكون مدخلاً لدراسة الجوانب الدراسية التى أعد من أجلها والتى يتفق معها . وعندما طلبوا إعادة طبع الكتاب ، كان هذا الكتاب بالذات هو الذى يقصدونه ، وترتسم صورته فى أذهانهم .

ولو أن الظروف كانت قد سمحت بإعادة جمع حروف الكتاب من جديد ، ومراجعته فى حرية واسعة ، لما أدى ذلك بأى حال من الأحوال إلى اختلاف الكتابة عن هذه الطبعة الجديدة . فقد بذلت كل جهودى فى اخراج هذا الكتاب سنة ١٩٣٧، — ولم أر مبرراً لإدخال أية تعديلات جوهرية أو هامة عليها فى السنوات التالية ، ولو كنت قد نكرت فى زيادة حجم الكتابة فربما تغير الموقف ، ولكنى لم أفكر فى ذلك ، لأن الزيادة فى حجم الكتاب ، كانت ستؤدى إلى صعوبة استخدامه كمرجع دراسى سهل التداول .

وقد حرص المؤلف عند إعداد هذه الطبعة الجديدة ، أن يضع في الاعتبار كل ماوجه من نقد لطبعة سنة ١٩٣٧ ، وكذا كل ماوصله من تعليقات ومقترحات منذ ذلك الحين. كذلك قرأ بعناية أشهر الكتب التي تناولت موضوع الكتابة التاريخية ، والتي ظهرت منذ سنة ١٩٣٨ فصاعداً ، وأخص بالذكر منها : المؤلف الضخم الذي وضعه جيمس وستغول طومسون ، وما كتبه مايكل كراوس من كتابات قيمة عن علم تدوين التاريخ في أمريكا ، فضلا عن الكتب العديدة الأخرى التي ظهرت في ذلك الموضوع ، والتي تناولت بصفة أساسية التطورات المرتبطة بكتابات كارل بيكر وشارل اوشن بيرد ، والمرتبطة كذلك بمشكلة النسبية التاريخية ».

وثمة تغيير جذري في هذه الطبعة الجديدة هو إدراج المؤلفات التاريخية التي تم نشرها منذ سنة ١٩٣٨ ، والتي تعتبر من الدرجة الأولى في الأهمية ، وهي المؤلفات التي عالجت كافة عصور التاريخ — من عصر ماقبل الكتابة إلى عصر الحرب الباردة الذي نعيشه اليوم . كذلك أدخلت تعديلاً على ثبت المراجع وعلى التذييلات ، بحيث أصبحت جديدةً كل الجدة ، وشملت الكتب الهامة التي ظهرت منذ سنة ١٩٦٣ . هذا فضلاً عن العناية الكافية بالتغييرات التي طرأت على منهج الكتابة التاريخية ، وما نجم عن التطورات التكنولوجية التي حدثت منذ ١٩٣٨ - من تعديل اعترى النظرة إلى التاريخ وطرق البحث فيه ، فضلاً عن كتابته ودراسته وتألقه ».

ومع أنني أعطيت الكتابة التاريخية عن الحرب العالمية الثانية ونتائجها قدراً من الاهتمام يفوق ما قام به أي مؤرخ آخر على قيد الحياة . - إلا أنني حرصت في هذه الطبعة على مقاومة الإغراء للخوض في معالجة تلك المسألة السياسية . ولن يعجز أولئك الذين يرغبون في الوقوف على آراء المؤلف حول هذا الموضوع عن الوصول الى موضع تلك الآراء.

ماليبور كاليفورنيا

سبتمبر سنة ١٩٦٣ .

هاري إلمر بارنز

مقدمة المؤلف للطبعة الأولى

يحوى هذا الكتاب مدخلا لتاريخ الكتابة التاريخية ، وهو يقدم عرضاً لتطور فن الكتابة التاريخية والعلم الخاص بتلك الكتابة ؛ من الأزمنة الغابرة حتى عصرنا الحالى ، مع عدم أغفال اهمية علاقة هذا التطور بالإطار . الثقافى العام ، والقوى الفكرية التى شكلت ذلك الإطار . ثم إن هذا يعطى ، اهتماماً كافياً لكبار الذين دونوا مؤلفات تاريخية كبرى تتناول أحداث الماضى ، مع محاولة إيضاح أهمية جهود أولئك الكتاب والتأثيرات الفكرية التى ساعدت على تشكيل مفاهيمهم التاريخية ، ذلك أن الكتابة التاريخية — مثلها مثل أية صورة أخرى من الصور الثقافية — هى فى حقيقة أمرها نتاج تاريخى . ولذا ينبغى دراستها فى ضوء خلفية الحضارات التى انبثقت منها — وعلى ذلك فإن تاريخ الكتابة التاريخية لابد وأن يكون إلى درجة كبيرة مظهرا من مظاهر التاريخ الفكرى للجنس البشرى — فضلا عن أن الكتابة التاريخية الواعية ، لابد وأن تضع فى اعتبارها أمرين ، هما : نظرية عظمة الانسان ، وفكرة حتمية التطور الثقافى ويوضح تاريخ الكتابة التاريخية أثر هذين العاملين على التطور الثقافى إلى حدٍ بعيد .

وهناك ثلاثة طرق رئيسية يمكن بواسطتها علاج موضوع الكتابة التاريخية . أولها : أن يختار المؤلف عدداً من كبار المؤرخين منذ عصر هيرودوت إلى عصر ادوارد ماير — ثم يخصص لكل منهم دراسةً أدبية . وتبدو هذه الطريقة أكثر إمتاعاً من غيرها ، كما أنها تلائم بدرجة أكبر الصنعة الأدبية . ومن أمثلة هذا النوع من المؤلفات ، كتاب موريتز ريتر عن « تطور علم التاريخ » . ولكن مهما يكن لهذا النوع من الكتابة من حظ من شغف القراء ، ومهما يكن له من قيمةٍ أدبية ، فإنه يفتقروا إلى الدقة العلمية والدراسة المقارنة .

والطريقة الثانية : هى أن يقدم المؤلف موسوعة باسماء مراجع للكتابة التاريخية ، على نحو مافعل وليم هنرى اليسون وآخرون فى كتابهم . « دليل المراجع التاريخية » وكذا كتاب شارل . ف . لانجلويس « الدليل الموجز للمراجع التاريخية » . وهذا النوع الأخير من الكتب يحقق الدقة التى تعوز الطريقة السابقة . ولكنه يقدم لنا شيئا لايخرج عن كونه مجرد اسم مرجع . وبالتالى فهو لايلائم القراءة المتصلة ذات الأفكار المترابطة .

أما الطريقة الثالثة : فهى ان يشخص المؤلف الأساس الفكرى لكل فترة رئيسية من فترات التقدم البشرى فى الحضارة الغربية — ويوضح كيف أن الكتابة التاريخية فى كل من هذه الفترات ، كانت متصلة اتصالاً وثيقاً بالثقافة الأم - ويبين السمات الرئيسية للكتابة التاريخية فى كل عصر — وما حققته من تقدم جديد فى علم التاريخ . ثم يعطى صورة واضحة لانتاج كل كاتب من دعائم الكتابة التاريخية فى العصر — وهذه الطريقة تمكنه من استعراض الاحداث الكبرى فى كل حقبة وتحديد جوانب التقدم فى الحضارة البشرية بوجه عام ، وفى علم التاريخ على وجه الخصوص . ثم استجلاء ، ما أسهمت به المواهب الفردية لكبار كتاب التاريخ فى كل عصر. وهذا الأسلوب فى علاج الموضوع يجعل من الممكن الجمع بين حصر نواحى التقدم فى كل عصر وبين إبراز طبيعة الشخصيات الكبرى التى تدور حولها أحداث ذلك العصر. وكانت هذه هى الطريقة التى اتبعها ادوارد فيوتر فى كتابه « تاريخ الكتابة التاريخية الحديثة » وهى أيضاً نفس الطريقة التى فضلتها فى كتابى هذا ، لأنى مقتنع بأنها الطريقة السليمة لعلاج هذا الموضوع بوصفها عرضا عاماً ومدخلا لدراسةٍ أشمل . وإن كنت أترك للآخرين الحكم على مدى ما أحتسبه من توفيق فى استخدام هذه الطريقة .

وقد حافظت فى الفصول الأولى من الكتاب على التقسيم التقليدى لمراحل تطور الكتابة التاريخية ، فعالجت الموضوعات فى هذه الفصول علاجاً زمنياً مسلسلاً . ولكن القارئ سيلمس تبايناً فى بقية الفصول ، حيث إننى لجأت إلى علاج هذا التطور على أساس موضوعى ، وهو أمر لم يكن من المستطاع تجنبه ؛ لظهور اتجاهاتٍ مختلفة فى الكتابة التاريخية فى وقت واحد. فعلى سبيل المثال نجد أن القرنين السابع عشر والثامن عشر شهدا بداية المدارس التاريخية الحديثة ، ونشأة فلسفة التاريخ . والاتجاهات التعقلية فى الكتابة التاريخية ، فضلا عن ظهور النعرة القومية فى تلك الكتابة . كذلك شهدت المائة سنة الأخيرة ، بلوغ الكتابة التاريخية مرحلة الكمال من ناحية شمول المعلومات. كما شهدت نشأة تاريخ الحضارة kulturgeschichte والأثر العظيم للعلوم الاجتماعية على كتابة التاريخ. وهكذا تبين أن علاج جميع هذه التطورات والاتجاهات عن طريق إدماجها تحت حقبة زمنية واحدة ، لن ينجم عنه سوى الارتباك وسوء التنظيم . ومن ثم رأينا من الأفضل الالتجاء إلى تعديل طفيفٍ فى الطريقة ، بالقدر الذى يسمح بالترتيب الموضوعى حتى يزداد الموضوع فهما ووضوحاً

وبدهى أنه فى هذه الحالة بات الاختيار امراً ضرورياً لتحديد عدد واسماء المؤرخين الذين يتعرض لهم هذا الكتاب ؛ والذين لزم التنويه بهم والإشارة الخاصة إلى أعمالهم ، وإلا غدا الكتاب مجرد فهرس — وخاصة فى أجزائه الأخيرة — ولقد حاولت بكل طاقتى أن أجعل

هذا الاختيار يقوم على أسس عادلة معقولة . ومع ذلك فانه لامفر من أن يقع اختيار الغير فى حالات كثيرة على اسماء غير تلك التى اخذتها واقل ما يمكن أن أقوله فى هذا الشأن : إننى لم أورد أى اسم بسبب ميلى أو انحيازى لاتجاه بعينه ، أو شخصياتٍ بذاتها. وكذلك فإننى لم أستبعد أى اسم لتحاملى الشخصى على صاحبه أو تحيزىٍ ضده — فإن كانت هناك أسماء قد حذفتها وثبت بعد ذلك اهميتها ، فإنه ليسرنى أن أضعها فى الطبعات اللاحقة ، إذا تفضل أى امرئٍ بلفت نظرى إليها .

هذا وقد كنت صريحا فى معالجتى للكتابات التاريخية المعاصرة والأحياء من المؤرخين ، قدر صراحتى فى تقديمى للكتابة التاريخية والمؤرخين فى العصور القديمة والوسطى — وفى هذا ابتعاد عن المنهج المألوف المقبول — ولكنى أعتقد أن هذا أمر لاغنى عنه فى أى مشروع للتاريخ للكتابة التاريخية يأخذ على عاتقة سرد قصته والوصول بها إلى أيامنا هذه . ذلك أن اهم الكتابات التاريخيه على مر العصور كلها ، هى تلك التى دونت فى الخمسين سنه الأخيرة — ومازال اكفأ المؤرخين على قيد الحياة — وعلى ذلك ، فإن استثناء الأحياء من المؤرخين ،وكذا السمو بأعمالهم عن النقد والتعليق ، سوف يترك هوّة خطيرةً فى التقدير والتقييم الفاحص ، الذى يمكن أن يحوية كتاب من هذا النوع . وكتب التاريخ والعلوم الاجتماعيه التى لا تتعرض للمؤرخين المعاصرين ، لا تحقق الفائدة المرجوة منها لأجيالنا التى تعيش اليوم . وحسبنا أن مقالةً كتلك التىَ كتبها «شارل اشن بيرد» بعنوان الحلم النبيل The Noble Dream ، تفوق فى أهميتها العملية مجلداً كاملاً يتناول فى طياته نقداً لكتّاب الحوليات فى العصور الوسطى . ثم إن تناول المعاصرين من الكتاب تناولاً صريحاً عادلاً يمثل «روحاً رياضيةً» عظيمة ذلك أن الشخص الموجود على قيد الحياة ، يستطيع أن يرفع صوته محتجاً ، بعكس الميت الذى لايستطيع الدفاع عن نفسه ضد ما يوجه إليه من نقد .

وقد عنى هذا الكتاب عنايةً كبيرةً برعاية ميول المؤرخين ، والاهتمام بالدراسات التى يعتمدون عليها فى عصرنا . ولعل اهم ما أتى به القرن العشرون من جديد فى مجال الكتابة التاريخية ، هو أنه ومع إدراكنا لمعنى التاريخ — تأتى بالفكرة القائلة بأن دراسة تاريخ الانسان فى العصور السابقة يجب أن تبين لنا كيف كانت تسير الأمور فى الماضى ، وكيف تطورت بعد ذلك — كما أنه أتى بالفكرة التى تذهب إلى أن تاريخ ماضى الانسان يساعدنا كثيراً على فهم حاضرنا ، ويمكننا من تخطيط المستقبل ، هذا كله فضلا عن الاعتراف باهمية العلوم الاجتماعية المختلفة فى إعداد المؤرخ لممارسة مهنته . وهذه الأفكار الجديدة ، إنما تنبئ بتطورات عديدة أخرى فى ميدان الكتابة التاريخية عند الأجيال القادمة ، وهذا فى حالة ما إذا قدر للحضارة البشرية أن تستمر. وقد أقرت مدرسة أقطاب المؤرخين هذه الحقيقة بصفة قاطعه ، كما يدل

على ذلك التقرير المطول عن الدراسات الاجتماعية الذى اعدته احدى اللجان المنبثقة عن الجمعية التاريخية الأمريكية . ومع ذلك فإن اعترافنا بأهمية مايسمى « بالتاريخ الجديد » لجيلنا الحالى ، لم يجعلنى أبداً انتقص من القدر المخصص للإشادة بدور المدرسة التاريخية التقليدية ، فوفيتها حقها من الاحترام والتقدير .

والحقيقة أن هذا الكتاب قد قصد به أن يكون أكثر من مجرد موجز لما يعلم للقلة المختارة . ذلك أنه من المستطاع أن يمكن القارئ من ربط الأطراف المفككة فى كتابات الباحثين ، كما يعرف المبتدئ فى الدراسات التاريخية بالتطورات الاساسية لمهنته فى المستقبل ، وبعمالقة هذه المهنة . ولكنى أرجو كذلك أن يجد القارئ العام متعةً ذهنيةً فى هذا الكتاب ، حيث إن عظماء المؤرخين يجذبون دواماً القراء المثقفين إليهم ، وذلك بفضل ما لكتاباتهم من روعة وسحر وقد حرصنا فى هذا الكتاب على أن نضع ثيكوديدس ، تاكيتوس ، هيوم ، جيبون ، موتلى ، باركمان . ماكولى ، وغيرهم ، فى مواجهة المسرح الثقافى والمهنى الذى انبثقت منه كتاباتهم ، والذى على أساسه يتم تقييم هذه الكتابات تقيماً سليماً وسط كتابات معاصريهم . فالقصة الكاملة لتاريخ التاريخ ، لا بد وأن تكون أكثر تشويقاً ومتعةً ثقافيةً من أية نبذة عن مؤرخٍ واحد ، أو عن انتاج ذلك المؤرخ . يضاف إلى ذلك أن أى عرض لتاريخ التاريخ ، سيكون حتماً رحلةً متصلة الحلقات لها أهميتها فى تاريخ نمو الفكر البشرى والرقى الانسانى ، حيث إن التاريخ يتميز بكثرة جوانبه ودوام تقدمه وتطوره .

وأخيراً ، فإن دراسة الكتابات التاريخية السابقة ، وكذا الحقائق التاريخية المتعلقة بالماضى ، ينبغى أن تمدنا بطريقة أفضل لمعالجة مشاكل اليوم ، وتفسير المشاكل الجارية التى يتعرض لها الناس . ثم إننى قمت بهذا العمل على قدر طاقتى فى ضوء المفاهيم التى استرشدت بها ، وفى حدود الحجم الذى خصصته للكتاب . وإذا كان هناك من يعتقد أنه يستطيع تنفيذ هذا العمل بطريقة أفضل ، فإنه سيجد بكل تأكيد مجالاً متسعاً لذلك . ولما كان هذا الكتاب هو الوحيد من نوعه فى كافة اللغات ، فإننى أتمنى كل نجاح وتوفيق لأى كاتبٍ يقوم بعمل ينافس عملى هذا . ولن يكون هناك من هو أكثر منى سعادة عندما أرى المطابع تخرج للقراء كتاباً أفضل من كتابى هذا فى الموضوع نفسه .

وبرن — نيويورك

هارى إلمر بارنز

شكر وتقدير

لقد تفضل كلٌ من الأساتذة : كارل وتيك (عميد كلية اوبرلين) ، ورالف هـ — ريكوردز (جامعة اوكلاهوما) بقراءة أصول الكتاب بأكملها . وأبدى كلاهما بعض الملاحظات البناءة التى ساعدتنى كثيراً فى مراجعة مادته . كذلك عنى آخرون بأجزاء من الأصول تقع فى دائرة تخصصاتهم ، فقرأ الاستاذ (ناثانيال شميدت) جامعة كورنيل الفصل الأول — وقرأ الاستاذ دلاس كالدويل (جامعة كارولينا الشمالية) الفصلين الأول والثانى — أما الأساتذة ، ادوارد مازلين هولم (جامعة ليلاند ستانفورد) جوزيا . ك راسل (جامعة كارولينا الشمالية) ، فقد قرءوا الفصلين الثالث والرابع ، وقرأ الاستاذ البرت هـ لايابر الأجزاء التى ترتبط بالمؤرخين البيزنطين والمسلمين فى الفصل الرابع . وقرأ الأستاذ جيمس ا جيلسبى (كلية بنسلفانيا) والأستاذ ليوجير شوى (جامعة لونج ايلاند) الفصل السابع . كذلك قرأ الدكتور هـ .س . انجليرشت (نيويورك) الفصلين الثامن والتاسع — أما الفصل العاشر ، فقد قرأه الاستاذ دافيد مازى (جامعة كولومبيا) وهو الذى تفضل أيضاً بقراءة مسودة مبدئية للفصل الحادى عشر — كما قرأ بعض أجزاء الفصل العاشر أيضا ، الأستاذ لويس م . هاكر . وهناك أيضاً الأستاذ بنيامين ب . كنلبرك (كلية كارولينا الشمالية للبنات) الذى قرأ الفصول الثانى عشر والثالث عشر والخامس عشر — أما الأستاذ ميرل كورتى (كلية المعلمين بجامعة كولبيا) ، والأستاذ فالرمود (مكتبة هانتيخ تون) باسادينا كاليفورنيا — فقد قرءوا الفصل الرابع عشر.

واكتشف هؤلاء الأساتذة عدداً من الأخطاء ، وأبدوا كثيراً من الملاحظات البناءة من أجل تهذيب المادة التى أضفتها لهذه الطبعة . وإننى لمدين كذلك للسيد سانوى لونتنيل « نورمان — اوكلاهوما) لتفضله بمراجعة الأسماء والتواريخ فى « تجارب الطبع » ولقيامه بعمل الفهرس المطول الخاص بالكتاب — ويسرنى كذلك أن أشيد بالمجهود العظيم الذى بذله السيد جوزيف ا. براندت (مطبعة جامعة اوكلاهوما) بالاشراف الدقيق على الطباعة والإخراج . كذلك ساعدنى مشكوراً السيد أنتونى تبوى فى قراءة « تجارب الطبع » .

والحق إننى فى هذه الطبعة لم أفرض على أحد مساعدتى . وإنما أفدت من النقد والتعليقات التى ظلت تصلنى منذ سنة ١٩٣٨ وأود بصفة خاصة أن أعبر عن امتنانى وشكرى للسيد روبرت هتشنسون ورفاقه فى مؤسسة ردفر للطباعة ؛ لما قدموه من مساعدة فنية قيمة ، ولما أبدوه من جد واهتمام طوال عملهم معى فى إخراج هذا الكتاب .

هارى إلمر بارنز

الفصل الأول

أصول الكتابة التاريخية
(طبيعة التاريخ)

ارتبط اصطلاح التاريخ فى استعماله العام بمعنيين مختلفين : فهو يستعمل عادةً للتعبير عن حصيلة النشاط الإنسانى فى الأزمنة السابقة . ويأتى استخدامه بهذا المعنى مقروناً عادةً بالعبارة التى كثيراً ما تترامى إلى أسماعنا ، وهى عبارة «والآن يصنع التاريخ» . وهذا ما يحدث عادةً عند الكلام عن فترة نشطة ، أو عصر حافل بالأحداث الهامة من عصور النشاط البشرى . أما الاستعمال الأكثر شيوعاً فهو ذلك الذى يعتبر التاريخ سجلاً للأحداث لا مجرد سردٍ للأحداث ذاتها . وهذا المعنى الأخير الأكثر تقبلاً وشيوعاً يمدنا بتعريفين للتاريخ : الأول موضوعى ، وهو على حد قول الأستاذ جيمس هارفى روبنسون : «كل مانعرفه عن كل شئ فعله الإنسان أو فكر فيه أو أحس به أو تمناه» أما التعريف الثانى — وهو إلى حد كبير تعبير موضوعى أو نفسانى ، فهو أن التاريخ سجلٌ لكل ماحدث داخل نطاق الإدراك البشرى .

وعندما ننظر إلى التاريخ على أنه سجل لأحداث الماضى ، نجد أن البعض — وبخاصة فى العصور المبكرة — اعتبروه فناً — وفرعاً من فروع الأدب . ونلمس فى الوقت الحاضر زيادةً كبيرة مضطردة فى عدد الهيئات العلمية التى تعتبر التاريخ فى أساسه علماً اجتماعياً ، يعنى بقدر الإمكان باعادة بناء الفكر البشرى والنشاط الإنسانى فى العصور السابقة .

وقبيل الاكتشافات الهامة التى توصل إليها الباحثون فى علم آثار ما قبل التاريخ وهى تلك الاكتشافات التى كان لها فضل كبير فى تنمية معلوماتنا عن النشاط الإنسانى فى الأزمنة الغابرة — كان هناك اتجاه تقليدى يقصر لفظه «تاريخ» على سجل أحداث الماضى التى تم وصفها أو تسجيلها على الآثار . أما الآن فقد أوضح لنا علم الآثار كثيراً مما خفى من مراحل

معينة فى حياة الانسان الأول ، مما جعلها أكثر وضوحاً من المراحل الأحدث منها . والتى استقينا معلوماتنا عنها من الأدلة المدونة . وعلى هذا لم يعد سليما أو منطقياً أن نستخدم اصطلاح «ماقبل التاريخ» ، إلا إذا كنا نعنى تلك الفترة الغامضة التى يفترض وجودها فى البداية المبكرة جداً للتطور البشرى والتى لا توجد لها كتابات مدونةً أو نقوش أو اللهم إذا قصرنا مفهوم التاريخ على أنه فرعٌ من فروع الأدب . ولذا حل اصطلاح «ماقبل الكتابة» محل اصطلاح «ماقبل التاريخ» . ونعنى بهذا المصطلح ، تلك الفترة من التطور البشرى التى نستمد معلوماتنا عنها من القرائن الأثرية ، لا من كتابات مدونة .

وخلاصة القول : فإن هناك اتفاقاً على أن اصطلاح «ماقبل التاريخ» يحوى كثيراً من التناقض والبعد عن الحقيقة ، إذا ما استخدم فى وصف أيه فترة وجد لها سجلٌ غنى ، سواء اتخذ هذا السجل شكل كتابة أو أحجار أوعظام ، أو أدوات معينة ، مما كانت تستخدم فى الحياة اليومية . وقد نبذ الكتاب المحدثون اصطلاح «ماقبل التاريخ» كما نبذوا من قبل اصطلاح «ما قبل آدم» . وجاء ذلك نتيجةً حتميةً لنمو معلوماتنا عن النشاط البشرى ، من ناحيتى الزمان والمكان .

وليس من الصواب أن نناقش فى هذه المرحلة من الكتاب وبالتفصيل مختلف الآراء التى توضح ماهية التاريخ ، وما إذا كان يعنى أساساً برواية الأحداث — فإن مهمة هذا الكتاب هى إلى حد كبير توضيح التفسيرات المختلفة للتاريخ ، وتبيان تلك المشكلة التى طالما أثارت جدلاً ونقاشا ، وأقصد معنى التاريخ أو الآراء التى دارت حول معناه ، وماطرأ عليها من تغيرٍ وتطورا .

تطور تاريخ ماقبل الكتابة

يتحتم علينا بعد ماتبينا أن التاريخ بمعناه المعاصر يرجع بعيداً إلى ماقبل تسجيل الوجود البشرى أو النشاط الإنسانى ، أن نبحث عن أصل التاريخ بين تلك المصنوعات المبكرة التى تميزت من ناحية الشكل ، كما اتصفت بمتانة التركيب المادى ، بحيث أمكنها البقاء على مر العصور المتعاقبة ، لتكون دليلاً على منجزات الإنسان فى ذلك الدور العريق فى القدم والذى سبق إتقان فن الكتابة . وعلى هذا يمكن القول : إن الأصل الحقيقى للتاريخ إنما يرجع إلى تلك الفترة الغابرة الغامضة ، التى تعرف بالعصر الايولوثى أو ما قبل العصر الحجرى القديم ، وهو العصر الذى استخدم فيه أحجاراً لا شكل لها ، بمعنى أن أول وثيقةٍ تاريخية يمكن أن تعتبر

بحق أول آلة حجرية . أما إذا كان هناك من يرفض وجود الفترة الايلوثية — أى ماقبل العصر الحجرى القديم . فإن أول سجل مؤكد فى التاريخ يكون العصر الحجرى القديم ، الذى استخدم فيه الحجر المشظّى .

ولا يسمح المجال هنا إلا ببيانٍ مختصرٍ جداً عن القصة الشيقة للتطور المبكر للجنس البشرى — كما تكشف عن الأدوات التى ظلت باقية . فهناك دلائل مثيرة على نشاط الإنسان واهتماماته فى هذه الفترة الغابرة ، التى ترجع إلى أكثر من ربع مليون سنة — والتى توضحها الأدوات والعظام التى وجدت فى حصباء المدرجات النهرية القديمة ، فضلاً عن الكهوف والمغارات وما تم على عظام الحيوانات من نقوش محفورة ، فضلاً عن الرسومات البدائية التى وجدت فى أماكن تلك الكهوف . ومن بينها ماوجد فى التاميرا بأسبانيا ، فونت دى جوم بفرنسا ، فضلاً عن المنتجات الرائعة من العصرين البرونزى والحديدى — مما يثير بكل تأكيد اهتمام القارئ . وللإلمام بهذا الموضوع إلماماً وافياً ، على القارئ أن يرجع إلى كتاب س . د . نايت «ماقبل فجر التاريخ»[1] . وكتاب جورج جرانت ماكردى Mac Curdy «ظهور الإنسان»[2] . وكتاب ستانلى كاسون «التقدم فى دراسة الآثار»[3] . وكل مايمكننا أن نفعله فى هذا المجال ، هو أن نقدم عرضاً سريعاً مختصراً لأهم الحقائق وأبرزها فى هذا الموضوع .

لقد تم التوصل خلال القرن التاسع عشر إلى اكتشافين ثوريين ، على قدرٍ كبيرٍ جداً من الأهمية فيما يتعلق بأصل الجنس البشرى . أما الاكتشاف الأول فقد قضى على الفكرة القائلة : إن كل الكائنات الحية على هذه الأرض ، وأهمها بطبيعة الحال الإنسان قد خلقها الله فى أسبوع واحد فى وقت سبق ظهور المسيح بأربعة آلاف سنة أو أكثر قليلا كما ذكر فى الكتب الإسرائيلية والمسيحية وعلى النقيض من ذلك ، أثبت هذا الاكتشاف أن بعض المخلوقات التى لها خصائص إنسان اليوم ، وبعض عاداته ، وشئ من ذكائه وتكوينه الجسمانى ، تركت آثار أقدامها على صفحة التاريخ منذ حوالى خمسة ملايين سنة . أما الاكتشاف الثانى ، فيؤكد حداثة عمر البشرية بالقياس الى عمر الأرض ذاتها .

وبناء على هذه الاكتشافات ، أخذت تلك القصة التقليدية عن بداية الخليقة تنهار تماماً أمام المفهوم الجديد الذى شق طريقه إلى عقولنا ، بعد التعرف على تلك الحقبة الطويلة

(1) Mc-Graw - Hill Book co. 1935.

(2) University Society 1932.

(3) Mc Graw - Hill 1935

التى أنقضت منذ أن أنفصل كوكبنا عن الكوكب الأم — وهو الشمس — فى صورة كتلة غازية هائلة . أخذت تتجمع ذراتها لتكون الأرض التى نعيش عليها . ومهما يكن الاختلاف حول تقدير عمر الأرض ، فإنه لا جدال فى أن حقبة طويلة من الزمن لا يمكن أن يدركها الإنسان ، قد أنقضت منذ أن بدأ الغاز يتحول إلى مادة أصلية ، أو منذ أن بدأت الذرات الكوكبية تتحد معاً لتكون كوكبنا — ومع ذلك ، فإنه طبقا لتقدير الفلكيين فى قياس الزمن ، فإن مولد الأرض كان حدثاً جديداً نسبيا فى تاريخ الكون . وفى هذا يقول الاستاذ شابلى : فى الأزمنة الغابرة جداً منذ ملايين كثيرة من السنين ، وقبل ظهور سيد جميع المخلوقات — أى الإنسان — بعثت النجوم طاقتها المشعة ، ودارت الأجرام السماوية دورتها ، وخضع الكون لحكم القانون » .

والواقع أننا مدينون بالكثير لعلم الجيولوجيا فيما يختص بتقدير عمر الأرض . ذلك أن الجيولوجين كانوا أول من حطم الأفكار السائدة فى هذا الشأن . فبعد أن كانت النظرية المقبولة حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر تقول : إن سلسلةً من الازمات القاسية قد حلت بالكون الذى هو من صنع الله ، لتفسر بذلك التكوين الطبيعى لسطح الأرض — إذا بالجيولوجى الانجليزى السير شارلز لايل يثبت لأول مرة أن القشرة الأرضية لم تتكون نتيجة لما حل بالكون من كوارث جارفة ، وإنما تكون سطح الارض نتيجة لأسباب وعوامل طبيعية كلها مفهومة الآن ، ولا يزال معظمها يؤثر فى الأرض . ففى كتابه المشهور « مبادئ الجيولوجيا الذى صدر فى الفترة ما بين سنتى ١٨٣٠ ، ١٨٣٣ ، أوضح لايل التفاعلات الطبيعية التى انتهت — بعد عصور جيولوجيه عديدة — إلى تكوين مختلف الطبقات الجيولوجيه والجبال والوديان وما إلى ذلك . ومنذ ذلك التاريخ وكل مؤلفات الجيولوجين المتعاقبين تؤكد وجهة نظر لايل . الذى أصدر بعد ذلك بثلاثين سنة (١٨٦٣) كتاباً آخر عنوانه « قدم الانسان » لخص فيه الدلائل المقنعة التى تؤكد صحة نظريته القائلة : إن الانسان عاش على الأرض منذ زمن أقدم بكثير عما كان يعتقد الناس عندئذ .

والواقع أن تطور الحياة العضوية على كوكب الارض ينقسم من الناحية الجيولوجية إلى أربعة أقسام رئيسية هى :

١ — المرحلة الاولية (الباليوزية)

٢ — المرحلة الثانوية (الميسوزية)

٣ — مرحلة الثدييات (الترتارية)

٤ — مرحلة عصر الإنسان (الكوترينية)

وتستخدم أحيانا عبارة المرحلة السينوزية للتعبير عن المرحلتين الثالثة والرابعة معا . ومن الواضح أن حقبة طويلة جدا من الزمن قد مرت بين المرحلتين الأولية والثانوية . وربما بلغت هذه الحقبة ثلاثمائة مليون سنة . ولابد أن نذكر هنا أن تقديرات الزمن الجيولوجي تختلف من مصدر إلى آخر اختلافا كبيرا — ولذلك فان علينا أن نقنع بما هو تقريبي . ومن المعتقد أن مرحلة الثدييات قد استمرت فترة تتراوح بين خمسة ملايين وثلاثين مليون سنة . ويسود الاعتقاد فى الوقت الحاضر بأن طول المرحلة الرابعة يزيد على المليون سنة . أما المرحلتان الأخيرتان فتنقسمان إلى أقسام فرعية ، فرحلة الثدييات تنقسم الى أربعة فترات : عصر الأيوسين ، وعصر الاوليجوسين ، عصر الميوسين ، عصر البليوسين . كذلك تنقسم مرحلة الإنسان (المرحلة الكوترنية) إلى عصرين : عصر البلستوسين والعصر الحديث . والواقع أن الترتيب الزمنى لهذه المرحلة الأخيرة أمر فى غاية الأهمية بالنسبة لتقدير عمر الإنسان وهو يقوم على العصور الجليدية الأربع ، وعلى العصور الثلاثة المتداخلة التى تخللتها الواحد بعد الآخر . وتعاقبت حتى نهاية عصر البليستوسين . وقد نكون اليوم فى المرحلة الرابعة من هذه المراحل المتداخلة .

وظلت أصول الثقافة البشرية حتى عهد قريب مجهولة تماما . شأنها فى ذلك شأن أصل الجنس البشرى ذاته . فطالما اعتبر آدم أول انسان عاش على الأرض ، لم يكن هناك مجال لفكرة ماعن أى وجود للإنسان قبله ، وبالتالى لم يكن هناك مبرر لوجود علم آثار «ماقبل التاريخ» حيث إن أصل الكتابة يرجع إلى عهد يكاد يعاصر الإنسان الاول كما يتحدث عنه الإنجيل . ولكن اكتشاف بقايا هيكلية فى الطبقات الجيولوجية القديمة أثبتت وجود أنواع أولى للإنسان فى ذلك الزمن السحيق . كما أن اكتشاف المصنوعات والمنتجات المختلفة التى هى من عمل الإنسان فى بعض الطبقات المماثلة الأخرى ، سرعان ما أوضح أن تاريخ الإنسان وثقافته لابد وأنهما يمتدان إلى عهود بعيدة جدا . ولدينا معلومات كافية إن لم تكن كاملة تمكننا من تتبع تاريخ الثقافة البشرية منذ أصولها البعيدة للغاية ، وخلال مراحل تطورها المتعددة إلى يومنا هذا .

ولا يزيد عمر العلم الذى أوصلنا إلى هذه المعلومات القيمة — وهو علم آثار ماقبل التاريخ عن مائة سنة بكثير . ولما كان عصر ماقبل الكتابة لم يعرف التقويم ، فإن علم الآثار عليه تصنيف وتاريخ القرائن التى يعالجها ، أى البقايا الحجرية والعظمية والمعدنية التى يكتشفها . وذلك بوضعها فى ترتيب زمنى طبقاً لما يتبينه فيها من تطور وتقدم فى الثقافة البشرية . ويعاونه فى ذلك الجيولوجى الذى يقوم بوضع تواريخ تقريبية لكل من هذه البقايا عن طريق تقدير عمر الطبقة التى وجدت بها البقايا العظمية ، أو الأدوات والمصنوعات البشرية . فضلاً عن

عمر العظام الحيوانية التي وجدت بالطبقة نفسها . وتمكننا طريقة «كربون ١٤» من التعرف على طبقات عمرها خمسون ألف سنة ، في حين تمكننا طريقة اوغون البوتاسيوم من التعرف على طبقات عمرها أكثر من مليونين من السنين .

وقد أدى العثور على بعض الأدوات الحجرية التي نعتقد اليوم أنه من صنع الإنسان البدائي ببعض الكتاب خلال العصر الوثني القديم إلى التأمل مغزاها ومعناها ، فيبدو أن الشاعر الروماني الفيلسوف لوكريتيوس ؛ وهو من كتاب القرن الأول قبل الميلاد — استطاع التوصل إلى تعاقب العصور الحجرية البرونزية والحديدية . بيد أن ثمة أعتقاداً ساد في تلك العصور بأن الأدوات الحجرية ليست إلا أحجاراً رعدية ألقت بها الآلهة . وظل هذا الاعتقاد سائدا طوال قرون عديدة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل اعتقد البعض بأن الأدوات تملك قدرات وخصائص سحرية خارقة . لذا فإنه عندما أتى مايكل مركت التوسكاني في القرن السادس عشر ، بنظريته تنادى بأن الأحجار الرعدية أو الصواعق ، ربما كانت من صنع الإنسان الأول ، فإنه يردد نظرية تسبق عصره واستطاع رجلٌ مجهولٌ اسمه توليوس — في القرن التالي — أن يخرج بنظرية ترضى المتدينين من معاصرية ، ونودها أن تلك الأحجار ليست إلا نيازك تولدت في السماء ، بفعل أبخرة ذات وميض تكونت على شكل سحاب من تراكم بعض المواد فيما وراء الأفق .

ولم يكن ذلك قبل القرن التاسع عشر ، عندما تأكدت تماماً فكرة أن هذه الأدوات إنما هي من فعل البشر . ويرجع الفضل في ذلك إلى أمين متحف دانمركي الجنسية هو س . ثومسن Thomsen ثم إلى درجة أكبر إلى المجتهد الجرئ جاك بوشيه دي برث ، وهو عالم آثار فرنسي . أما ثومسن فقد أحيا الأراء غير الواضحة التي أتى بها لوكريتيوس وأقامها على أسس علمية . وقد قسم ثومسن معروضات تحفة طبقاً لتتابع العصور : الحجرية ، فالبرونزية ، ثم الحديدية ، مستعيناً في ذلك بعلم الجيولوجيا . ولكنه — على الرغم من ذلك — لم يضف إلى معلوماتنا سوى القليل عن أهمية تلك المعروضات التي صنعها على ذلك النحو ، أو عن قدم عهدها .

أما بوشيه دي برث فقد أخذ على عاتقه إيضاح حقيقه هامة ؛ وهي أن الإنسان المبكر قد استخدم فعلاً تلك الأدوات الحجرية في حياته اليومية منذ آلاف عديدة من السنين . وقد بدأ بوشيه حوالي سنة ١٨٣٠ جهداً منظماً للكشف عن البقايا الأثرية لوادي السوم ، حيث عثر في رمال الأنهار القديمة على كميات هائلة من الأدوات الحجرية والأسلحة . ثم أوضح بوشيه سنة ١٨٤٦ في مؤلفة القيم بعنوان «الصناعة البدائية» ؛ أنه ليس هناك شك في أن الأدوات الحجرية التي تم العثور عليها لابد وأن تكون قد صنعت بيد الإنسان . وكان أن قوبلت آراؤه في

البداية بمعارضته شديدة ، وسخرية حادة ، ولكنه أصر عليها ودافع عنها حتى اقتنع بها علماء كثيرون من أئمة ورواد الباحثين فى التاريخ الأول للإنسان على الأرض ، وهؤلاء لم يكتفوا بمجرد تقبلها بل هبوا بدورهم يدافعون عنها . ومن أمثلة هؤلاء : السير جون ايفانس .

وبعد أن ثبت بالدليل العلمى الأصل البشرى لهذه الأدوات الحجرية ، بدأ تصنيف تومسن السالف الذكر اكثر وضوحاً وأكبر معنى ، وأصبح من الممكن تصنيف أدوات الإنسان الأول طبقاً لترتيبها الزمنى ، ووفق تطورها الفنى . وتم منذ منتصف القرن التاسع عشر ، تقدم هائلُ وسريعُ فى علم دراسة الآثار ، إذ ظهرت تقسيمات أكثر دقةً وتخصصا ، فى نفس الوقت الذى تم فيه اكتشاف كثيرٍ من البقايا الحجرية والعظمية والمعدنية .

وفى العقد السابع من القرن التاسع عشر ، قسم السيرجون لابوك العصر الحجرى إلى عصرين متميزين هما : العصر الحجرى القديم ، والعصر الحجرى الحديث . فأطلق اسم العصر الحجرى القديم على العصر الذى اتصفت فيه الأدوات الحجرية بعدم الدقة فى الصناعة ، فى حين أطلق على العصر التالى الذى صقلت فيه هذه الأدوات وتهذبت ، اسم العصر الحجرى الحديث . وكان أن أفادت كتابات السير جون لابوك علم الآثار فائدةً عظيمة . ونخص منها بالذكر كتابه «عصور ماقبل التاريخ» الذى صدر سنة ١٨٦٥ . وكان أحد العلماء الفرنسيين ويدعى ادوارد لارتيت ، قد اكتشف فى سنة ١٨٦١ حقائق عديدة ، ساعدته على تقسيم العصر الحجرى القديم إلى قسمين : علوى وسفلى . وهكذا استمرت بعد ذلك عملية تقسيم هذه العصور الكبيرة إلى فترات أصغر — تسير سيراً حثيثاً لتسهيل دراسة التقدم الحضارى البشرى ووصفه .

ثم وضع جابريل دى مورتيليه فى كتابه «بحث فى تقسيم العصور التاريخية» (سنة ١٨٦٩) ، أسس الترتيب الزمنى لعصر «ماقبل التاريخ» . وأتى هذا الكتاب بالتقسيم المفصل الحالى للعصر الحجرى القديم إلى فترات متعاقبة هى : المسفينيه Mesvinian التشيليه Chellean ، الآكليليه Acheulian ، الموستيرية Mausterian ، الأرجناسية Aurgignacian ، السولتيرانية Sulutrean ، الجداليينه Magdalenian ، الآزيليه Azilian ، التاردينيه Tardenonsion وهذه كلها فى الحقيقة تقسيمات فرعية منبثقة عن الأقسام الكبرى وهى : العصر الحجرى القديم الأسفل ، والأوسط ، والأعلى . وفى بعض الأحيان لا تعتبر المرحلتان الفرعيتان الأزيليه والتاردينية ضمن العصر الحجرى القديم ، بل تعتبران مرحلة انتقال بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث . وقد أطلق عليها حديثا اسم المرحلة الميزوليثية (Mesolithic) ولقد واصل دراسة العصر الحجرى القديم عدد من العلماء أمثال : هنرى برويل ، كما تابع دراسة

العصر الحجرى الحديث كثيرون أمثال ؛ ر.ر.شمتيلت ، اوجت اسكنك ، اسكار نوتيليوس . أما فى قرننا هذا ؛ فقد أثبت العالم البلجيكى ايميه روتو ، والعالم الانجليزى ج.ريدموار Ridmoir وجود عصر سابق للعصر الحجرى القديم ، أطلق عليه اسم العصر الايولوفى . ومن ناحية أخرى تم فى نفس القرن ربط العصور المعدنية بالعصور الحجرية ، كما تم وضع ترتيب زمنى لهذه العصور المعدنية .

وبعد أن تم اكتشاف الأدوات البدائية وتصنيفها ؛ أمكن التوصل إلى ترتيب زمنى لعصر ماقبل الكتابة . وبذلك صارت الخطوة التالية هى تطوير دراسة التركيب الاكيولوجى للمناطق الأوربية المختلفة . وكان أن أورد روتو وصفاً رائعاً لوحدة ثقافات بلجيكا ووادى السوم فى عصر ماقبل الكتابة . وفى نفس الوقت قام كل من جوزيف ديكيلته Joseph Dechelette هنرى برويل ، اميل كارتيلهاك Cartailhac باعداد كل مايتعلق بالآثار القديمة جداً فى فرنسا ؛ من صخور وحفريات وما إلى ذلك . وكذلك فعل كارتيلهاك وهوجو اوبرناير Hugo Obermaier بالنسبة لأسبانيا ، فى حين تحمل هذا العبء فى ايطاليا ت.ا.بيت T.E. Peet أما فى المانيا فقد تمت هذه الدراسات على يد ر.ر.شميدت ، واوبرماير كما عكف مونتليوس على دراسة المواد الاسكندنافية وفحصها فحصا عميقا ، على حين اهتم علماء آخرون بالبلدان الأوربية الأخرى . والواقع ؛ إن أول تحليل كامل ودراسة حديثة لفترة ماقبل الكتابة بأكملها ؛ كان من عمل العالم الامريكى جورج جرانت ماكردى[1] .

وقد يبدو للمبتدئ فى دراسة الآثار القديمة أن أسماء كتلك التى أطلقت على فترات العصر الحجرى القديم إنما يصعب فهمها لطولها وثقلها . ولكنها إذا ماشرحت شرحاً وافياً دقيق ؛ فإنها تصبح غاية فى البساطة والوضوح . فهذه الأسماء تمثل التسلسل الزمنى للتطور الحضارى وتوضح فى نفس الوقت — إلى حد كبير — التطور الفنى الذى طرأ على المصنوعات الأولى كالأدوات والأسلحة من حيث ؛ العدد والتصميم ، والشكل ، فضلاً عن حافتها القاطعة . ويعتبر تقسيم العصور إلى فترات فرعية وإطلاق أسماء على تلك الفترات الوسيلة الوحيدة للترتيب الزمنى لعصور ماقبل الكتابة . وعلى عكس ماقد يبدو فإن الأسماء الغريبة التى أطلقت على الفترات الحضارية المختلفة لم تطلق جزافاً ، لأن لهذه الأسماء أصولُ مفهومةٌ ومعرفة ، وسميت كل من هذه الفترات بما يعرف (Type site) ، والمقصود بهذه الكلمة المكان الذى اكتشفت فيه لأول مرة أكثر البقايا دلالةً على نوع معين من ثقافة العصر الحجرى ، أو أنماط كاملة منها ، فمثلا ؛ الآثار النموذجية للفترة الموستيرية هو كهوف الموستير بفرنسا .

(1) Human Origins (O. Applaton and Co. 1974 vols).

وعلى الرغم من أن هذا العصر الطويل من عمر الإنسان ، وهو العصر الذى دام حوالى خمسة ملايين من السنين ؛ لم يعرف الكتابة ، ولم يكن له بالتالى أية كتابات تاريخية ؛ إلا أن الاكتشافات البعيدة للبقايا الحجرية والعظمية والمعدنية ؛ تمثل البداية الحقيقية للسجل التاريخى للطريق الشاق الذى سلكه الإنسان من الهمجية إلى الحضارة . والحق ؛ إن هذه البقايا تزودنا بمعلومات عن حياة الجنس البشرى ؛ تفوق بكثير ما زودتنا به الكتابات التاريخية اللاحقة التى طالما أغفلت كثيراً من النواحى الحيوية لمعيشة الإنسان . ولذا فإن هذه البقايا ستظل على قدر كبير جداً من الأهمية ، خاصة إذا ما علمنا أن أكثر من تسعين فى المائة من الوجود البشرى على كوكبنا قد انقضى قبل إتقان فن الكتابة . ولعل هذا هو السبب الذى جعلنا نستغنى عن اصطلاح «ماقبل التاريخ» وأن نستعيض عنه بمفهوم «ماقبل الكتابة» .

وإلى جانب ماقام به علماء الآثار من جهود فى تنظيم العناصر الحضارية لعصر ماقبل الكتابة ؛ فقد عكف علماء الاجتماع على دراسة نظم المعيشة عند ذلك المجتمع الأول . وليس لدينا بطبيعة الحال سوى النزر اليسير من بقايا المجتمع ، وبعض معلومات ضئيلة عن حياة الجماعات فى عصر ماقبل الكتابة ومن بين مالدينا فى هذا الشأن آثار تدل على وجود شعائر دينية ، كما أن هناك بعض الأدوات الحجرية التى لابد وأن تكون قد وضعت بجهد تعاونى . والحق إنه يتعين علينا أن نبنى معلوماتنا عن حياة الإنسان الجماعية فى هذا العصر على الاستنتاج والمقارنة ، وذلك عن طريق دراسة حياة المجتمعات البدائية التى لاتزال قائمة فى عالم اليوم ، والتى تشبه إلى حد كبير فى ثقافتها مجتمعات ماقبل الكتابة . ولعل أهم مؤلف صدر فى هذا الشأن هو كتاب «المجتمع القديم» لمؤلفه لويس هنرى مورجان Morgan ، وإن كان يؤخذ على هذا الكتاب أنه برغم ما أضافه من معلومات قيمة ؛ فإنه بسط الأمور بشكل مبالغ فيه . ثم جاء كتاب أحد تلامذته وهى ليسلى Leslie ا هويت بعنوان «تطور الثقافة» مصححاً لكتاب مورجان ، وأكثر تمشياً مع الحقائق الهامة عن المجتمعات البدائية . وهذا الكتاب وكذا كتاب روبرت هـ. لوى Lewie يمكن مقارنتها بوجه عام بكتاب ماكردى «الأصول البشرية» الذى يتحدث فيه عن البقايا القديمة من عصر ماقبل الكتابة .

اتقان فن الكتابة

على الرغم من أن البقايا الخالية من الكتابة للإنسان القديم تعد أقيم وأعظم مصدر نسخة منه معرفتنا عن حياة ذلك الإنسان ونشاطه ، فإنه لم يمكن التوصل إلى

سجل شامل لاحداث الماضى البعيد ؛ إلا فى العصر الذى بدأ يفكر فيه الإنسان فى أن يضفى على أفكاره وأفعاله تعبيراً خالدا — أى فى العصر الذى أتقن فيه الكتابة .

والحقيقة أن أصل هذا الفن لايزال يشوبه بعض الغموض . ولكن هناك اتفاقاً على أن العصر الأول للكتابة ؛ هو عصر الكتابة بالصور التى ظهرت أول ماظهرت على أدوات الاستعمال اليومى وعلى جدران كهوف المراحل المتوسطة والمتأخرة من العصر الحجرى القديم . وقبل أن تصبح هذه الصور كتابة حقيقية ؛ كان عليها أن تمر بمراحل ثلاث : ففى المرحلة الأولى كان من الضرورى التوصل إلى اتفاق عام فى استخدام الصور ، بحيث تدل كل صورة على شئ معين لا يتغير شكلها أما المرحلة الثانية فكانت إيجاد تعبير عن المفاهيم المعنوية ، إلى جانب ما وجد فعلاً من رسوم تدل على الأشياء المادية والمحسوسة واخيراً ؛ كان ضروريا الربط بين هذه الصور والرموز من ناحية ، وبين صوت الإنسان من ناحية أخرى وقد مرت هذه المرحلة الأخيرة نفسها بعدة خطوات على طريق التطور ، ففى البداية كان هناك نوع من اللغة البدائية التركيبية . ثم كان هناك أبسط أنواع كتابة الأصوات ، حيث كان كل رمز يدل على كلمة بأكملها . وهناك بعض اللغات مثل اللغة الصينية لم تتعد المرحلة البدائية التى تعرف «بمرحلة الكلمات ذات المقطع الواحد» . وبالتدريج بدأت الرموز تعبر عن وقائع وليس عن كلمات بأكملها . وأمكن بعد ذلك بكثير من الوقت أو بقليل ؛ تحليل أصوات الإنسان ، ومن ثم تمثيلها برموز أو حروف معينة . وهكذا خرجت الأبجدية إلى الوجود .

وحوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م أضاف المصريون عملا جديداً لفن الكتابة باستخدام أربعة وعشرين علامة هيروغلفية تمثل الأصوات الساكنة . ومع ذلك فان المصرين القدماء لم يعتبروا هذا العدد من العلامات كافيا للوفاء باحتياجات التعبير ، واستخدموا عددا أكبر من الرموز للدلالة على كلمات ومقاطع أخرى . وبالتالى لم يدركوا الجانب الاساسى اللازم لأبجدية ممثلة للصوت . والواقع ان أول أبجدية صوتيه اكتشفت حديثاً على حفريات وجدت فى شبه جزيرة سيناء ، وفى جنوب فلسطين ، ويبدو أن مؤلف هذه الأبجدية قد حرر نفسه من قيود الأبجدية المصرية التى لم تتسم بالكمال . ولعله كان فنيقياً من «جبيل» أو من أية جنسية سامية أخرى ، كما يحتمل أن يكون قد عاش فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد . كذلك تم حديثا اكتشاف آثار كتابية فى منطقة رأس الشمرة ؛قرب اللاذقية فى أوجاريت القديمة Ugaret وبعض هذه الكتابات مدون بأبجدية حروفها تشبه المسامير ، وبلهجة سامية شمالية غربية .

وليس مؤكدا حتى الآن أن صاحب هذه الكتابات كان يحاول استبدال الأبجدية المسمارية بالأبجدية السامية المعروفة فى ذلك العصر، أو أنه قد ابتكر هذه الأبجدية دون التأثير بما عداها. ولكن من الواضح أننا لابد وأن نعدل الرأى القائل: إن الفنيقيين هم أول من ابتدع الأبجدية الصوتية. وأول ما اكتشف من كتابات بالأبجدية الفنيقية الكاملة هى تلك التى تنسب إلى آهيرام Ahiram ؛ أحد معاصرى رمسيس الثانى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد احتوت هذه الأبجدية على اثنين وعشرين حرفاً كلها من النوع الساكن. ثم جاء دور الاغريق فى إكمال الأبجدية حيث جعلوا بعض الحروف الساكنة تمثل الاصوات المتحركة، وانتشرت هذه الأبجدية بعد إدخال بعض التعديلات عليها فى العالم الغربى على ايدى الرومان، وكذا بين شعوب أوربا الشرقية على ايدى البيزنطيين. وقد أعطانا الرومان الشكل النهائى للحروف، وهو الذى اخذت به معظم الدول فى العالم الغربى الحديث. ففى العصر الرومانى، بدأ التمييز بين الحروف الكبيرة والصغيرة، وإن كان الأدب الرفيع ظل يكتب بالحروف الكبيرة، خلال العصرين اليونانى والرومانى، فى حين اقتصر استخدام الحروف الصغيرة على الكتابات التجارية والمراسلات الخاصة. وفى عهد شارلمان فى العصور الوسطى، بدأ الناسخون من الرهبان فى بلاطه يستخدمون الحروف الصغيرة مع الحروف الكبيرة، حتى فى تدوين الآداب المرموقة، وهو الأمر الذى أصبح عادياً ومقبولاً منذ ذلك الوقت.

وصاحب اتقان فن الكتابة تقدم عظيم فى صنع المواد اللازمة لها، إذ كان من الواضح أن الأعمدة الحجرية، والحوائط، وقوالب الصلصال، والألواح التى اشتهر بها البابليون، لم تكن إلا وسائل محدودة للغاية، على الرغم من أن أحداً لاينكر فضلها فى صيانة ما كتب عليها، والاحتفاظ به إلى الأبد. وقد حل المصريون القدماء المشكلة باستخدام أوراق البردى كنوع من الورق. وبعد ذلك استخدمت جلود الحيوانات لنفس الغرض فى المناطق التى لم يتوافر فيها البردى. ثم كان أن ظهر الورق المصنوع من الحرير ولب الأشجار، وكان ظهوره أول مرة فى الصين قربا بداية العصر المسيحى. كذلك ابتكر العرب نوعاً من الورق المصنوع من نسيج القطن حوالى سنة ٧٥٠ م، وانتقل هذا الورق إلى اسبانيا مع استبدال القطن بالكتان. أما الورق الحديث المصنوع من التيل فقد شاع استخدامه حوالى ١٢٥٠ ميلادية. وفى القرن الرابع عشر، أصبح الورق المصنوع من الخرق شائع الاستخدام فى أوربا الغربية.

كذلك صنع أول حبر عرف فى التاريخ ؛ بخلط الماء بالصمغ النباتى والسناج الأسود الذى كان يحصل عليه من جدران الأوانى المسودة. وبعد ذلك صنع الحبر من مخاليط من الأصباغ النباتية والحيوانية. وفى عصرنا هذا يصنع من مختلف المواد الكيماوية الملونة. أما أول قلم ؛ فقد صنع من البوص الذى كان يبرى ويسن باليد، وبعد ذلك استخدم ريش الإوز

وغيره من الطيور ، وظل يستخدم إلى أن اخترع القلم المعدني فى القرن الرابع عشر .

وبعد أن وجدت الأبجدية وتيسرت مواد الكتابة ، أصبح من الممكن أن تبدأ الكتابة التاريخية رحلتها الطويلة عبر الزمن ؛ من هيرودوت ثيكوديدس الى فون رانكه، اولارد Aulerd ، جاردنر Gardiner ، اوسجود Osgood ، هاسكنز Haskins . ولقد أوضح الاستاذ جيمس هـ . برستيد أهمية فن الكتابة عامة فى تطور الحضارة ، وأهمية الكتابة التاريخية خاصة إذ يقول : إن اختراع الكتابة ، وكذلك اختراع نظام ملائم للتسجيل على الورق ، لمن الأمور التى كان لها أكبر الأثر فى الرقى بالجنس البشرى ، وربما كان لهذين الاختراعين أثر على الانسان يفوق أثر أى منجزات فكرية أخرى خلال تاريخه الطويل ، فهما أكثر أهمية من كل المعارك التى حاربها الانسان ، وكل النظم التى أقامها ، والمنشآت التى شيدها .(1)

ومع ذلك ، بقى أمام الإنسان أثر هامٌ آخر قبل أن يتمكن من تسجيل تاريخه ، وهذا الأمر هو إيجاد طريقةٍ لقياس الزمن ، ووضع نظام علمى لترتيب العصور .

اكتشاف الزمن ونشأة الترتيب الزمنى للعصور

على الرغم من أن وجود طريقة لقياس الزمن ؛ كان لازمة أساسية لعملية تسجيل أفكار الإنسان وأعماله وترتيبها ، فإن التقويم لم يبتدع أصلاً منها لهذا الغرض . ولقد أوضح كل من الاستاذ جيمس ت . شوتويل James T. Shotwell ، والاستاذ هوتن ويبستر Hutton Webester فى شيئ من التفصيل ؛ أن التقاويم الأولى صنعت لتحديد وتسجيل اعمال الالهة وليس أعمال البشر . ثم ازدادت الحاجة إلى قياس الوقت وابتداع طرقٍ لذلك ؛ نتيجة لرغبة الإنسان فى تحديد تواريخ الأيام المحرمة والمقدسة ، وكذلك رغبته فى تسجيل وتحديد مايحدث من ظواهر طبيعية غير عادية ؛ كان يعتقد فى العصور المبكرة أن لها مغزىً دينياً ، وبمعنىً آخر فإن مفهوم الزمن نما عند الانسان نتيجة لشعورة بما يتكرر حدوثه فى الطبيعة ، وإحساسه بضرورة التفرقة بين الأيام بعضها وبعض ؛ على أساس نضائلها أو خصائصها الدينية المعنية . وكان أن شبه التقدم فى طريقة قياس الزمن بالانتقال التدريجى من «الخط إلى الرياضيات» . والثابت أنه سبقت عملية الترتيب الزمنى للأحداث الدنيوية والتاريخية ؛ عدة تقويماتٍ غير دقيقةٍ استخدمت فى الأغراض الدينية .

(1) J.H. Breasted: Ancient Times (Ginn and Co. 1916) P. 45

وكان التقويم القمرى أبسط انواع التقاويم وأكثرها بدائية ، وهو يعتمد على المراحل المختلفة للقمر ، وأساسه الشهر القمرى الذى يتكون من تسعة وعشرين يوما ونصف يوم . ومن هذا الأساس أمكن التوصل إلى وحدات زمنية أطول وأقصر من الشهر ، فكان هناك نصف الشهر القمرى الذى شاع قبوله كوحدة لقياس الزمن . وكذلك اشتقت الاسابيع من أرباع الشهر القمرى ، كما كان هناك تقسيم للشهر بحيث يشمل ثلاث فترات كل منها عشرة أيام وكان هذا على مايبدو أحسن الحلول وأكثرها قبولاً من الناحية الحسابية . وبالمثل ؛ فإن اثنى عشر شهراً قمرياً كانت تكون السنة القمرية ذات الثلاثمائة واربعة وخمسين يوما . وحتى تتمشى الشهور مع التقسيم الفصلى للسنة ، كان يضاف شهر ثالث عشر فى الفترات والحالات المناسبة . كذلك كانت هناك وحدة قياس أكبر تتمثل فى الدورة القمرية التى كانت تتكون من تسعة عشر سنة ، وهى التى استخدمها الإغريق حوالى سنة ٧٥٠ قبل الميلاد .

وعلى الرغم من أن التقويم القمرى لم يزود الإنسان بتقسيمات محددة للزمن طولاً أو قصراً فضلاً عن عدم وقته ؛ فإنه ظل شائعاً بين كل الشعوب القديمة باستثناء المصريين ، الذين انفردوا — ومعهم سكان المكسيك الأصليين — بشرف ابتكار مايعتبر فى جوهره تقويما شمسياً ، وبداية للتقويم الحديث . ولعل اتجاه المصريين القدماء إلى السنة الشمسية كان مبعثه طبيعة الحياة الزراعية على أرض وادى النيل ، والأهمية القصوى لآله الشمس ، الأمر الذى أعطى الشمس أهمية أكبر ومكانة أفضل .

وهكذا صنع المصريون حوالى سنة ٤٢٣٦ ق.م[١] — وهو أول تاريخ ثابت فى التاريخ — تقويماً جديداً ، أساسه السنة الشمسية ذات الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً . وكانت هذه السنة اثنى عشر شهراً ، كل منها ثلاثون يوما . ويضاف إلى هذه الشهور — فى نهاية كل سنة خمسة أيام للأعياد[٢] . اما الأسبوع بأيامه السبعة ؛ فهو على الأرجح من ابتكار السومريين والعبرانيين . وفى سنة ٢٣٨ ق.م ابتكر علماء الاسكندرية السنة الكبيسة التى تحل مرة كل أربع سنوات ، وكذلك حدث فى العصر الهلينى تغيير فى الأسبوع العبرى ؛ بحيث أصبح على غرار الأسبوع الفلكى كما نحسبه فى تقويمنا الحديث . وفى سنة ٤٦ ق.م أدخل يوليوس قيصر نظام السنة الشمسية إلى العالم الغربى ، ولكن لم يتم استخدامه فى روما قبل القرن الثانى بعد الميلاد . أما آخر خطوة للوصول بالتقويم إلى درجة الكمال ؛ فقد قام بها البابا جريجورى الثالث عشر فى سنة ١٥٨٢ م ، حين أسقط أحد عشر يوماً من التقويم واعتبرت السنوات المئوية كبيسة إذا قبلت القسمة على أربعمائة .

---

(١) يرى بعض العلماء ان ذلك تم حدوثه سنة ٢٢٧٦ ق . م وليس سنة ٤٢٣٦ ق . م .

(٢) بنى المصريون تقويمهم السنوى على اساس النجوم والشمس . فكانت السنة المصرية تبدأ مع أول ظهور النجم الشعرى على الأفق الشرقى لخط طول الدلتا .

ونتبين مما سبق ؛ أن وجود نوعٍ ما من التقويم كان أمراً ضرورياً للكتابة التاريخية المنظمة ومع ذلك فقد بقيت خطوةٌ هامة أمام الإنسان حتى يتمكن من تطوير عملية قياس الزمن وتسجيله ؛ بالصورة التي تجعل هذه العملية تفيد المشتغلين بكتابة التاريخ ، حيث إن قياس الزمن بالسنة وكسورها كان أمراً غير كاف , كذلك صار لابد من التوصل إلى طريقة ما يمكن بها تمييز السنين المتعاقبة وتحديدها ، وبمعنى آخر كان لابد من التوصل إلى ترتيب زمني منظم للتاريخ .

وعلى الرغم من أن المصريين كانت لديهم وسيلة علمية رائعة تفي بهذا الغرض ؛ وهي الدورة الفلكية ذات الـ ١٤٦١ سنة ، إلا أنهم لم يستخدموها ، وبالتالي لم يتوصلوا إلى ترتيب زمني دقيق ، وكان أفضل ماتوصلوا إليه في هذا الشأن هو تسمية بعض السنين بما دفع خلالها من أحداثٍ عظيمةٍ أو هامة . ولقد أمكن التعرف على الفترة مابين ٣٤٠٠ ق.م ، ٢٧٠٠ ق . م من خلال إحدى قوائم الحوليات التي اشتهرت باسم (لوح بالرمو) . ثم طرأ بعض التقدم في عملية تمييز السنين والتعرف عليها ، عندما اعتبر عهد كل ملكٍ من الملوك فترةً مستقلةً قائمةً بذاتها ، ومثال ذلك ماتذكرة الآثار المصرية القديمة من عهود الأسر والملوك الذين تعاقبوا على حكم مصر . وفي سنة ٢٧٥ ق . م عهد بطليموس فيلا دلفيوس إلى أحد الكهنة المصريين المتعمقين في العلم واسمه «مانيتو» بمهمة جمع قوائم ملوك مصر وعهودهم وترجمتها إلى اللغة اليونانية . وكان مابقي من عمل «مانيتو» في هذا الشأن ، هو الأساس الذي بنى عليه علماء الآثار المصرية ترتيبهم ودراستهم لتاريخ مصر القديم .

أما البابليون فأنهم لم يتعدوا مرحلة تمييز السنين والتعرف عليها بما وقع خلالها من أحداثٍ كبرى ، وإن كنا نشهد لهم بأنهم كانوا على درجةٍ كبيرةٍ من الدقة في وضع قوائم الملوك . ولقد حاول بيروسوس Berressos وهو أحد الكهنة المرموقين في بلاط انتيوخس الأول ملك سوريا وأحد معاصري مانيتو — أن يفعل مافعله الأخير ، ولكن يبدو مما تبقى من أعماله أنه كان أقل نجاحاً وأقل دقة من معاصره .

وفي العصر الأشوري — وحوالي سنة ١١٠٠ ق . م — ظهرت بعض الحوليات التي كانت تتحدث عن أعمال الملوك سنةً بعد أخرى ، وأصبحت هذه الحوليات التي كانت تتحدث عن أعمال الملوك سنةً بعد أخرى ، وأصبحت هذه الحوليات في القرن الرابع عشر قبل الميلاد — وعلى عهد الملك تجلات بلسر الأول Tiglathpileser بالذات (حوالي ١١٠٠ ق . م) مصدراً مكتملاً ومعقولاً يمكن الأعتماد عليه لأغراض التاريخ . وقد ازداد

الترتيب الزمنى عند الأشوريين دقة ، نتيجة لتقليد سار عليه ملوكهم ؛ وهو تعيين موظفٍ رسمى كل سنةٍ ليقوم بأعمال التسجيل ، وأطلق على هذا الموظف اسم الليمو Limu ، وبينما اسم الليمو فى الأحداث المعاصرة التى سجلت على قوالب الصلصال ، فإن قوائم الليمو مكنت المؤرخ من إعادة بناء وتركيب الأحداث التاريخية فى ذلك العصر الآشورى بدرجة كبيرة من الدقة — وهكذا أمكن فى أواخر العصر الأشورى والبابلى التوصل إلى مفهوم (للحقبة التاريخية) التى تؤرخ بعهد للملك نابوناصر Nabonassar - سنة ٧٤٠ ق.م.

وأما الترتيب الزمنى عند العبرانيين فلم يتعد مرحلة تقدير الزمن بالأجيال ، على أعتبار أن كل جيل يستمر أربعين سنة ، ولكن يبدو أيضاً أن اليهود كانت لديهم فكرة غير واضحة عن العصور إذ تحدثنا كتاباتهم عن الفترة مابين إبراهيم وداود ، والفترة ، مابين داود والأسر البابلى .

وأما المؤرخون الاغريق الأوائل ؛ فعلى الرغم من أنه كان هناك نقطة بداية طبيعية للعصر الاغريقى ؛ تتمثل فى القصة شبه الأسطورية لحصار طرواده ، وعلى الرغم مما كان لديهم من استعداد فطرى غير عادي لقياس الزمن ، فإنهم لم يفعلوا أكثر مما فعل أسلافهم بخصوص أبتكار تقويمٍ زمنى . فحتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد لم يكن لديهم سوى بعض القوائم المحلية التى تحوى أسماء كبار رجال الدولة والكهنة . وقد حاول أحد مواطنى جزيرة لسبوس ، واسمه هيلا نيقوس (Hellenicus) فى النصف الأخير من نفس القرن ؛ أن يضع ترتيباً زمنياً مبنياً على تسلسل الأمر ، وعلى الرغم من أن المحاولة لم تستند إلى أساس قوى ، إلا أنها كانت ذات أهمية كبيرة . كذلك فإن هيرودوت وثيكوديدس لم يحاولا بصفةٍ جديةٍ أن يجدا حلاً لهذه المشكلة .وبذلك أنهى المؤرخون اليونانيون أعمالهم دون أن يصلوا إلى نظام مرضٍ للترتيب الزمنى ، إذ ظلوا يعتمدون كلية على طريقة الحساب بالسنوات الاولمبية التى أدخلها تيماوس حوالى ٣٠٠٠ ق. م ، وهى طريقة غير دقيقةٍ على الإطلاق . ولم يحاول هؤلاء المؤرخون حتى مجرد الاستفادة من الحسابات الفلكية التى كانت فى متناول أيديهم ، فى الوقت الذى كانت فيه الأبحاث الفلكية لعلماء الاسكندرية أمثال ؛ أراطوستنيز الذى جاء بعد طيماوس بثمانين سنة ، قد بدأت تؤثر تأثيراً فعالاً على مستقبل علم الترتيب الزمنى .

ولما كان الرومان يتصفون بالواقعية وبأنهم شعب عملى ، فإنهم كانوا أول من ابتكر نظاماً جيداً لترتيب الزمن يمكن الأعتماد عليه ، وبدأوا يؤرخون سنواتهم بادئين من تاريخ تأسيس روما الاسطورى فى سنة ٧٥٣ ق. م . وسوف نتعرض فيما بعد للطريقة المسيحية الواضحة لترتيب الزمن وتاريخ الأحداث ، والتى أدخلها جوليوس الافريقى ، ايوزيبوس ، جيروم ، وكذلك للطريقة العلمية الحديثة لتاريخ الأحداث ، التى ظهرت فى أوائل العصر

الحديث على يد جوزيف سكالجر فى كتابة «تقويم الزمن» ، وعلى يد دوم كلمنت فى كتابة «فن تحقيق التواريخ» ولكن يكفى الآن أن نعى فى الذاكرة حقيقة هامة ، هى أن علم التأريخ عند الرومان وحدهم هو الذى مكّن كاتبى التاريخ القديم من أن يعالجوا أى موضوع فى ثقة واطمئنان ، حيث ضبط التواريخ فيما عدا التواريخ المعاصرة . وهذا يفسر إلى حدٍ ما ؛ لماذا كانت المؤلفات التاريخية التى خلفها اليونانيون مجرد سجلاتٍ للأحداث الأخيرة والمعاصرة للكتاب .

وجاء تطور عملية الترتيب الزمنى للأحداث مرتبطاً بفكرة تقسيم التاريخ إلى فترات وعصور ، وهو التقسيم المألوف لنا جميعاً والذى يجعل من التاريخ ثلاثة عصور كبرى : قديمة ، ووسطى ، وحديثة . ويجدر بنا أن نشير إلى أن هذا التقسيم لم يخرج إلى الوجود إلا قرب نهاية القرن السابع عشر .

وكانت لآراء الأولى لتقسيم التاريخ إلى مراحل تقوم على التأمل والتفكير فى الماضى . فاليهود والمسيحيون رجعوا إلى الجنة التى عاش فيها آدم وحواء قبل هبوطهما على الأرض ، ومن ثم فقد قسموا التاريخ إلى قسمين رئيسين هما : المرحلة التى سبقت الخروج من الجنة ، والمرحلة التى أعقبت ذلك الخروج . وبالمثل ؛ فإن اليهود قد استخدموا وقائع طردهم أساساً لتأريخهم وترتيبهم الزمنى للأحداث . أما الاغريق فأتوا بفكرةٍ مماثلةٍ ، وهى فكرة اضمحلالهم بعد أن كانوا فى «عصر ذهبى» وعبر «هزيود» عن هذا المفهوم أحسن تعبير عندما قسم عصور التاريخ البشرى إلى خمسة أقسامٍ هى : الذهبى ، والفضى والبرونزى ، وعصر الأبطال ، والعصر الحديدى . أما الآباء المسيحيون الأول ؛ فقد ربطوا بين العصر الذهبى والعصر الذى عاش فيه الإنسان فى الجنة ثم الخطيئة ، فى حين عبروا عن عصر الاضمحلال عن الوثنيين بفكرة تردى آدم فى الخطيئة وطردة من الجنة . بل إن نظرية دورات التطور البشرى كانت أكثر شيوعاً بين الأغريق والرومان ، إذ ساد الاعتقاد بأن الحضارة تمر بمراحل متعاقبة من الارتقاء والضمحلال ، وأن هذه العملية تكرر نفسها إلى مالا نهاية .

وبالإضافة إلى ذلك ؛ فإن مؤرخى العصور الوسطى دأبوا فى معظم الأحوال على تأكيد فكرة أن التاريخ سلسلة متصلة الحلقات مستمرة ؛ لاحقب منفصلة عن بعضها البعض . ولذلك اعتبروا العصر الوسيط استمراراً للإمبراطورية الرومانية . وكان من أوائل من خرجوا على هذا الاتجاه المؤرخ العلامة فلافيوس بلوندوس Flavius Blondus

(١٣٨٨ — ١٤٦٣ م) الذى اعتبر أن العصور الوسطى حقبة انفصلت فيها شعوب أوربا الغربية عن روما ، وخلقت لنفسها تاريخاً وثقافة خاصة بها . بمعنى أن بلوندوس أدرك تماماً أن هناك قسمين على الأقل للتاريخ هما : العصر القديم ، والعصر الوسيط . وجاء بعد ذلك العلامة الهولندى كرستوف كيلر ، الذى وضع كتاباً قرب نهاية القرن السابع عشر ، قسم فيه التاريخ إلى أقسامه التقليدية الثلاثة التى نعرفها اليوم وهى : التاريخ القديم الذى ينتهى بعصر قسطنطين العظيم ، والتاريخ الوسيط الذى ينتهى بسقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، ثم التاريخ الحديث من سنة ١٤٥٣ فصاعدا . واتبعت هذه التقسيمات بصفة عامة على الأقل من أيام كلاريوس حتى يومنا هذا . ولسوف نشير فيما بعد إلى مايتسم به هذا التقسيم من طابع لايوجه الباحث توجيهاً صحيحاً ، وإلى مايشوبه من عدم الدقة ، خاصة فى ضوء التقدم البشرى والتطور الكبير الذى نعاصره اليوم ونتوقع المزيد منه ، الأمر الذى يجعل أى تقسيم بقصد تطبيقه على التاريخ الحضارى للجنس البشرى تقسيماً قاصراً تعوزه الدقة(١) .

والآن ، وبعد أن ناقشنا فى إيجاز متطلبات الكتابة التاريخية ، يمكننا أن نتناول أصل هذه الكتابة فى العصر القديم .

بداية الكتابة التاريخية فى الشرق

كانت الكتابة التاريخية فى الشرق قليلة نسبياً باستثناء أعمال المؤرخين العبرانيين ، كذلك لم تتصف تلك الكتابة بالتنظيم المحكم الدقيق . واستمر الأمر كذلك فترة طويلة من الزمن ، إلى أن تأثر الشرق الأدنى القديم بحضارة الاغريق وثقافتهم تأثراً عميقا ، ذلك أن المادة التاريخية فى الشرق القديم اقتصرت على النقوش وقوائم الملوك . وكانت هذه النقوش مركزة على تمجيد الملوك ، وإبراز ماشيدوه من مبان ، وماأحرزوه من انتصارات حربية ، وماقاموا من مخاطرات فى الصيد . ومع أنه من المسلم به أن نعلم هذه النقوش كانت من عمل الكهنة الكتاب ، إلا أنها نسبت إلى الملوك وإلى الآلهة . فضلاً عما يلاحظ من أن هذه الكتابة التاريخية كانت خلواً من أى نقد ، فلم تتضمن أية معلومات تشين الملوك أو الآلهة الذين اهتدوا بديتهم .

وعلى الرغم من أن الأحوال المناخية قد جعلت من مصر متحفاً رائعاً للآثار ، أو كما يقول الاستاذ برستد : مجلداً تاريخياً شاسعاً . وعلى الرغم من أن هذه الظروف المناخية قد ساعدت على حفظ عديد من مصادر المعلومات التاريخية القيمة المتمثلة فى فن العمارة ، وفى الحقائق الهندسية ، والآثار الفنية الباقية فى المقابر الملكية ، فضلاً عن الفنون التشكيلية التى

وجدت على جدران المقابر ، والقصور ، والمعابد وسائر الآثار ، على الرغم من هذا كله فإن ما امكن حفظه من الكتابة التاريخية المصرية لايعدو النزر اليسير . وهنا يجدر بنا أن نشير إلى عمل قام به أحد الكتبة فى عهد تحتمس الثالث . وهو عمل يحتوى على وصفٍ دقيقٍ لأبرز فتوحات هذا الملك القدير النشط

وفيما عدا ذلك ؛ لانجد سوى أجزاء من حولياتٍ كتلك التى وردت على لوح بالرمو ، وعلى بردية ماتورنيو . وليس لدينا فى الوقت الحاضر أية معلوماتٍ تثبت وجود أية كتابةٍ تاريخية هامة فى العصور السابقة على الفترة الهلينية ؛ التى أصبحت فيها ثقافة مصر هيلنية أكثر منها مصرية . فى هذه الفترة جمع مانيتو الكاتب المصرى الذى ذكرناه آنفا — عصور التاريخ المصرى القديم ، كما وضع تاريخاً قصصياً لمصر؛ يعتبر من ناحية التنظيم والدقة سابقاً للعصر الذى كتبت فيه . وأهم ماتميز به كتابة مانيتو ؛ تلك الموضوعية فى جميع المادة التاريخية وتفسيرها . ولكن شاء سوء الحظ ألا يتبقى من عمله العظيم سوى أجزاء قليلة ؛ هى تلك التى نراها فى صورة مقتطفات فى كتاب المؤرخ اليهودى جوزيفوس Josepheus وكذا فى الكتابات التاريخية المسيحية التى وضعها كل من جوليوس افريكانوس ، ازيبيوس .

ويبدو أن البابليين والأشوريين قد فعلوا أكثر قليلاً مما فعل المصريون من حيث الوثائق التاريخية . وإن افتقرت بلاد مابين النهرين إلى مؤرخ يماثل مانيتسون ، إلا أن الكاهن البابلى بيروسوس الذى تأثر كثيرا بالهيلنية ؛ قد جمع تاريخاً لبابل فى نفس القرن الذى عاش فيه مانيتو . وكانت الكتابات التاريخية المبكرة فى آسيا ؛ تسجيلات أعدها الكهنة السومريون ، وإن كان لايوجد لدينا حتى الآن أى تسجيل تاريخى منظم يمكن أن ينسب إلى هؤلاء الكتبة ويرجع أقدم المصادر فى هذا الشأن إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، وهو عبارة عن نقوش للتمجيد والدعاء تبين أسماء الملوك ونسبهم ، وتصف العمائر التى شيدت فى عهودهم . كذلك جمع البابليون عدة قوائم باسماء ملوكهم . وبالنسبة للفترة السومرية ؛ نجد أن النقوش الاسطوانية المنسوبة لجوريا من أهل لاجاش gudea of Lagach . (٢٠٧٠ ق.م) هى أقدم المصادر التاريخية ، وخاصة فيما يتعلق بالسلوك والعادات السائدة فى تلك الفترة . وبعد ثلاثة قرون من ذلك التاريخ نجد مصدراً عظيماً آخر وهو (قانون حامورابى) الذى لاتقتصر أهميته على كونه مصدراً قيماً لتاريخ بابل الاجتماعى فحسب ، بل لأنه أهم وثيقةٍ لتاريخ التشريع القديم . وليس هناك بعد ذلك أية كتابة تاريخيةٍ هامةٍ يمكن أن تنسب إلى السومريين والبابليين القدماء .

اما الحقائق والترتيب الزمنى الخاص بتاريخ أشور القديم ؛ فإنها تستمد من ثلاثة مصادر رئيسية .

١ —نقوش الزينة التى كتب معظمها على قطع من الحجر ، وكان المقصود بها أصلاً تزيين العمائر ، ومن ثم فإنها لاتتسم بالدقة المطلوبة لسرد التاريخ .

٢ —نقوش الحوليات الملكية التى تحوى تاريخ الملوك ، والتى تعطى ملخصاً لأحداث كل سنة ، وهى تعتبر أهم مصدرٍ يستمد منه تاريخ آشور .

٣ —قوائم أسماء الكتبة الرسميين ، وهى تبين أسماءهم والسنة التى عين فيها كلٌ منهم .

ولقد أوضحنا فيا سبق أهمية هذا المصدر الثالث بالنسبة لتاريخ آشور . ولعل أهم الأعمال التاريخيه للآشوريين والتى يمكن اعتبارها محاولات جادة لجمع التاريخ هى «التاريخ التزامنى» و «الحولية الآشورية» . ويحكى الأول بالتفصيل علاقة بابل وآشور من حوالى سنة ١٦٠٠ ق.م إلى حوالى سنة ٨٠٠ ق.م ، ويحوى قائمة بالملوك الذين حكموا فى تلك الفترة فى كلا البلدين . كذلك عنى هذا المصدر عناية خاصةً بالخلافات التى نشبت حول تحديد الحدود بين بابل وآشور . وفى وقت مضى اعتبر هذا العمل عملاً تاريخياً جاداً ، ولكن الأبحاث التاريخيه اللاحقه أوضحت أنه لا يعدو واحداً من نقوش الزينة الممتازة ، التى قصد بها تمجيد آشور وآلهتها ، وتصوير الأفعال الشريرة التى أتى بها البابليون الأوغاد . ومع هذا فإنه نظراً لقلة المصادر يعتبر مصدراً قيماً للمعلومات التاريخيه . أما الحولية الآشورية ، فهى وإن كانت تجميعاً جافاً لأسماء الموظفين ، ومدة خدمة كل منهم ، وسرداً لأهم أحداث كل سنة ، إلا أنها هى الأخرى تعتبر من أثمن مصادر معلوماتنا عن تاريخ آشور . وأقرب الكتابات التاريخيه الآشورية إلى الأدب ، هى تلك التى تحكى عن الملوك بلغة مليئة بالمحسنات اللفظية . ولقد كان لعهد آشور بانيبال (٦٦٨ — ٦٢٦ ق.م) أهمية خاصة فى تطوير الكتابة التاريخيه فى آشور ، إذ أمر هذا الملك بجمع وتكوين مكتبةٍ عظيمةٍ ساعدت على حفظ المادة التاريخيه الأولى ، فضلاً عن أنها ضمت كذلك نقوش وكتابات عصره . وهذه أقربت كثيراً من أسلوب السرد التاريخى المنظم الذى لم تعرفه العصور السابقة .

ويأتينا من العصر البابلى الكلدانى عملان عظيما أولهما : التاريخ البابلى ، ويغطى الفترة من ٧٤٥ ق.م الى ٦٦٨ ق.م . ولهذا التاريخ وجهة نظر تختلف عن تلك الواردة فى السجلات الآشورية التى تكملها وتصححها ، وتتميز بأنها تروى حروب آشور مع عيلام Ilam دون تحيز . أما العمل الآخر فهو : وتعالج الأجزاء التى حفظت منها الفترة ٦١٦ ق.م الى ٦١٠ ق.م . وتصف سقوط آشور سنة ٦١٤ ق.م وسقوط نينوى سنة ٦١٢ ق.م وسقوط حرّان سنة ٦١٠ ق.م ، كما تمجد الميديين تمجيداً كاملاً لمهارتهم الحربية . وواضحٌ أن (تاريخ بيروسوس History of Beressos) الذى كتب باللغة الاغريقيه فى بداية القرن الثالث قبل الميلاد ، إنما تم جمعه من السجلات المحلية فى بابل ، حيث حافظ على أسلوبها الذى تميزت به . ولقد كان

تاريخ بيروسوس مصدراً هاماً للمؤرخين فى العالم الاغريقى — الرومانى وذلك لندرة المصادر الأخرى . وعلى الرغم من أننا فى الوقت الحاضر لا نملك سوى مقتطفات من أجزائه الأخيرة غير الموثوقه بها ، إلا أن قيمتها تزداد يوماً بعد يوم .

أما ملوك ميديا وفارس فاتبعوا نفس طريقة الحوليات التى سارت عليها حوليات ملوك بابل وآشور ، ونخص بالذكر حولية الملك دارا المنقوشة على صخرة Behistan ، إذ كان لها الفضل الأكبر فى مساعدتنا على تصحيح معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم ولغاته . وقد جاء هذا النقش الرائع فى كتاباتٍ أو لغاتٍ ثلاث هى : الفارسية ، والسوسيه ، والبابلية . ومنذ قرن مضى ، وبعد دراسة ذلك السجل المنقوش وترجمته ، تمكن السير هنرى رولنسن من كشف الغموض الذى أحاط باللغات المسمارية .

وهكذا تحقق العلماء أخيراً من أن الحيثيين كانت لهم كتاباتٌ تاريخيةٌ عظيمه . ولدينا الآن مادةٌ تاريخيةٌ واسعة ، معظمها ورد على لوحات بالخط المسمارى وأمكن قراءتها وتفسيرها . هذا فضلاً عن نصوص هيروغليفية ظهرت بعد ذلك أمكن فك رموزها حاليا . وبالإضافة الى الحوليات التاريخية ، توجد كتابات تشير إلى العلاقات السياسية المبكرة ، نخص منها بالذكر «تاريخ تليبنوس» (حوالى سنة ١١٠٠ ق.م) الذى يغطى أكثر من ثلاثة قرون . وواضحٌ أن لهذا التاريخ هدفاً خلقياً محدداً ، هو إبراز شرور الحروب الدامية وخطرها كوسيلة لتسوية المنازعات ومعالجة الجرائم . وبيّن الكاتب كيف أن الحروب أدت إلى القضاء على أسرةٍ حاكمةٍ بأكملها ، وإلى اتخاذ نظام الفدية فى القانون الحيثى الذى وضعه هاتوشيل الثالث . كذلك يجدر بنا أن نشير إلى أحد الأمثلة المبكرة لكتابة التراجم ، وهو تاريخ الملك هاتوشيل الثالث (١٢٨١ ق.م — ١٢٦٠ ق.م) .

وينسب إلى العبرانيين القدامى فى فلسطين شرف انتاج أول سردٍ تاريخىٍّ مطولٍ ودقيقٍ نسبيا . ولما كان هذا السرد قد ورد فى التوراه ، فإنه من المفيد أن نستعرض باختصار الآراء الخاصة بطبيعة هذه التوراة .

لقد آثار بعض آباء الكنيسة من ذوى الاتجاه الناقد فى أواخر عهد الامبراطورية الرومانية ، بعض الشكوك حول الأفكار التقليدية الخاصة بتأليف التوراه . ولكن أول عالمٍ قدر له أن يثير مسائل خطيرة حول تلك الأفكار التقليدية ، كان المفكر اليهودى ابن عزرا Aben Ezra الذى عاش فى العصور الوسطى ، وتحدى حوالى سنة ١٥٥٠ م الفكرة القائلة : إن موسى هو الذى ألف الأسفار الخمسة الأولى من التوراة المعروفة بأسم أسفار موسى . وفى القرن السابع عشر أعلن الفيلسوف البريطانى الناقد توماس هوبز ، أنه يشك فى نسب التوراة إلى موسى ، وذلك على أساس المنطق والادراك ، لا على أساس النصوص والدراسة التاريخية . فقد بين هوبز مدى الغرابة فى أن يكتب مؤلفٌ (موسى) تاريخ حياته ثم

يشيرفى الوقت نفسه إلى موته ، ويفخر بأنه قد دفن دفناً جيداً ، بحيث لم يتمكن أحدٌ لسنين طويلة معرفة مكان قبره . ومع هذا ، فإن التوراة تصف بدقةٍ هذه السرية فى دفن موسى ، كما تصف فى إسهابٍ حزن اليهود على موته . وبالمثل ، فإن المفكر اليهودى باروخ سبنيوزا Barush Spinoza وهو أحد معاصرى هوبز ، قام هو الآخر بدراسة ناقدة لأصل سفر التكوين ، وبين أنه لا يمكن أن يكون قد كتب بمعرفة مؤلفٍ واحدٍ فى أى عصرٍ واحد ، وقدم بعض الأدلة التى تهدم النظرية القائلة : إن موسى هو مؤلف الأجزاء الخمسة الأولى من التوراة .

وفى منتصف القرن الثامن عشر قدم جان استروك ، وهو طبيب فرنسى مشهور ، رأياً فى هذا الشأن ، أصبح فيما بعد الرأى المقبول بالنسبة لطبيعة تأليف الأجزاء الخمسة الأولى من التوراة . أما الخطوة الفاصلة التى تلت ذلك ، فقد قام بها كارل دافيد الجن Karle David Elgan قرب نهاية القرن الثامن عشر ، حيث أوضح أنه كانت هناك سبعة عشر وثيقة على الأقل فى سِفْر التكوين ، وأن هذه الوثائق مستمدة من ثلاثة مصادر رئيسية ، اعتبرت منذ ذلك الزمن مقبولة وصحيحة . وفى القرن التالى ، استمر البحث عن أصل التوراة ، وكشف الغموض عن مؤلفها ، ومن بين من اشتركوا فى هذا البحث الشامل عدد من قادة الفكر ، نذكر منهم : و.م.ل.دى ويت W.M.L. De wette ، هيرمان هوبفلد Hermann Hupfeld ، الأسقف جون وليام لوليتزو John Wliam Lolenso ، برنارد دَمْ Bernhard Duhm ، ابراهام كيونين Abraham Kuenen ، برنارد ستيد Bernhard Stade جوليوس ولهوزن Julius welhausen ، ويرجع الفضل الى الأخير فى التقدم العظيم فى مجال نقد التوراة . ولذا يعتبر العلاقة الفذ فى هذا الميدان . ثم واصل عمله من بعده ت .ك. تشين T.K. chayne ، س .ر . دريفر S.R. Driver ، ب .و. بيكون B.W.Bacon ، وغيرهم ، فأخرجوا بحوثاً رائعة فى ذلك الصدد .

ولم يقتصر النقد على مجرد دراسة نصوص التوراة ، بل برهن وليام روبرتسن سميث William Rohertson Smith ، — وهو الأستاذ الضليع بجامعة كمبردج ، فى كتابة المشهور «ديانة الساميين» على أن الديانة اليهودية لم تحو شيئا مزيدا أو غريبا ، كما أوضح أوجه الشبه العديدة بين ديانة قدماء العبرانيين من ناحية ، والعقائد والشعائر الدينية لدى بقية فروع الشعوب السامية من ناحية أخرى . ثم واصل هذه الدراسة على صورة أوسع وأكثر دقة ، باحثون أمثال : دلتش Delitzsch ، وونكلر Winckler ، وروجرز Rogers ، وهم الذين أوضحوا الأثر العميق الذى تركته الأساطير البابلية ، وتقاليد البابليين الدينية على ديانة العبرانيين ، وخاصة فيما يتعلق بفكرة البابليين عن طبيعة الكون ،

وقصة الخلق ، والأساطير التاريخية القديمة ، مثل قصة برج بابل وقصة الطوفان . كذلك أوضح ر . هـ . شارلز R.H. charles وآخرون الأسس الفارسية لبعض العقائد اليهودية المتأخرة ، التي أصبحت فيما بعد أساس المعتقدات المسيحية عن الشيطان ، وجهنم ، وخلود الروح .

وقد سبق أن أشرنا إلى اليهودي ، أو المسيحي الورع الذي أعتقد أن الله قد أملى التوراة على موسى ، — وهو ذلك السياسي العبراني الكبير ، والكاتب المخلص الأمين ، وتم ذلك في وقتٍ ما خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وكان أن أوضح العلماء الذين تخصصوا في دراسة الكتاب المقدس ، أن توراة موسى ليست مكونةً من خمسة أسفار كما هو معتقد ، وإنما هي تتكون من أحد عشر سفراً ، هي على وجه التحديد الأثنى عشر سفراً الأولى من الكتاب المقدس ، باستثناء سفر راعوث الذي هو نتاج متأخر للعصرين الفارسي والإغريقي . فالتوراة إذا أبعد عن أن تكون عمل مؤلفٍ واحد تم في فترة وجيزة من السنين ، وإنما هي في الحقيقة جمعت بواسطة أربع مجموعات من المؤلفين على أقل تقدير ، في حقبةٍ كبيرةٍ من الزمن تمتد من نهاية القرن العاشر قبل الميلاد ، إلى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . ذلك أن هناك أربعة أصولٍ أساسيةٍ نبع منها هذا الجزء من الكتاب المقدس ، أقدمها ما سمى بالمصدر « J.E. » وهو نتاج الجزء الأخير من القرن العاشر ، أو بداية القرن التاسع قبل الميلاد . وقد سمى كذلك لأن الكتاب أطلقوا أسم يهوه Jahveh للدلالة على إله العبرانيين . أما المصدر الثاني من حيث الترتيب الزمني ، فقد سمى بالمصدر « E. » لأن المؤلفين استخدموا هذا اللفظ Elohim للدلالة على الرب — ويرجع هذا المصدر إلى القرن الثامن قبل الميلاد على وجه التحديد . أما المصدر الثالث فيتمثل في سفر التثنية الذي دون فيما بين سنة ٦٥٠ ق .م ، ٦٢٠ ق . م ويشير اليه العلماء بالحرف «د. D » وهو الحرف الأول من لفظ ((Deuteronomy)) أي سفر التثنية . أما المصدر الرابع والأخير فهو ما أطلق عليه اسم «المصدر الكهنوتي » أو المصدر «ب — P. » وهو الحرف الأول من لفظ ((priest)) أي كاهن ، ويرجع الى الفترة ما بين ٥٨٦ ق .م ، ٥٤٠ ق .م . وكل مصدرٍ من هذه المصادر الأربعة كان نتاج عمل مجموعةٍ من الكتاب ، وليس من عمل كاتبٍ واحد .

وجدير بالذكر أن كل وثيقةٍ من هذه الوثائق الأساسية الأربع لم ترد في الكتاب المقدس بنفس الصيغة التي كتبت بها بالضبط ، فقد تعرضت جميعاً لتغييرات متفاوته على أيدى الكتبة المتعاقبين . هذا بالاضافة إلى أن التوراة ليست مكونة من الأصول السابقة ، P.P.J.E. ، بنفس هذا الترتيب الزمني . فقد أدمج الكتاب اللاحقون هذه الأصول الأربعة بعضها في بعض ، وخلطوها بشكل يتعذر معه فصلها أو تمييزها في سهولة . ولعل هذا

هو السبب في أن الكشف عن مؤلف التوراة وعن تكوينها ، ظل مشكلة صعبة أستنفذت من الباحثين قرناً كاملاً من الجهد . ويبدو أن المصدرين E.J. ، تم تحريرهما وإدماجها في بعضهما في وقت ما ، قرب نهاية القرن الثامن قبل الميلاد ، ثم م بعد ذلك ، أي فيما بين سنة ٦٢٠ ق.م ، ٥٤٠ ق.م ، — تدوين وإدماج للمصادر P,E,J وأخيراً — أي في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، تم ضم للمصدر . ب إلى المصادر الثلاثة الأخرى ، بعد أن أدخلت عليها عدة تعديلات وتصويبات . وهكذا تكونت التوراة في صورتها التاريخية ، وأصبحت كما هي في أيدينا الآن ، تحت أسم «العهد القديم» .

على أن كل هذه الحقائق عن توراة موسى — وهي كما أوردناها هنا بهذا الشكل المختصر غير الكامل — لاتكفي لتصوير الموقف بكل ما فيه من تعقيد . ولكنها على أية حال تبين عدم صحة الفكرة التي يتصورها المتدينون عن التوراة — تلك الفكرة التي تحدثنا عنها فيما سبق . ولعلنا نلقي ضوءاً أكثر على طبيعة التوراة ، لو تأملنا المقارنة التالية التي عقدها الأستاذ جيمس ت . شوتويل بين التوراة كتاب إغريقي ضم الكثير من الافتراضات يشابهها من حيث الطبيعة والتكوين . يقول شوتويل : «دعنا نتخيل على سبيل المثال أننا لسنا بصدد الإصحاحات اليهودية ، وإنما تلك التي كانت لدى الاغريق . ولنفرض أن تراث هيلاس Hellas قد أمكن حفظه ، وأنه قد وصل إلينا بشكل يشبه الكتاب المقدس . ماذا يمكن أن يكون شكل وطبيعة هذا الكتاب ؟ لعله يجدرُ بنا أن نبدأ بعدد بسيط من الفقرات التي ألفها هزيود عن ميلاد الآلهة وفجر الحضارة ، وقد اختلطت بأجزاء من الالياذة ، وصيغت هذه وتلك في شكل مقتطفات طويلةٍ من كتابات هيرودوت . أما حوار افلاطون فيمكن أن يقدمه لنا أبطال ملاحم هومر . وأما نصوص عظماء كتاب المسرح (بدلاً من الأنبياء) فقد تكون قد حفظت وتداخلت في بعضها البعض ، حتى جاءت تعليقات اساتذة مدرسة الاسكندرية لتزيدها تعقيداً . ولنتخيل بعد ذلك كله ، أن مصادر هذا التراث الضخم قد حجبتها عوامل الزمن وتعاقب القرون . وأن الفلاسفة — الذين كانوا بالنسبة للإغريق أشبه بفقهاء الذين بالنسبة لإسرائيل — أصبحوا يعتقدون أن الجزء الأعظم من هذا التراث التاريخي الفلسفي الأدبي قد كتبه سولون Solon ، كأنه صادر عن نبوءة أبولو في دلفي . وأخيراً ، فلنتخيل أن هذه النصوص أصبحت ثابتةً وغير قابلةٍ للتغيير ، ومن ثم فقد اكتسبت قداسة وعظمة ، حتى أصبحت بعد ذلك تراثاً لشعوبٍ أجنبيةٍ لا تعرف شيئاً عن التاريخ اليوناني أكثر مما تحويه هذه النصوص الجمعة .. مثل هذا التراث — وفي هذا شئٌ من المبالغة — يكون بمثابة توراة هيلنية على غرار توراة اليهود . ولن نحاول أن نتمادى في هذه المقارنة ، ويكفي أن نذكر أنها من ناحية الشكل والتكوين معارنة ممتازة تفي بالغرض تماما[1]

(1) T. Shotwell: An Introduction to the History of Histoy (Columbia Universty Press 1922) pp. 82-83.

ولقد كان لازدياد رخاء العبرانيين وهيبتهم تحت حكم ثلاثة من ملوكهم هم : شاءول ، وداود ، وسليمان أكبر الأثر في تقدم الكتابة التاريخية عند هؤلاء القوم . وفي هذا يقول الاستاذ جورج فوت مور George Foote Moore : إن الباعث الأول على كتابة التاريخ هو الأحداث التي تصنع التاريخ . وهذا هو ما حدث في اسرائيل في عهد شاءول وداود حيث كانت البداية الحقيقية لكتابة التاريخ العبراني[٢].

وكان أن ظهرت الكتابة التاريخية العبرانية أول ما ظهرت في أعمال عددٍ من المؤلفين المجهولين ، الذين ينتمون إلى المصدر « D » الذي يتمثل في سفر يشوع Joshua ، وأسفار صموئيل ، وبداية «سِفْر الملوك الأول» . ويعلق الاستاذ برستد على هذا المصدر قائلاً : إن هذه أول أمثلةٍ للكتابة التاريخية المنثورة ، ومؤلفها المجهول هو أول مؤرخ عرفناه في العالم القديم »[١].

كذلك يعلق ادوارد ميار على أروع الفقرات في هذه الكتابة التاريخية قائلاً : إنه لمن المدهش حقاً أن وجدت كتابةٌ تاريخيةٌ من هذا الطراز في إسرائيل ، في ذلك الوقت المبكر ، فهي تفوقه بكثيرٍ أي كتابةٍ تاريخيةٍ نعرفها في الشرق القديم بأكمله » . وأبرز هذه الكتابات على الإطلاق ، هي ذلك السرد التاريخي المسمى «سيرة داود» والذي يرجح أن كاتبه هو الكاهن الأعظم (أبياثار) Abiathar . ويعلق الأستاذ أ . ت . اولمستيد A.T. Olmstead على هذه الكتابة بقوله : «سواء كان المؤلف أبياثار أو غيره ، فإن على المؤرخ الحديث المحترف أن ينصف سلفه الذي عاش وكتب منذ ثلاثة آلاف سنة . فلقد أمتعنا بتاريخ مبتكر لا يوجد لدينا حتى الآن أي دليل على أن هناك من سبقه إليه . ففي هذه الكتابات العبرانية لا نجد حوليات تسجل حروب ملك ، ولا قصصاً جافةً موجزةً عن حياة بعض الأبطال السابقين ، كما هو الحال في الكتابات التاريخيه المصرية والبابليه والآشورية ، وإنما نجد تاريخاً معاصراً يمكن أن يقارن بسجلات العصور الحالية . لقد كان ذلك المؤرخ الأول يقف خلف الستار ، ويكتب ببساطة ولكن في وضوح ، ولم يكن يقوم بالدعاية لمليكه ، بل كان يسجل الحقائق للأجيال القادمة . ولذا فإن موضوعيته تعتبر أمراً غير عاديٍ بالنسبة لعصره . لقد كان داود يمثل البطل بالنسبة له — ما في ذلك شك — ولكنه لا يغفر لداود نقائصه ونواحي ضعفه ، وكذا خروجه على القانون في شبابه ، وأكاذيبه المتكررة ، وهروبه إلى اعداء قومه ، وتناسيه أن ميكال كان قد أنقذ حياته . كذلك فهو يؤاخذه على دسائسه مع «بتشبع» ، وما ترتب على ذلك من نتائج بالنسبة لأسرته . وأخيراً فهو لا ينسى غروره وتبذله ، نتيجة للنجاح الذي أصابه ، ورغد العيش الذي حظي به . كذلك نرى هذا المؤرخ

(١) الكتاب السابق الاشارة اليه للاستاذ .Breasted

George F. Moore: Lterature of the Old Testement (Henry Hotl 1911). p. 96.

وقد التزم نفس الموضوعية في تعرضه لباقي أفراد البلاط ، بما فيهم صادوق الذي حل محل أبياثار في مركز الكاهن الأعظم . وسواء كان هذا الكاتب أبياثار أو غيره ، فهو أول مؤرخ حقيقي عرفه التاريخ ».

يبقى بعد ذلك من الأجزاء التاريخيه للعهد القديم ، «سفراء الملوك» اللذين كتبا حوالي ٥٦٠ ق . م ، و «حوليات عزرا ونحميا» . أما عن «سفرى الملوك» فيها أول تصوير لفكرة أن التاريخ كان يهدف أساساً الى الافادة من دروس الماضى ، إذ أستهدف المؤلف إقناع الناس بقيمة الإخلاص للدين ، وذلك عن طريقة سرد أمثلة مستقاة من التاريخ . وتعزو هذه الأسفار والكوارث المتعاقبة التى حلت ببنى اسرائيل إلى ابتعادهم عن ديانتهم القومية . ويبدو أن مؤلف «سفرى الملوك» قد استق بعض مادته عن تاريخ اسرائيل ويهوذا وملوكها في العصر الأخير ، من الكتابات المبكرة ذات القيمة الكبيرة ، وهى الكتابات التى أثبتت النقوش المعاصرة دقتها وصحتها . أما حوليا عزرا ونحميا فهى فى أساسها من عمل مؤلف واحد هو كاهن من القدس . وقد استطاع هذا المؤلف عن طريق سرد سلاسل الأنساب ، فضلاً عن القصص والرويات ، أن يقدم عرضاً للتاريخ العبرانى بأكمله ، يستهدف تمجيد مملكة العبرانيين تحت حكم داود وسليمان ، وإبراز عظمة هذه المملكة فى شئ كثير من المبالغة . كما أنه أكد مرة أخرى التحذير الذى سبق أن أعلنه مؤلف «سفرى الملوك» بخصوص العقوبات التى سيتعرض لها كل من يرتد عن ديانته . وأهم ما تحتويه حوليات «عزرا ونحميا» هو مذكرات نحميا الممتعة الغنية بالمعلومات ، والتى جاءت فى مجرى السرد العام للأحداث . وتتميز هذه المذكرات بأنها أرق بكثير من عمل المؤلف الكاهن الذى يعتقد أنه قد زوّر مذكرات عزرا . وبالإضافة إلى ما فى العهد القديم من قصص ، فإن هذا الكتاب الدينى يضم مادة تاريخية ذات قيمة كبيرة ، من جملتها تشريع العبرانيين ، سواء ما يتعلق «بالقوانين الدينية أو الدنيوية» وهى التشريعات التى رتبها كبار العلماء الذين قاموا بدراسات نقدية للأنجيل فى القرن التاسع عشر . كذلك يحوى العهد القديم كثيراً من القصائد والأناشيد والقصص الشعبية ، مثل اساطير البطارقة . وقصص شمشون ، والقصص التى تناولت داود وسليمان . ويعتبر سِفْر المكابيين الأول من أقيم ما قدمته حضارة العبرانيين فى فن التأريخ . ونظراً لأن هذا السِفْر لم يكن فى الأصل العبرى للتوراة ، وهو الأصل الذى اعتمد عليه المترجمون ، فإنه لم يرد فى الكتاب المقدس البروتستانتى . وقد كتب هذا السِفْر حوالى سنة ١٢٥ ق . م أحد الصدوقيين المعروفين بحماستهم وتقواهم واعجابهم الشديد باسرة الحشمونيين ، هو ترتشكا اليهودى ، وفيه يحكى قصة التاريخ العبرانى المثيرة ، منذ فتح فلسطين على يد الاسكندر الأكبر ، حتى اعتلاء الملك يوحنا هركاندمى John Hyrcanus العرش . ويركز هذا الكتاب على تخليص فلسطين من السيطرة السورية ، نتيجة للحملات العسكرية التى قادها يهوذا المكابى وخلفاؤه . وعلى الرغم

مما اتصفت به كتابة هذا المؤلف من حماسة وطنيه ، وزهو بالنصر ، إلا أنه أنتج عملا فريدا بالنسبة لعصره ، تميز باتجاهه العلماني . هذا الى أنه عزا انتصارات العبرانيين إلى شجاعة الحشمائيين ومقدرتهم ، وليس للتدخل الإلهي المباشر لصالح اليهود . ومع الأسف ، فإن المؤرخين المسيحيين فى العصور الوسطى لم يعتبروا سِفْر المكابيين الأول النموذج الأسمى للسرد التاريخي العبراني ، بل راحوا يدعمون حماسة أتباعهم ، ويرهبون خصومهم بمحاكاة القصص التاريخية التقليدية العبرانية التى تؤكد المعجزات الالهية ، ومكافأة الرب للمخلصين ومعاقبة المخطئين .

وكان آخر المؤرخين العبرانيين البارزين فلافيوس يوسيفوس (حوالى ٣٧ — ١٠٥ ق . م) وهو يعتبر المؤرخ القومي لليهود . وقد جاءت كتاباته فى الفترة التى أعقبت تدمير قوة شعبه ووحدته سنة ٧٠ م . ولذا نراه يحرص على عرض أمجاد اليهود الماضية ، ليخفف من محنة الشعب اليهودى وبؤسه . ولعل هذا هو الذى جعل كتاباته تتميز بالمبالغة فى تصوير ثراء فلسطين القديمة ، وشعبها ومكانتها الدولية ، أكثر مما فعل مؤلف (حوليات عزرا ونحمياه) .

وأهم مؤلفات يوسيفوس كتابان هما : «حرب اليهود» و «آثار اليهود» ويتضمن الأول عرضاً لتاريخ اليهود فى القرون التى سبقت الحرب اليهودية الكبرى مباشرة ، والتى انتهت بتدمير القدس . ثم يسرد بالتفصيل أحداث الحلقات النهائية فى ذلك الصراع . أما الكتاب الثانى فأكثر إسهاباً من سابقه . وقد كرسه الكاتب لإبراز أمجاد اليهود فى الماضى . وليوسيفوس كتابٌ صغيرٌ آخر يعارض فيه النحوى اليونانى أبيون Apion لموقفه المناوئ لليهود ، وفى هذا الكتاب هاجم يوسيفوس المؤرخين من غير اليهود لتعمدهم عدم إنصاف الثقافة اليهودية ، وغمطهم التاريخ اليهودى حقه من التقدير .

وفى علاجه لعصر العهد القديم ، نجد أن يوسيفوس أتى بمادة لا يمكن الاعتماد عليها . أما عرضه لفترة ما بعد المكابيين فقد جاء خلوا من المبالغة ومليئاً بالأدلة . وجديرٌ بالذكر أن يوسيفوس كتب باللغة اليونانية ، وبأسلوبٍ أدبيٍ رفيع . ولهذا نعت بأنه «ليفى اليهود» . وإذا كانت هذه المقارنة بين يوسيفوس والمؤرخ الرومانى ليفى لا تخلو من أساس سليم تعتمد عليه ، إلا أن يوسيفوس لم يكن فى نفس المستوى الأدبى الراقى الذى اشتهر به ليفى ، وإن كان يبدو أنه قاربه فى دقة التعبير والتصوير .

وعلى الرغم من أن العبرانيين كان لهم الفضل فى رواية التاريخ روايةً صادقةً ، إلا أن كتابة التاريخ عند العبرانيين ظلت لا تؤثر على المجرى العام للكتابة التاريخية ، حتى تناول المسيحيون بالدرس كتب اليهود وأسفارهم الدينية ، ذلك أن المسيحيين لم يتخذوا من هذه الكتب أساساً لكثير من نظريات اللاهوت المسيحى ، بل جعلوها أساساً للتاريخ المسيحى نفسه ، ولتكوين وتأليف تاريخ العصور السابقة .

والواقع إن الإغريق هم الجديرون حقاً بأن نحول إليهم أنتباهنا ، بوصفهم المصدر الرئيسى الأول لأصول ذلك الطراز من الكتابة التاريخية ، الذى كانت له السيادة فى العصور القديمة ، والذى ظل سائداً حتى عهد ليو الإفريقى ، وأروزيوس ، وايزيبيوس . والواقع ، إن كل الكتابات التاريخية للشرق القديم ، باستثناء الكتابات التاريخيه العبرانيه الأولى ، تأثرت إلى حدٍ كبيرٍ بالثقافة الإغريقية . فمانيتون ، وبيروسوس ، ويوسيفوس ، تأثروا جميعاً بالحضارة الهيلنية ، فضلاً عن أنهم كلهم استخدموا اللغة اليونانية فى كتاباتهم .

المـراجـع

1-**H.E. Barnes:** The New History and Social Studies, The Century G. 1925
2- **A. C. Haddon:** History of Anthropology G. P. Ountan's Sons 1910.
3- **B.J. Stern, Lewis Henry Morgan,** Social Evolutionist, Universty of chicago press 1931.
4- **Stanley Casson:** Progress of Archeology Mc Cgraw Hill Book Co. 1935.
5-**B.L. Uieman,** Ancient Writing, Longmans Green and Co. 1932.
6-**W.A.Mason:** History of the Art of Writing Macmillan 1920
7-**Hutton Webster:** Rest Days Macmillan 1916.
8- **J.T. Shot well: Introduction to the History of History Chaps.** i-xi- columpia University press 1927.
9- **Adolf Erman:** Literature of the Ancient Egyptians E.P. dutton and Co. 1927.
10-**A.T. Olmstead Assyrian:** Historiogrephy Universty of Missouri Press 1961.
11- **D.D. Luchenbill:** Ancient Records of Assyria and Baloylonia unwirsty oof chicago press 1927, 2 vols.
12-**G.A. Barton,** The Loyal Inscruption of Sumer and Akkad. Yale University press 1929.
13- **R.W. Rogers Cuneiform:** parallels to the old Testanent Abingdon press 1912.
14- **G.F. Moore,** Literateure of th Old Testament. Hemry Holth, 1911.
15- **A.T. Olmstead** «Hebrew History and Mistericel Method» in Olmstead et al, persecution an Leberty: Essays in Homor of George Burr, pp. 21 ff. ceentury 1931.
16-**Hans Schnidt,** Die Ges shichtschraibung im Alten Testament tüingen, 1911.
17- **J.W. Thomposon:** AHistory of Historcial wrting voli, shopi 2 vols. Macmillan 1942.
18- **H.E. Barnes and howard Becker,** Social Thought from lore to science; voll, chopiii, 3 vols, 1961.
19- **Herkert Wendet,** In search of Adam, Hought on Miffin 1959.
20- **J.H. Robinson:** The New History. The macmillen Co. 1912.
21- **I, A. White,** The Evolution of Culture Mc Graw. Hill 1955.
22- **Juluis Leppert** The Evolution of Culture Mac Millan 1931.
23- **Will Durant** our Oriental Heritage Simon and schuster 1938.
24- **Jack Finegan** Light from the Ancient Past, princeton Univ. Prem, press, 1959.
25- **Werner Keller** The Bible at History Strought on 1956.
27- **F.J. Teggart,** The Teory of History, gale University press 1925.
28- **J.O. Hetzler,** soial Thought of the Ancient Civilization Mc graw-Hill 1936.

29- H. H. Breastead Ancient Records of Egupt Univ. of chicago 1906-7
30- J.A. Bewer: Literature of the Old Testament columbia univ. of 1951.
31- Alexaner Heidel: The babylomian Genesis. Univ. of chicagv press 1951.

الفصل الثانى

الكتابة التاريخية عند اليونان والرومان

تردد القول استناداً على شئ من الحقيقة الثانية أن أول كتابة تاريخية تستحق الذكر عند اليونان إنما تمثل فى الأشعار المنسوبة لهومر. فهذه الأشعار بوصفها على الأقل مصدراً للمعلومات عن ثقافة الأغريق ومجتمعهم ، تتضمن مادةً تفوقه فى جمعها ومعناها ماورد فى معظم الكتابات التاريخية التقليدية عند اليونان . وتوضح مؤلفات كل من ت . و . سيمور T.D. Seymour واندرو لانج Andrew lang ا . ج . كيلر A.G. Kaller عن المجتمع الهومرى — كيف يمكن للمرء أن يحصل على صورةٍ حيةٍ وافيةٍ لحضارة ذلك العصر من دراسة لكتابات هومر.

بينما ميلاد الكتابة التاريخية الحقيقة عند الأغريق تطلبت شروطا عده . وظروفاً أساسيةً فى الخلفية الثقافية ، وهو أمر لم يكن متوفراً قبل القرن السادس قبل الميلاد . وأعنى بهذه الظروف أسلوباً سهلاً متعارفا عليه لكتابة النثر ، وفكراً ناقداً يعارض الأساطير الشائعة المتعلقة ببدء الأغريق ونشاطهم وإثارة الاهتمام بالأنظمة الاجتماعية وأصولها .

وكان أن توافرت هذه الشروط والظروف التى لاغنى عنها لكتابة التاريخ فى منتصف القرن السادس فى مدينة ملطيه فى ايونيا . ففى بداية القرن السادس ق.م أدخل كادموس من مدينة ملطية طريقة الكتابة بالنثر بدلا من الشعر .

ولذلك اعتبر كادموس واحداً من أوائل كتاب النثر الأغريق ، وهم الذين أطلق عليهم اسم Logographi . وصحب ذلك ظهور الفلسفة الأيونية التأملية فى نفس الوقت ، وهى الفلسفة التى جاءت للعالم بأصول الفكر الحر والفلسفة النقدية . ويعبر عن ذلك الاستاذ بيورى Bury بقوله : «إننا مدينون للإغريق بأعمق الشكر بوصفهم مبتكرى

الحرية والفكر الجدل . لقد كانت أيونيا فى آسيا الصغرى مهدا للفكر الحر وبين جوانبها نشأ تاريخ العلم الأوربى والفلسفة الأوربية . وفى أيونيا أخذ الفلاسفة الأوائل فى القرنين السادس والخامس ق . م ، يعملون عقولهم للتحقيق فى البحث فى أصل العام وتكوينه . ومن ثم فقد بدأوا عملية تحطيم وجهات النظر والمعتقدات الدينية » .

وكان أن ساعدت حركة الاستعمار والتجارة والسفر فى الشرق على تموين الايونيين والأغريق الإيجيين ، وعلى تطوير تلك الثقافة وروح النقد التى كانت أساسا لنمو الفلسفة والأدب والكتابة التاريخية الاغريقية . والواقع ان اتصال الثقافات بعضها على هذا النحو ، أثار حب الاستطلاع وشجع الازدهار الفكرى ، وهكذا فإن رحلة هيكاتايوس أول مؤرخ اغريق إلى مصر ، وتجواله فيها من أقصاها إلى أدناها ، لم تخل من أهمية .

وأخيرا فإن دخول أيونيا فى نطاقة الامبراطورية الفارسية ، نجم عنه اتساع أفق الثقافة لدى الاغريق الايونيين نتيجة هذا الاتصال العام بين الثقافات كما أنه آثار اهتمام الاغريق الأيونيين بحضارة الشعوب المختلفة الذين ضمتهم الإمبراطورية الكبيرة واصبحوا هم جزءا منها .

ونخرج من ذلك بأن أصول الكتابة التاريخية الاغريقية كانت جزءا من تلك الحركة الفكرية الكبيرة ، التى جرى العرف على تسميتها باسم حركة التدوين التاريخى القديم (قبل هيرودوت) فضلاً عن أنها كانت جزءاً من الفلسفة الأغريقية الناقدة فى أيونيا . وإلى جانب هذه التفسيرات العامة أو الثقافية لمولد أول كتابة تاريخية اغريقية ونبغى ألا نغفل الرغبة الملحة التى كانت تدفع بعض المواطنين البارزين إلى أن يضفوا على أسرهم نسباً مرموقا . ولقد مجد هيسود الآلهة الاغريقية باعطائهم نسباً عريقا . وأضفى الكتاب المحترفون الذين اتصف أسلوبهم بالبلاغة الأمر نفسه على النبلاء هذا إلى أن الاهتمام بدراسة الجغرافيا ناحية ، وعلم وصف الأجيال والسلالات من ناحية أخرى ، فضلاً عن دراسة الأنسان ، كل ذلك ساعد على بذر بذور أصول الكتابة التاريخية عند الأغريق . وهذا يفسر اتجاه الكتابة التاريخية عند الأغريق نحو العناية بالوصف الجغرافى والدراسة الاجتماعية بالإضافة إلى وصف أصول الشعوب وعاداتها .

وفى ضوء العرض الموجز السابق للبيئة الفكرية التى ظهرت فيها البوادر الأولى للنثر الأغريقى النقدى ، يمكن القول : إنه كان من الطبيعى أن نعتبر هيكاتايوس Gecatays (الذى ولد سنة ٥٥٠ ق . م) أول مؤرخ أغريقى . ذلك أنه كان رحالة ، وأحد مواطنى ملطية التى نشأ بين رجالها النثر الإغريقى والفلسفة الإغرقية الناقدة . وتنبع أهميته الأساسية من أنه أن أرهص بتطورين هامين فى النهج العلمى لعلم التاريخ ، فجعل الحقيقة مقياساً لما يرد من روايات . بالإضافة إلى أنه اتخذ اتجاهاً نقدياً صريحاً تجاه الأساطير اليونانية التقليدية التى دارت حول نشأة الخلق . وربما كانت الفقرة الافتتاحية من كتابة المسمى

« الانساب Genealogies » هي أول محاولة يقترب بها كاتب من طبيعة النقد التاريخي اقترابا شعوريا عن وعي صادق . وهو يقول في هذه الفقرة « إن ما أدونه هنا هي الرواية التي أعتبرها صادقة وحقيقية ، لأن قصص الاغريق عديدة . وهي في رأيي تبعث على السخرية » .

ولم تلبث أن اخذت الاتجاهات الفكرية التي أنجبت هيكاتايوس تتقدم بخطى حثيثة . حتى اكتمل التطور من كتابة « الأنساب » إلى « تاريخ هيرودوت » . ذلك أن شارون الذي ينتمي إلى مدينة لامباسكوس ، وديونسيوس — الذي ينتمي إلى ملطية ، جمعا خلال منتصف القرن الخامس تواريخ فارس ، كما وضع سكيلاكس — الذي ينتمي إلى كارياندا ، أول سيرة تاريخية . ثم ألف أنطيوخس — الذي ينتمي إلى سيراكيوز ، أول تاريخ لشعوب اليونان في الجزء الأخير من القرن الخامس . في حين مهد هيلانيكوس — الذي ينتمي إلى لسبوس — الطريق لهيرودوت ، وذلك بفضل سعة دائرة أفقه . ذلك أنه لم يقتصر على علاج تاريخ فارس واليونان من وجهة نظر اجتماعية عريضة فحسب ، بل إنه أيضاً كان أول مؤرخ اغريقي اعترف بضرورة وجود نظام شامل للتسجيل التاريخي . وقد حاول أن يحقق الأمر الأخير ، ونجح في ذلك نجاحاً نسبياً .

على أن هيرودوت كان أول مؤلف إغريقي قام بعمل تاريخي متكامل ومنتظم ، حين كتب قصة العلاقات الأغريقية الأسيوية منذ حكم كروسس ملك ليديا (٥٦٠ — ٥٤٦ ق . م) ، حتى الهزيمة التي لحقت بالفرس عندما غزوا بلاد اليونان سنة ٤٧٨ ق . م . والواقع إن الحروب الفارسية أيقظت عند الأغريق الاهتمام بخصائص وطبيعة حضارات منطقة الشرق الأدنى . ومن ثم فإن أي كاتب يربط بين وصف الثقافات الشرقية ، وبين العمل الوطني المجيد الذي قام به الاغريق في صد الفرس ، كان من الضروري أن يجد عدداً وفيراً من القراء المتجاوبين معه . لقد انتهز هيرودوت ـ أحد مواطني مدينة هاليكارنا سوس (٤٨٤ ق . م — ٤٢٥ ق . م تقريبا) — الفرصة ، ولم يقتصر اهتمامه على الشعوب المتحضرة فحسب ، بل وجه عنايته أيضاً نحو غيرها من الشعوب . ولهذا اعتبر هيرودوت بحق أبا التاريخ ، بل أبا علم البشر والانسان . وقد كتب موريس كروازيه Croiset عن طبيعة كتاب هيرودوت وأهميته فقال : ولقد أخذ كاتب أسيوي إغريقي هو هيرودوت — الذي ينتمي إلى مدينة هاليكارنا سوس — على عاتقه تعريف مواطنيه بمزيد من الحقائق عن الشرق . ووفق في ذلك توفيقاً عظيماً . وامتاز هيرودوت بأنه رحالة لايكل ، دفعته رغبته في أن يرى وأن يتعلم إلى زيارة مصر ، وآسيا الصغرى ، فضلاً عن كل بلاد الأغريق تقريبا ، وصقليه ، وإيطاليا على التوالي . وفي إيطاليا استقر به المقام في نهاية الأمر ، وحيث يحتمل انه مات . وقد وفق في القيام بدارسة ميدانية عظيمة الفائدة ، فراح يسأل الناس ، ويزور الآثار ، ويقف على كل شيء ،

مثل العادات ، والقوانين ، ونظم الحكم ، والديانات ؛ دون أن يكون متأثرا بأفكار سابقة أو ميول معينه . وانما كانت مشاعره عبارة عن مزيجاً مزيداً من الدقة والاستعداد للتصديق ، مع فضول لا يقف عند حد ؛ واحترام للأديان . ومن كل ماشاهده وقرأه وسمعه — فضلاً عن قدرته وعبقريته ، وحبه للإشياء الجميلة ؛ وموهبته فى رواية الأخبار ، وروعة أسلوب — استطاع أن ينتج مؤلفا رائعاً حقا . ذلك أنه أعطى لقرائه صوره عن حياة مائتين من الشعوب المتباينة داخل إطار ضخم كأنه منظر حيٌ متحرك . والواقع ان المعلومات الوافرة التى وردت فى كتاب . هيرودوت ؛ جعلت منه شيئاً أشبه بدائرة معارف ضخمة . ذلك أنه عالج فى ذلك الكتاب أنماطا متباينه من البشر ، وعدداً وفيراً من الديانات ، وتظماً مختلفةً للحكم ، عالج كل ذلك بطريقة ممتعه ؛ بحيث يصعب أن نعثر على تلك الصورة الحافله للمجتمع البشري ؛ حتى على مسرح الحياة المعاصرة »[1]

وكانت الحروب الفارسية هى المحور لتاريخ هيرودوت ، وخاصة ما أصاب اكزرسيس من دمار على أيدى الاغريق . ولكن الصورة الخلفية التى رسمها هيرودوت لمؤلفه احتوت من المادة ما هو اهم وأكثر طرافةً من التاريخ الخاص بحرب الفرس . والواقع أن هيرودوت كان أضعف ما يكون كراوية للتاريخ الحربى ، إذ أظهر فى علاجه لهذا الجانب عدم اهتمام وقلة مقدرةٍ فى التحقق من التفاصيل . بين أن علاجه هذا كان من ناحية أخرى عملا غير عادي ، يستوجب الثناء فى الوقت ذاته ، لأنه لم يسمح للعواطف الوطنية أن تتغلب على أحكامه وحبه للعدل ، وقد بلغ من عدالة أحكامه على الفرس إصراره على امتداح شجاعتهم ، الأمر الذى عرضه لتقديرٍ من جانب مواطنيه من قراء الاغريق .

وقد اعتبر هيرودوت الحروب الفارسية صداما بين غطين مختلفين من الحضارة هما : الحضارة الهلينيه ، والحضارة الشرقية . ومن ثم فإنه تجرد عن الهوى عند تحليل هاتين الثقافتين المتضاربتين . وبفضل نظرته التاريخيه البعيدة ؛ تمكن هيرودوت من أن يصف شعوب غرب البحر الابيض المتوسط والعالم الآسيوى فى القرنين السادس والخامس ق . م وصفاً ممتعاً حيّاً وجاءت هذه المادة خليطاً بين التاريخ الثقافى والدراسة الاجتماعية الوصفية ، إذ تنقل من وصف مناخ المناطق المختلفة ، إلى وصف الحياة الخاصة اليومية للشعوب التى تناولها بالدراسة . ووصف الشعوب المختلفة فى روح بعيدةٍ تماماً عن التعصب الجنسى . ولقد ظل هيرودوت زمناً طويلاً يعتبر ضحية تصديق كل ما كان يسمعه ، ولكن الأبحاث الأثرية المعاصرة أكدت صحة الكثير من قصصه الرائعه . هذا إلى أنه ميز بنجاحٍ فائقٍ ليس له نظير فى عصره بين القصص الشعبى الذى تتناقله الالسنه ، وبين ماشاهده بعينه وآمن بصحته . وأخيراً فإن هيرودوت اعتبر

---

(1)Maurice Croiset: Hellenic Civilzation (Alf.d A. Knopf 1936) pp. 143-144

بسبب تنوع ميوله واتساع أفقه — مؤرخا للتاريخ الثقافى . والجدير بالذكر أنه إذا كان كتابه أول مؤلف تاريخى شامل على وجه الاطلاق ، فانه فى نفس الوقت جاء تأريخا للحضارة .

وكان هيرودوت فى تناوله للحروب الفارسيه أقل توفيقاً وحظاً وإن لم يكن أقل تشويقا .

وأذا كان العلاقه شوتويل Shotwell وصفه بأنه « هومر الحروب الفارسية » فإن لهذه المقارنه سندها وقوتها . ذلك أن هذا الجزء من مؤلفه عبارة عن ملحمة شعرية فذة و استمد إلهامها من إعجابه بالديمقراطية الأثينية . فعلى الرغم من أنه راح يثنى على شجاعة الفرس ، إلا أنه يمجد أثينا وأنتصارها على الأمبرالية الفارسية المطلقة ، وفعل ذلك فى أسلوب حماسى ، يشبه أسلوب بانكروفت عند وصفه فوز الامريكيين باستقلالهم عن الامبراطورية البريطانيه . لكن هيرودوت على عكس خلفه الشهير ثوكيديدس ، أعوزه ذلك الحرص على مراعاة الدقة والوضوح فى سرد الأخبار الحربية هذا فضلاً عن أنه لم يستطع أن يحرر نفسه من الخضوع للعقيدة القائلة : إن الآلهة تتدخل فى اعمال البشر . فظهرت فى أماكن متفرقة من مؤلفه فكرة نسبة بعض الظواهر إلى قوى عليا قاهرة غير ملموسة .

ومع هذا كله فإن شهرة هيرودوت ستظل خالدة بوصفه أول فنان بناء فى مجال الكتابة التاريخية ، وصاحب أول مؤلف تاريخى شامل ، وأول كاتب أثبت أن مهمة المؤرخ هى أن يعبر بناء حياة الانسان الماضى كلها ، وأخيراً بوصفه واحداً من أمتع رواة القصص فى مجال الكتابة التاريخية كلها . وقد ازدادت شهرته واهميته فى جيلنا نتيجة للإقبال المضطرد على دراسة التاريخ الحضارى ، والتخلى تدريجيا عن الاتجاه الذى حظى باقبال شديد ظل سائداً منذ عهد ثوكيديدس حتى القرن العشرين من عصرنا هذا ، وهو الاتجاه الخاص بالعناية بالتاريخ الحربى والسياسى .

أما ثانى المؤرخين الاغريق العظام فهو ثوكيديدس Thucydides (٤٥٦ — ٣٩٦ ق . م) الذى تناول المسائل التاريخيه بروح اختلفت كثيراً عن روح هيرودوت ، فتخلى عن اتباع الأسلوب القصصى مفضلاً عليه السرد المتزن الجاد للحقائق التاريخية كما أدركها . هذا إلى أن ثوكيديدس استبعد الأساطير والخرافات التى ولع بها هيرودوت ، وفصل التاريخ عن شعر الملاحم والقوى الغير طبيعية ، ففسر أحداث التاريخ فى ضوء أسباب منطقية أساسها العقل ، أو مبررات دنيوية . ولا نجد فى كتابات ثوكيديدس استطرادات طويلة تخرجنا عن الموضوع ، مثلما نجد فى كتابات هيرودوت المليئة بتلك الاستطرادات ، بل إننا نجد ثوكيديدس يختار موضوعاً محدداً لبحثه التاريخى ، ويلتزم بالسير فى نطاقه . ولذا لم تكن مادته متصلة بالموضوع العام فحسب ، بل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنقطة قيد البحث .

كانت الحروب البلوبونيزية (٤٣١ — ٤٠٤ ق . م) هي الموضوع الرئيسي الذي عالجه ثوكيديدس في كتاباته ، وهو ميدان أقل مدىً وأكثر تحديداً من ذلك الميدان الذي غطاه هيرودوت واذا قارناً مؤلف ثوكيديدس بمؤلف هيرودوت فكأننا نقارن تاريخ الحرب الأمريكية الأهلية بقصة تطور الحضارة الأمريكية الانجليزية منذ القرن السادس عشر ولما كان بعضا من كتاب ثوكيديدس قد أعد حين كان رحى الحرب دائرة فان عمله كان أشبه بعمل المراسل الحربي الحصيف بحيث أنه يمكننا أن نطلق عليه اسم فرانك سيموندس العصر القديم . وفي الوقت نفسه فإن فولف ثوكيديدس يعتبر بنفس القدر عمل مؤرخ هادئ خال من النزعات ، يعمل على إعادة بناء أحداث الماضي البعيد معتمدا على دراسة الوثائق . وان العرض الموجز الذي تناول فيه تطور اليونان من مدن حرةإلى قيام الامبراطورية الأثينية ، وهو العرض الذي قدم به روايته عن الحروب البلوبونيزية — ليدل على قدرته النادرة على تصوير الماضي إذا ما رأى ان ذلك مناسبا . ولكن عمله العظيم كان في المحل الأول تاريخاً معاصراً لأحداث تناولها بوصفه شاهد عيان ، وناقدا وسياسياً أثينيا .

على ان الفضل الأكبر لثوكيديدس على علم كتابة التاريخ ، يتركز كما ألمحنا في ميدان النقد ، وفي الطريقة المنهجيه . ذلك أنه أكد بقوة نظرية أن القيمة الخالدة للعمل التاريخي وشهرته ، ينبغي أن تعتمد على صدق مايرد فيه من روايات ومطابقتها للحقيقة ، أكثرمما تعتمد على التسلية بسرد الأحداث . والواقع ان ليوبولدفون.رانكه في بداية القرن التاسع عشر ، لم يأت بشرح أوفى من شرح ثوكيديدس في نهاية القرن الخامس ق . م ، للقاعدة الأساسية للدراسة العلمية للتاريخ ، وهي القاعدة القائلة : إن الدقة في جمع المعلومات ينبغي أن تكون أساس الكتابة التاريخية السليمة . أما القاعدة الرئيسية الثابته التي وصفها ثوكيديدس فهي تلك التي تنص على مراعاة التثبت من المادة التاريخية والاقتناع بها ، وهذه كما رأينا — خطوة تقدم بها على هيرودوت . ويضاف إلى هذا كله قدرته على الإلمام بالتفاصيل ، وتنسيقها في سياق السرد العام ومن ثم ، يمكن أن تعتبر ثوكيديدس بحق مؤسس المنهج العلمي النقدي للتاريخ . وفضلاً عن ذلك كان ثوكيديدس أول مؤرخ يقرر في وضوح وجلاء القيمة العملية لكتابة التاريخ ودراسته ، فهو يرى أن الإلمام الصحيح بالماضي مفيد ، لأن الاحداث سوف تعيد نفسها في صورة مشابهة ، وذلك وفقا لسنة الحياة البشرية .

ولم يقتصر جهد ثوكيديدس وإصراره ، على غربلة مصادره وإقامة روايته على وثائق دقيقة ، بل إنه كان كذلك بارعاً في تنظيم مادته وتفسيرها . وإذا كان قد أهتم أساساً بالحقائق السياسية ، فإنه كان في الوقت ذاته أول مؤرخ يتناول السياسة بأسلوب الفيلسوف . ذلك أنه عنى بفحص البواعث السياسية والتاريخية للأحداث ، مميزاً الأسباب البعيدة منها والقريبة ،

فى الوقت الذى امتاز بقدرته على التحليل السيكولوجى للأفراد والجماعات ويظهرها بوضوح فى دراسته الرائعة لعدد من الشخصيات ، وتحليله للرأى العام فى مختلف المناسبات ، مثل ثورة أثينا سنة ٤١١ ق . م . وكان ثوكيديدس أديباً مبرعاً ، فعلى حين أنه استغل الوثائق والمصادر الشفاهية استغلالاً طيبا ، إلا أنه كان يخفى ذلك بمهارة ، ويستخدم طريقة ماهرة فى العرض ، كى يجعل روايته سهلة سلسلة .

ولكن ، مع هذا كله ، ورغم أفضاله الكبيرة على علم التاريخ ، فإن كتابات ثوكيديدس لم تخل من سقطات كبرى . ذلك أنه لم يكن قادراً على استيعاب مفهوم الزمن استيعاباً كاملاً أو على تصوير الأحداث تصوراً تاريخياً صادقا ، هذا بالاضافة إلى أنه لم يمتلك قدرة هيرودوت البارعة فى تقدير أهمية العوامل الجغرافية وأثرها فى توجيه الأحداث التاريخية . ولم يكتف بأن يقتصر بمجال التاريخ على مجال ضيق ، هو دراسة الظواهر السياسية المعاصرة ، بل إنه حصر هذه الظواهر الأخيرة فى الجوانب الخارجية ، العسكرية ، الدبلوماسية ، والنشاط السياسى ، وأغفل الأهمية الحيوية لأثر العوامل الثقافية والجماعية والاقتصادية على التاريخ . ولعل ف . م . كورنفورد F.M. Cornford قد بالغ فى إبراز نقط الضعف هذه ، إذ أوضح كورنفورد فى كتابه « تاريخ ثوكيديدس الأسطورى » Thucydides Mythistoricus » أن ثوكيديدس لم يفهم طبيعة الحرب البلوبونيزية وأسبابها ، حيث يعتقد كورنفورد أن تلك الحرب جاءت نتيجة لمسلك الجماعات التجارية والصناعية فى ميناء بيريه ، أو بعبارة أخرى ، جاءت نتيجة لسياسة الطبقة الوسطى من التجار . ولكن ثوكيديدس لم يذكر هذه الحقيقة الأساسية ، ولعله — بوصفه أثينياً — كره أن ينوه بنشاط الطبقة الوسطى وتطلعاتها ، واكتفى ثوكيديدس بأن سلم بتصريحات بركليز المعلنة عن نتائج الحرب ، دون أن يفحص قيمتها الحقيقية . وقد تولى ج . ف . أبوت G.F. Abbott وآخرون الدفاع عن ثوكيديدس فى هذه النقطة ، ولكن لم يوفقوا توفيقاً كبيرا .

وأهم من ذلك كله ، أغفل ثوكيديدس الفرصة الذهبية لتصوير أمجاد الحضارة الأثينية ، وهو الأمر الذى جاء نتيجة لفكرته المحددة عن رسالة المؤرخ ، لا لعدم قدرته كمؤرخ للحضارة . ذلك أن محاولته الشهيرة لإعادة بناء وتجميع مرثية بركليز ، تمثل دليلاً على ما كان يمكن أن يفعله فى مجال التاريخ الثقافى لو أنه أختار أن يعالج هذا الموضوع . وفضلا عن ذلك ، فإنه يصعب أن نشك فى أنه ذهب بعيداً فى التزام مبدأ التثبت والتحقق من صحة المعلومات التى أوردها . وإذا كان هيرودوت قد أدخل الكثير من الاضافات والاستطرادات على أوصافه ، مما يبدو معه أنه خرج على الموضوع ، فإن ثوكيديدس حذف كثيراً من المادة المرتبطة بروايته اللازمة لفهم الرواية فهماً كاملاً . ويصدق هذا بصفة خاصة على العناصر غير السياسية وغير العسكرية فى المواقف التاريخية ثم إن ثوكيديدس بدت فيه نقطة الضعف التى

اخذها المؤرخون على كارليل ؛ من حيث تفسيره المثير للأحداث عن طريق اتخاذ الشخصيات الكبيره محاور لها ، وإن لم تكن له قدرة كارليل على تصوير الشخصية فى مجموعها . فنى إدراكه للأسباب الشخصية البحته وأثرها على التاريخ كان سطحياً إلى حد ما ، حيث كان يضع مجرد مبررات ظاهرية للأسباب الحقيقية . وأخيرا ؛ لم يبد فى منهجه شيء قليل أو حتى شئ على الإطلاق مما ذكره مايلون فى نقاشه العميق عن استفادة ثوكيديدس من الوثائق بصورة ناقدة . فكما ذكرنا من قبل عن ثوكيديدس ؛ انه كان يخفى مصادره حتى لا يتأثر أسلوب روايته للتاريخ .

ومع هذا كله فإنه من الممكن أن تتفق تماماً مع ماقاله بيورى Bury من إن عمل ثوكيديدس يعتبر أوسع الخطوات وأكثرها حسماً مما قام بها فرد واحد نحو جعل التاريخ على ماهو عليه اليوم . مع ملاحظة عدم اعتبار هذا القول ثناء خالصا . والأمر لاشك فيه ان ثوكيديدس كان له اثر واضح فى إخضاع علم تدوين التاريخ لطلسم السياسة ولغز الأحداث ، وهى مسائل عانى منها التاريخ منذ العصور القديمة حتى القرن التاسع عشر . كما أكد لابرخت ؛ يجب ألا ننسى أن الدقة التاريخية الصادقة ، تتطلب دراسة نشأة كل موقف من المواقف وإطاره الحضارى ، بقدر ما يتطلب مجرد سرد حقائق الأحداث المرتبطة بذلك الموقف سرداً صادقا . فإذا أخذنا بوجهة النظر هذه بالإضافة إلى ماهو مطلوب فى دراسة التاريخ من تحرى الدقة والضبط والاحكام ، فاننا نجد أن ثوكيديدس قلما يرقى إلى مستوى هيرودوت . ولعل المعجبين بالأول ، كثيراً ما غاب عنهم وتناسوا أن مجال البحث ومحتواه لايقلان أهمية فى ميدان التاريخ عن سلامة المنهج وقوة حبك الرواية .

أما آخر كبار المؤرخين الاغريق فقد كان بوليبوس Polybius (١٩٨ — ١١٧ ق . م .) وهو يفوق ثوكيديدس من حيث وفرة الإنتاج والعمق ، ويتساوى معه فى تحريه ودقة الحقائق التاريخية . ولكن لما كان أسلوب بوليبوس معقداً ومطولا ، فإن جمهور القراء لم يقبلوا على قراءة مؤلفاته قدر إقبالهم على قراءة أعمال سلفيه العظيمين (هيرودوت ، ثوكيديدس) . وجاء تاريخه فى أربعين جزءاً تناول فيها اتساع الامبراطورية الرومانية وتطورها الدستورى حتى سنة ١٤٦ ق . م . وإذا كان هناك شيئ امتاز به بوليوس على ثوكيديدس ؛ فهو أنه كان أكثر تأكيداً فى أن المؤرخ الناجح ينبغى أن يكون رجلاً من أبرز رجال الأعمال فى الدولة ، والأفضل أن يكون قائدا وسياسيا .

وكما أن كتابات هيرودوت تعكس اهتمام المؤرخين الاغريق الأوائل بالشرق ، وكما أن ثوكيديدس كتب عن أثينا وعلاقتها الخارجية فى أوج الحضارة الأثينية ، فكذلك صور بوليبوس اضمحلال الامبراطورية الهلينية ، واتجاه الأنظار نحو قوة الرومان الجديدة فى الغرب . ولما كان بوليبوس مواطناً اغريقياً قضى معظم شبابه فى روما ، فإنه كان أكثر اعتدالاً وتمسكاً

بمبدا عدم التحيز ؛ عند علاجه التاريخ الإغريقي والروماني من أي مؤرخ آخر قديم . وقد حاول في مؤلفه حسن التنسيق والترتيب أن يشرح نمو سلطة روما . ويعتبر المجلد السادس من كتابه أفضل تحليل قديم بقي حتى اليوم للمثل السياسية والأساليب العسكرية الرومانية . وفي هذا التحليل ؛ توصل بوليبوس إلى أن عبقرية الرومان السياسية نبعت من اتخاذهم نظاماً للحكم جمع بين الملكية والارستقراطية والديمقراطية . وباتباع الرومان لهذا الأسلوب تفادوا طريقاً حتمياً يمثل حلقة مفرغة ؛ تدور فيها الشعوب من الملكية ؛ إلى حكم الطغاة إلى الارستقراطية فالاوليجاركيه أو حكم الأقلية ، ثم الديمقراطية وحكم الجماهير ، ثم تدور الحلقة من جديد . وكان بوليبوس ثاقب الفكر ، نافذ البصيرة في تقديره للأمور السياسية ، كما كان مولعاً بدراسة الأحداث والشخصيات ، فجاء تحليله للشخصيات رائعا ، نذكر على سبيل المثال ؛ وصفه لشخصية هانيبال .

ويتلخص ما أسهم به بوليبوس في تقدم علم التاريخ ؛ في أنه شجع الأساليب المثالية للدراسة المنهجية التاريخية السليمة ، وهي الناحية التي فاق فيها ثوكيديدس . ففي المجلد الثاني عشر من مؤلفه ؛ أورد بوليبوس نقداً للمؤرخ القديم طياوس ، ويعتبر هذا النقد أول بحث عن منهج الأسلوب العلمي في التاريخ . وإذا استثنينا ما كتبه ثوكيديدس ، فان هذا البحث يعتبر خير ما كتب في موضوعه حتى يومنا هذا فضلا عن أن حيدته وعدم انحيازه كفيلة بأن تجعله نموذجاً لكل المؤرخين . هذا كله فضلا عما يجب التنويه به من أن بوليبوس أصر على أهمية معرفة الجغرافيا والطوبوغرافيا للمؤرخ ، وهو في هذا يشبه العالم ريت Ritter ثم إن بوليبوس شابه ثوكيديدس في اتجاهه ليجعل من تاريخه دراسة ذات قيمة عملية كبيرة أو بعبارة أخرى ؛ يجعل منه دراسة فلسفية تعتمد على الأمثلة والنماذج . وكان بوليبوس يعتقد أن القيمة العملية الكبرى للتاريخ تكمن في عرض الحقائق التاريخية الصحيحة ؛ التي قد تساعد الناس على توجيه الأمور العامة في حاضرهم ولكنه ندر أن سمح لطابعه الفلسفي أن يتغلب على طابعه كمؤرخ . ولما كان كثير من الاهتمام بالسببية ؛ فقد تعمق أكثر من ثوكيديدس في تحليل الأسباب الغير شخصية ، وإن جاء تفسيره أخلاقيا أكثر منه اقتصاديا واجتماعيا . وفي ذلك يقول كروازيه : « إن مؤلف بوليبوس هو المؤلف الذي يوضح فكرة استمرار الحياة البشرية ، وتطابق الأشياء ، واعتماد الدول على بعضها بعد أن كانت كل منها في عزلة عن الأخرى . فلم يعد في إمكان التاريخ بعد ذلك أن ينظر إلى الجغرافيا أو تكوين الدول وقوانينها وعاداتها ونظمها الاقتصادية والحربية على أنها موضوعات منفصلة ، الهدف فيها إشباع فضول القراء بطريقة عابرة نوعاً ما » .

وتلخص العبارة المختصرة التالية المقتبسة من مجلده الثاني عشر آراءه في مجال التاريخ وأساليبه والهدف منه : « يقوم علم التاريخ على ثلاث دعائم : أولها ؛ تناول الوثائق المكتوبه وتنظيم المادة التي يحصل عليها منها . ثانيا ؛ طوبوغرافيا وظهور للمدن الأحياء ووصف الأنهار

والموانى ، وبصفة عامة الظواهر الخاصة بالبحار والدول والمسافات بينها . ثالثها : الشئون السياسة . إن دائرة العمل الخاصة بالتاريخ تشمل أولا : التحقق من صدق الكلمات التي استخدمت وقيلت فعلا . وثانيا : فهم الأسباب التي أدت إلى فشل أو نجاح سياسة معينة أو تنظيم معين . ذلك أن مجرد رواية حادث ما ؛ ليس مفيداً وإن كان طريفا . ولكن إذا ربطت هذه الرواية بذكر المسببات ، أصبحت دراسة التاريخ مثمرة حيث يمكننا عن طريق مقارنتها بظروف ما أن نصل إلى الوسائل والأسس لتقدير المستقبل ، وأن نتعلم من الماضى حتى نتصرف بحذر فى الحاضر ، ومتى نتصرف بجرأة أكثر »

ثم إن بوليبيوس فى تحليله ونقده للمؤرخ الإغريقى القديم طيماوس ؛ عنى كثيراً بموضوع صحة الوثائق التى على المؤرخ أن يستخدمها ، وانتقد الانسياق وراء العاطفة وحذر منه ، وكان بوليبيوس خصماً لدوداً للبلاغة ؛ التى كانت قد بدأت تسوء الكتابة التاريخية عند الإغريق والرومان .

وخلاصة القول ان المرء يكاد يتفق مع الأستاذ جورج وليز بوتسفورد Willis Botsford فى رأيه القائل : إن قراءة هذا المؤلف بإمعان : هى أحسن مدخل ممكن للوقوف على روح التاريخ وطريقته كما ننظر إليها اليوم . » أو على حد تعبير الأستاذ شوتول : إن شرح بوليبيوس للمبادئ الهادية لكتابة التاريخ ؛ هو أول بيان رائع عن المثل العلمية للمؤرخ حتى أيام رانكة »

وهناك مؤرخ أقل مرتبة بكثير من من هيرودوت وثوكيديدس وبوليبوس ، هو اكزنيفون Tenophon (٤٣٠ — ٣٥٤ ق . م) الذى سبق بوليبيوس بقرنين . وكانت قدرته الأدبية مرموقة ، أما قدرته على التحليل التاريخى العميق فقد كانت محرومة . وقد أجاد المذكرات ، ويعتبر كتابه (Anabesis من أمتع ما كتب من مذكرات تاريخيه . كذلك حاول فى كتابة Hellenica أن يكمل أو يواصل تاريخ ثوكيديدس من ٤١١ — ٣٦٢ ق . م .

ومع أن كتابه هذا بالغ القيمة ؛ بوصفه مصدرا لتاريخ تلك الفترة ، إلا أنه سطحى ، وترجع أهميته التاريخية إلى محاكاته طريقة ثوكيديدس وتنظيمه . كذلك كتب اكزنيفون أحسن سيرة تاريخيه فى الأدب الإغريقى ، وهى كتابه عن حياة اجزسلاوس Agesilous . هذا ويعتبر كتابه Ways and Means المثل الوحيد بين كتابات المؤرخين الإغريق الذى يدرك تماماً مدى تأثير العوامل الاقتصادية على اتجاهات السياسة . ومهما يكن من أمر ؛ فن الممكن بصفة عامة ودون غضاضة أن نتفق مع بيورى فى قوله : إن اكزنيفون يدين بشهرته كمؤرخ إلى أن جيلا لا يمتلك القدرة على النقد حافظ فيما بعد على

كتاباته فى حين أهمل غيرها من المؤلفات الأكثر قيمة والتى تستحق المحافظة عليها «وانه لو عاش اكزنيفون فى أيامنا لاعتبر صحفيا من الطراز الأول وكاتب مقالات ممتاز ، ولشق طريقة فى الحياة بوصفه مراسلاً حربيا» ومع ذلك فإنه ليس من العدالة أن تنكر مواهب اكزنيفون الأدبية ، التى تجلت فى مذكراته ، وتراجمه ، وتاريخه الرتيب ، وتحليلاته للمساتير والنظرية الاقتصادية .

أما بوليبوس ، فكان مؤرخاً فريداً فى عصره ، وكان علم الكتابة التاريخية عند الإغريق قد بدأ ينحدر عن المستويات التى وضعها ثوكيديدس ، وذلك قبل أن يؤلف بوليبوس كتابه بوقت طويل . وأخذ علم التاريخ يخضع لتأثير البلاغة فى القرن الرابع ، واتجهت المؤلفات التاريخية للمدرسة البلاغية إلى إبراز الجوانب الخلقية ، إلى الخطب والنقة الخيالية ، كما ولعت بالمديح والثناء ، وهى لذلك تشبه كتابات فرواسار ولامارتين فى عصور لاحقة ، «التى تبدو فنيه أكثر منها تاريخية» . ويرى هيرمان بيتر Hermann peter أن الرضوخ وتلك الاستجابة من جانب المؤرخين لإرضاء نزعة العامة نحو الكتابات البلاغية ، هو السبب الرئيسى فى ركود وانهيار الكتابة التاريخة عند الإغريق ، وشبيهتها عند الرومان .

وكان ايسقراط Esocrates رائد البلاغيين فى القرن الرابع ق . م . كما كان ايفورس وثيوبومبوس زعيمى مؤرخى هذه المدرسة . ولعل مؤلف ايفورس أقرب محاولة من الحركة التاريخية الإغريقية لكتابة (التاريخ القومى) الميلى . وعلى نقيض ذلك كان عمل طياوس ، الذى ينسب إلى مدينة طورمنيوس بصقليه ، والذى قضى حياته يعمل فى صبر لجمع مجموعة كبيرة من الحقائق التى لايرق إليها الشك عن تاريخ صقلية وايطاليا . لذلك كان أول الأقدمين الذين برزوا فى القرن الثالث ق . م . ويمكن القول : إنه كان نموذجا لكل من بلوندس وليلالند Blondise Lalaind فيما بعد . وقد تم بعد ذلك جمع كتابين كبيرين هما : تاريخ العالم لديودور الصقلى (٩٠ — ٢١ ق . م .) ، وتاريخ روما لمعاصره الاصغر سناً ، ديو نيسيوس الذى ينتمى إلى مدينته هاليكارناسوس . وقد عرفا فى السنة الرابعة الميلادية ، ومع أنهما أقل دقة ، إلا أنهما فاقا بكثير مؤلفات اصحاب المدرسة البلاغية . ويعتبر الكتاب الأخير أول مؤلف نادى بأن التاريخ يعلم الفلسفة عن طريق سرد الأمثلة الواقعية .

أما كتابه السير والتراجم عند الإغريق ، فقد قام ايسقراط — وهو أحد زعماء البلاغيين — برفع مستواها . وكانت سيرة اجيز لاوى التى كتبها اكزنيفون إحدى الثار المبكرة . ثم خصص المؤرخون اللاحقون جزءاً كبيراً من مؤلفاتهم لكتابة التراجم . وجدير بالذكر أن كتاب بلوتارخ (٥٠ — ١٢٥ م تقريبا) «السير المتشابهة» وهو كتاب يتصف بالدقة والوضوح — ظل دواما يتصدر الانتاج فى مجال التراجم فى العالم ، وذلك لطرافة معلوماته ،

فضلا عن دقته التاريخية الفائقة . وينبغي أن نذكر أن بلوتارخ كان داعيةً من دعاة الأخلاق ، وأنه كتب كتابه هذا لا ليكون مجرد سير تاريخيه فحسب ، بل ليدعم بالبرهان مبادئه الأخلاقية التي استهدف من ورائها رفع أخلاقيات القراء .

وفي فترة إحياء الحضارة الهيلينية في روما ، ساهم عدد من المؤرخين الاغريق – على مستويات متباينة – بنصيب كبير في الكتابة التاريخية . ومن بين المؤلفات الأقل شهرة التي ظهرت في تلك الفترة ، للمؤلف الذي وضعه اريان Arrian (حوالي ٩٥ – ١٧٥ م) عن «زحف الاسكندر وحركته التوسعية» وكتابه «تاريخ روما» الذي ألفه في الفترة ذاتها . ونذكر من المؤلفات التي تفوق هذين المؤلفين بكثير ، الكتاب القوي الذي ألفه ديوكاسيوس Diocassius (١٥٥ – ٢٤٠ م تقريبا) بعنوان «تاريخ روما» . أما اميانوس ماركيللينوس وهو الذي يمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة عظماء مؤرخي الاغريق ، فقد وضع تاريخاً للإمبراطورية الرومانية من ٩٦ – ٣٧٨ م يمتاز بسعة الأفق والإدراك . وقد كتب مؤلفه هذا باللغة اللاتينية حرصاً منه على أن يقرأه أهل روما . ويلاحظ أن اميانوس هذا كانت تعوزه عذوبة الأسلوب في اللغة التي اختارها وهي اللاتينية ، ولكن روايته للأحداث اتصفت بالدقة ، ويمكن الاعتماد عليها بصفة عامة .

هذا وقد ساهم الإغريق في تطور علم التاريخ عن طريق عرضي ، عندما ابتكروا آراء مقبولة حول عملية التسجيل التاريخي . من ذلك أن المؤرخ القديم طيماوس (٣٥٠ ق . م تقريبا) ابتكر لتاريخ الأحداث طريقة حساب الزمن ، على أساس دورة الألعاب الأولمبية التي تجرى كل أربع سنوات . ثم تقدم تأريخ الأحداث على يد أمين مكتبة الاسكندرية العلامة ايراتوستنيز Eratosthens (٢٧٦ – ١٩٤ ق.م تقريبا) الذي كان أول من ضبط أوقات الفترات الهامة في التاريخ الإغريقي ، مستعينا بالتقديرات الفلكية ، فضلاً عن المراجع التاريخية التقليدية . وانتشر عمله وعمم على يد أبولودورس Appoledorus الأثيني (١٢٠ ق . م تقريبا) وذلك في الدليل الذي وضعه لتأريخ الأحداث عند الإغريق . وقد أتم هذا العمل حتى وصل به إلى سنة ٦١ ق . م أحد علماء جزيرة رودس ، وهو كاستور Castor . ومن هذه الحصيلة التي حققها الإغريق في التأريخ ، أفاد يوليوس الافريقي ، وايزيبوس ، وجيروم في حساباتهم لتاريخ العالم في أوائل العصر المسيحي .

لم تسهم روما سوى بالقليل من العناصر الجديدة المبتكرة فى تقدم علم كتابة التاريخ . ذلك أن روما سارت فى هذه الناحية كما هو الحال فى سائر مظاهر حياتها الحضارى على منوال الاغريق . وإذا كان هناك مؤرخون رومان مشهورون ، فإن أحداً منهم لا يرقى إلى مستوى ثوكيديدس أو بوليبوس فى التزامه أساليب النقد . ومع هذا نستطيع أن نقول : إن ليفى وتاكيتوس ، هما المؤرخان الرومانيان الوحيدان اللذان بلغا فى الجانب الأسلوبى ما بلغه المؤرخون الإغريق من رقى وتقدم .

ويتضح اعتماد الرومان المباشر على الاغريق فى كتاباتهم للتاريخ ، من أنهم حتى القرن الثانى ق . م دأبوا على تدوين معظم كتاباتهم التاريخيه باللغة الاغريقية . ومعظم هذه الأعمال التاريخيه المباشرة التى كتبها الرومان بالاغريقية كانت عبارة عن حوليات ، أولها وأشهرها تلك التى كتبها فابيوس بيكتور – Fabius pictor (ولد ٢٥٤ ق . م) . أما الانتاج الذى ردد لأول مرة الأسطورة القائلة بالأصل الطروادى لروما ، فهو حولية الشاعر انيوس Ennius (ت ١٦٩ ق . م) الذى اشتهر باقتباسه عن الأدب الاغريقى . على أن أقدم المؤلفات التاريخيه الرومانية التى كتبت باللاتينية هو كتاب « الأصول » Origins ، الذى الفه كاتو (عاش فيما بين ٢٣٤ – ١٤٩ ق . م) . وقد روى فيه تاريخ روما ، فى إسلوب تمشى مع روحه الوطنية الجياشة ، ونزعاته الريفية الأرستقراطية . ومن أشهر المؤرخين الرومان القدامى ، فارو Farro ، وكان كاتباً واسع الأفق ، لا يمل ولا يكل . وأهم مؤلفاته كتابه عن الآثار الرومانية سنة ٤٧ ق . م .

أما أول المؤرخين العمالقة فهو يوليوس قيصر الذى يعتبر من أعظم رجال عصره ، وأبرز قادة الرومان من حيث المقدرة (١٠٠ – ٤٤ ق . م) . وكان فى كتابته دقيقاً بوجه عام ، وواضحاً وقوياً على الدوام ، اتصف أسلوبه بالصرامة والقوة . وقد كتب كتابين يدافع فيهما عن حياته العامة هما : « تعليقات على الحروب الغالية » و « الحروب الأهلية » وهما أحسن ما كتب من مذكرات تاريخية فى العالم القديم ، ويقفان على قدم المساواة مع ما كتب من مذكرات تاريخيه فى أى عصر . والحق إن كتابات قيصر التاريخية « تمثل أروع عرض لما كتب فى مجال

التاريخ ، إذ صور عبقريته كأحسن ما يكون التصوير ، وناقش قضاياه بدقة فائقة ، بفضل تحلّيه بصفات ضبط النفس ، والتواضع الشخصى الملحوظ ، ويكاد كتابه «تعليقات على الحروب الغالية» لا يقل أهمية من حيث ما حواه من معلومات عن بلاد الغال قبل عهد الرومان - عن كتاب تاكيتوس المعروف بأسم «جرمانيا» - من حيث ما تضمنه عن بلاد الجرمان قبل عصر الرومان .

وهناك مؤرخ رومانى أكثر منهجية هو سالوست Sallust ، واسمه بالكامل جايوس سالوستيوس كرسبوس (٨٦ - ٣٤ ق . م) ويعتبر التلميذ الرومانى لثوكيديدس . ولم يعثر على مؤلفه الرئيسى عن تاريخ روما من ٧٨ - ٦٧ ق . م . ولكن يمكن للباحث من كتيباته عن مؤامرة كاتيلين ، وعن الحرب بين روما ونوميديا - المعروفة بحرب جوجورثا - أن يقدر أسلوبه القوى الراقى ، وأن يلمس قدرته على تحليل الشخصيات والعوامل السياسية . لقد امتدح المعلقون على مؤلفاته بنوع خاص جهوده الواضحة فى التزام عدم التحيز ، وسط الظروف السياسية التى أحس بها إحساساً عميقاً ، كما أشادوا بقدرته الفائقة على تصوير الشخصيات التاريخيه وتحليلها . بيد أنه لم يستطع إخفاء تشاؤمه إزاء مستقبل الدولة الرومانية ، فى الفترة المضطربة المتقلبة التى صحبت سقوط الجمهورية . ويلاحظ أن سالوست لم يتفهم تماماً أسس الاتجاهات التاريخيه للسياسة الرومانية فى عصره ، ولم يعن بضبط تواريخه ولا بمعلوماته الجغرافيه . وكان يستأجر الكتبة لإعداد الجزء الأكبر من أبحاثه التاريخية .

أما المؤلف الرائع فى تاريخ روما القومى فكان من وضع ليفى (تيتوس ليفيوس) (٥٩ ق . م - ١٧) وهو واحدٌ من أعظم الرواة فى كافة العصور ، وجاء مؤلفه ملحمةً نثريةً كبيرة ، تصور نمو الدولة الرومانية ذات الصبغة العالمية ، وبرغم تفهمه الكبير لأهمية الدقة فى السرد التاريخى فإنه فضل كمال الأسلوب على مراعاة الدقة فى عبارته . ولم يتخذ ثوكيديدس نموذجاً يحتذ به ، وإنما اختار أن يتخذ رجال المدرسة البلاغية الاغريقية ليحتذ ى أسلوبهم . وإن ما تميز به مؤلف ليفى من أسلوب أدبى رفيع ، وحرص على إشباع نزعة الغرور الوطنى عند الرومان ، الذين اتصفوا بحرصهم على شد انتباه المعجبين من معاصريهم ، ثم ما حظى به هذا المؤلف من إعجاب رجال الحركة الانسانية فيما بعد ، كل هذه الأمور تضافرت معاً لتعطى كتاب ليفى مكانةً خاصةً فى ميدان التأليف التاريخى ، أسمى بكثيرٍ من قيمته التاريخيه البحتة .

لقد كتب ليفى بصراحة ليبرز عظمة روما ، وبمجد كبرياء أهلها وغرورهم ، وليبعث فى الشباب الرومانى روح الحماسة وحب الوطن . وكانت عاطفته الدينية أقل قوةً من عاطفته الوطنية فاحتلت القوى الخارقة للطبيعة دورا كبيراً فى كتابته التاريخيه . وقليل من مؤرخى العصور الوسطى من فاقه فى إرجاع الأحداث التاريخيه إلى تدخل الآلهة . والواقع إن ليفى لم يحسن استغلال مصادره ، ولم تكن لديه القدرة الكافية أو الرغبة فى استبعاد العناصر الخرافية

والتقليدية من كتابته . لقد اعتقد أن كل ما وجد من مادة تاريخية سابقة صالح له . وجاء تناوله لنشأة روما بصفة خاصة ، بحثاً لا يعتمد عليه ، حيث أنه جمع فى صعيد واحد مجموعة من الأساطير والخرافات والتنبؤات . ولسوء الحظ ، فإن الجزء الأول من تاريخه هو الذى بقى حياً للأجيال اللاحقة . والواقع أنه لا يوجد خير من المؤلفين اللذين ألفها ليفى وبوليبوس عن تاريخ روما لتوضيح الفارق بين رواة القصص المتمثلين وطنية ، والمؤرخين اللذين يتبعون فى كتاباتهم الأساليب العلمية السليمة .

بين أنه ينبغى أن نذكر أن ليفى لم يكن شخصية بلهاء ساذجة تؤمن بكل شئ . لقد كان يميز بين الغث والسمين ، وأدرك أن مصادره لكتابه تاريخ روما فى عصرها الأول ، تكاد تكون عديمة القيمة ، ولكنه استخدمها متجاهلاً هذه الحقيقة ، وأدرك أنه إذا كانت المادة التى كتبها ليست تاريخاً سليماً بالمعنى العلمى فحسب أنها قطعة أدبية رائعة . ومن هنا نبع اهتمامه بالكتابة .

ومن الأمثلة الأقل أهمية للمؤلفات التاريخية التى وصفها المؤرخون الرومان من رجال المدرسة البلاغية تاريخ روما فى أوائل عصر الامبراطورية ، ألفه فيليوس باتركولوس فى عهد الامبراطور طيبروس .

أما آخر المؤرخين الرومان العظام فهو بوبليوس كورنيلوس تاكيتوس Publuis Corneluis Tacitus (٥٥ – ١٢٠ م تقريبا) الذى كان رجل عمل ، شأنه شأن ثوكيديدس وبوليبوس . ذلك أنه كان أحد المعجبين بالجمهورية الرومانية ذات الطابع الأرستقراطى . وكانت نظرته للسياسة الرومانية والمجتمع الرومانى أكثر تشاؤما من رواية سالوست عن انهيار الجمهورية . لقد كتب تاكيتوس فى حماسة بالغة ، وكانت له قدرة نادرة على تصوير الشخصيات ، كما حرص بصفة عامة على تحرى الحقيقة فيما كتبه ولكن حرصه على استخلاص المغزى الأخلاقى لرواياته ، قلل من قيمة مؤلفه من الناحية التاريخية ، وإن كان قد زاد من شهرته الأدبية . ويعتبر تاكيتوس وجوفينال مسئولين عن تلك الأسطورة المضللة ، التى تدور حول « الأسباب الخلقية » لسقوط الإمبراطورية الرومانية ، وهى التى تلقفها وزاد عليها فيما بعد شارل كنجسلى وآخرون غيره ، مما أدى إلى نتائج مؤسفة .

ولتاكيتوس مؤلفان رئيسان هما : « الحوليات » التى تناولت الفترة من موت أوغسطس حتى سنة ٦٩ ق . م وكتابه « التواريخ » الذى بدأ بالأزمة السياسية التى حدثت فى سنة ٦٩ وتناول عهد الأباطرة الفلافيين . ويحتل تاكيتوس بوصفه مؤرخاً اتبع منهجا علميا مكاناً وسطاً بين ليفى وبوليبوس ، إذ كان أكثر توفيقا وأقل استعداداً لأخذ الأمور على علاتها من ليفى . ولكن تعوزه قدرة بوليبوس على عدم التحيز . ذلك أن تعصبه ضد الامبراطورية ، وميله للكتابة المثيرة – كل ذلك جعل كتاباته لا يمكن الاعتماد عليها بالقدر الذى يمكن به

الاعتماد على كتيبات بوليبوس . هذا إلى أنه كتب من وجهة نظر طبقة أعضاء السناتو ، والتزم روح الإعجاب بالنظم الجمهورية القديمة ، حتى مع اعترافه بأن الجمهورية لقيت نهايتها نتيجة لما كان يمكن فيها من ضعف .

ومع هذا يعتبر تاكيتوس فى تحليله للمؤامرات السياسية ، ووضعه للشخصيات المرموقه ، على رأس قائمة للمؤرخين القدامى . إن الصورة التى رسمها لشخصية طبريوس لا مثيل لها فى المؤلفات التاريخيه القديمة . وإذا كان بوليبوس قد أعتقد أن التاريخ أداة فى خدمة الدولة ، فان تاكيتوس رأى أن التاريخ ينبغى أن يدعم الأخلاق العامة والخاصة . كذلك اعتقد تاكيتوس أن أسمى وظائف المؤرخ هى ألا يترك عملاً ذا قيمة دون أن يبرزه ، وأن يجعل التأنيب الذى يمكن أن يلحق بالإنسان من الخلف والاجيال التالية ، مصدر رعب لكل من يقول قولا سيئاً ، أو يفعل شرا . لقد أدخل تاكيتوس نظرية أن التاريخ يعيد نفسه فى مجال الأخلاقيات . فكتب فى حولياته (الجزء الثالث ، ٥٥) يقول : «لعل هناك فى كل أمر من الأمور ما يشبه الدائرة . وقد تكون هناك ثورات وتغييرات تطرأ على الأخلاق ، كما هو الحال مع تغيرات الفصول . وليس معنى ذلك أن كل ما كان فى الماضى أفضل وأحسن ، فإن عصرنا أيضاً أنجب نماذج رائعةً للعظمة ، وثقافةً وحضارةً تحتذيها الأجيال القادمة» . وكانت تنقص مؤلفات تاكيتوس خطة عريضة ، كتلك التى اهتدى بها بوليبوس ، إذ أفسدت كتابته كثرة التفصيلات الثانوية المتداخلة . وهكذا احتجبت صورة تطور الامبراطورية الرومانية فى كتابته خلف إسرافه فى العناية بسير الأفراد ، فضلاً عن التيارات المعقدة من الدسائس والاعمال الحزبية .

وبالإضافة إلى اعمال تاكيتوس التاريخيه البحتة ، كان كتابه «جرمانيا» من أقدم الدراسات فى ميدان علم الاجتماع الوصفى . وقد صار لهذا الكتاب أهمية كبيرة فيما بعد ، نظراً لكونه المصدر الشامل الوحيد لمعلوماتنا عن نظم الجرمان فى عصر تاكيتوس ، حتى ظل الوثيقة التاريخيه التى ثار حولها جدالٌ لا يفوقه سوى الجدال الذى قام حول توراة موسى والأناجيل المتقاربة (متى ومرقص ولوقا ويوحنا) . ولقد كشف النقاب عن هذا الكتاب فى عصر الحركة الإنسانية ، وعرفه جمهور المتعلمين عن طريق كل من : بوجيو ، وانوك الاسكولى ، وكونراد كلتيس . وظل هذا الكتاب محور الصراع التاريخى بين المؤرخين الألمان والمؤرخين الفرنسين فى العصور الحديثة ، بالضبط مثلما كان الألزاس واللورين مثار صراع سياسى وحربى بين الدولتين اللتين ينتمى إلى كل منهما الفريقان السابقان . وفوق هذا أو ذاك ، فإن اتجاه تاكيتوس إلى إعلاء شأن الجرمان الأوائل من الناحية المثالية على حساب الرومان ، أدى إلى ذلك التفسير الخاطئ الخطير للنزوات الجرمانية ، والذى بلغ ذروته فى النهاية فى تخيلات شارلز كنسجلى التى أودعها كتابه «الرومانى والجرمانى» .

أما آخر مؤرخ روماني كان له نصيب من الشهرة ، فهو سوتنيوس ترانكيليوس Suetonius Tranquillus (٧٥ – ١٦٠ م) وهو الذي ظل مغموراً حتى عمل كورنمان على كشف الستار عنه وإظهار أهميته . وكان سوتنيوس ترانكو يللوس السكرتير الواسع الاطلاع لقائد الحرس الإمبراطوري للإمبراطور هادريان . ومع أن كتابه المطول المليء بالمعلومات عن «حياة القياصرة» يعول عليه في وصف الحياة العامة ، الا أنه يعتبر مثلاً من أوائل الأمثلة في كتابة التاريخ عن محاولة البحث عن الفضائح ونشرها . والحق أن كتابه زاخرٌ بوصف المواقف التاريخية والشخصيات ، حتى إن التراجم والسير التي ذكرها تغطي الفترة من عهد أوغسطس حتى عهد الاباطرة الفلافيين . وبرغم ولع سوتنيوس بالتفاصيل المثيرة ، إلا أنه تحاشى الأساليب البلاغية السائدة في عصره ، وترك الحقائق التي سردها تروي قصتها بنفسها . وإن أهم ما ميز سوتنيوس في مجال تدوين التاريخ ، أنه أصبح نموذجاً يحتذى من ناحية الأسلوب وتنظيم التراجم التاريخية خلال عصر الحركة الإنسانية .

وأخيراً ، فإنه لا يمكن ختام هذا العرض الموجز للكتابة التاريخية عند الرومان ، دون الإشارة إلى كاتبٍ ولو أنه لم يكن مؤرخاً محترفاً لكنه كان أكثر المؤرخين القدامى إلماماً بفكرة التاريخ . ونقصد به شاعر التطور العظيم لوكرتيوس (٩٥ – ٥٥ ق . م) . ويعتبر كتابه عن طبيعة الأشياء أروع ما صدر عن تطور الكون حتى نشر هربرت سبنسر كتابه «المبادئ الأولى» First principles في سنة ١٨٦٠ . وقد شرح لوكريتوس في كتابه ، تطور الحضارة المادية ، والنظم ، والسلوك ، والعادات ، حتى قال عنه الأستاذ شوتويل : «إنه ربما كان أروع عملٍ ظهر في أدب الأقدمين» .

وعلى الرغم من أن المؤرخين الرومان لم يكونوا مبتكرين ، وكانوا دائماً في كثيرٍ أو قليلٍ تحت تأثير المدرسة الاغريقية البلاغية ، إلا أن أهم ما امتازت به كتاباتهم أنها كانت أكثر صدقاً وأقرب إلى علم كتابة التاريخ مما جاء بعدها من كتابات رجعت بالتاريخ إلى الوراء ، وجعلته يخضع لتأثير الأساطير والتعصب الديني ، وهي الظاهرة التي كانت قد أخذت تختفي منذ أيام هيكاتيوس الملطي ، أي قبل ثمانية قرون .

المــراجــع

1- **J.T. Shotwell**, An Introduction to the Histery of History cheps XII-XXIII.

2- **Thompson:** History of Hisrical writing Vol. 1. chaps II-VII
3- **Mortz Rutter:** Die Entwicklung der Geschichtowissenscheft — Munich 1919.
4- **G. Wachsnuth**, Einleitung in das studium der alten Geochichte (Leipsig) 1895.
5- **Uber Ziel und Methuden der griecheschen** Geschichtohchrei, bung Lepzig 1897.
6- **J.B Bury** The Ancient greek Historians Pover 1957.
7- **Hermaon Peter** Die Geschichtliche Litteratur Uber die romische Kaiserzeit bis The Obosuis 1. Leipzig 1897.
8- Wahrfet und kunst leipzig 1911.
9- **T.R. Glover:** Herudotus, Unwiersity of calefarnia press 1939.
10- **F.M. Cornford:** Thucydides Mythistoricus London 1907.
11- **G.B. Grundy:** Thucy dides and the History of His Age London 1911.
12- **G.F. Abbott:** Thcydides: Astudy in Historical Reality. London 1925.
13- **C.N. Cochrane:** Thucydides and the Sience of History London.
14- **Offo Cutuz:** polybuis und Sein Werk, Lepzig 1902.
15- **R.A. Laquer:** Polybuis Leipzig 1913.
16- **T.S. Brown:** Timaeus of Tauromenium, Universety of california press 1958.
17- **A.J. Toynbee:** Greek Historcial Thought Macmillan 1924.
18- **Wilhelm Soltau** Livius Geschichtswerk, Leipzig 1897.
Romische Geschichts chreilsung, Leipzig 1909.
20- **Gaston Boisser** Tacitus London 1906.
21- **Wolf Steidle:** Sallusts Hiswrische Monograpbien wiesbaden 1958.
22- **M.L.W. Laistner:** The Greater Roman Historians unversity of California press 1947.
23- **Willy Strehl and Wilhelm Solatu:** Grundriss der alten Geschichte und quellankunde, Bresleu, 1913 2 vols.
24- **Arthur Rosenberg Einleitung and quellenkunde Zur romishen Geschichte. Berlin 1921.**
25- **W.S. Teuffel and L. Schwake:** History of Roman Literature 2 vols. London 1900.

الكتابة التاريخية فى العصر المسيحى الأول

الخلفية الثقافية للكتابة التاريخية فى العصر المسيحى

صحب انتصار المسيحية على الوثنية تغييراتٌ شاملةٌ فى مفاهيم الكتابة التاريخية ، والآراء التى اهتدت بها . ففى العصر المسيحى استبعدت – من الوجهة الرسمية على الأقل – الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان . ولم تلبث أن غدت كتابات الوثنيين التاريخية تحتل مرتبةً أدنى بكثير من مرتبة كتابات اليهود المقدسة الواردة فى العهد القديم (التوراة) ، رغم أن معظم ما احتوته (التوراة) كان فى مستواه التاريخى أقل بكثير من مستوى مؤلفات كبار المؤرخين الوثنيين . كذلك احتقر المسيحيون منطق العمل الذى احتل مكانته الهامة عند الإغريق ، ورفعوا من شأن الايمان ، وجعلوا له مكان الصدارة . وهكذا غدت سهولة التصديق وخاصة بالنسبة لقوى الطبيعة الخارقة – فضيلة أساسية ، عقليةً وروحيةً معا . ولقد كان شوتويل بارعاً عندما أجمل هذه الحقائق الجوهرية عن تلك الثورة الثقافية الكبرى من حيث تأثيرها على الكتابة التاريخية فقال : «ليس هناك فى تاريخ الفكر ثورة أهم من هذه ، من حيث إنتاج المفكرين والمؤلفين والفلاسفة والفنانين والشعراء ورجال السياسة . ذلك أن الاهتمام تركز حول مايسمى وحى الأنبياء والزهد فى الحياة الدنيا .... ، وحلت كتب اليهود المقدسة محل مؤلفات الأقدمين وهكذا بدأت ثورة فى تاريخ التاريخ ، إذ تعرضت أشعار هومر ، وكتابات ثوكيديدس وبوليبوس وليفى – وهم فخر العصر القديم – للإهمال والإغراض . وربط المسيحيون النظرة العلمية التى توصل إليها أعظم المفكرين الذين أنجبهم العالم بالأساطير والخرافات التى نشأت قرب مراكز البرابرة البدائيين ، ومعنى هذا أن كل شئ صار فى نظرهم وثنيا ، أى متصفا بالخداع والتضليل ولا يمكن الاعتماد عليه إلا إذا كان متمشيا مع ضوء العقيده الجديدة ، أو إذا استطاع أن يفرض نفسه نتيجة لمتطلبات الحياة ، وبذلك يشد طريقه إلى علم التجربة العادية ... وهكذا كان انتصار هذه المقاييس الجديدة كارثةً على

علم كتابة التاريخ ، حيث لم تعترف الديانة السماوية الجديدة سوى بمنهج واحد للتاريخ وسط التطور الواسع المتنوع الذى حققه العالم القديم . وبذلك وضعت عقبة كأداء فى مجال البحث العلمى ، تطلب التغلب عليها تسعة عشر قرناً من الزمان » .

ومع ذلك ورغم تعصب آباء الكنيسة الأول رسمياً ووجدانياً ضد الثقافة الوثنية فإنهم لم يستطيعوا التخلص كلية من التأثيرات الغير مباشرة واللاشعورية التى فرضتها الوثنية عليهم ، والتى عاشت فى البيئة الثقافية المحيطة بهم . وهكذا كان سخرية القدر أن هذه الثقافة الوثنية التى عمل آباء الكنيسة على ازدرائها ؛ أثرت فعلاً على فلسفتهم التاريخية ، وفلسفتهم عن الكون ؛ بقدر يكاد يقارب تأثير الثقافة اليهودية عليهم . ذلك آباء الكنيسة استخدموا اللغات القديمة وسحرتهم بلاغة القدماء ، وكان الكثيرون منهم قد تلقوا العلم بوصفهم وثنيين قبل اعتناقهم الديانة المسيحية . وكانت أراؤهم عن التلفيقات اللاهوتيه مشوبه بكثير من العناصر الوثنية ، بل كانت مثلهم السياسة وأعمالهم مقتبسة بعناية عن مثيلاتها فى الامبراطورية الرومانية ، مما جعل الاستاذ جورج لنكولن بير يصف أسس التنظيم الكنسى المسيحى بأنه أشبه ما يكون «بظهور روما جديدة» .

ويبدو أن أكبر أثر ساهمت به الوثنية فى الاتجاهات المسيحية التاريخية بعد أن تأثر المسيحيون بالأسلوب الكلاسيكى والبلاغة والقواعد الكلاسيكية — جاء هذا الأثر من الإفلاطونية الجديدة التى اضفت تبريراً فلسفياً رفيعاً على تمجيد المسيحين الساذج للإيمان . فإن نظريتها القائلة بتفوق العواطف والإيحاء على العقل والفكر وندائها بضرورة تصديق كل ما يتصل بالمسائل الدينية تصديقاً لاحد له — وهذا كله وآم تماماً آباء الكنيسة وانعكاساتهم الفكرية ، وأصبح جزءاً لايتجزأ من الاتجاه الفكرى لدى مؤرخى العصر المسيحى الأول والعصر الوسيط ذلك أن القديس أوغسطين وقف على اتجاهات الأفلاطونيه الجديدة أيام شبابه ، ثم ظهرت هذه الاتجاهات جلياً فى فلسفته فيا بعد أما الحافز الذى دفع هذه الاتجاهات إلى الأمام فى العصور الوسطى فقد جاء فيا يبدو نتيجة أمرين : أحدهما ، رواج «كتاب الملائكة» Celestial Hierarchy الذى يفسر الأفلاطونية الجديدة على أسس مسيحية ، وقد كتبه راهب سورى فى القرن الخامس الميلادى يدعى ديونيسيوس الغير حقيق[1] .

وينحصر الأمر الثانى فى الجهود الفلسفية والأدبية التى قام بها جون سكوتس إريجينا (John Scotus Erigena) وإلى جانب الاتجاه إلى الرمزية ؛ فقد كان من شأن الأفلاطونية الجديدة أن جعلت من المستحيل تماماً تطور أى اتجاه ناقد يتناول بالشك مصادر المعرفة التاريخية .

(١) لصقت به هذه الصفة تمييزاً له عن ديونيسيس الاريوباغى وكان يظن فى أول الأمر أنهما شخص واحد .

وعلى حين نبذ المسيحيون الأوائل الكتابات التاريخية القديمة ، بسبب موقفهم الرسمى من الثقافة الوثنية ، إذا بهم يركزون اهتمامهم فى كتبهم التاريخية على تأكيد فكرتين هما : المذهب العملى والغائية . ذلك أن «عملية التاريخ» كانت لها دلالة ومعنى عند المؤرخين المسيحين الأول ، بوصفها فى نظرهم جزءاً من عمليه كونية كبرى أركانها الأساسية : الله ، والانسان وفى ذلك يقول الاستاذ جيمس هارفى روبنسون : «ربما كان المسيحيون أول من ظن فى وجود عظمة حقيقية فى التاريخ ، حيث صار (التاريخ) فى نظرهم ملحمةً مقدسةً تمتد إلى الماضى السحيق منذ خَلْق الإنسان ، وتمضى قدماً إلى أن ينفصل الخير عن الشر انفصالاً نهائياً فى لحظةٍ حاسمةٍ هامة» .

وهذه النظرة الفلسفية المسيحية للتاريخ التى وفق جورج سانتيانا حين نعتها بأنها «الملحمة المسيحية» قام الآباء المسيحيون بتطويرها شيئاً فشيئاً حتى شرحها أوغسطين شرحاً وافياً وحاسما فى كتابة «مدينة الله» . ويلاحظ أن هذه الفلسفة التى استقت أصولها من عقائد فارسية وهيلنيه ، قدر ما استقت من مصادر عبرية تعتبر العملية التاريخية تعبيراً عملياً عن الصراع الكونى بين قوى الخير والشر. وقد كان هذا الصراع بالنسبة لمدلوله للإنسان فى الأرض ، وبالنسبة للتاريخ صراعاً بين «مدينة الله» أى المجموعة المصطفاة من المؤمنين برب اليهود والمسيحين ، وبين «مدينة الشيطان» وهو الاسم العام الذى اطلق على اتباع الوثنية المعاصرين والسابقين ، وعلى الضالين من المسيحين . أما نتيجة هذا الصراع فهى فى انتصار الخير وهلاك الشر وفنائه .

وفى ضوء هذه الخلفية الفلسفية ؛ ليس من الصعب أن ندرك أن الكتابة التاريخية المسيحية كانت ذات طابع عملى لم يكن يحلم بها بوليبوس أو ديونيسيوس . لقد كانت «فلسفة تلقن بالقدوة» وفى ظل رادع حقيقى ومن ثم ؛ كان لكل حادثٍ منها كان تافهاً أهمية الحيوية وهذه «الملحمة» التى شرحت شرحاً فلسفياً فى كتابات اوغسطين ، والتى وضحت من تاريخ اوروزيدس ؛ قد صيغت فى أسلوب أدبى ممتع فى حولية سولبيكوس سفيروس Sulpicius Severus (٣٦٣-٤٢٣) .

ابتعد المؤرخون المسيحيون بعيداً عن القواعد التى وصفها ثوكيديدس وبوليبوس للمنهج التاريخى فبالإضافة إلى تعصبهم الشديد ضد الوثنية ، وهو أمر أدى إلى اعراضهم عن الموضوعية كان لزاماً عليهم أن يبتكروا أسلوبا خاصاً لمعالجة الوثائق ذات الطابع الدينى . حيث رأوا أن تناول المسائل الخاصة بالخلق كما وردت فى التوراة بنفس طريقة النقد التى اتخذها هيكاتيوس نحو الأساطير الإغريقية يعتبر إلحاداً وإثماً لايغتفر . هكذا فإنه لو فرض أن الكتب الدينية حوت مالا يصدقه العقل أو يقبله ، فلابد لتبرير ذلك من إيجاد معنى خفى ، أو تفسير باطنى .

واستجابة لهذه الضرورة حلت المجازات والمعانى الرمزية محل التحليل الناقد والقول الصريح كأسس للمنهج التاريخى . وفى ذلك يقول الأستاذ بير Burr : «حتى الكتب المقدسة لم تحظ بالتقدير بسبب ما احتوته من حقائق تاريخية سطحية فحسب ، وإنما للمعانى الأكثر عمقاً ، الرمزية والخلقية والصوفية التى تكمن وارءها» . وكان أن طور فيلو اليهودى - أحد يهود الاسكندرية - المنهج الرمزى المجازى فى تفسير التوراة . كذلك ظهر المنهج فى الكتابات المسيحية المبكرة ، فى كتاب «سفر الرؤيا» وفى «رسالة برنابا» ، و «راعى هرماس» . وكان الأب أوريجن السكندرى (١٨٦ - ٢٥٥) هو صاحب الفضل الأول فى بث هذا الاتجاه بين الآباء المسيحين . ويقول فرديك كورناولس كونبير أنه طبقاً لما ذكره أوريجن : «نصادف شرائع أو أحداثاً عديمة النفع وتتصف بالاستحالة من هذا النوع ، فإن علينا أن نتجنب تفسيرها الحرفى . وأن نفحص المغزى الخلقى التى هى جديرة بأن تحتوية وكذا المعانى السامية الغامضة التى تتضمنها . وما يمكن أن يكمن وراء رمزيتها من حقائق أكثر عمقا . ولقد دبرت الحكمة الألهية عن قصد الشباك الصغيرة والعقبات ، لتجعلنا نتخلى عن تعلقنا بالفهم التاريخى للمتن ، وذلك بحشر أشياء مستحيلة وغير مناسبة بين طياته ، كى تدفعنا عبارات تبدو لأول وهلة أنها غير صحيحة أو ناقصة إلى البحث عن الحقيقة الكلية . فنتلمس فى الأسفار المقدسة - التى تؤمن أن الله أوحى بها - المعنى الجدير به»[1].

ولقد لقى الاتجاه الرمزى الذى سما فوق النقد قبولا عاماً تقريبا ، لدى الآباء المسيحين الأول ، وتجلى هذا الاتجاه فى الكتب الخالدة الآتية : «كتاب الأخلاق» أو «شرح سفر أيوب» لمؤلفه جريجورى العظيم (٥٤٠ - ٦٠٤) . أو كتاب «الشرح المجازى للكتاب

(1) F.C. Conybeare, A history of New Testament criticism (G.P. Puntam sons 1910) pp. 14-15.

المقدس » لصاحبه ايزدور الاشبيلي (ت ٦٣٦ م) . وقد عالج فيه فى ترتيب زمنى الدلالة الرمزية لكل الأشخاص الذين ورد ذكرهم فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد . وأصبحت هذه الكتب هى الكتب الأساسية المتداولة فى العصور الوسطى عن الرمزية .

ولم يقتصر الأمر على وجود معيارين أو مستويين مختلفين كل الاختلاف لاستخدام الوثائق التاريخية وتفسيرها فى أوائل العصر المسيحى ، بل انقسم التاريخ إلى ميدانين حدد كل منهما تحديداً دقيقاً . فكان هناك التاريخ المقدس والتاريخ غير المقدس ، فاختص الأول بالجانب الدينى ، واختص الثانى بالجانب الدنيوى[٢] . وغنى عن الذكر أن الجانب الأول كان له الأهمية الكبرى بل الخطيرة فى ذلك العصر ، حتى إن اصطناع المعجزات والحديث عنها بات أمراً أهم من الحديث عن قيام اسرة من الأسر الحاكمة . وحرص الآباء المسيحيون على أن يكرسوا جهودهم وأقصى طاقتهم لتفسير الحقائق المشكوك فيها والمتناقضة فى الكتاب المقدس تفسيراً مجزياً رمزيا . لكنه كان من المستحيل أن نتصور أحدهم يقوم مثلاً بمثل ماقام به أرسطو من جمع وتحليل محتويات ١٥٨ دستورا .

على انه من الإنصاف هنا أن نشير إلى أن تدهور المدرسة التاريخية تدهوراً ملحوظاً فى ذلك الدور من العصر المسيحى المبكر ، لم يكن كله راجعاً إلى الاتجاه المسيحى نحو حقائق التاريخ ومشاكله . فعلى الرغم من الأسباب التى سبق سردها والتى جعلت الكتابة التاريخية المسيحية أقل صحةً وأتزانا من قرينتها الوثنية ، إلا أنه لا يمكن أن ننكر أن الفترة الأخيرة فى عهد الامبراطورية الرومانية شهدت اضمحلال الحضارة بوجه عام ، أو أن الأنحراف عن المثل والانجازات التى بلغتها الثقافة الكلاسيكية فى أوجها كان له أثره على الكتاب الوثنيين والمسيحين على سواء[١] .

المفهوم التاريخى عند المسيحين
تاريخ الأحداث فى المسيحية

من الوسائل البالغة الأثر فى إزالة الشك من نفوس الناس ، وكسب أنصار لحركة من الحركات ، القدرة على الاستشهاد بماض مجيد . وكان أن أحس المسيحيون بذلك إحساساً عميقا فقبلوا كتب اليهود المقدسة بوصفها سجلاً رعياً لأسلافهم ، ومن ثم نقد واجهتهم ضرورةٌ ملحة وعاجلة ، هى أن يضفوا على التاريخ العبرى القديم منزلةً رفيعة ، وأصالة خرمته

(1) C.F.H.O. Taylor. The Classical Heritage of the Middle Ages (Macmillan Co. 1911).

(2) J. H. Robinson «Sacred and profane History in Annual Report of the American Historical Assoc. 1899-1, 527-35.

منها مؤلفات المؤرخين الوثنيين ذلك أن هؤلاء الأخيرين لم يعطوا تاريخ اليهود سوى ذلك القدر الضئيل من الكم والعناية الذى يتناسب وتاريخهم (اليهود) السياسى الهزيل . ولذا يلاحظ على المؤلفين التاريخين اللذين وصفهما ديوردر الصقلى ويومبى تروجس عن تاريخ العالم – وهما دون شك يقومان بكثير أى تاريخ للعالم جمعه المؤرخون الأوائل من الآباء المسيحين - لم يحققا بحالٍ من الأحوال متطلبات الدعاية المسيحية . وكذلك كان شأن المؤلف الذى وضعه يوسيفوس عن التاريخ العبرى العام ، لأنه بالغ كثيراً فى الدور الذى لعبه اليهود ، على حين لم يعط المسيحين سوى القليل من الاهتمام . ومن ثم اتجه الكتاب المسيحيون إلى جمع عناصر الماضى التى أعطت اليهود حقهم فيما ينسب إليهم من أمجاد ، وتوضح فى الوقت نفسه لماذا لم يعد اليهود جديرين بتراثهم القديم ، بعد أن ضيعوا ذلك التراث فانتقل مجدهم السالف إلى المسيحين .

وكان أول عملٍ للمؤرخين المسيحين ، هو وضع خلفيةٍ تاريخيةٍ رائعة للعقيدة المسيحية ، وتدعيم أهمية التاريخ المقدس وعراقته – وأعنى بالتاريخ المقدس هنا التاريخ اليهودى والمسيحى معاً وبذلك غدا التطور التاريخى لليهودية والمسيحية هو المحور الرئيسى فى تاريخ الماضى بأسره ، بينما وصفت الأحداث التاريخية التى احتوتها سجلات الأمم الوثنية فى صورة عرضية ثانوية ، على سبيل المقارنة أمام خلفية التاريخ اليهودى والمسيحى . وقد عبر عن ذلك الأستاذ جورج لنكولن بير فى عبارته الواضحة الرائعة : «إن ذلك التاريخ الطويل الذى أصبح الآن مقدمة لتاريخهم هو تلك القصة الدينية لشعب الله المختار ، بما فيها من معان تشير إلى سلم يعقوب الذى يصل بين الأرض والسماء[1] . ولقد كان «يهوه» محورها وهو الآن إله الأرض كلها وينبغى أن يدور التاريخ كله حول هذه القصة ، فضلا عن الكتب المقدسة التى يمكن عن طريق قدسيتها البالغة الوقوف على ترتيب الله القادر على كل شئ وكان جيروم هو الذى كشف عن ذلك فى تفسيرات «دانيال» وأحلامه القائلة بخروج أربعة حيواناتٍ عظيمةٍ من البحر لكل منها رأس من ذهب وجسم من نحاس . ومن أيامه حتى عهدنا اضطرت الممالك والإمبراطوريات التى تعاقبت على الأرض أن تجد لها مكاناً داخل الإطار . وكان من الضرورى نبذ كل ماحوته الحوليات غير المقدسة من كتابات تناقض الكتاب المقدس ، ثم تنسيق مابقى منها بعد ذلك مع كلمات هذا الكتاب . لقد اعتبرت حياة الإنسان على الأرض سقوطاً ولم يعد من الجائز للعقل البشرى أن يمجد نفسه ، وبذا فإن فيثاجوراس وأفلاطون قد تعلما من موسى ، وتعلم سينكا من بولس»[1] .

وكان أقدم كاتب مسيحى حاول أن يوجد تأريخا مناسبا لماضى البشرية ، ويتفق وحاجات العقيدة المسيحية الجديدة ومفهومها هو سكتوس يوليوس الإفريقى ، (١٨٠ – ٢٥٠

(١) سفر التكوين ، ٢٨ (١٢) .

(1) G.L. Burr: «The Freedon of History in American Historical Review jan. 1917 pp. 255-60.

ق . م) إذ كتب مؤلفا اسمه «قياس الزمن» chronogrephia فى كتب ؛ لخص فيها ماضى اليهود ، والوثنيين منذ بدء الخليقة حتى سنة ٢٢١ م . وقد أفاد سكتوس الإفريقى مما كتبه الكتاب المختلفون سواء كانوا يهوداً أو وثنيين عن الموضوع نفسه . فكان من بين من اعتمد عليهم : مانيتون ، وبيردسوس ، وابوللو دورس الآثينى ، ويوسيفوس ، وجستوس الطبرانى . وقد وضع هذا الأخير تأريخا يعوزه التهذيب لملوك اليهود . وقد حدد سكتوس الإفريقى فى التاريخ الذى وضعه بداية الخليقة بسنة ٥٤٩٩ قبل المسيح ، كما قرر أن العالم سيظل على حاله خمسمائة سنة بعد مولد المسيح ، يبدأ بعدها العصر الألفى (عصر حكم المسيح ألف سنة على الأرض) . وقد لخص سكتوس الإفريقى أحداث وتواريخ الأمم اليهودية والوثنية فى صورة مقتضبة ، مع إعطاء أهمية خاصة لسجل اليهود التاريخى . ولم تكن الرمزية والخيال فى كتاب أقل وضوحا من عنايته بالجانب الرياضى فى تقويم الأحداث .

وهناك مؤلف لمؤرخ آخر أوفى من مؤلف سكتوس الإفريقى وأكثر منه تكاملاً وانسجاماً ألا وهو التاريخ الذى وصفه ايوزيبوس بامفيلوس Eusebuis pamphilus اسقف قيصرية (حوالى ٢٦٠ - ٣٤٠) لقد حفز ايوزيبوس على إعداد حوليته هذه ؛ رغبته فى أن يرسم الخلفية التاريخية الزمنية للمؤلف الذى أعتزم وضعه عن «تاريخ الكنيسة» ، وكذلك ليتمكن من إثبات أسبقية موسى على حكماء اليونان وروما .

ولقد كتب ايوزيبوس كتابه قبل عام ٣٠٣ م بقليل ، وأفاد كثيراً من جهود سكستوس الإفريقى السابقة ، وقسم كتابه الأول إلى قسمين أساسين ؛ أولهما : قياس الزمن ، وتضمن ملخصاً لطرق حساب الزمن عند اليهود والوثنيين ، وكذا موجز للتاريخ العالمى قام على أساس مقتطفات عن المؤرخين المعروفين فى كل قطر . فاعتمد فى كتابته عن الكلدانين على اسكند - بوليهستور ايدنوس ، ويوسيفوس . وأعتمد فى سرده تاريخ اليهود على التوراه ، وعلى يوسيفوس ، وكلمنت السكندرى . أما ما كتبه عن المصرين ؛ فقد أعتمد فيه على ديودور ، مانيتون ، بورفيرى ، كما أعتمد على كاستور ، بورفيرى ، وديوردرس فيما كتبه عن الإغريق ، وعلى ديونسيوس بن هاليكارناسوس وديودور ، كاستور فيما ذكره عن الرومان . وهكذا ؛ نلاحظ أن إيوزيبوس غض النظر أو تجاهل كثيرين من أكفأ المؤرخين الوثنيين وأحرصهم على تحرى الدقة فى ذكرهم للحقائق .

أما القسم الثانى من تاريخ إيوزيبوس ؛ ويعرف باسم قواعد حساب الزمن Chronological canons ؛ فهو أهم كثيراً من القسم الأول لأنه يمثل فضل إيوزيبوس الفعلى على حساب الزمن وتأريخ الأحداث . بذلك أنه أورد تواريخ الأحداث فى مسلسلة فى عامود فى منتصف كل صحيفة ، مع أعطاء أحداث التاريخ العبرى أولية خاصه . ثم نسق حوادث التاريخ الوثنى والعبرى والمسيحى ، إلى جانب تلك التواريخ ، وذلك فى

أعمدة متوازية ، معطيا أحداث التاريخ العبرى والمسيحى مكان الصدارة . ووضع أحداث التاريخ المقدس إلى يسار عامود التواريخ ، وأحداث التاريخ الوثنى إلى يمينه .

وتمتد عملية حساب الزمن أو التاريخ الإنجيلى بالقارئ إلى بدء الخليقة ، على حين أن التاريخ المقارن المسهب لم يبدأ حتى الوقت الذى يقال إن سيدنا ابراهيم ولد فيه (٢٠١٦ ق . م) ومنذئذ فصاعداً ؛ قسمت عملية تأريخ التاريخ إلى خمس فترات أو مراحل :

(١) ابراهيم إلى حصار طرواده .

(٢) من حصار طرواده إلى الدورة الاولمبية الأولى .

(٣) من الدورة الأولمبية الأولى إلى السنة الثانية من حكم دارا .

(٤) من السنة الثانية . فى حكم دارا إلى موت المسيح .

(٥) من موت المسيح إلى السنة العشرين من حكم الإمبراطور قسطنطين .

وكما سبق أن أشرنا ، فإن المادة قد نسقت فى أعمدة متقابلة أختلف عددها طبقاً للفترة التى تناولتها . وتبدأ هذه الأعمدة بأعمدةٍ خاصةٍ بالملوك الأشوريين والأنبياء العبرانيين وملوك سيكيون ببلاد اليونان ، ثم الفراعنة المصريين . وتعددت الأعمدة الى حد كبير من الفترة الثانية حتى الرابعة ، ثم تحولت فى الفترة الخامسة أى الأخيرة إلى ثلاثة جداول ، خصصت لليهود والأغريق والرومان ، فى حين تضمنت الهوامش تعليقات أيوزيبوس نفسه . ويلاحظ أنه فى تجميعه وتنسيقه لمادته ، لم يكشف عن جهدٍ كبيرٍ وعلمٍ واسعٍ فحسب ، بل كشف كذلك عن قدرٍ كبيرٍ من السذاجة . ولقد أوضح ذلك الرئيس الراحل اندرو هوايت حينما كتب يقول : «بدت فى هذه القوائم أسماء موسى ، والإله باكوس ، واسماء ديورة واورفيوس والامازونات ، كما لو كانت كلها شخصيات حقيقية لا فرق بين الحقيق منها والخرافى . وعلى هذا الأساس نفسه «احتلوا مكانتهم فى التاريخ» .

وكتب ايوزيبوس كتبه بالإغريقية وهى لغة لم يستطيع قراءتها فى ذلك الوقت سوى عددٍ قليلٍ جداً من المثقفين فى الأمبراطورية الغربية ومن ثم كانت هناك حاجةٌ ماسةٌ إلى ترجمتها إلى اللاتينية ، لكى يسهل على المسيحيين الغربيين قراءتها . وقام بهذه المهمة الأب جيروم ، فسارع فى سنة ٣٧٩ م إلى ترجمة تاريخ ايوزيبوس مع اجراء بعض التصحيحات والأضافات . أما كتاب أيوزيبوس (قياس الزمن) فقد ترجمه جيروم دون أن يدخل عليه تغييرات هامة . وأضاف جيروم حقائق كثيرة من التاريخ العام ، وخاصة من التاريخ والأدب الرومانى ، عند ترجمته للجزء المعروف «قواعد حساب الزمن» وكذلك ليجعله أكثر فائدة للغرب . ووصل جيروم بالتلخيص الزمنى للأحداث حتى ٣٧٨ م .

والواقع إن ترجمة جيروم لتاريخ ايوزيبوس ظلت تعتبر المصدر المعتمد فى تاريخ الأحداث بالنسبة للمسيحيين فى الغرب ، حتى راجع هذا التاريخ كل من يوسف جستوس سكاليجر Joseph Justus scaliger فى سنة ١٥٨٣ م ، والأسقف جيمس أوشر James Ushar فى سنة ١٦٥٠ م . على أنه أصبح جزءاً من تاريخ الكنيسة عندما أدخله سولبيكس سيفروس Sulpicuis Severus (٣٦٠ - ٤١٠ م) فى تاريخه ، وكذلك عندما ورد فى كتاب « التاريخ الثلاثى » Historia Tripartita الذى ترجمه رفاقد كاسيودورس .

وكان أن أثر كتاب جيروم تأثيراً كبيراً فى الكتابات التاريخية طوال العصور الوسطى . ذلك أن المؤرخين فى تلك العصور أعتادوا أن يصدروا به روايتهم عما حدث من تطورات فى بلادهم ، أو فى غيرها من الأجتماع ، وأن يربوطوها بالتالى بما سلفها من أحداث حتى يصلوا إلى بدء الخليقة . ولقد وضع بروسبر الاكوتينى prosper of Aquitaine تكملة لكتاب جيروم ، حيث وصل بالأحداث إلى سنة ٤٥٥ ثم أوصلها الأسقف الاسبانى ايداتيوس Idatuis حتى سنة ٤٦٨ م . أما الراهب الافريقى فكتور تونننريسس Victor Tonnennensis ، فقد أخرج حولية عامة منذ بدء الخليقة حتى سنة ٥٦٦ م . وقام العلامة الأسبانى ايزودور الأشبيلى فى أوائل القرن السابع بكتابه ملونة تاريخية أكسبت شهرة كبيرة ، بناها على أساس ماقام به كل من ايوزيبوس وجيروم ، ولكنه تأثر كذلك بما كتبه أوغسطين الذى أقتبس عنه ايزودور تقسيم تاريخ العالم إلى ستة فترات ، نسبة إلى الأيام الستة التى خلق الله فيها العالم . وأجمل ايزودور بطريقة زمنية مسلسلة تاريخ البشرية منذ بدأت حتى ٦١٥ م ، ولكنه لم يضف شيئاً جوهرياً إلى ماجاء فى التواريخ السابقة . كذلك كتب القسيس بيدى ((Bade)) مؤلفاً قيماً عنوانه « التفسير العقلى للزمن » De Temporum Ratione عن التاريخ فى القرن الثامن ، وقسم فيه التاريخ منذ بدء الخليقة إلى عصور ستة . وراح المؤرخون فى العصور الوسطى ينقلون الكثير عنه . وكان بيدى أول من أشاع فى تاريخه أتخاذ مولد المسيح حداً فاصلاً بتقسيم التاريخ إلى ماقبل الميلاد وبعده وهو الإجراء الذى نتبعه اليوم ، والذى كان أول من أتى به ديونزيوس اكسيجس Dionysuis Exiguus (ت ٥٥٠ م) .

ويلاحظ أن فكرة المسيحيين هذه عن تاريخ العالم وبناء عناصره ، بغض النظر عما فى تأريخها للأحداث من تصنع ، وترتيبها ترتيبا زمنياً فى جداول متقابلة ، قد تضمنت ظاهرتين جديرتين بالذكر ، وهما عدم تقبل مبدأ الأهمية النسبية للتاريخ العربى ، ثم التعصب الخطير ضد الحضارة الوثنية ، مما جعل النظرة الموضوعية للتاريخ أمراً مستحيلاً . أما عن الأتجاه الأول

فقد قال عنه الأستاذ جيمس هارى روبنسون : «إن هذه الوحدة اللاهوتية للتاريخ ومعناه ، تمت على حساب كل المفاهيم العلمانية ، والدقة فى صحة المعلومات ، وفى ذلك تضحية بالغة . ذلك أن العموريين حظوا باهتمام لم يحظ به القرطاجنيون . وتألق اسم كل من إنوك ، ولوط فى تاريخ لا يكاد يعرف بركليز . »[1] والحقيقة المرة التى يجب أن نعرف بها لثباتها هى أن الأمة اليهودية تدين بدرجة كبيرة ببروزها فى تاريخ العالم إلى هذه التشويهات التى جاءت نتيجة المفاهيم التاريخية الخاطئة لدى المؤرخين المسيحيين الأوائل .

أورزيوس وتاريخ العالم المسيحى

وكان من غير المتوقع أن يستمر آباء الكنيسة الأوائل قانعين بما تم تسجيله فى العصر الوثنى من أحداث تاريخية ، وإنما اشتدت الرغبة فى إعداد تاريخ للبشرية يتم فى ظل المسيحية ، ويتصف بالتنظيم ، ويأخذ طابعاً رسمياً ، على أن يكون هدفه تمجيد المسيحية ، وكان أن تحقق ذلك بعد أن اتهم الوثنيون المسيحيين إلى حد قولهم إن المسيحية هى المسئولة عن المصائب التى حلت بالأمبراطورية الرومانية ، وخاصة بعد أن تعرضت روما للحصار على يد «ألرك» فى بداية القرن الخامس . وقد عهد أوغسطين بالرد على هذا الأتهام الى مساعده المخلص والمثابر «بولس» أورزيوس paulus Orosuis (٣٨٠ - ٤٢٠ م) ، وهو من مواليد اسبانيا ، ثم أنتقل إلى إفريقية ، حيث صار مقربا لأوغسطين وتتلمذ عليه مدى خمس سنوات . وقبل أن يقوم أورزيوس بجمع مؤلفه التاريخى كتب - بناءً على أقتراح من أوغسطين - بعض أبحاث دفاعاً عن العقيدة المسيحية ضد أقوال الهراطقة . أما كتابه الذى نفى فيه عن المسيحية الأتهامات الوثنية ، فقد عرف باسم «سبعة كتب تاريخية ضد الوثنيين» وقد تم جمعه بين سنتى ٤١٥ ، ٤١٨ م .

وأستند كتاب اورزيوس التاريخى على نظرية القديس أوغسطين القائلة بمبدأ أثر القدرة الالهية فى التاريخ ، بمعنى أن التدبير الآلهى هو الذى قرر مصائر الإمبراطوريات الوثنية ، والتاريخ اليهودى والمسيحى على سواء . وأختار اورزيوس أن يضرب المثل ببابل وروما كدولتين وثنيتين ، كان لها أعظم التأثير المباشر على اليهود والمسيحيين ، ولكنه لم يذكر شيئاً ذا قيمة عن مصر ، فى حين أنه أعتبر مقدونيا وقرطاجنة امبراطوريات إضافية ، ساعدت على نقل الثقافة البابلية إلى روما ، وذلك لكى يبرر الرمزية التى تضمنها حلم دانيال والتى نقلها جيروم إلى المفهوم التاريخى المسيحى والقائلة : «بصعود أربعة حيوانات عظيمة من البحر» . وكان

(1) J.H. Robinson: The New History (Machmillan 1912) p. 30.

الكتيب الذى وضعه اورزيوس عن التاريخ ، قائماً على تدعيم وجهة نظر جيروم التى استقاها هذا الأخير من حولية ايوزيبوس . على أن أورزيوس لم يبذل جهداً فى جمع المادة التاريخية لكتابه ، إذ أنه لم يستشر المؤرخين القدامى فى الشرق ، أو المؤرخين الإغريق والرومان . واستعان بمقتبسات لاتينية من هيرودوت ، وليفى ، وتاكيتوس ، ومن شابههم .

ويبدأ أورزيوس كتابه «سبعة كتب تاريخية ضد الوثنيين» نبذة جغرافية عن العالم كما عرفه أورزيوس ، لاسيا تلك المناطق التى عالجها فى كتابه . ثم يبدأ تاريخ الإنسان منذ بداية الخليقة باقتباس من حولية جيروم . ثم يذكر عجالة سريعة عن التاريخ البابلى . ويأتى على ذكر التاريخ الرومانى المباشر حتى حصار الغاليين لروما وهو الحصار الذى أبدع فى تصويره ووصف ما أحدثه الغاليون بأنه فاق فى شناعته وسوء تخريبه ، ذلك الذى أحدثه ألارك . ثم يأتى على ذكر التاريخ الإغريقى والمقدونى من أيام بركليز إلى هزيمة بيرهوس الإبيروسى . ثم ينتقل أورزيوس إلى الحديث عن قرطاجة ، التى يتناول تاريخها من نشأتها حتى تخريبها . وفى النهاية يتناول أورزيوس تاريخ روما القريب ، فيؤكد تأكيداً قوياً ارتباطه بالكنيسة المسيحية ، ولكنه لا ينسى فى الوقت نفسه أن يسرد الأحداث البشعة التى صحبت اضطهاد الوثنيين للمسيحيين والمذابح التى تعرض لها المسيحيون ، ويصل بالرواية حتى سنة ٤١٧م .

ومن الواضح أن هناك ثغرات كبيرة عن الماضى فى تاريخ أورزيوس . وجاء ذلك نتيجة لاستبعاده بعض البلدان من الاعتبار فى سرده ونتيجة لعمله الغير متكامل ، وهو العمل الذى عبر عن وجهة نظره الخاصة . على أن نقطة الضعف الأساسية التى تؤخذ على كتابه ، لم تكن نتيجة لإجماله واختصاره فيما كتب . وإنما كانت حول الهدف الذى استهدفه من وضع كتابه ، وهو حرصه على إظهار وتأكيد حقيقة هامة ، هى أن كل ما لحق بروما من مصائب فى العصر المسيحى ، لا يمكن أن يعادل فى عدده وأثره الهدام تلك المصائب التى مرت بالمجتمعات الوثنية . وهكذا أهمل أورزيوس الجوانب المشرقة للثقافة الوثنية ، وتغاضى عن أبراز تلك الجوانب ، حتى إنه جمع كتابه الذى سماه مصائب تاريخية «Historia Calamitatun» ليبرز فيه صورة لاهوادة فيها عما حواه التاريخ الوثنى من كوارث تضمنت الحروب والطاعون والجوع وأهوال الزلازل والدمار الذى حدث بواسطة النار المتطايرة من البراكين والبرق والجليد ، والبؤس الشديد الناتج عن الجرائم التى تحدث فى مثل هذه الأحوال . وعبر عن ذلك الأستاذ روبنسون عندما كتب يقول : «ان كل المنجزات التى تحققت فى مصر واليونان وروما ، اختفت من فكر تلميذ أوغسطين (اورزيوس) فى حين أنه أبرز الآلام التى سادت فى الدول العابدة للشيطان» .

ولكن على الرغم من كل ذلك ، فإنه لاينبغى أن نتغاضى عما فى كتاب أورزيوس العظيم من نظرة بعيدة وبناءة . ذلك أننا نخرج من تاريخه عن الحروب الوثنية وما أحدثه الوثنيون

من مذابح جماعية ، باستطاع أنه يصرف النظر عن شغف طبقة النبلاء بالحروب ، فإن أثر تلك الحروب على العامة كان عميقاً إلى أقصى حد . وأشار إلى أن هناك رواية هامة تروى عن تاريخ العامة الذين كانت الحروب بالنسبة لهم بلاء وشراً مستطيراً . وبالاضافة إلى ذلك ، فإن علاجه التاريخ الإمبراطورية الرومانية فى الفترة القريبة منه ، يجعلنا نحس بأنه كان على يقين من أنه يعيش فترة انتقال ، وهى الفترة التى تعارفنا فيما بعد على أنها بداية العصور الوسطى . وهو بهذا واتجاهه يكون قد أتخذ خطوة تقدم بها على استاذه أوغسطين أو أى كاتب مسيحى آخر .

ومع مايقال حول الحقيقة التى تنادى بأن مؤلف أورزيوس إنما هو كتاب جدلى ، هدفه الدفاع عن العقيدة المسيحية ، فإن هذا الكتاب صار خير نموذج للعمل التاريخى الذى يعالج العالم القديم الوثنى ، وذلك خلال العصور الوسطى . وكان هذا من سوء حظ دارس التاريخ خلال العصور الوسطى ، لأسباب كثيرة واضحة ، أولها أن الكتاب أساء إلى الأمم الوثنية وثقافتها ، وثانيها : أنه أهمل العناصر البناءة والنواحى الأكثر استقرارا فى التاريخ الوثنى ، وثالثها : أن تناوله للتاريخ القديم جاء مقتضباً وغير متكامل ، سواء بالنسبة للبلاد أو بالنسبة للموضوعات والأحداث . وأخيراً ، فإنه حتى المادة التى أقتبسها لم تكن مما يعتمد عليها ، لأنها جمعت من مصادر غير أصلية ، ثم نسقت حتى تبدو فى صورة عمل مبتكر يفسر التاريخ والأحداث .

التاريخ الكنسى المنسق

إن أعظم إنجازات آباء الكنيسة فى ميدان التاريخ تمت داخل إطار التاريخ المنسق للكنيسة المسيحية . ذلك أن نظرتهم العالمية وإن كانت قد حجبت عنهم كثيراً من الأبعاد والمجالات ، وطمست بعض تفسيراتهم ، إلا أن ذلك لم يعد سوى بالنزر اليسر من الضرر على المدرسة التاريخية ، لأنهم رغم مسلكهم المعادى للوثنية ، ورغبتهم القوية فى الأعتقاد فى المعجزات والخوارق الغير طبيعية ، وعلت كتاباتهم من مسحة تدل على بساطة التقوى والتدين ، وتغليب فلسفة المسيحية على تفسير التاريخ ، فإن طبيعة المادة التى كانوا يعالجونها حالت بينهم وبين أن يشوهوها مثلما شوهوا التاريخ الوثنى القديم . ذلك أن أهتمامهم تركز على الموضوعات الكنيسية ، كما تناولوا بالذكر معاصريهم من كبار رجال الدين ، وإن كان هؤلاء لم يلقوا عند الحديث عنهم من العناية مالقيه الشخصيات التى تناولها الإنجيل .

أما أول المصادر الشبيهة بالقصص عن تاريخ المسيحية فهى تلك التى أكتشفت

حديثا ، والمعروفة باسم لفائف أو سجلات البحر الميت ، وتشمل رسائل القديس بولس الرسول فى القرن الأول ، والأناجيل المتقاربة لمتى ومرقص ولوقا ويوحنا ، وهى التى يحتمل أنها كتبت فى الثلث الأخير من القرن الأول نفسه.

وأدق الأناجيل التى يمكن الاعتماد عليها من حيث استقامة الرواية هو إنجيل مرقس - الذى كتب حوالى سنة ٧٠ م ، ولو أن إنجيل لوقا جاء أكثر رونقاً وأكثراقتراباً من أن يكون عملاً تاريخياً . ثم هناك سفر أعمال الرسل ، وهو ماتبقى من التراث القانونى والتاريخى فى القرن الأول ، وقد كتبه نفس الكاتب الذى كتب إنجيل لوقا حوالى سنة ١٠٠ م . وبعد ذلك يأتى الكتاب المسيحيون الذين تولوا الدفاع عن العقيدة المسيحية فى القرنين الثانى والثالث ، وكتاباتهم هى الأخرى مصادر هامة من مصادر المعرفة ولو أنها كتابات جدلية إلى حد كبير.

أما أحد الأعمال الشهيرة من الكتابات التاريخية الكنسية المنسقة فى عهد الآباء الأول للكنيسة ، فهو كتاب التاريخ الكنسى لمؤلفه ايزيبوس اسقف قيصرية ، وهو الذى سبق أن أشرنا إليه بوصفه صاحب التاريخ المعول عليه من المسيحية . وكان ايزيبوس من رجال الدين ذوى المكانة فى الدول ، وصديقاً للإمبراطور قسطنطين وموضع ثقته . فضلاً عن كونه من رجال المسيحية القدامى المتعلمين . ثم إنه أعد نفسه لمشروعه بمزيد من القراءة ، وسعة الاطلاع ، وكثرة البحث فى مكتبة صديقه وأستاذه وصاحب الفضل عليه « بامفيلوس القيصرى » ، وهو الذى حكم عليه بالإعدام فى الاضطهادات التى قام بها ماكسيموس ضد المسيحيين . ولقد تأثرت نظرة ايزيبوس الدينية بأكبر علماء آباء الكنيسة الشرقيين وهو أورجن السكندرى . ويعتبر كتاب اورزيوس عن تاريخ الكنيسة رواية لأصول المسيحية وأنتصاراتها ، وسرداً لنمو الكنيسة المسيحية وتنظيمها فى عهود الحواريين وآباء الكنيسة الأوائل . والواقع أن ايزيفوبس كان من نوع العلامة اليونانى طياوس ، ولكن فى قالب مسيحى بمعنى أنه كان عالماً وأثرياً ولغوياً أكثر منه فيلسوفاً تاريخياً . ولقد كان كما وصفه الأستاذ دفارارى Defarrari فى تلك العبارة التى لخص فيها مواهبه وما أسهم به فى ميدان الفكر فقال : «كان ايزيبوس هو أول من أدرك بوضوح المعنى العام لأدب مسيحى استخدم فيه الأساليب القديمة ، فحدد تواريخ الكتاب ، وصنف إنتاجهم ورتبه ، هذا إلى أنه ترجم منهج مدرسة الإسكندرية فى فقه اللغة إلى قالب مسيحى »[1]

وقد عالج ايزيبوس فى سجله التاريخى نشأة الكنيسة فى إيجاز ثم توسع فى ذلك الموجز وفصله تفصيلاً حقيقياً فى كتابه عن التاريخ الكنسى . وأنقسم عمله إلى الأقسام الرئيسية الآتية :

(1) In Peter Gulday and church Historians (Kenedy 1926) p. 24.

١ – سلسلة تتابع الأساقفة فى أهم الكراسى الأسقفية .

٢ – أشهر المعلمين والكتاب المسيحيين .

٣ – الحركات الهرطقية وزعماء الهراطقه .

٤ – ماحل باليهود من عقوباتٍ مختلفةٍ نتيجةً لصلبهم المسيح .

٥ – اضطهاد الرومان للمسيحيين .

٦ – الشهداء والمعجزات على أيام ايزيبوس نفسه .

أما وجهة النظر التى سادت الكتاب بأسره فكانت – كما هو متوقع – الدفاع المطلق عن المسيحية ، وإثبات أن التاريخ بأكمله يثبت ألوهية المسيح وصدق رسالته . على أن كتاب ايزيبوس يتضح فيه اعتدال لهجته ، واتزانه وهدوءه ، مع أنه من أوائل الكتاب المسيحيين ، فضلا عن أنه شهد استشهاد أستاذه وصديقه المقرب «بامفيلوس» على يد حكومة الوثنيين . ويدل كتابه على سعة الأطلاع ، وتعمقه فى البحث . وفى الحق إن كتابه عن التاريخ يعتبر جامعا للوثائق الهامة المختارة فى التاريخ المسيحى الأول صنعت فى هيئة دليلٍ مرشدٍ ومنظم . ذلك أن تاريخ الكنيسة فى نظر ايزيبوس كان «مجموعة من التعاليم تورث من السلف إلى الخلف» . ومع أن هذا الوضع بالنسبة لكتاب يعتبر مصبدراً مثل كتاب ايزيبوس يجعل قراءته بطيئة ، إلا أن الوثائق التى يتضمنها ، لا غنى عنها لكاتبٍ فى عصرٍ متأخرٍ يؤرخ لتاريخ الكنيسة فى عصرها الأول . ذلك أن معظم الوثائق المتعلقة بذلك الموضوع قد ضاعت ، ولا تعثر عليها إلا فى تاريخ ايزيبوس . وهكذا حالت كثرة الوثائق فى كتابه دون أن تجعله مجرد كتاب فى فن صنعة الأدب ، فضلاً عن أن طريقته فى التحليق فوق الأحداث وعدم التركيز فى سردها ، لم تساعد على جعل الصورة التى يعرفها تتصف بالحيوية . وهكذا جاء كتاب ايزيبوس قبل كل شئ ، مرتبطاً بالتعمق فى دراسة تاريخ آباء الكنيسة . وقد راجع ايزيبوس كتابه أربع مرات ، أنتهى به فى المراجعة الأخيرة إلى حوادث سنة ٣٢٣ م .

وفى القرن الخامس أكمل مؤرخو الكنيسة ، سقراط ، سوزمن sozamen ، ثيودوريت Theodoret ، كتاب ايزيبوس المعروف «بالتاريخ الكنسى» . ولكن كان هناك تداخلٌ فى أعمالهم ، إذ تناول سقراط الفترة من ٣٠٦ إلى ٤٣٩ م ، وتناول سوزمن الفترة من ٣٢٣ إلى ٤٣٩ ، وأما ثيودريت فتناول السنوات من ٣٢٥ إلى ٤٢٧ ميلادية . ثم جمع العمل كله وأختصره وترجمه إلى اللاتينية «ايبثانيوس Epithanius» وأخرون معه ، تحت توجيه وإشراف كاسيدورس فى القرن السادس ، ووصلوا بالسرد حتى سنة ٥١٨ ميلادية . وكتب كاسيدورس بنفسه مقدمة للترجمة اللاتينية ، ومن المعتقد أنه أشرف شخصياً على المختصر ، كما

قرر بنفسه المادة التى تختار وتنظمها . ويعرف هذا العمل الذى أنتجه كاسيدورس وتلامذته باسم التاريخ الثلاثى ((the Tripartite History)) . وأصبح هذا الكتيب عن التاريخ الكنسى هو الشائع استخدامه عبر العصور الوسطى . وعلى الرغم من كل مايقال عن هذا الكتيب من أنه غير مرتب ، وغير منسق ، وغير دقيق ، وكتيب حوليات ، فإنه يفوق فى قيمته العلمية كتاب اورزيوس عن التاريخ العلمانى (الوثنى) .

أما الكتاب التاريخى الوحيد عن الكنيسة المسيحية الذى كتب خلال عصر آباء الكنيسة الأول ، وله قيمته الأدبية فهو كتاب «التاريخ المقدس» لمؤلفه سولبيكيوس سفروس (Sulpicuis severus) وهذا الكتاب تاريخ مختصر مشوق للكنيسة يحوى ملخصا لتصور الفكر المسيحى لتاريخ العالم ، ويعتمد على مدونة اورزيوس التاريخيه . ولقد وصل سولبيكيوس بالأحداث حتى سنة ٤٠٠ م . وكان هدفه من الكتابة استثارة اهتمام جمهور المتعلمين بتاريخ الكنيسة ، وأخرج عمله بإخراج القادر المتمكن . وعلى الرغم من هذا كله ، فإن كتيبه ظل منسيا شبه مهمل طوال العصور الوسطى ، اذ طغى عليه وغمره التاريخ الثلاثى ، مع كونه مطولاً وغير مترابط . على أن كتاب سولبيكيوس لم يلبث ان عرف وأشتهر فى أوائل عصر الحركة الإنسانية الحديثة عندما قدره الإنسانيون الأوائل لأسلوبه الرفيع .

ولعله من الواضح أن أكثر السقطات فى هذا الكتب التاريخية الأولى عن الكنيسة ، هى فشلها فى تحليل القوى العميقة والأحداث البارزة المرتبطة بتلك الحركة الدينية التى كانوا يصنعونها . ومرجع ذلك هو اعتقادهم أن المسيحية سادت بفضل من الله وحده . ومن ناحية أخرى ، إلى الحقيقة الخاصة بأن الكتاب جميعاً آمنوا بفكرة وجود قوى خفية ، ومعجزات وشهداء وقديس .

سير مسيحيه

اعتمد ازدياد نفوذ الكنيسة وتطورها بدرجةٍ كبيرةٍ على جهود المؤمنين بها ورجال الدين . ومن ثم فإنه ليس بالأمر المستغرب أن تحتل السير التاريخية دوراً مشهوراً فى علم الكتابة التاريخية فى عهد آباء الكنيسة . وكانت أول خطوة فى هذا المجال هى الأجزاء الأولى من كتاب ايوزيبوس «التاريخ الكنسى» حيث سرد حياة رجال الكنيسة المرموقين وأعمالهم ، ولكن أول تجميع رسمى للسير المسيحية الشهيرة ، كانت فى كتاب «مشاهير الرجال» الذى كتبه جيروم فى بيت لحم سنة ٣٩٢ م . وكان سوتنيوس كاتب السير الرومانية قد أخرج كتاباً فى سنة ١١٣ م

يحمل نفس العنوان ، حيث رتب فى قوائم كبار الشخصيات فى عالم الأدب اللاتينى مع وصف لهم ، حتى الوقت الذى أصدر فيه كتابه . ويميل الكتاب الوثنيون إلى التقليل من شأن الكتابة المسيحية ، وإظهار المسيحيين على أنهم جهلة وغير متعلمين . وكان ذلك مادفع جيروم إلى التصميم على أن يجمع قائمة بهؤلاء الذين اعتبرهم قد أسروا ضيماً للكنيسة بأعمالهم الأدبية ، رداً على ادعاء الوثنيين ، وتحداهم بهذه المقارنة فى هذه الكلمات الآتية : «دع هؤلاء الرجال — مثل كلسوس Calsus ، بورفيرى ، جوليان وهم الطلاب المجانين الذين يتهجمون على المسيح ، دعهم وشركائهم الذين يتصورون أن الكنيسة ليس لها فلاسف ولا خطباء ولا أطباء — دع كل هؤلاء يرون قدرات وجهود الرجال الذين أسسوا الكنيسة وطوروها ونمتوها . دعهم يكفون عن اتهام عقيدتنا زوراً وبهتانا ، وبأنها ليس لها ما تبديه سوى بساطةٍ غير فنية ، بل دعهم يعترفون بجهلهم هم . »[1]

ولقد سرد جيروم قائمة الذين اعتقد أنهم كتاب مسيحيون مشهورون . من سيمون بيتر حتى وصل الى سرد اسمه هو ووصفهم فى صورة غير منسقة ويبدو أنه أخذ أكثر من نصف القائمة التى سردها عن ايزيبوس ، وحتى يجعل عرضه مؤثرا على قدر الأمكان ، وممتعاً ، أضاف أسماء بعض الكتاب الهراطقة والغير مسيحين مثل يوسيفوس وفيلو ، وجستوس الطبرانى ، ولكنه فى القدر الذى خصصه لكل كاتب ، واللهجة التى عالج بها الموضوع ، أعتمد بصفة أساسية على إحساسه الشخصى تجاه كل كاتب .

ولقد مضى على منوال جيروم ، جنياديوس المنسوب الى مارسيليا (حوالى ٤٧٠ م) حيث جمع مجموعةً من التراجم حملت نفس العنوان الذى أعطاه جيروم لكتابه . وفى بداية القرن السابع الميلادى ، كان الأسقف ورجل الموسوعات الاسبانى ايزدور الاشبيلى (٥٧٠ — ٦٣٦ م) قد وصل بتجميع مادة السير والتراجم حتى العصر الذى عاش فيه ، مستخدماً نفس العنوان . وقد أتم عمله أحد مواطنيه ، هو الديفونسوس الطليطلى (ت ٦٦٧ م) . وفى القرن الثانى عشر مضى هونوريوس الذى ينسب إلى أوتون فى سرد سير رجال الكنيسة حتى عصره . واستمرت العناية بالسير والتراجم خلال العصور الوسطى ، حتى بلغت ذروتها فى الكتاب الذى وضعه يوحنا ترثميوس (١٤٦٢ — ١٥١٦ م) باسم «الكتّاب الكنسيين» والذى جمع فيه ٩٦٣ ترجمة لرجال الكنيسة . ويبدو طابع السذاجة التى اتصف بها أكثر الساردين للسير تعلماً وإيمانهم بالخوارق والمعجزات ، فى كتاب من كتب جيروم أسماه «حياة بولس الناسك الأول» ، أو فى كتاب اثناسيوس «حياة القديس أنطون» على أن أعظم سيرة ذاتية كتبها فردٌ عن نفسه فى ذلك الدور ، كانت «الأعترافات» للقديس أوغسطين ، وهو الكتاب الذى فاق فى قوة وتأثيره أى كتابٍ آخر .

---

(1) Cited in pierre de Labriolle; History and Literature of christarity (Kmpof 1925) p. 362.

المــراجع

1- **Shotwell**, Introduction to the History of History cheps xxiv-xxvi
2- **Thompson**, History of Historical writing vol, chaps viii.
3- **E.J. Goodspeed**, Ahistory of Early christian Literature, Uneversity of chicago press 1942.
4- **Miller Burrows**: The Dead sea scrolls, viking 1958
5- **T.H. Gaster**: The Dead sea scrptures, Doubleday 1956.
6- **M.A. Lerson**: The Religion of the Occident philsophical library 1959.
7- **E.F. Scott**: The Literature of the new Testament, columnsia unversty press 1932.
8- **C.J.M. Hayes**: An Introduction to the Sources Relalting to the Germanic Invasions, chaps x-xi Columbia unversity press 1909.
9- **Pater gilday, ed**, church Historians pp. 3-70 kenedy 1926.
10- **Ritter**, die Entwicklung-der-geschichtswissenchaf Book, chap.
11- **Gustav Krüger**, history of Early christion leterature london 1897.
12- **Pierre de Labriotte** History and literature of chistianety kruopf 1925.
13- **A.C. Me Giffert ed**, The Church History of Eusebuis «Nicene and post-Nicene and post-Nicene Fathers».
14- **I.W. Raymond ed**, seven Book of History aginst the Pagans: The Apology of paulus Brisius, columbia Unversity press 1936.
15- **J.C. Ayer**, Sowce Book for Ancent church History, Scribner 1913.
16- **R. L. P. Milburn**, Early christion Interpretations of History Harper 1954.

الكتابة التاريخية خلال العصور الوسطى

وجهة النظر التاريخية خلال العصور الوسطى

اتضح من البحث السابق أن كتابات اورزيوس وكاسيدورس ، كانت المؤلفات التاريخية التى اعتبرت نماذج تحتذى فى الكتابات المسيحية خلال العصور الوسطى ، كما اتضح أن فلسفة آباء الكنيسة للتاريخ لم تحدث فجوة واسعة تحول دون استمرار الأساليب المعروفة فى دراسة التاريخ . وفى ذلك كتب الأستاذ بير Burr يقول : « لم تفصل العصور الوسطى ما بين التاريخ وعلم اللاهوت ، بل لجأت للحيلولة دون حدوث مثل ذلك الفصل إلى التمسك بقدرٍ من وحدة الفكر يحقق ضماناً ضد الآراء الهرطقية . وهكذا ظلت نظرة آباء الكنيسة ماثلة فى التاريخ حتى نهاية تلك العصور الوسطى التى عرفت باسم عصور الايمان »

ولقد كان رواد كتابة التاريخ فى العصور الوسطى – مثلما كان الحال بالنسبة لبقية جوانب النشاط الثقافى فى تلك العصور – من رجال الكنيسة فى صورة أخرى ، وإن كان غالبيتهم من الرهبان . واستمرت طوال العصور الوسطى الاتجاهات التى سادت العصر المسيحى الأول ، من إيمان بالخوارق الطبيعية ، واعتقاد فى الجن ، فضلاً عن عدم اهتمام نسبى بالحقائق التاريخية التى هى مثار اهتمام المؤرخين اليوم ، وخاصة مايرتبط بقيام الدول واضمحلالها ، والحركات السياسية والاجتماعية والاقتصادية (والفكرية التى هى بمثابة العلامات التى تنتهى بها بعض عصور التاريخ ، وتبدأ بها عصور أخرى . و«الملحمة المسيحية » ظل لها وزنها الذى لم يعتريه تغيير طوال اثنى عشر قرناً من الزمان ، وإن كانت قد اهتزت قليلا فى أواخر العصور الوسطى نتيجة لحركة إحياء الدراسات الوثنية فى أواخر العصور الوسطى ، ونمو الحركة الإنسانية ، وماصحب ذلك كله من نقاشٍ وجدلٍ فى عصر النهضة . ومع ذلك فإن الملحمة المسيحية ظلت بمنجاة من أن تلقى ضربة بالغة العنف ، إلا فى القرنين

السابع عشر والثامن عشر ، حين كشف الربوبيون[1] الإنجليز Deists والفلاسفة الفرنسيون عن ضعف تلك الملحمة وما فيها من تضارب ، وذلك بما أثاروه حولها من نقد في الصميم .

على أن الشئ الجدير بالذكر ، هو أنه حدث خلال القرون التى أعقبت الدور الأول للمسيحية أن شهدت الحياة العلمية تدهورا انعكست صورته على المفهوم التاريخى . ذلك أن كتاب العصور الوسطى لم يبقوا على مثالب العهد المسيحى الأول وعيوبه فحسب ، بل كان يعوزهم أنفسهم معرفة بالعلوم الكلاسيكية ، ومزيدٌ من التعمق فى علم اللاهوت ، وهو الأمر الذى كان متوفرا لدى آباء الكنيسة الأوائل . كذلك عبر كتاب العصور الوسطى عن نوعٍ من الثقافة التى ينقصها التهذيب والصقل ، وهو أمرٌ لم يكن هناك مفرٌ منه فى الفترة التى أعقبت مباشرةً التخلص من البربرية . ولقد أجمل المؤرخ الألمانى الذائع الصيت هنرخ فون سيبل Henrich von Sybel ، الخصائص البارزة لعلم كتابة التاريخ (فى العصور الوسطى ، فى صورة توضح الرباط القوى بينها وبين الكتابة التاريخية فى العصر المسيحى الأول ، حيث قال : «ولم يكن فى تلك الفترة معيار للأحكام التاريخية ، ولا إحساس بالحقيقة التاريخية ولا النذر اليسير من الحاسة النقدية ، بل ساد مبدأ الحكم المطلق ، والسلطة الدينية التى تحكم دون عائق ، وتمكنت هذه السلطة الدينية من أن تحمى كل ماهو مأثور ومتوارث من المذاهب والعقائد . ثم إن الناس فى العصور الوسطى كان يميلون إلى تصديق كل مايقال ، بدلاً من البحث للتفرقة بين ماهو حقيق وماهو غير حقيق . واتسع أفق الخيال فى كل مكان ، وصارت له اليد العليا على العقل والمنطق بحيث لم يصبح هناك فاصلٌ أو تفرقةٌ بين مايجب أن يكون وماهو قائمٌ فعلا ، أو بين الخيال والواقع . كذلك لم تصبح هناك تفرقةٌ بين الحقائق الشعرية والحقائق التاريخية ، فاعتبرت أشعار هومر التى تصور البطولات وتمجدها على أعلى أنواع كتابة التاريخ . وحلت الملاحم ، والأساطير ، والآداب الشعرية ، والشعر التصورى ، محل التاريخ ، ومع ذلك فقد ظهر هناك بصيصٌ من نورٍ خافتٍ ينبئٍ عن تطور تاريخى بطئٍ ، حين أخذ المعاصرون يدونون أحداثاً معينةً كبرى ، أو قضايا خاصةً بأشخاص معينين . ولكن أحداً من كتاب العصور الوسطى لم يمنعه ضميره من أن يحيط الأوضاع المحيطة بها لو من المجد العظمة (مستمدة الصور السالفة فى سالف العصور والأزمان . ولجأ كتاب العصور الوسطى فى تحقيق ذلك ، إلى اصطناع الأحداث ، وتلفيق الأخبار ، وتزوير الوثائق ، دون أن يحاول أحدهم التثبت من صحة الاختيارات المدونة إذ لم يكن هناك داعٍ لذلك ، طالما إن ماذكر جاء متمشياً مع الأوضاع القائمة والاعتقادات السائدة ، فضلاً عن تمشيها مع أهداف المعاصرين وميولهم »

---

(١) هم الذين يؤمنون بالرب دون الأديان (المراجع)

وثمة خاصية عامة أخرى للكتابة التاريخية فى العصور الوسطى ، هى سذاجتها الفكرية ، التى يمكن أن تقارن بالمستوى الفكرى عند الأطفال . وقد أكد هذه الظاهرة الأستاذ جورج جوردن كولتون George Gordon Coulton فقال : «يتصف المؤرخ فى العصور الوسطى – إذا ماقورن بالمؤرخ القديم والحديث – بأن له نفس ما للطفل من اهتمام بأمور الناس والأشياء ، ونفس اتجاه الطفل فى الملاحظة والتطور ، بل وكان له نفس الميل إلى الحقد الذى أحيانا عند الطفل نتيجة لما يسمع ويرى ، من ذلك أنه لايمكن الثقة باحصاءات المؤرخ فى العصور الوسطى ، كما كان يمكن أن يغفر له كل خطأ حسبما له من اتجاه عقائدى أو مهنى . هكذا يمكن مقارنة الكتابات التاريخية الصرفة فى العصور الوسطى – أى حتى القرن الثالث عشر الميلادى – بما كتبه الهنود الحمر عن طبيعة حياتهم حيث إننا نجد هذه الكتابات الأخيرة تتصف بالصدق والتزام الحقيقة ، طالما أنه تتعرض للأحداث اليومية المتعلقة بالصيد ، ولكنها فيما عدا ذلك تفتقر إلى القدرة الافتراضية ومحاولة إثباته بالحجة والبرهان ، فضلاً عن الربط بين النتائج والأسباب» .

واذا كان من الضرورى أن نعترف بهذه القيود التى عرقلت سبيل الكتابة التاريخيه فى العصور الوسطى ، والعيوب التى اتصفت بها تلك الكتابة عندئذ ، فإنه من المناسب فى الوقت نفسه أن نبين الصعاب التى اعترضت سبيل الكتابة التاريخيه . ذلك أنه صحب انهيار الحضارة الرومانية اضطرابٌ وعنفٌ ، وأصبح التعليم عقيما ، وفقد قدرته الخلاقة وحيويته حتى ذبل تماما ، هذا فى الوقت الذى فقدت كل الكتب الهامة عن التاريخ الكلاسيكى القديم أو فقدت أجزاء منها . وكان لتعصب المسيحين ضد الوثنية وتراثها أثره فى تخريب وإفساد كثير من الكنوز الأدبية التى خلفها العصر الوثنى ، وهو الأمر الذى يتمثل بوضوح فى حريق مكتبة الإسكندرية . هذا إلى أن السفر صار مستعصيا ، باهظ التكاليف ، محفوفا بالمخاطر ، ومن ثم فقد اصطبغت الثقافة بصبغة محلية إقليمية ، واستبعدت تلك النظرة الواسعة عن مجتمع أوربى ، أو مجتمع عالمى . وكان أن أصبح الرهبان وهم الطبقة المتعلمة الوحيدة فى أوربا فى العصور الوسطى ، ومن ثم صاروا بالطبع هم مؤرخوها الوحيدون وإذا كنا ندين لجهودهم وإخلاصهم ، فإن خرافاتهم الدينيه وتطرفهم الدينى ، فضلاً عن تعصبهم العنيف لمكاسبهم ونفوذهم الدينى ، كل ذلك كان سبباً فى تحريف عملهم التاريخى وتشويهه . وإن ما يقال من أن معظم المدونات التاريخية فى الغرب خرجت من الأديرة ، ليس مرده فقط الى أن الرهبان كان لديهم الفراغ حتلما توافرت لديهم المكتبات . ذلك أن رجال الكاتدرئيات مثلاً ، كانوا متعلمين ولديهم مكتباتهم القيمة ، ومع ذلك فشلوا فى إتباع مدونات تاريخيه ، لكن رجال الأديرة كان لديهم الإحساس بأن التاريخ ظاهرة مستمرة ، فضلاً عن اعتزازهم الكبير بنظامهم الديرى ، والدير الذى ينتمون إليه ، والرهبان الذين يعيشون داخله .

وهناك من الاعتبارات الأخرى الهامة ما ينبغي أن توضع في الحسبان عند الحديث عن الكتابة التاريخيه في العصور الوسطى ، إذ كان المؤرخون مثل باقي الكتاب في العصور الوسطى ، لديهم دوافع عديدة تختمر في أذهانهم ، فضلاً عما كانوا يستهدفونه من تمجيد الرب وكسب رضاه ، ومن هذه الدوافع حرص المؤرخ على إرضاء طموحه الشخصي ، فضلاً عن تمجيد وليّ الدير وحاميه ، وإظهار الولاء للمجموعة التي ينتمي إليها . أما منهجهم في الكتابة التاريخية فقد تأثر بتعليمهم واتصالاتهم ، بالإضافة إلى المكتبات والكتب التي أتيح لهم استخدامها والرجوع إليها ، إذ لم يكن هناك في تلك الأوقات مصادر مكتوبة موحدة للرجوع إليها عند الكتابة ، مثلما نجد في هذه الأيام . وقد لعبت الدوافع الشخصية دورها بالنسبة للإقدام على الكتابة . حقيقةً إن كثيراً من المؤرخين في العصور الوسطى كانوا رهباناً نهضوا بمهام معينةٍ في الحياة الديرية ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم زهدوا في تحقيق جاهٍ أو صيت ، عن طريق إنتاج كتابٍ تاريخي له أهميته ، مما يؤدي إلى كسب التقدير والنفوذ الشخصي ، وهي الأمور التي قد يحققها تأليف كتاب في أيامنا هذه وربما يشكل الدافع الشخصي للكتابة (في العصور الوسطى) في صورة حرص الكاتب على اكتساب مناصرٍ أو حامٍ له ، فتمجد شخصاً ما أو أسرته أو أسلافه في الوظيفة . وظهر تأثير ذلك الدافع بصورةٍ كبيرةٍ في المجتمعات البيزنطية والإسلامية ، حيث وجد كثيرون من الزعماء الدنيويين الذين قدروا قيمة الإنتاج الأدبي الراقي . وهكذا تأثرت المدونات التاريخيه في العصور الوسطى بعامل الرعاية والحماية . وإذا كان المؤرخ في أيامنا هذه يخص عادةً صنفاً معيناً من القراء بكتاباته ، فإن مؤرخ العصور الوسطى كان يكتب أساساً لسيده وراعيه ، أو لمجموعةٍ صغيرةٍ منتقاةٍ من القراء . وهناك نقطة هامة ترتبط بهذه الحقيقة ، وهي أن هؤلاء المؤرخين كانت تربط بينهم بطريقةٍ أو أخرى ، سجلات الأديرة التي اعتمدوا عليها في الكتابة . ذلك أنهم كانوا أصحاب صفةٍ رسميةٍ في الأديرة ، ومن ثم فقد كانوا رواد تنظيمات ديرية كبرى . ولم يكن هناك اختلاف في الميول الدينية بينهم وبين غيرهم من العلمانيين ، فالكل يدين بالكاثوليكية ، ولكنه كانت هناك اختلافات في المصالح الاقتصادية ليس بينهم وبين العلمانيين فحسب ، بل بينهم وبين الأساقفة ، فضلاً عن رجال الأديرة الأخرى ومن ثم فإن العامل الذي حدا بالراهب إلى التحمس لكتابة التاريخ وهو ولاؤه للجماعة ، كان هو نفس العامل الذي دفعه إلى الدفاع عن وضع المجموعة التي ينتمي إليها . ومن حين لآخر كان هناك من مؤرخي العصور الوسطى من يكتبون أساساً لإشباع دوافع الرغبة في الابتكار ، ومن ثم ، فقد أخرجوا مخطوطاتٍ جميلةٍ ظهر فيها مدى إعجابهم بمقدرتهم الأدبية . وهناك في كل عصر من الرجال من أوتي القدرة على التعبير عن مواهبه الخلاقة على هذا النحو .

الكتابة التاريخية خلال فترة الأنتقال
من العصور القديمة إلى ثقافة العصور الوسطى

يتصف تاريخ أوروبا الثقافى بحقيقةٍ أساسية ، هى عدم وجود فجوةٍ واسعةٍ بين الحضارة الكلاسيكية ، وثقافة العصور الوسطى ، إذ أخذت الحضارة الكلاسيكية فى الذبول تدريجياً ، بسبب ازدياد الشغف بالبلاغه والبيان ، مع عدم تواقر الفكر الخلاق ، والرغبة فى مجرد تفسير كتابات السابقين وشرحها . ثم ما كان من تحولٍ واضحٍ فى الميول الثقافية ، نتيجةً لأنتشار المسيحية[1] .

وهكذا بدأت الثقافة فى العصور الوسطى بخلفية محددة ، وإن كانت ذابلةً من المعرفة الكلاسيكية ، وهى التى خضعت تدريجياً لمتطلبات الحياة الفكرية . وانعكست هذه الاتجاهات فى الكتابة التاريخيه فى فترة الانتقال من العصر القديم إلى العصر الوسيط . ففى الدور الممتد من عصر ثيودوريك إلى عهد شارلمان ، ظهر مؤرخون عبروا فى كتاباتهم عن بقايا الطابع الكلاسيكى والآخذ فى الزوال ، مثلما عبروا عن الاتجاهات الدينية والسياسية التى سادت مجتمع العصور الوسطى المبكر . وقبل أن نتجه إلى دراسة نتاج العصور الوسطى من حوليات ومدونات تاريخيه نموذجيه ، ربما كان من الأنسب أن نشير إلى بعض أعمال المؤرخين ذات الأهمية النسبية فى تلك الفترة الانتقالية ، على أن نضع فى الاعتبار أن هذه الفترة ليست ذات حدود واضحة المعالم وأن مؤرخيها ليسوا مجموعةً محددةً تحديداً واضحاً بحيث يمكن تمييزهم تمييزاً واضحاً عن سابقيهم ، أو عن معاصريهم ، أو عن خلفائهم من المؤرخين .

أما أول هؤلاء المؤرخين الذين نرى من المناسب الإشارة إليهم بوصفهم من أكثر الشخصيات أهمية فى تلك الفترة الانتقالية فى مجال الفكر المسيحى فهو ماركوس اوريلوس كاسيدورس Cassiodoras (٤٨٠ — ٥٧٠ م تقريبا) . وقد تمتع بمنزلةٍ رفيعةٍ عند ثيودوريك ، وشغل منصباً هاماً فى بلاط ملك القوط الشرقيين تقرب من رئيس المحكمة العليا . ولم يكن كتابة عن «تاريخ القوط» «History of the Goths» أقيم ما كتبه فى التاريخ ، بقدر ما كان كتابه المسمى (Variac) وهو مجموعة رسائل

---

(1) F. Taylor, The Clessical Heritage of the Middle Ages and the Modieval Mind (Mcmillen 1925) Vol I.

رسمية ، كتبها عندما كان فى خدمة ثيودوريك ، ولذا فهى وثائق رسمية ذات أهمية نادرة . ومع أنها معقدة ، ويتصف أسلوبها بالبلاغة ، فضلاً عما يبدو فى روحها من نزعة نحو التعالم ، مع الايجاز والتركيز الشديد ، والحرص على اظهار الولاء للثيودوريك وللقوط الشرقيين ، إلا أنها مصدرٌ هامٌ من مصادر المعرفة عن مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا . ذلك أن تلك الرسائل غطت جميع مظاهر النشاط فى ذلك العصر ، سواء من النواحى الاقتصادية ، أو الثقافية ، أو السياسيه ، فضلاً عن العلاقات الخارجية . على أن أكثر أعمال كاسيدورس التاريخيه ذيوعا بين الناس ، هو كتابه عن تاريخ القوط الذى وصفه فى أثنى عشر مجلداً ، واستغرق منه الفترة الواقعة ما بين سنتى ٥٢٦ ، ٥٣٣ م . وليست هناك نسخةٌ أصليةٌ كاملة ، باقية من هذا الكتاب وكل ما نعرفه عنه من معلومات ، إنما يستمد من ذلك الملخص الذى وضعه جوردان ، وهو راهب ضعيف الكتابة . ويبدو مما كتبه جوردان وغيره ، أن كتاب «تاريخ القوط» يتفق مع نفس اتجاه كتاب كاسيدورس السابقة ، من حيث التعبير عن الولاء لثيودوريك والقوط الشرقيين . وقد اعتمد كاسيدورس بصفة أساسية فى الحصول على مادة هذا الكتاب على مؤلف قوطى يدعى أبلافيوس Ablavius . وحاول كاسيدورس أن يعبر عن إعجابه وولائه لثيودوريك ، على أساس تقدير هذا الملك القوطى لثقافة روما اللاتينيه ، مبرراً هذه الظاهرة بترديد الأساطير الخيالية التى تدعى نسبة القوط إلى أصل رومانى ، ثم نسبة الرومان بدورهم إلى طروادة .

وقد سبق أن أشرنا إلى الكتاب المسمى «التاريخ الثلاثى» الذى أعد تحت إشراف كاسيدورس ، وهو ذلك الكتيب الغير سليم ، الغير دقيق فى مادته ، والذى ترجع أهميته إلى اتخاذه فى العصور الوسطى مرجعاً شعبياً عن تاريخ الكنيسة المسيحية .

وسبق أن أشرنا كذلك إلى أن ما نعرفه عن كتاب كاسيدورس عن تاريخ القوط ، إنما هو مستمد مما كتبه جوردان ذلك الراهب القوطى الذى حصل على القدر اليسير من المعرفة والتعليم . ذلك أن جوردان يخطى كتاب كاسيدورس عن القوط فى كتاب أعطاه اسم «أصول القوط وأعمالهم» . وتم وضع ذلك الملخص حوالى ٥٥٠ م . وأخبرنا جوردان أنه استطاع أن يطلع على كتاب كاسيدورس عن القوط لمدة أيام قلائل ، وهو أمر يشك كثيرٌ من الباحثين المحدثين فى صحته . وينحو جوردان منحىً خيالياً فى تناوله لأصل القوط ، وإن كان يبدو منطقيا فى وصفه للأحداث التى عاصرها فى حياته ، ثم إنه لم يكن بالحاقد على الرومان ، كما يتوقع الإنسان من رجل قوطى مثل جوردان ، بل كانت ثقافته وميوله العاطفية ذات صبغةٍ رومانيةٍ كاثوليكيةٍ واضحة ، كما كانت تستحوذ على عقله فكرة الطابع العالمى للإمبراطورية الرومانية ، وهى الفكر التى ربط بينها وبين التوراة فى أحداثها السالفة ، وتنبأ لها بمستقبل زاهر . ومهما يكن من أمر ، فإن كتابات جوردان ينقصها وضوح الأسلوب ، كما تفتقر إلى

عمق المعرفة والذكاء الفكرى .

فإذا ما انتقلنا للحديث عن المؤرخ البيزنطى الذى سجل حروب جستنيان وهو بريكوبيوس Precopius (٥٠٠ — ٥٦٥ م) نجده فاق كل من كاسيدورس وجوردان فى كافة النواحى . وكانت كتاباته باللغة الاغريقية [1] ، وعالج فى كتابه « تاريخ زمانه » History of His own Time . حروب جستنيان ضد الفرس وفى افريقيا وضد القوط . ورغم أنه حاول أن يقلد فى شئ من عدم المهارة كتاب الاغريق مثل ، هيرودوت وثيكوديدس ، فإن بريكبيوس كان كاتبا رقيقاً وحاذقاً . فضلاً عما توافر له من الثروة والتعليم وسعة النشاط ، وهو أمرٌ أتاح له الوقوف على بواطن الأمور ، مما لم يتح لكثيرين فى أيامه . ذلك أنه رافق القائد البيزنطى العظيم بليزاريوس فى معاركه . ومن ثم ، فإن كتابات بروكبيوس جاءت كتابات شاهد عيان ، لكن نقطة الضعف فيه كمؤرخ إنه كان قليل العناية والتمحيص فى استخدام مصادره . هذا إلى أنه فى كتابته كان متحيزاً للإمبراطورية البيزنطية ، كما كان شديد الإعجاب بليزاريوس . وفضلاً عن هذا أو ذاك ، فقد كان مؤمناً برسالة روما الحضارية ، وبأن الدولة البيزنطية هى التى تنهض بمهمة إتمام هذه الرسالة . وأخيراً ، فإنه حرص على أن يقف موقف المدافع عن أرستقراطية المال والمنصب . ولبروكبيوس كتاب آخر مختصر أسماه التاريخ السرى [Secret History (Historia Arcana] . وهو يتضمن آراءه الخاصة حول مؤامرات القصر الإمبراطورى فى عهده ، والفساد الخلق الذى استشرى فى العاصمة البيزنطية . ويرى بيورى وغيره من المؤرخين أن هذا الكتاب اليوم يحوى قداراً كبيراً من المبالغة والتحيز . وكان أن تشكك بعض المؤرخين فى أن يكون بروكبيوس صاحب القصص التى وردت فى هذا الكتاب . وإن كان يبدو أن الكتب الشبيهة بكتاب « التاريخ السرى » كانت كثيرةً ومتداولةً فى تلك الأيام . وأنتشر هذا النوع من الكتابة أوقات سيادة الحكم المطلق — مثلما كان عليه الوضع أيام الإمبراطور جستنيان — كنوع من التنفيس والتعبير عن الضيق المكبوت . ومثال ذلك ، ما هو معروف من ان بعض أفراد حاشيه لويس الرابع عشر فى فرنسا ، أفرج ما يشبه التاريخ السرى الذى كتبه بريكبيوس .

وربما كان أكثر من ينبغى الاهتمام بهم من المؤرخين فى تلك الفترة الانتقالية ، هو جريجورى الشهير أسقف مدينة تور (٥٣٨ — ٥٩٤ م) . ذلك أنه كتب أهم مؤلفٍ عن تاريخ الفرنجه فى ذلك الدور الحاسم الذى غزوا فيه غاليا ، وأقاموا دعائم الحضارة الميروفنجية على أساس خليطٍ من عناصر غاليةٍ رومانيةٍ من جهة ، وجرمانيةٍ من جهة أخرى . وقد سمى جريجورى كتابه « تاريخ الفرنجه » . وابتدأه بعرض غير محكم ولا دقيق للعالم منذ القدم حتى

---

(١) هناك ملخص واف عن بريكبوس أعده J.B. Bury فى الملحق الذى أضيف الى آخر طبعة لكتاب جيبون اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية (المؤلفة) .

القرن الخامس الميلادى . وبعد ذلك انتقل إلى علاج تاريخ الفرنجه من ٤١٧ حتى ٥٩١ م . ومن الملاحظ أن جريجورى عاصر الأحداث التى وصفها فى الخمسين سنة الأخيرة من تاريخه ، ومن ثم فقد اعتمد فى معظم ما يكتب على مصادر أصلية ، استطاع بحكم مركزه أن يطلع عليها لأنه كان من رجال الكنيسة ذوى المكانة والنفوذ ، كما كان صديقاً لكبار رجال الدولة من غير رجال الدين . ثم إنه تنقل كثيراً عبر غاليا ، حتى أصبح اسقفا لتور ، وعندئذ غدا على اتصال وثيق بالحجاج الكثيرين الذين قدموا لزيارة ضريح مارتن التورى .

وتعتبر الفقرات التى كتبها جريجورى التورى عن انحطاط مستوى الدراسات الأدبية فى غاليا بعد غزوات الفرنجه ، وتصميمه على أن يكتب بأسلوب لاتينى واضح بسيط ، يقرأه ويفهمه الرجل العادى المتوسط التعلم فى أيامه ، تعتبر هذه الفقرات من خير الكتابات الأدبية فى العصور الوسطى . ولكن على الرغم مما يظهره جريجورى من تواضع إزاء أسلوبه اللاتينى ، فإن تاريخه يعبر عن موهبة أدبية شخصيته أكثر مما يعبر عن كتابة تاريخية سليمة ناقدة . ذلك أنه أحسن عرض الموضوع عرضاً مسرحياً ، واتصف تاريخه بوجه عام بالطرافة والجمال ، والقدرة على أثارة مشاعر القارئ ، فضلاً عن صورته الزاهية . ومهما تكن أخطاؤه فى الإعراب ، فإن اللغة اللاتينية الدارجة التى استخدمها تبدو منفصلة كثيراً عن اللاتينية الفصحى المنمقة التى استخدمها كتاب مثل كاسيدورس حاولوا محاكاة الأسلوب الكلاسيكى القديم .

وترجع شهرة كتاب «تاريخ الفرنجة» الذى آلفه جريجورى التورى إلى سببين كبيرين ، يأتى فى المقام الأول منهما ، أن هذا الكتاب يعطينا الصورة الوحيدة الموحدة والكاملة تقريباً عن أصل الثقافة الميروفنجية ، التى جاءت نتيجة للمزج بين الثقافات الغالية الرومانية من ناحية ، والفرنجية من ناحية أخرى . ثم يأتى فى المقام الثانى أن هذا الكتاب يصور فى وضوح تام النفوذ المتزايد للكنيسة ، والدور الذى قدر لها أن تشغله فى حضارة العصور الوسطى ، هذا كله فضلاً عما يصوره من سذاجة مطلقة أتصفت بها عصور الإيمان . ذلك أن كتابه جاء مليئاً بالخرافات والمعجزات والكرامات المقدسة . وكان العنصر الذى أدى إلى وجود وحدة فى كتاب جريجورى من أوله إلى آخره ، هو تأكيده أهمية الكنيسة بوصفها المحور الرئيسى الذى دارت حوله الحياة فى غاليا على عصر الفرنجة .

على أن كتاب جريجورى لم يكن سرداً تاريخياً مباشراً دون حيد عن القصد ، وإنما كان مليئاً بالاستطرادات والحكايات والفكاهات ، فضلاً عن المواعظ . واستخدم جريجورى الحوار ليضفى قدراً من التشويق على ما يسرده . ومع ذلك فقد اتصف كل ركن من كتابه بالإخلاص والأمانة ووحدة الفكر . ولا يسع القارئ المنصف الذى لا يؤمن بالمعجزات الدينية والخوارق وما شابهها — سوى أن يعترف بأن جريجورى كان يسعى دائما ليقول الحق . هذا إلى أنه كان حريصاً على أن يطلع القارئ على المصادر الأساسية التى استق منها معلوماته . وربما

كان أقوى ما أمتاز به كمؤرخ قدرته على علاج الشخصيات ، حيث تبدو براعته السيكلوجية ، فضلاً عن قدرته الأدبية ، مما يجعله ندا لتاكيتوس . وخلاصة القول ، فإن جريجورى أمد القارئ الحديث بأحسن الكتب التاريخيه عن فترة الأنتقال من الثقافة الرومانية إلى ثقافة العصور الوسطى ، ويمكن أحد أسباب نجاحه فى ذلك ، فى أنه نفسه كان صورة حية مكتملة لتلك الفترة الانتقالية . وكان أن اختصر كتاب جريجورى وأكمل حتى ٧٦٨ ميلادية فى حولية فردجاريوس Fredegarius المزيفة ، وهى الحولية التى قام بها ثلاثة مؤلفين أحدهم برجندى والثانى من استريا والثالث فرنجى . وتعبر فصول هذه الحولية هى التى تغطى السنوات ما بين ٦٣١ ، ٦٤٢ والسنوات ما بين ٧٤٢ – ٧٦٨ . ومع أن مادة هذه الحولية تتصف بعدم التنسيق ، إلا أنها المصدر الوحيد عن تاريخ الفرنجة خلال تلك الفترة ، ومنه نبعث فكرة الأصل الطروادى للفرنجة .

أما عن ايزدور الاشبيلى ، فمع كونه أكثر تعلما من جريجورى الا أن كتابه عن تاريخ القوط الغربين والوندال والسويفى ، لا يمكن أن يرقى إلى درجة المقارنة بكتاب جريجورى « تاريخ الفرنجة » . ذلك أن كتاب ايزدور مختصر ، ومادته غير أصلية وإنما مستقاة من كتابات مؤرخين ومعلقين سابقين . وقد ظهر خيال ايزدور الواسع فى تاريخه ، مثلما ظهر فى بقية إنتاجه الأدبى .

ويكاد يكون هناك إجماع عام على أن أفضل الكتب التاريخية التى ظهرت خلال تلك الفترة الانتقالية هو كتاب بيدى Bede وعنوانه « التاريخ الكنسى للشعب الانجليزى » . ويزودنا هذا الكتاب بأدق قصة يمكن الاعتماد عليها حول تاريخ وانتصار المسيحية فى انجلترة ، وانتشار الثقافة الانجلو ساكسونيه فى تلك الجزيرة . ويبدأ بيدى كتابه بمقدمة تاريخية عامة غير مبتكرة وسطحية . ثم ينتقل بعدها إلى دراسة جادة تبدأ بوصول القديس أوغسطين إلى انجلترة سنة ٥٩٧ ، وهو الراهب الذى يرجع إليه الفضل فى التبشير بالديانة المسيحية فى انجلترا . ويواصل بيدى تاريخه حتى سنة ٧٣١ م ، وهى نفس السنة التى أتم فيها كتابه . واعتمد بيدى على البحث الدقيق ، فقرأ معظم المصادر الهامة المكتوبة واستشار عديداً من زعماء الكنيسة . وكان أميناً ومخلصاً فى كلامه عن طبيعة المصادر التى رجع إليها ، ومدى إمكان الاعتماد عليها . وبينما سرد الكثير عن الخوارق والمعجزات ، إلا أنه أبدى تحفظاً أكثر من جريجورى المحترى فى تقبله لها كحقائق تاريخيه يمكن الاعتماد على صحتها . وإذا كان بيدى قد استهدف أساساً من كتابه إعطاء القارئ صورة لأنتصار المسيحية وتنظيم الكنيسة الإنجليزية ، فانه بالاضافة إلى ذلك عالج الأحداث السياسية التى أثرت فى انتشار المسيحية . أو فى التنظيم الكنسى فى انجلتره .

ونتج عن ذلك أن كتاب بيدى لم يمدنا بسجل المسيحيه الانجليزيه فى عهدها الأول فحسب ، بل أمدنا كذلك برواية محتملة عن التداخل الذى تم بين الحضارة الأنجلو ساكسونيه وبين عناصر الحضارة الوطنية فى انجلترا ، فضلاً عن نشأة المجتمع الأنجلو ساكسونى . ولكتاب بيدى أهمية فى ميدان السير والتراجم ، إذ أنه ضمن كتابه تراجم الكثيرين من القديس ورجال الكنيسة الإنجليز . واختتم بيدى كتاب بموجز للتاريخ الإنجليزى ، من أيام يوليوس قيصر حتى سنة ٧٣١ م مرتباً ترتيباً زمنياً .

ثم إن «بيدى» لم يكن مجرد سارد مجتهد للأحداث فحسب ، وإنما جاهد وتحمل كثيراً من العناء من أجل رسم إطار محدد لتاريخه . ونجح فى اقامة بناء متكامل محكم التنظيم لما أورده من معلومات . ثم إن كتابه اتصف بالوحدة والاتزان ، فضلا عن أسلوبه اللاتينى الذى جمع بين السهولة والحيوية . والحق أن بيدى كان من خيرة علماء عصره فى غرب أوربا الملمين بالدراسات الكلاسيكية . وإذا كان «بيدى» لم يصل إلى مستوى جريجورى التورى فى طلاوة الأسلوب وتنميق العبارات ، فإنه قد فاقه فى التزامه الفكرى ، فضلاً عن أن كتاباته التاريخيه يمكن الاعتماد عليها بدرجة أكبر من كتابات جريجورى التورى . وهكذا يبدو الاختلاف بينهما شبيهاً بالاختلاف بين هيرودوت وثوكيديدس . وقد تأثرت كثير من كتب التاريخ التى دونت بعد ذلك فى العصور الوسطى تأثراً كبيراً بكتاب «بيدى» «تقييم العصور» وهو الكتاب الذى قسم فيه تاريخ العالم إلى ستة عصور تبدأ بخلق الكون ، وتستمر حتى سنة ٧٢٩ ق . م .

وقام الراهب اللمباردى بولس وارنفريدوس Panles Warnerfridus (حوالى ٧٣٠ - ٨٠٠) وهو المعروف عادة بأسم بولس الشماس ، بوصف ظهور اللمبارديين على مسرح التاريخ الأوربى . وكان بولس هذا رجلاً من رجال الكنيسة الذين أوتوا حظاً طيباً من العلم والثقافة . فقام برحلات واسعة النطاق فى شمال ايطاليا وغاليا ، بصحبة المسئولين من رجال الدولة والكنيسة . وقد كتب كتابه عن «تاريخ اللمبارديين» فى أواخر سنى حياته ، عندما كان مقيماً بدير مونت كاسينو الشهير . ولم يقدر له أن يعيش حتى يكمل كتابه الذى عالج فى ستة أجزاء تاريخ اللمبارديين منذ نشأتهم التى تحيط بها الأساطير حتى سنة ٧٤٤ . واعتمد بولس على عدة مصادر منها ، «أصول شعب اللانجو باردين»[1] لبلينى . كما رجع إلى الكتابات التاريخيه لسكوندسى الترنتى ، وجريجورى التورى ، ولما كتبه ايسيدور الاشبيلى و «بيدى» ، فضلاً عن تراجم رجال الكنيسة وكتابات جريجورى العظيم . هذا كله بالإضافة إلى المصادر التى حصل عليها من أسفاره ، والمجالات الشفاهية ، وما تواتر لدى الناس مما له

---

(١) اللانجو بارديون هو الاسم الاصلى الصحيح للشعب اللمباردى ، وكانوا يسكنون فى أول الامر فى شمال المانيا غربى نهر الألب (المراجع) .

ارتباط بأصل تاريخي . ولم يتمتع بمقدرة قوية فى ترتيب أو تنظيم هذا الحشد من المادة التى استقاها من المصادر ، فضلاً عن عدم محاولته نقد الأساطير اللومباردية الأولى . ولكن يبدو أنه كان من الناحية الفكرية أميناً ومخلصاً ، بحيث يمكن الاعتماد نسبياً على ما كتبه عن تاريخ اللمبارديين فى عصرهم الأخير . بل إن الاساطير التى أوردها عن العصور الأولى تعكس روح وثقافة هذه العصور .

ولقد كان كما كتب عنه الدكتور بالزانى Balzani : « وان كتاب بولس « تاريخ اللومبارديين » فى علاجه للأحداث الحقيقيه جدير بان يحظى بقدر كبير من الاعتبار والتقدير نظراً لما أتى به من شواهد وأدلة وبراهين لها أهميتها ، بينما نشعر من ناحية أخرى أنه فى تناوله للأساطير يسلك نفس مسلك اللومبارديين ، شأنه فى هذه الناحية شأن والتر سكوت ، عندما كتب بقلمه العجيب تاريخ اسكتلندا الأول كتابةً فاقت ما فعله أى مؤرخ آخر[1] .

لكن هناك نقطة ضعف رئيسية فى كتاب بولس ، هى عدم عنايته بعملية الترتيب الزمنى ، مما أدى إلى خلط كبير فى روايته . ومع ذلك فإنه دون كتابه بأسلوب واضح وغير مفتعل وامتازت بعض فقراته بطابع تمثيلى واضح ، مما جعل لهذا الكتاب شهرته التى أدت إلى انتشاره . ويزيد من قيمة هذا الكتاب أنه حفظ لنا عدة اسماء لمصادر ضاعت ولا نعثر لها على وجود .

أما أول رجل علمانى ألف كتاباً تاريخياً هاماً فى العصور الوسطى ، فهو نيثارد Nithard (٧٩٥ – ٨٤٣ م) الذى تلق قسطاً طيباً من التعليم ، فى وقت كاد التعليم فيه يكون مقصوراً على رجال الدين . والحق إنه يعتبر أقدر مؤرخ ظهر فى أواخر العصر الكارولنجى . أما من ناحية الأصل ، فقد كان حفيداً غير شرعى لشرلمان ، أنجبه أحد مقدمى الأديرة العلمانين من إحدى بنات شارلمان . ومهما يكن من أمر ، فقد كتب مؤلفاً أسماه « أربعة كتب فى التاريخ » عالج فيها الحروب الأهلية بين أحفاد شارلمان . وغطى الفترة فيما بين لويس التقى حتى ٨٤٣ ، وتناول بوجه خاص تفصيلات الأحداث فيما بين سنة ٨٣٨ ، ٨٤٣ ميلادية . ويزيد من أهمية ما كتبه نيثارد أنه كان شاهد عيان لمعظم ما وصفه من أحداث ، فضلاً عن أنه أجاد استخدام كل ما رجع اليه من مصادر مخطوطة . واتصفت كتابته بالوضوح ، والاستقامة ، وسهولة الاسلوب ، وبعده عن التلاعب البلاغى . ثم إنه فى كتابته لم يستسلم للاستطراد أو الحيرة عن الهدف الذى يتوخاه بقصد الاستثارة . ومع ذلك فإن كتابه

---

(1) Ugo Balzani: Early chromiclers of Europe: It aly (london 1883), p. 90.

يحظى بأهمية خاصة فى تاريخ اللغة ، حيث إنه مصدرنا الوحيد عن قسم ستراسبورج[1] . ومع أن نيثارد يبدو متحيزاً لشارل الأصلع بقدر ما كان قاسيا فى نقد لوثر الثانى ، الا أن كتاباته التاريخيه حظيت باستحسان المتخصصين من الباحثين الناقدين فى أيامنا هذه . بل إن أحكامه القاسية على لوثر أصبحت أمراً مقبولاً الآن بوجه عام.

أما اينهارد ، الذى عاش تقريباً بين سنى ٧٧٠ ، ٨٤٠ فكان خير كاتب للتراجم فى عصره ، بحيث لم يدانيه أحد فى مهارته . ويعتبر كتابه «حياة شارلمان» من أحسن التراجم التاريخيه الشهيرة فى العصور الوسطى بأسرها . والمعروف أن اينهارد كان له مركزه ومكانته المرموقة فى المجتمع ، إذ كان صديقاً لشارلمان وأحد المسئولين فى عهده ومقدماً على أحد الأديرة. وبذلك توافرت له من طول معاشرة شارلمان والخليفته من بعده فرصة لم تتح لغيره ليجمع فى سهولة المعلومات الجديدة التى بنى منها ترجمته لحياة شارلمان . هذا إلى أنه جمع بين تلك الفرصة التى أتيحت له ، وقوة الملاحظة الشخصية من ناحية ، وبين ارتفاع مستوى تعليمه بالنسبة لتلك العصور من ناحية أخرى . فدرس الدراسات وتلقى خير صورة من التعليم كان من الممكن أن يتلقاها شخص معاصر ، وذلك فى مدرسة دير فولدا ، ثم فى مدرسة القصر التى زعمها «الكوين» . وقد حذا حذو سوتنسيوس فى كتاباته ، خاصة فى كتابه عن حياة أوغسطين. هذا فضلاً عما يبدو من أنه اطلع فى مكتبة دير فولدا على كتابات عمالقة المؤرخين الرومان . ولاشك فى أن مكتبة دير فولدا بالذات ، كانت غنية بالمخطوطات التاريخيه . والحق ان كتاب اينهارد عن سيرة شارلمان ، جاء فى أسلوب لاتينى منمق بعيد عن تلك اللاتينية السهلة التى استخدمها جريجورى التورى فى كتابه «تاريخ الفرنجة» أو عن الأسلوب الفصيح الذى امتاز به كاسيدوروس .

ومع أن كتاب اينهارد جاء من مختلف النواحى والجوانب وثيقةً تاريخيةً هامةً لا غنى عنها ، الا أنه لا يخلو من عيوب بارزة . فاذا كان قد حذا حذو سوتنيوس ، فانه كان صورة مشوهةً له ، لأنه فى تصويره لشارلمان قلد سوتنيوس تقليداً أعمى ، مما جعله يصور شارلمان فى قالب أوغسطينى . هذا الى أنه اتهم أتهاما لا يخلو من سند بأنه تخطى أو تعمد إغفال ذكر بعض الحقائق التى لا تشرف سيده شارلمان ، وخاصة فى الأدوار الأولى من حياته . وأخيراً فإنه مع اعترافنا بأهمية كتاب اينهارد ، الا أن هذا الكتاب جاء فى أساسه دعايةً للدولة الكارولنجية . وقد لجأ اينهارد فى محاولته لتأكيد أمجاد العصر الكارولنجى ، إلى المبالغة فى الحط من شأن العصر الميروفنجى وحكامه . وهناك بعض الظن اليوم بأن الميروفنجيين وبصفة خاصة ملوكهم

---

(١) يقصد بقسم ستراسبورج اليمين الذى اقسمه كل من شارل الأصلع ولويس الالمانى فى مدينة ستراسبورج سنة ٨٤٢ بقصد التحالف ضد لوثر . (المراجع) .

الأواخر قد تعرضوا فى التاريخ لسوء التقدير نتيجة للأحكام المستمدة من كتابات اينهارد عنهم . ومع هذا كله فإننا نستطيع أن نقول بوجه عام : إن المؤرخين شهدوا دائماً لاينهارد بان ترجمته لشارلمان تعتبر عملاً فريداً ذا طابع أدبى ، وعرضا تاريخياً للدور المبكر من أدوار العصور الوسطى .

وبعد ، فإننا نستطيع الآن أن نتناول الجانب الأقوى من الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى ونعنى بها الحوليات والمدونات التاريخية ، وقد بدأت جميعها بداية ساذجةً غير متقنة ، ثم تطورت ونمت حتى صارت تمثل الكتابة التاريخية المنظمة التى عرفتها العصور الوسطى .

الحوليات والمدونات التاريخية فى العصور الوسطى

من أهم ما أتسمت به ثقافة المراحل الأولى من العصور الوسطى ، هى ان طريقة « الحوليات » كانت الطريقة الشائعة فى كتابة التاريخ خلال القرون الأولى التى أعقبت انهيار الثقافة الكلاسيكية . وهذه الطريقة – طريقة « الحوليات » كانت هى الطريقة المتبعة فى مصر القديمة وبابل . وقد ظهر هذا النمط من الكتابة التاريخية فى أوائل العصر الكارولنجى ، وليداً للدافع الدينى فيما يتعلق بتحديد عيد الفصح تحديداً دقيقاً . ومن الواضح أن افتقار عامة رجال الدين يومئذ إلى المعرفة الدقيقة بعلم الفلك ، أو حساب الزمن ، جعل ذوى العلم منهم يوزعون على الرهبان والقساوسة جداول زمنية تحوى بياناً بموعد عيد الفصح لعدة سنوات تالية . وقد أدى الخوف من أن يخطأ القساوسة – بسبب قلة حظهم من العلم – فى تحديد موعد هذا العيد مما يترتب عليه تغيير مواعيد الأعياد التالية ، إلى تقرير مواعيد ثابتة لعيد الفصح . ويبدو أن تنفيذ هذه الفكرة بدأ فى نور ثمبيا بانجلترا ، ومنها انتشرت فى باقى انجلترا ، حتى حملها « الكوين » Alcuin معه وأتباعه من الرهبان إلى القارة الأوربية .

وثمة عادة شاعت فى جميع البلاد عندئذ ، هى تدوين – فى الهامش المقابل لكل سنة – الأحداث التى يعتبرها الكاتب مميزة لتاريخ الإقليم فى تلك السنة . وكان ان أمر شارلمان رجال الأديرة فى دولته أن يحتفظوا بحوليات منظمة ومرتبة . ولم تكن هذه الحوليات فى ذلك الدور المبكر من العصور الوسطى – شحيحة المعلومات الى حد كبير ، طالما أنها أشارت الى بعض الأحداث البارزة التى وقعت خلال كل سنة . ولكن ربما أضعف من قيمة تلك الحوليات أن كتابها كثيراً ما حرصوا على تدوين بعض الخوارق غير الطبيعية ، فضلاً عن

الاهتمام الفائق بأحداث – هى فى نظرهم ذات أهمية كبيرة – مثل نقل رفات قديس ، وكل هذه معلومات ذات قيمة ضئيلة للباحث الحديث المشتغل بالتاريخ ، اللهم سوى أنها تكشف النقاب عن المستوى الفكرى لمؤرخ العصور الوسطى ، وتعطينا فكرةً عن ضعف الحاسة التاريخية عنده .

ولقد أوضح الأستاذ هاسكنس هذه الحقائق بعرض بعض الأحداث التى وردت فى السنوات الأولى من حولية سانت جول :

سنة ٧٠٩ م شتاء قارس – وفاة دوق جوتفرد .

سنة ٧١٠ م عام مجدب ونقص فى المحصول .

سنة ٧١٢ م فيضان مرتفع .

سنة ٧١٤ م وفاة «بيبن» ناظر القصر .

سنة ٧١٨ م أنزل شارل مارتل خراب كبيراً بإقليم سكسونيا .

سنة ٧٢٠ م حارب شارل السكسون .

سنة ٧٢١ م طرد ثيو «السكسون» من إقليم اكويتين .

سنة ٧٢٤ م وفرة فى المحاصيل .

سنة ٧٢٥ م فى هذه السنة كان مجيئ المسلمين لأول مرة .

سنة ٧٣١ م مات «بدى» شيخ الكنيسة المبارك .

سنة ٧٣٢ م فى يوم السبت حارب شارل المسلمين عند بواتييه .

ومن هذا نجد – كما لاحظ الأستاذ ها سكنس – أن تلك الحولية أغفلت ذكر موقعة «تور» فى أحداث سنة٧٣٢ م ، علماً بأنها إحدى المواقع الفاصلة فى تاريخ العالم . ومهما يكن من أمر ، فإنه مع مرور الوقت نمت هذه التسجيلات واتسع أفق كاتب الحولية ، حتى غدت الحوليات سجلا له قيمته عند معالجة تطور أمة من الأمم ، على نحو ما نجده فى حوليات «روجر أوف هوفندن» التى كتبها فى بداية القرن الثالث عشر وأسماها حوليات التاريخ الانجليزى Annals of English History . ثم ظهرت بعد ذلك حوليات مفصلة قامت على أساس الحوليات الموجزة السابقة .

أما المدونات التاريخيه فترتبط من ناحية النشأة والتطور ارتباطاً مباشراً بالحوليات . ذلك أن الحوليات كانت فى أساسها سجلات سنوية قام بكتابتها بعض المعاصرين . أما

المدونات التاريخية (chronicle) فهى تلخيص لأحداث تاريخية لفترة من الفترات ، يقوم على أساس حولية أو أكثر ، مع الاحتفاظ بالتنظيم والترتيب الزمنى للأحداث ، على نحو ما هو متبع فى الحوليات التى نقل عنها . وقد يكون بعض ما ورد فى هذه المدونات التاريخية من أحداث قد وقع قبل عصر المؤرخ ، ومن ثم فإنه يجمع المادة الخاصة بها بالرجوع الى عديد من الحوليات ، حتى يحقق فى كتابه سرداً متكاملاً شاملاً . ولكى يحول الكاتب هذه المجموعة من الحوليات إلى مدونات تاريخية ، كان يلجأ عادة إلى وضع مقدمة — مثل تلك التى وضعها جيروم حين ترجم مدونة ايزيبوس التاريخية — ويستهدف من هذه المقدمة أن تتضمن سرداً لأحداث العالم ، منذ نشأة الخليقة حتى يصل الى العصر الذى يدون أحداثه . وهناك تباين كبير بين المدونات التاريخية بعضها وبعض فى العصور الوسطى ، وذلك من ناحية طبيعتها أو من ناحية التأليف ، فبعضها كان حكايات شخصية عن تجارب المؤلف الخاصة ، والبعض الآخر تناول تاريخ البيئة المحلية ، فى حين أن بعضها كان سجلاً لدير من الأديرة ، والحياة فيه ، وما كان بينه وبين العالم الخارجى من علاقات واتصالات .

وهناك من المدونات التاريخيه فى العصور الوسطى ما أختص بعلاج تاريخ مدينة معينة وما تعرضت له من أحداث ، مثل تلك الحوليات الشهيرة عن لندن ، وفلورنسا ، وجنوا ، وكولونيا . هذا فى حين اختص البعض الآخر بحدث ضخم مثل الحروب الصليبية . على أن غالبية المدونات التاريخية المرموقة سمت إلى مستوى العناية بتاريخ إقليم أو بلد معينة ، بل لقد بلغت شجاعة بعض كتابها الى التعرض للأحداث الدولية فى أوربا كلها .

وقد أبدى الأستاذ «تاوت»(1) عدة آراء قيمة عن طبيعة المدونات التاريخية فى العصور الوسطى ، منها : أن الهدف الأساسى الذى استهدفته هذه المدونات لم يكن إظهار الأسلوب الأدبى «فلم يكن هدفهم بصفة عامة انتاج قطعة إنشائية أدبية ، وإنما كان ذلك الهدف تحقيق حاجة عملية ، وتزويد القارئ بالمعلومات ، أو إثبات قضية معينة » .

والواقع أن كتاب المدونات التاريخيه فى العصور الوسطى لم يهتموا كثيراً بتاريخ الماضى القديم ، فتعرضوا له فى صورة تتفق وطبيعة مجتمع العصور الوسطى واهتماماته ، بذلك كانت تعوزهم «الحاسة التاريخية » بل لقد بلغ بهم الأمر الى درجة عدم القدرة على إخراج دراسة دقيقة عن فترة من العصور الوسطى سابقة على عصرهم ، فضلاً عن عدم قدرتهم على التمييز بين أهمية مختلف المصادر التى استخدموها فى كتابتهم . وهكذا صبوا كل غايتهم على العصر الذى عاشوا فيه وشاهدوا أحداثه بأعينهم ، فوصفوها وصف شاهد عيان ، وحتى فى وصفهم

---

(1) T.F. Tout, The Study of Medieval chornicles (London, Green, Co. 1922)

هذه الأحداث لم يجردوا أنفسهم عن الميول الشخصية والنزعات الخاصة . ولما كان معظم هؤلاء المؤرخين من الرهبان ، فإن وجهة نظر الرهبانية وطبيعة اتجاهاتهم كانت هي السائدة . والواقع إن الميزة الكبرى في هؤلاء الرهبان هي أنهم عاشوا حياة مستقرة آمنة سالمة ، وسط ظروف من شأنها أن تساعد على التأليف . ولم يهتم أولئك المؤرخين في أول أمرهم اهتماماً كبيراً بعناوين كتبهم ، فكان يطلق على الكتاب اسم «حوليات» أو «مدونات تاريخيه» . ولكن لم يلبث أن ازداد الاهتمام فيما بعد بعنوان الكتاب ، وصار يراعى فيه نوع من التنميق ، ففي فترة من الفترات صار اسم «زهور التاريخ» هو الأسم المفضل ، وفي فترات أخرى كان اسم «الحوليات العديدة» هو الأسم الشائع لهذا النوع من الكتب التاريخيه .

ومع مرور الوقت اتسع نطاق الحوليات في مضمونها وتفاصيلها وشكلها ، عن طريقة الإيضاحات والزيادات مما عكس صورته على كتب المدونات التاريخيه لتصبح بدورها تاريخاً بالمعنى السليم . وهكذا حتى نجد أنفسنا أمام أنتاج تاريخي في العصور الوسطى ، يعتبر بحق مصادر أصيلة تمدنا بالمعلومات التاريخية عن تلك العصور ، ومن أمثلة هذا الإنتاج مدونة الانجلو ساكسون التاريخية وما كتبه هرمان راهب دير ريخنو Reicheneau (ت ١٠٥٤) ، والوقائع العالمية التي كتبها «اكهارد» بدير أوراخ Aurach في أوائل القرن الثاني عشر ، والمدونة التاريخية التي كتبها «أوتو» راهب دير فريزنج (ت ١١٥٨) وأخيراً ، المدونة التاريخية الكبرى التي كتبها ماتيو باريس Mathew Paris (ت ١٢٥٩) .

ولما كان معظم المؤرخين المبرزين في العصور الوسطى من كاتبي الحوليات أو المدونات التاريخيه ، فإننا سنتعرض مرة أخرى لهذا النوع من الكتابات التاريخيه عندما نعالج أهم ما أنتجه عمالقة المؤرخين في العصور الوسطى . ولا يحول هذا دون أن نشير إشارة عابرة إلى بعض الحوليات والمدونات التاريخيه العامة ، التي لا ترتبط ارتباطاً قوياً بأحد مؤرخي العصور الوسطى المبرزين . ولما كان التكوين التاريخي للحولية أبسط من تكوين المدونة التاريخيه ، فإنه كان أمراً طبيعيا ان يأخذ النتاج التاريخي المبكر في العصور الوسطى شكل الحوليات . ولقد تناولت معظم هذه الحوليات العصر الكارولنجي والفترة التاليه له مباشرة . أما عصر شارلمان نفسه ، فقد عولج في الحوليات الكبرى التي تنسب إلى ديرلورخ Lorsch ، ثم جاءت تتمة هذا العصر حتى سنة ٨٢٩ فيما يعرف باسم الحوليات الملكية . وأبرز الحوليات التي تناولت الفترة منذ شارلمان حتى القرن العاشر هي حوليات ديرفولدا الشهيرة ، وحوليات ديرسانت برتين . وقد غطت هذه الحوليات الفترة فيما بين سنتي ٨٣٠ ، ٨٨٢ والتي كتبها بعض الكتاب أمثال ، برودنتيوس ، وهنكمار الذي ينسب إلى ريمس . وجاءت تتمة هذه الكتابات في حوليات سانت فاست ، التي تناولت قصة العالم منذ بدء الخليقة حتى سنة ٨٨٩ م ، أما

حوليات ميتز ، فقد تناولت احداث الفترة من ٨٨٣ حتى سنة ٩٠٣ ميلادية : ومن أهم الحوليات الضخمه التى ظهرت فى أواخر العصور الوسطى حوليات كولونيا الكبرى ؛ والتى مضت بالأحداث حتى ١٢٣٧ م ، ثم حوليات جنوا الشهيرة . وقد تناولت الفترة من سنة ١١٠٠ الى سنة ١٢٩٣ ميلادية .

أما عن بعض ما يمثل إنتاج العصور الوسطى فى المدونات التاريخيه ، فلدينا بالنسبة لانجلترا تلك المعروفة التاريخيه العامة المودنه باسم الأنجلوساكسون وهى من الكتب القليلة التى دونت باللغة الدارجة ، وتناولت الأحداث التاريخية حتى ١١٥٤ ميلادية ، وإن كانت أهميتها تتناقص عندما نتعرض للفترة التى أعقبت الغزو النورمانى لانجلتره . هذا بالإضافة إلى مدونه فلورنس التى تنسب إلى وركستر Worcester ، والتى لها أهميتها فيما يتعلق بالفترة التى تبدأ بالغزو النورمانى حتى حكم إدوارد الأول . وثمة مدونه اسمها أعمال «استفن» كتبها أحد رجال الكنيسه وتعالج الملك ستفن . أما عن مدوّنه سانت البان التاريخة ؛ فهى على جانب كبير من الأهمية وتعالج الأحداث ، بين سنتى ١٢٥٠ ، ١٤٢٢ م .

وإذا ما انتقلنا إلى فرنسا وجدنا أنفسنا أمام عديد من المدونات التاريخيه العامة ؛ وقد تناولت الأحداث التاريخيه حتى ١٠٤٩ م ، ومدونه سانت دنيس الشهيرة ، التى دونت فى الدير العظيم الذى يحمل نفس الاسم بالقرب من باريس ، وتناولت الفترة من ١٢٥٠ حتى ١٣٨٠ م .

أما عن المدونات التاريخيه فى العصور الوسطى فى كل من المانيا وايطاليا ؛ فمعظمها كتبه بعض كبار مؤرخى تلك العصور ، ممن سنتعرض لهم بالحديث بعد قليل . والواقع ان المدونات التاريخية فى أواخر العصور الوسطى صارت بشكل مألوف إما مدنية ؛ أى تتكلم عن الاحداث التى تدور حول مدنية ذاتها ، أو وطنية قومية . ومثال ذلك المدونة التاريخيه Chronicle of London التى كتبت بالفرنسية عن لندن ، والتى تناولت الفترة ما بين السنه الرابعه والأربعين من حكم هنرى الثالث حتى السنه السابعة عشر من حكم ادوارد الثالث . وثمة مدونة أخرى كتبت بالإنجليزية ، وحذت حذو المدونة السابقة ، وقد جمعت مادتها فى عهد الملك هنرى السادس ، وتناولت الأحداث من عهد هذا الملك حتى عهد ادوارد الرابع . هذا فضلاً عن مدونة فلورنسا ، وهى مدونة قيمة تنسب إلى دينوكامبانى Dino Capagni (١٢٦٠ – ١٣٢٣ م) . أما عن باقى المدونات التاريخيه العظمى التى ترجع إلى العصور الوسطى ؛ فإننا سنشير إليها عند حديثنا عن المؤرخين البارزين فى تلك العصور

وقد فرقت بعض المؤلفات عن علم كتابة التاريخ فى العصور الوسطى مثل كتاب العلامة البارز ريجنالد لين بول Regnald Lane Poole — بين كتب المدونات التاريخيه فى العصور الوسطى وبين كتب التاريخ بمعناها المعروف ، وبنوا هذه التفرقة على أساس جودة ماتحتويه من مادة . فإذا كان الأثر التاريخى الذى يرجع إلى العصور الوسطى مجدباً وصعباً فهو من المدونات التاريخيه ، أما إذا كان سلس الأسلوب ومسلياً ، وتتصف أحكامه بالنزاهة والجدية ، فهو فى هذه الحالة تاريخ . وفى ذلك يقول الأستاذ «بول» مقتفيا أثر كتاب العصور الوسطى وهو «جريتز» المنسوب إلى كانتربورى : «يتفق المؤرخ مع كاتب المدونة التاريخيه فى أن كلاهما يستهدف هدفا واحداً ، ويستخدم نفس العناصر فى بناء مادته . ولكن يبدو الخلاف بينهما فى طريقة معالجة الموضوع ، وفى شكل الكتابة ، إذ يتبع المؤرخ أسلوباً واضحاً مهباً ، فى حين يستخدم صاحب المدونة طريقةً مبسطةً موجزة . وبينما يستهدف المؤرخ سرد الحقائق كما حدثت فعلاً مستخدماً أسلوباً أدبياً ، وبذلك يدخل السرور على قلوب القراء بما يقدمه لهم من أوصاف شيقة للرجال والتقاليد ، إذ بكاتب المدونه يقصر مهمته على سرد السنين وذكر الشهور والأيام ، مكتفياً بالاشارة فى إيجاز إلى أعمال الملوك والامراء ، وتسجيل الأحداث والنذر والمعجزات»

ومع أن هذا القول قد يبدو طريفاً ، إلا أنه لا يمكن الاخذ به تماماً وخاصة فيما يتعلق بذروة العصور الوسطى . ذلك أنه قد يكون صحيحاً عند المقارنه بين كتب المدونات التاريخيه فى أوائل العصور الوسطى وفى أواخرها ، أو حين المقارنه بين مجرد جامع للمعلومات وبين كاتب يتمتع بحماسة فلسفة التاريخ . ولكنه من الصعب علينا عندما نجد قصةً جافة أن نقول عنها : إنها من كتب المدونات التاريخيه ، وعندما نجد قطعةً أدبيةً ممتازةً من التاريخ ترجع إلى العصور الوسطى نقول : إنها تاريخ وليست مدونه تاريخيه وربما كان أقرب إلى الصواب أن نقول : إننا نلمس الكتابة التاريخيه الحقه فى العصور الوسطى عندما يخرج الكاتب عن طريقة الحوليات واتباع نظام السنوات فى سرد الأحداث ، إلى حيث ينظم مادته العلمية تنظيماً موضوعياً وفقاً لوحدة الموضوع ، أو لعهود الملوك والحكام . ولم يكن ذلك قبل نهاية العصور الوسطى عندما ظهرت الطريقة الموضوعية فى كتابة التاريخ فى صورة منظمة ، وكان ذلك فى حالات نادرة مثل كتابات ميكافيللى . أما الكتابات التاريخية التى ظهرت فى العصور الوسطى ، والتى قامت على أساس عهود الملوك والحكام ، فليس لها إلا القليل من الروح التاريخيه ، حيث إنه قام بها النسابون .

وهكذا يبدو لنا أن معظم المؤرخين فى العصور الوسطى كانوا بصفة أساسية من كتاب المدونات التاريخيه الذين اتبعوا طريقة السنين فى تنظيم عرض الأحداث ، ولم يستطع الخروج

عن هذه الطريقة سوى عدد قليل مثل : روجر المنسوب إلى هوفدن Hoveden ، وما تويو باريز ، وخيلها ردوان ، ولامبرت المنسوب إلى دير هرسفلد ، وآلهارد المنسوب الى اوراخ ، واوتو المنسوب الى فريزنج Otto of Freising . وحتى هؤلاء الكتاب كانوا اساساً إخباريين من كتاب المدونات التاريخية ، مع شئ من اتساع الأفق وشمول وجهة النظر مما ميزهم عن معاصريهم . ولهذا فإن معظم كتاباتهم قامت على أساس علاج الأحداث سنة بعد أخرى .

بعض زعماء المؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى

تبدأ كتابة التاريخ فى انجلترا العصور الوسطى بكتاب تعلوه مسحة من الكآبة ، كتبه الراهب الصريح جيلداس Gildas (٥١٦ – ٥٧٠ تقريبا) والمعروف باسم « شكوى بصدد تخريب بريطانيا » وقد كتب هذا الكتاب بلغة قوية ؛ على الرغم من أن أسلوبه اللاتينى كان يمثل نوعاً عتيقاً بالياً من بلاغة شيشرون . ويتعرض الكتاب لتمزق وانهيار الثقافة الانجليزية نتيجة للغزو الأنجلوسكورنى لذا يعتبر هذا الكتاب المصدر الوحيد الدائم الذى – يمدنا بمعلومات عن تلك الفترة . وتتضح نظرة جيلداس وتقديره للأمور من وصفه لنزول السكون على أرض انجلترا ، إذ يقول ؛ ثم تدفق من عرين اللبؤة المتوحشه أشبال كثيرون فى ثلاثة صنادل كما يسمونها فى لغتهم ، أو ثلاث سفن طويلة كما نسميها نحن فى لغتنا ، وقد نشرت أشرعتها على سطح الماء ، يصحبون منهم ما يتفاءلون به ، والنبوءات التى بشرتهم بأنهم سيحتلون الأرض التى اعتادوا أن يترددوا عليها عن طريق البحر طوال ثلثمائة عام ، وأنهم سيقضون فيها نصف هذه المدة ، أى مائة وخمسين عاما ، ينهبونها ويدمرونها ويسلبون خيراتها »(1)

ومع أنه لا يمكن الاعتماد على التفاصيل التى ذكرها جيلداس فى قصته ، إلا أن معظم المشتغلين بالدارسات التاريخيه اليوم يتقبلون الصورة العامة التى رسمها لحالة الاضطراب والفوضى التى صحبت الفرد التيوتونى لانجلترا ، ولو أنهم يرفضون الأخذ بما قاله جيلداس ؛ من أن ذلك الفرد ترتب عليه تدمير الثقافة التى كانت سائدة بانجلترا قبل الغزو الأنجلو سكسونى تدميراً شاملاً .

ويتمثل المصدر الرئيسى للفترة التى تلت تلك التى تناولها جيلداس ، فى تاريخ « بيدى » Bede الذى سبق أن ناقشناه آنفا . هذا فى حين تغطى مدونة الأنجلو ساكسون التاريخيه بقية العصر الانجلو ساكسونى فى انجلترا .

---

(1) Janes Gairdner. Early chronicles of Europe, England (London 1883) p. 6.

أما تاريخ الكنيسة الانجليزية من عهد إدجار إلى هنرى الأول ، بما فى ذلك العلاقة بين الدولة والكنيسة ، فقد عالجه راهب من كانتربورى عاش بين سنتى ١٠٦٠ ، ١١٢٤ م تقريبا ، اسمه (ايدمر) وسمى كتابه «تاريخ زمانه». وهذا الكتاب الذى يقع فى ستة مجلدات يعتبر مصدراً لا غنى عنه للموضوع وللعصر الذى تناوله . ويتصف أسلوبه بالرقى والوضوح ، وإن كان قد تحامل على وليم الثانى عندما عالج علاقته مع الكنيسة . وثمة كتاب آخر يعتبر إضافة هامة لتاريخ الكنيسة فى انجلترا ، ونعنى به كتاب «تاريخ كنيسة درهام» الذى ألفه سيمون أسقف درهام (ت ١١١٩ م) . وقد كتب درهام كتاباً آخر أسماه «تاريخ الملوك» تناول فيه تاريخ نورثمبريا من سنة ٧٣١ م وهى بداية السنة التى توقف عندها المؤرخ «بيدى» . وإذا كان هذا الكتاب تجميعاً لما جاء به المؤرخون السابقون ، فإنه مع ذلك يحوى كثيرا من المعلومات القيمة .

على أنه ربما كان أقدر المؤرخين الانجليز الذين يمكن الاعتماد على كتابتهم فى العصور الوسطى هو وليم راهب دير مالمسبورى ، الذى عاش بين سنتى ١٠٩٦ ، ١١٤٣ م تقريبا ، وكتب كتاباً كبيراً أسماه «أعمال الملوك الإنجليز» عالج فيه الأحداث التى بدأت بالغزو السكسونى لانجلترا حتى سنة ١١٢٨ م ، ثم أكمله بكتاب آخر أسماه «التاريخ الحديث» تناول فيه الأحداث التاريخية حتى سنة ١١٤٢ م . ولما كان وليم ينحدر من أصل نصفه انجليزى ونصفه نورمانى ، فإنه استطاع أن يحتفظ بقدر كبير من التوازن عند علاجه للعصر السابق للغزو النورمانى والعصر التالى له ، وهو ما جعله يزهو بنفسه . والواقع إنه قلّ أن نجد بين مؤرخى العصور الوسطى من يدانى «وليم» فى وعيه عند استعانته بمختلف المصادر التى أمكنه الرجوع إليها ، إذ يبدو أنه لم يترك مصدراً بارزاً أمكنه الرجوع إليه الا ورجع اليه قبل أن يكتب كتابه . ومع ذلك فإنه لم يكن مجرد جامع مادة بطريقة جافة ، فلقد أحسن تنظيم كتابه ، وتوفر لديه من رقى الذوق ورقة الحس ما جعله ينجح فى تصوير الشخصيات تصويراً طيباً وافر الدقة . وإذا كانت أحكامه التاريخيه تنم عن تبصر وذكاء غير عاديين ، فإنه أظهر مقدرة كبيرة فى تتبع تطور نظم الحكم . هذا فضلاً عن أنه أسهم بصورة جدية فى خدمة تاريخ انجلترا الكنسى ، بأن ألف «قصة الكنيسة الانجليزية» وهو الكتاب الذى استعرض تاريخ انجلترا الأسقفى والديرى حتى سنة ١١٢٥ م ، محاكياً فى غير دقة تاريخ «بيدى» .

وهناك مؤرخ عاصر وليم وأبرز قدرة على النقد واستقلال الرأى ، هو هنرى هانتنجدون («Henry of Huntin gdon») الذى عاش ، بين سنتى ١٠٨٤ ، ١١٥٧ م تقريبا . وعالج فى كتابه «التاريخ الانجليزى» تاريخ انجلترا حتى تتويج

(1) Gairdner p. 99

هنرى الثانى سنة ١١٥٤ . وقد أحب هنرى مهنته كمؤرخ ، وآمن بأنها مهنه ذات فوائد عملية فكتب يقول : «ليس هناك فى هذا العالم ما هو أعظم متعة من العمل على استقصاء شئون العالم فى دقة . إن التاريخ يجعلنا ننظر إلى الماضى وكأنه فى الحاضر ، ويساعدنا فى الحكم على المستقبل بتصويرنا للماضى أمام أعيننا »[1] . ثم أن هنرى تحققت له المقدرة على نقد وموازنة كل الأساطير والمعجزات التى تنسب الى القوى الغير طبيعية ، مع الجرأة على إبداء التشكك فيها ، مما لم يتوافر لأى مؤرخ آخر فى عصره ، وذلك كله بالاضافة إلى كونه (مؤرخاً دقيقاً ومتزناً ممتع الأسلوب . وقد شهد عصر هنرى الثانى مولد أول كتاب باللغة العامية الدارجة فى ذلك الحين ، وهو الكتاب الذى كتبه «ما ستروين» المنسوب الى جيرس Master Wace of Jersey وقد كتبه نظماً ، أشبه بسائر الكتابات الوطنية التى كتبت باللغة الدارجة عندئذ . ويفوق هذا الكتاب فى أهميته بكثير ما كتبه بعد ذلك عن تاريخ انجلترا حتى سنة ١٢٧٠ روبرت المنسوب الى جلوكستر ، وهو كتاب كتب باللغة المحلية الدارجة . ويعتبر مصدراً هاماً عن تاريخ انجلترا ما بين سنتى ١٢٥٦ ، ١٢٧٠ م ، فضلا عن أهميته بالنسبة لفقه اللغة الانجليزية .

ثم نأتى على ذكر كتابى جرفيس المنسوب الى كانتربرى ، فى أواخر القرن الثانى عشر تقريبا وهما «المدونة التاريخية ، والمنجزات الملكية» . وقد أمدنا هذان الكتابان بمعلومات هامة عن الصراع بين الكنيسة والدولة ، كما أنهما من المصادر الأساسية عن الملوك النورمان الأواخر ، وقيام البيت الأنجوى (اسرة بلانتاجنت) فى حكم انجلترا ، حتى عهد الملك حنا . وإذا كانت كتابته ينقصها جودة الأسلوب ، فإنها تدل على جهد كبير وتجميع حى ، وتحوى قدراً كبيراً من المادة التى يمكن الاعتماد عليها .

أما المؤرخ النورماندى الشهير أوردريكوس فيتاليس (١٠٧٥ تقريبا - ١١٤٣) فكان راهبا ، ولد بانجلترا ولكنه قضى معظم حياته فى نورمنديا . ومن ثم فإنه يعتبر مؤرخا انجليزيا وفرنسيا فى آن واحد . ويعتبر كتابه «التاريخ الكنسى» تاريخا مجملا للعالم من وقت المسيح حتى أيامه ، وإن كان لم ينهج نهجا تفصيلياً إلا فى الفترة التى أعقبت الغزو النورماندى لانجلترا . ويعالج المؤلف فى هذا الكتاب شئون النورمانديين ، لا فى نورماندى فحسب ، بل فى إيطاليا وصقلية أيضا . هذا الى أنه ضمن كتابه كثيراً من الجوانب السياسية ، على نحو أكثر مما فعل «بيدى» فى كتاباته . على أن هناك مآخذ عديدة تؤخذ على أوردريكوس فى كتابته ، منها ، أنه لم يوفق فى رسم خطة عامة محكمة لكتابه ، مثلما فعل «بيدى» . ثم إن عمله جاء غير متناسق ، ينتقل من نقطة الى أخرى دون تخطيط أو نظام ، الأمر الذى أوقعه فى التكرار والتناقض . هذا الى أنه لم يهتم بمراعاة الترتيب الزمنى ، مما أوقعه فى أخطاء تسبب للقارئ ارتباطا كبيرا . أما أسلوبه فى الكتابة فيغلب عليه التعقيد والتحذلق . ومع كل ذلك فانه يحتل مكانة هامة

كمؤرخ ، بسبب بعد نظره واتساع أفقه ، وتعرضه لعديد من الجوانب فى بحثه .

وقد قال عنه الاستاذ شارل دافيد David : «إنه لا يوجد مؤرخ آخر معاصر يدانيه فى اتجاهاته الإنسانية الكبيرة ، أو فى حماسته لاستقصاء أدق تفاصيل الأمور . لقد اهتم بكل ما هو جديد وكل ما هو إنسانى سواء فيما يتعلق بالأمور المحلية الخاصة بالدير الذى عاش فيه ، أو فيما يتعلق بالأحداث البعيدة فى انجلترا وايطاليا أو الشرق ، سواء كانت تلك الأحداث أو كنيسة أو دينيه أو أدبيه أو فنيه . وقد أولى الشعوب اهتماما خاصا ، فرأى ونفذ الى حياة كافة الطبقات ، بحيث لا يوجد كاتب آخر فى عصره بلغ تلك الدرجة من الثراء فى تصوير الصبغة المحلية»[1] .

أما عن عصر ريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة ، فان المؤرخ الانجليزى الرئيسى الذى نعتمد عليه فى دراسة تلك الفترة ، هو «ريتشارد» المنسوب الى مدينة ديفزيس Richard of Devizes (حوالى ١١٩٠ م) . وقد عرف هذا المؤرخ بروح اللامبالاة وعدم الاكتراث . وجاء كتابه دقيقا ومتعمقا ، كما أنه نجح نجاحا بارعا فى تصوير روح ذلك العصر ، وله أهمية خاصة فى تصويره الانفعالات والأحاسيس التى صاحبت الاستعداد للغزوة الصليبية الثالثة ، وفى تصوير أحوال الدولة بعد أن تركها الملك ريتشارد متجها الى الشرق على رأس حملته الصليبيه . هذا وإن كان أسلوب ريتشارد جاء متكلفا بعض الشئ ، واختلط كلامه بالكثير من الاقتباسات عن الأقدمين ، واذا كان ريتشارد قد عنى بوصف الأوضاع السياسية والحربيه فى عصره ، فان الصورة التى رسمها أتمها كاتب انجليزى آخر هو جوسلين ، المنسوب الى بريكلاند (حوالى ١٢٠٠) وهو الذى كتب سجلا لدير سانت ادموند سبورى . ويعتبر هذا السجل فى حد ذاته دراسة فريدة للأحوال الاجتماعية والحياة الديرية فى انجلترا فى القرن الثانى عشر . هذا الى أنه مصدر قيم لا غنى عنه للوقوف على النظم الإدارية المتعلقة بالأديرة فى العصور الوسطى . ثم إن جوسلين أثناء كتابته أثبت مهارة نادرة فى كتابة سيرته والترجمة لنفسه ، وبذلك أعطانا صورة حية لأفكار وأعمال راهب مجد قدير .

وثمة مؤرخ آخر لايدانيه أحد فى انجلترا فى العصور الوسطى من ناحية قدرته على الخداع ، هو جوفرى المنسوب إلى مونماوث (١١٠٠ م - ١١٥٤ م تقريبا) ، أنه بلغ من خداعه أنه زور الحقائق الخاصة بأصل وطبيعة كتابه وتاريخ ملوك انجلترا ، فادعى أنه ترجمه إلى اللاتينية عن أصل أنجلو سكونى قديم غير معروف ، يتناول تاريخ بريطانيا فى أيامها الأولى - ومن أعماله القبيحة الذائعة الصيت ، الأسطورة التى زعمها عن الأصل الطروادى للشعب الإنجليزى . على انه مها تكن القيمة التاريخية لكتابه تافهة ، فإن لهذا الكتاب أهمية من

(1) In Guilday, Church Historians pp. 121-22

ناحية تأثيره على أدب الفروسية والبطولة فى انجلترا . فمن كتاباته بالذات اقتبست بعض القصص الشهيرة مثل « الملك لير » والنبى الساحر مرلين ، فضلاً عن معظم القصص الخرافية عن الملك آرثر .

ولقد هاجم جيرالدوس كمبرنسس Giraldus Cambransis (عاش ما بين سنتى ١١٤٦ — ١٢٢٠ م) جيوفرى ، ووصفه بأنه كذاب أفاك ، ولكن جيرالدوس نفسه حشا كتابه عن غزو ايرلندا — وهو الكتاب الذى أسماه «التاريخ التنبؤى لغزو الجزيره» — بكثير من المعجزات والأعمال الخارقة للطبيعة . وعلى الرغم من تعصبه لوطنه وخياله الواسع ، وسذاجته ، فإن كتابه من خيرة الكتب فى العصور الوسطى بالنسبة للموضع الذى تناوله ، فضلاً عن أنه كان أحد الموهوبين بلاغة الأسلوب بين كل المؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى ، فامتاز أسلوبه بالوضوح والبساطة والبلاغة ، مع قدرته الممتازة على تحليل الشخصيات والسلوك ، وهى خاصية ميزته على أقرانه من المؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى . وقد تضمنت كتابات جيرالدوس كثيراً من المعلومات عن السلوك والعادات والتقاليد والمشاهد العامة . هذا فضلاً عن أهتمامه بالجغرافيا التاريخية كما وضح ذلك فيما كتبه عن «طوبوغرافيه ايرلندا» وعن «دليل المسافر فى ويلز» .

وربما كان وليم راهب دير مونموث أقوى أثراً بوصفه ناقداً ، جيوفرى . وقد ولد وليم هذا حوالى ١١٣٥ ميلادية ، وتناول كتابه «تاريخ انجلترا» الفترة من عهد الملك استيفن حتى نهاية حكم الملك هنرى الثانى ، متخذاً «بيدى» نموذجا يقتضى أثره فى كتابة التاريخ . وهكذا أخرج وليم كتاباً بالدقة والوضوح والتشويق ، وامتاز بأحكام تدل على قوة الادراك . ثم كان أن استطاع روجر المنسوب إلى هوفدن Roger of Hoveden (ت حوالى ١٢٠ م) أن يخطو بكتابه التاريخ خطوةً واسعةً عندما كتب «حوليات التاريخ الإنجليزى» ، وهو الكتاب الذى أكمل به تاريخ «بيدى» حتىَ أيامه . واستطاع روجر فى هذا الكتاب أن يخرج عن المنهج الحولى فى الكتابه ، وكان نجاحه فى ذلك أكثر من أى مؤرخ آخر فى عصره ، حيث أنه أخرج كتاباً جيد التنظيم ، وتناول بالتفصيل تاريخ حكم الملك هنرى الثانى وريتشارد الأول وبداية عصر الملك حنا . وامتاز روجر بوفرة المعرفة والأهتمام بالشئون الخارجية .

واستطاع عدد من رهبان دير سانت الباتز أن يخلدوا أسماءهم بوصفهم من أقدر المؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى . ومن هؤلاء نذكر روجر المنسوب إلى وندوفر Roger of Wendover (ت ١٢٣٦ م) وله كتاب . مختصر لكنه غزير المعلومات عن تاريخ العالم سماه «أزهار التاريخ» تناول أحداث التاريخ منذ بدء الخليقة حتى ١٢٣٥ م ، وعالج بصفة خاصة أحوال انجلترا بعد الغزو النورماندى . ويعتبر هذا الكتاب من

أحسن المصادر عن حكم الملك حنا وهو يمتاز عموماً بطرحة الأسلوب ووضوحه وقوة التعبير واتزان الأحكام .

ومهما يكن من أمر، فهناك شبه إجماع على أن ماثيوباريس الذى عاش من ١٢٠٠ – ١٢٥٩ م تقريبا ، والذى أكمل كتاب روجر السابق الاشارة إليه ، هو أقدر المؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى . ذلك أن ماثيو استطاع بدرجة لايدانيه فيها مؤرخ معاصر غيره – أن يحرر عقله من تأثير العقيدة الدينية والأساطير الخرافية ، مركزاً عنايته فى تاريخه على التطور السياسى . ولذا جاء كتابه المصدر السند الصحيح لكل ماهو خاص بتطور الأنظمة الدستورية الإنجليزية ؛ مابين العهد الأعظم ونشأة البرلمان الإنجليزى . واحتوى كتابه كثيراً من الوثائق العامة ذات الأهمية الكبيرة . وثمة ميزة كبرى امتاز بها كتابه ؛ هو اهتمامه بإبراز أثر الأحوال والعلاقات الخارجية فى التاريخ السياسى الداخلى لانجلترا . والحق إن ماثيو يتصف فى كتابته بالبساطة والاستقامة ، والقدرة على الاحتفاظ باستقلال الرأى ، وإصدار الأحكام القويمة حتى فيما يتعلق بتصرفات ملوك انجلترا وسياستهم . لذلك لاعجب إذا وصفه « توت » بأنه أكثر المؤرخين استقلالاً برأيه ، واعتداداً بنفسه ، فى العصور الوسطى . وقد أكمل كتابه على يد أحد رهبان دير سانت الباتز ، فوصل بأحداثه حتى وفاة هنرى الخامس . ومن بين الكتاب الذين أتموا عمل رهبان دير سانت الباتز أيضا ، روبرت ويدنج الذى توفى سنة ١٣١٨ ، وهو أحد رهبان وستمنستر ، وأظهر ولاء واضحاً لإيرل لانكستر.

ويعتبر توماس والسنجهام Thomas Walsin gham. آخر المؤرخين العظام الذين ينتمون إلى دير سانت الباتز (جاء بعد ١٤٠٠ تقريبا) ذلك أن توماس راجع أعمال المؤرخين السابقين ، ومضى بالتاريخ فى كتابه « التاريخ الإنجليزى » حتى وفاة هنرى الخامس (١٤٢٢ م) . وبرغم معاداته للحركات الراديكالية فإن كتابه يعتبر خير مرجع عن حركة « ويكلف » و « وات تيلر » . هذا إلى أن كتابه له أهمية فيما يتعلق بتطور النظم الدستورية .

وهناك مصدر هام عن عهد الملك ادوارد الأول ؛ هو الكتاب الذى كتبه الراهب الدومينكانى نيقولا تريفت ؛ الذى عاش بين سنتى ١٢٥٨ م ، ١٣٢٨ م تقريبا . وقد بلغ نيقولا مستوى لا بأس به فى الدراسات القديمة ، وتعتبر روايته عن التاريخ الانجليزى فى هذه الفترة (عهد ادوارد الأول) دقيقة نسبياً واتصفت بصعوبة الأسلوب ، وضحالة الفكر . ولكتابه من خصائص الكتب التعليمية أكثر من معظم كتب ذلك العصر . وجاءت معالجته لتاريخ الشئون الخارجية خلاصة لكتاب المؤرخ الألمانى « مارتن » المنسوب إلى تروباو .

ثم نأتى على ذكر المؤرخ الإنجليزى والتر همنبورج Walter Heminburgh المتوفى ١٣١٥ تقريباً ، الذى تناول فى كتابه « تاريخ انجلترة » الفترة ما بين الغزو النورمانى لها

وحكم الملك ادوارد الثالث . ويعتبر هذا الكتاب أعظم مصادرنا أهمية عن آل ادوارد الأوائل ، ويمكن الاعتماد على روايته ، كما أنه أسلوبه يتصف بالقوة والوضوح ؛ على الرغم من أنه ضمن كتابته عديداً من الوثائق والنصوص مثل ؛ العهود والمراسلات ، وبعض أوراق الدولة الرسمية . هذا إلى أن أحكامه عادلة وآراءه معتدلة غير متحيزة .

وعن حكم الملك ادوارد الثالث وحتى ١٣٥٦ م ، لدينا كتاب تاريخي هام كتبه روبرت المنسوب إلى أفزبرى Robert of Avesbury (حوالى ١٣٥٠) ، وهو أحد المؤرخين القلائل من غير رجال الدين فى أوربا فى العصور الوسطى ، وكان الأمين على سجلات كانتربرى . واهتم روبرت فى كتابه بالتاريخ الحربى ؛ خاصة الحروب مع فرنسا منذ ١٣٣٩ حتى ١٣٥٦ م ، ولذا لم يعط قدر ضئيل من العناية لشئون السياسة الداخلية ، أو التاريخ الدستورى ، أو تاريخ الكنيسة فى انجلترا . وكان يوصفه مؤرخاً لشئون الحرب رقيقاً شديد الرقة فى بحثه ، وغير متحيز فى أحكامه . ولكتبه أهمية خاصة ، نظراً لما تضمنه من عديد الوثائق الأصلية والمراسلات الهامة التى تضمنها .

ومن الروايات التاريخية المعاصرة ما كتبه رالف هيجدن (١٢٩٩ - ١٣٦٤ م تقريبا) وهو راهب عاش فى عهد الملك ادوارد الثالث . وكتابه «التاريخ الشامل «Polychronicon» محاولة لسرد تاريخ العالم فى صورة موجزة ، وهو منقسم إلى سبعة مجلدات وفقاً للأيام السبعة التى خلق الله فيها الكون . كذلك تضمن كتابه معلومات مفصلة عن الجغرافيا التاريخية على نحو ما كانت معروفة فى تلك الأيام . والحق إن هذا الكتاب - وعلى حد قول جردنر - ليس له مثيل فيما احتواه من مادة ، وفى تكاملة وفى الفائدة التى تعود منه ، ولايدانيه إنتاج آخر مثله حاز الإعجاب على نطاق واسع . وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب قليل القيمة كمصدر لتاريخ أى عهد من العهود هذا وإن كانت أهمية تكمن فيما يتضمنه من مفاهيم مبتكرة ، وما يعبر عنه مستوى ذلك العصر من معلومات جغرافيه وعلمية ولغويه . وأخيراً ؛ فإن هناك توليفة لكتابة التاريخ فى العصور الوسطى قام بها أحد الإنجليز وهو روبرت فابيان (ت ١٥١٢ م) فى كتابه «تطابق التواريخ» الذى لم يعتمد فى كتابته على كبرى المدونات التاريخية الإنجليزية فحسب ، بل أيضاً على ما كتبه أهم المؤرخين الفرنسيين فى العصور الوسطى .

أبرز المؤرخين الفرنسيين فى العصور الوسطى

يعتبر ريشر الذى عاش فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى أول المؤرخين أهمية فى فرنسا العصور الوسطى . ذلك أنه تناول فى كتابه المسمى تاريخ عصره History His Own times الفترة من ١٨٨٧ إلى ٩٩٨ م . وقسم ذلك الكتاب إلى أربعة أجزاء . وعلى الرغم مما يتصف به فى بعض فقراته من إطناب مخل وأسلوب انشائى ، وتحيز فى الأحكام ، إلا أنه بصرف النظر عن ذلك كله مصدر أمين يعطى صورة صادقة للعصر الذى يؤرخ له . والواقع ، إنه مصدر لاغنى عنه فى دراسة عصر الإضمحلال للبيت الكارولنجى وظهور اسرة كابيه . وثمة مصدر آخر من كتب التاريخ أقل أهمية وسابقة هو كتاب راؤول جلابر (أو رالف الأصلع Ralph the Bald) المتوفى حوالى ١٠٥٠ م . وقد تناول هذا الكتاب تاريخ الفترة مابين عامى ٩٠٠ م ، ١٠٥٦ م . على أن هذا الكتاب يتصف بعدم الدقة ، فضلاً عن إكثاره من ذكر الخرافات والأساطير ، ومنه استقينا الخرافة التى شاعت فى ذلك الحين ، والتى رددت بأن موجة من الرعب ستجتاح العالم المسيحى عند حلول السنة الألف بعد مولد المسيح .

ولم تلبث هذه الخرافة أن ترددت فى كتب التاريخ عبر ماكتبه بارونيوس ، روبرتسون ، ميشليه . ومع ذلك فإن كتاب الف له أهمية نظراً لندرة المادة التى كتبت عن ذلك العصر . وهناك كتابان آخران من الكتب التى صدرت فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ويعتمد عليها إلى حد بعيد فى دراسة تاريخ ذلك العصر هما : كتاب أدهمار المنسوب إلى شابامنس Adhemer ot Chabanmes ، وكتاب وليم المنسوب إلى بواتو ، وهو الكتاب المسمى باسم أعمال وليم الفاتح ، والاخير مصدر لاغنى عنه فى دراسة تاريخ النورمان .

أما سيجبرت المنسوب إلى جمبلو (عاش بين ١٠٣٠ – ١١١٢ م تقريبا) فقد ألف تاريخاً عاماً للعالم ، استخدمه على نطاق واسع من جاء بعده من الكتاب . كان سيجبرت راهباً فى دير من أديرة بلجيكا وهو دير جمبلو . وتبدأ مدونته التاريخية التى أتم كتابتها حوالى ١١٠٦ م ببدء الخليقة ، لكنه أخذ يميل إلى الإسهاب عندما وصل إلى أحداث ٣٨١ م ، ثم توقف بها

عند عام ١١٠١ ميلادية . ويلاحظ أنه أعتمد إلى حد كبير على ماسبق أن كتبه المؤرخ ماريانوس سكوتس . كما يلاحظ أن الأقسام الأولى من هذا الكتاب ليست لها قيمة من الناحية التاريخية ، وإن كانت فصوله الأخيرة ذات قيمة أكبر ؛ رغم عدم عنايته باستشارة المراجع فى هذا الجزء[١]. وهناك أكثر من تكملة لهذا الكتاب كتبها بعض الكتاب الذين ظهروا بعد ذلك ، كما استفاد منه بعض الكتاب بوصفه دليلاً زمنياً لأحداث التاريخ .

والحق ؛ إن هذا الكتاب الذى لخص تاريخ العالم كأن أكثر الكتب من نوعه شيوعاً فى العصور الوسطى . وقد كتب روبرت المنسوب إلى تورجينى المتوفى سنة ١١٨٦ م . وكان مقدم مونت سانت مايكل ؛ ذيلاً لكتاب سيجبرت غطى فيه أحداث الفترة ، بين سنتى ١١٥٤ ، ١١٨٦ ميلاديا . ولهذا الكتاب أهمية سواء فى الأحداث التاريخيه التى عالجها ، أو فى تاريخ الكتبة . وهو واحد من أهم المصادر عن حكم الملك هنرى الثانى فى انجلترا . وثمة مؤرخ آخر قدير ؛ هو روبرت المنسوب إلى أوكسر Auxerre الذى عاش بين عامى ١١٥٦ م ١٢١٢ م . وقد سمى كتابة « تاريخ العالم » واستبق معظم ما ذكره من أحداث حتى ١١٨١ م مما كتبه سيجبرت وآخرون . ورغم ذلك فإن هذا الكتاب له أهمية بالنسبة للفترة ما بين ١١٨١ ، ١٢١١ م بوصفه مصدراً اساسياً معاصرا . هذا فضلاً عن أهميته بوصفه مصدراً للمعرفة عن حياة فيليب أوغسطس والحروب الصليبية . ذلك أن روبرت كان قارئا مثابراً تتصف أحكامه بالاتزان ، ولذا فإنه يعتبر من خيرة المؤرخين الفرنسيين فى العصور الوسطى .

ومن المعروف أن الفرنسيين نهضوا بدون قيادى فى الحروب الصليبية ، وأن هناك عدداً من المؤرخين الفرنسيين فى العصور الوسطى إلى جانب روبرت السابق ذكره ؛ شاركوا بجهودهم فى تزويدنا بمعلومات من ذلك العصر . ومن هؤلاء فولشيه Foulcher المنسوب إلى شارتر (١٠٥٨ م ١١٢٧ م) ، وقد كتب كتاباً عن تاريخ الحروب الصليبية أمرنا بكثير من التفصيلات عن المراكز الأولى التى أقامها الصليبيون فى الشرق الأدنى ، وإن كانت كتابته تتصف بالغرور والتعصب . وربما فاق هذا الكتاب فى الشهرة ماكتبه جبرت المنسوب إلى نوجنت (١٠٥٣ م ١١٢٤ م) ، واسم كتابه « ماحققه الرب على أيدى الفرنسيين » Deeds of God through the French . وقد بنى هذا الكتاب فى أساسه على قصة نورمانديه ، ولذا نرى المؤلف يعانى صعوبةً بينةً فى الكتابة ، بعد أن تنتهى القصة التى بنى عليها كتابه . ومع أن أسلوبه يتصف بالتكليف والتصنع ؛ إلا أنه مرجع قيم عن الحملة الصليبية الأولى . أما تاريخ الحملة الصليبية الثانية فنجده فى كتاب « تاريخ حملة لويس السابع » الذى ألفه اودو المنسوب إلى ديل Odo of Deuil المتوفى

(١) يغطى سيجبرت بقدر أكبر من التقدير فى نظر بعض الكتاب ، فيعتبره مولنيير فى كتابه مصادر التاريخ الفرنسى الجزء الثانى ص ٢١٠ خير من كتب فى تاريخ العالم فى العصور الوسطى (المؤلف) .

سنة ١١٦٢ م . وهذا الكتاب مختصر العبارة ، يتصف بالبلاغة عندما يصف بطولة المحاربين الصليبين ، وهو كتاب مشوق لحيويته ، وخاصة عندما يصف القسطنطينيه وأهلها ، وإن كان هناك وصفه هذا يتم عن روح الكراهية والعداء . ولعل أحسن ما كتبه الفرنسيون عن الحروب الصليبية هو كتاب وليم الصورى ، الذى عاش من ١١٣٠ ١١٩٣ م . وكان وليم رئيس أساقفه مدينة صور ، وتناول كتابه تتابع الأحداث التى شهرتها الأرض المقدسة فى فلسفة منذ ١٠٩٥ ١١٨٤ م . والملاحظ أنه جمع مادته بعناية ، واستقى معلوماته من أوسع نطاق ، فضلاً عن أنه كان دقيقا فيما كتب وغير متطرف فى تعصبه وتحيزه . وقد مضى عدد من المؤرخين الذين اعقبوا فى تكملة ماتوقف عنده سرد الأحداث فى هذا الكتاب .

أما كتاب «غزو القسطنطينية» الذى كتبه جوفرى فيلهاردوان (١١٦٧ م – ١٢١٣ م) تقريبا فيعتبر من خيرة الانتاج التاريخى الذى قدمته العصور الوسطى . ولعله أول كتاب تاريخى هام فى العصور الوسطى يكتب باللغة العامية المحلية الدارجة . وفيما يتصف المؤرخ بالتواضع عند حديثه عما قام به نفسه من أعمال ، إذا بالكتاب يتضمن دفاعاً عن سياسة فيلهاردون نفسه فى الحملة الصليبية الرابعة . ومازال هذا الكتاب . خير مصور تتعرف منه على روح الغزاة الصليبين فى تلك الحملة التى اعتبروها حرباً مقدسة . وقد كتب بأسلوب يجمع بين الموضوع والإيجاز ولكنه ملئ بالحقائق ، يفيض بالإحساسات الشخصية والاعتبارات الإنسانية . ويقول عنه جوستاف ماسون : «إن نظرة عابرة إلى أسلوب فيلهاردون النثرى ليقتنع القارئ أنه لايدانيه مؤلف فرنسى فى العصور الوسطى فى وضوح أسلوبه ، ودقة فى أختيار مادته ، ومهارته فى تصوير الشخصيات»[1] أما عن فلسفته السياسية فكان فيلهاردون مدافعاً عن الفروسية والإقطاع .

أما أكبر الكتب التاريخيه التى كتبت فى فرنسا فى العصور الوسطى ، فهو القسم التاريخى من الموسوعة الكبيرة المسماه «المرآة الكبرى» Speculum majus للراهب الدومنيكانى «فنان» المنسوبة الى دير بوفيه Vin cent of Beauvais ولقد جاءت هذه الموسوعة فى ٣١ كتابا ، واشتملت على ٣٧٩٣ فصلا ، وهى توازى بحجم الكتب الحديثة فى أيامنا ، عشرين مجلدا . وتناولت هذه الموسوعة كل تاريخ البشر منذ بدء الخليقة حتى عهد القديس لويس (التاسع) ، وأختيرت مادتها من عدد كبير من الكتب التاريخيه التى دونت فى العصور الوسطى . وإذا كانت غير مبتكرة فإنها تجميع ماهر حاذق ، كما أنها خير ما كتب عن الصناعة فى العصور الوسطى .

---

(1) Gustave Masson, Early chromichers of Europe: Fran ce (London 1883) p. 129

أما المؤرخ وليم المنسوب إلى نانجيس Gillaume de Nangis (ت حوالى ١٣٣٠ م) فإن كتابه تناول الاحداث التاريخية منذ بدء الخليقة حتى حكم فيليب الجميل. وقد اعتمد فى مقدمته التاريخيه العامة التى وصل بها الى حوالى سنه ١٣٠٠ م على كل من كتابات المؤرخين ايزيبوس، جيروم، وسيجبرت المنسوب الى جميلو وهذه المقدمة ليس لها اهمية خاصة. أما الجزء الذى يأتى بعد ذلك فهو مبتكر فى مادته. ويعتبر أحسن مالدينا عن الدور الأول من حكم فيليب. وقد مجد المؤلف النظام الملكى وسياسة الملك فيليب فى الحكم المركزى. وقد أكمل كتاب وليم بعد ذلك «حنا دى فينيت» المولود حوالى ١٣٠٨، وهو كاتب امتاز باستقلال الرأى فى أحكامه وروحه الناقدة. ولم يكن مجرد كاتب حوليات؛ بل كان مؤرخا تجاوز أفق مادته. ذلك أنه أنتقد فى صراحة الملكية والأمراء والاقطاعيين الذين اختصهم بقدر كبير من نقده. ومع أنه لم يكن ديموقراطياً، فإنه كان يعتقد أنه ما دام الشعب يدفع ضرائب باهظة، فمن حقه إذن أن ينعم بالعدالة والأمن.

ومن أخصب المؤرخين الفرنسيين انتاجا فى العصور الوسطى برنارد جاى الذى عاش بين سنتى ١٢٦١ – ١٣٣١، وكتب بوجه خاص عن محاكم التفتيش فى العصور الوسطى. ومن أبرز كتاباته كتاب «زهرة المدونات التاريخية». ولهذا الكتاب أهمية كبيرة بالنسبة للعصر الذى دون فيه. وبالأضافه إلى ما كتبه عن محاكم التفتيش فإن له كتباً مختصرة عن البابوات والأباطرة وملوك فرنسا وأمراء تولوز.

أما أحسن المؤرخين وضوحا فى أسلوبه بين المؤرخين الفرنسيين فى العصور الوسطى، فهو المؤرخ الفرنسى حنا فرواسار Jean Froissart الذى عاش من ١٣٣٧ م الى ١٤١٠ م. وكان شاعراً ومؤرخا، وكتب كتباً عن فرنسا وفلاندرز وانجلترة واسكوتلنده واسبانيا، تعتبر جميعها من الكتب الممتعة للقارئ. ذلك انه لم يقف عند حد تسجيل الأحداث التاريخية وفقاً للترتيب الزمنى، وإنما كانت له مقدرة فى تجسيد المناظر المثيرة وتصوير الشخصيات، وفى ذلك يقول ماسون: «لا يقارن بفروسار هذا سوى شكسبير فى مجال طلاوة الاسلوب والقدرة على تصوير المجتمع»[1]. ولقد أعاد كتابة كتابة ثلاث مرات وفى كل واحدة منها كانت تختلف عن الاخرى. فالنسخة الأولى تتصف بأنها أكثر حيوية، كما أنه كان مناصرا للإنجليز، فى حين نجده فى النسخة الأخيرة ينحو نحواً فلسفيا، ويتحامل على الانجليز. وقد اهتم بالمسببات ونتائجها وأعطانا كثير عن السلوك والعادات والأنظمة السائدة فى تلك العصور على أن فروسار لم يكن مؤرخا قوميا، وإنما أخذ يدافع عن الفروسية فى فترة انهيار الاقطاع. هذا الى أنه لم يكن بالدقة الكافية فى تمحيصه للحقائق، مما أوقعه فى أخطاء كثيرة عند ذكره

(1) Masson op. cit, p. 176.

للتواريخ ، وهى أخطاء مربكة للقارئ . ومع ذلك فإن عمله خير المصادر المعاصرة لحرب المائة سنة ، كما يصور عصر الفروسية ومثلها فى صدق وأمانة .

ويختلف عن هذا الكتاب فى الاسلوب والنغم ، الكتاب الذى الفه انجيران مونستريليه Enguerrand de Monstrelet (١٣٩٠ م – ١٣م – ١٣ م – ١٤٥٣ م) . وذلك أنه تناول الأحداث التاريخية من سنة ١٤٠٠ م – ١٤٤٤ م فى أسلوب رصين ، وأبدى كثيراً من الاحاسيس إزاء ما أحدثته حروب النبلاء من تخريب وفوضى . ثم أنه جاوز الكثيرين من معاصريه برفضه تقبل وجود للمعجزات والخوارق الغير طبيعية ، والسحر والعجائب وما شابهها . لكن يؤخذ عليه نظرته الضيقة المحلية أذ أنه اتجه إلى تمجيد الأحداث التى وقعت فى فلاندرز لغير سبب معقول سوى أنه من أبناء ذلك الاقليم . وقد قام بأكمال ما توقف عنده كتابه من أحداث حتى سنه ١٤٦١ م «ماثيو دى سوس» Mathieu de Coucey المولود حوالى ١٤٢٠ م . وكان هذا الكاتب واضح الأسلوب ، ويقارن فى بعض النواحى بفروسار . ولكنه كان أكثر حرصا منه ودقة فى تناوله للمادة التاريخيه . هذا الى أنه جمع بين رصانة الأسلوب والأمانه فيما يقول ، وكان يعترف بندرة المصادر ، وهو على حق فى ذلك . ولكتابه أهمية خاصة لاسيما بالنسبة للفترة الأخيرة من حكم شارل السابع .

ومن الكتابات اللاذعة فى العصور الوسطى ، الكتاب الذى دونه توماس باسن Thomas Basin (١٤١٢ م – ١٤٩١ م) واسم الكتاب «تاريخ عصر شارل السابع ولويس العاشر» وهو مشبع بروح الكراهية للإنجليز من ناحية وللنظام الملكى من ناحية أخرى ، فضلاً عن أنه قاس فى حكمه على طغيان لويس . واذا كان المؤلف قد عنى بما ساقه من حقائق ، إلا أنه عكس انطباعاته الذاتية على حكمه على الأمور .

أما كتاب «الوقائع المخزية» لمؤلفة حتا المنسوب الى تروى Trays فقد تناول الفترة من ١٤٦٠م – ١٤٨٣م . ولكنه حوى قدراً من اللغو والثرثره أكثر مما طواه من الفضائح والأحداث المخزية . ولذا جاءت معظم مادته سطحية تافهة يعوزها الابتكار والجدة ، وإن كانت لها قيمتها من حيث الاضواء التى تلقيها على الحياه فى باريس فى ذلك الدور .

أما آخر المؤرخين الفرنسيين اللامعين فى العصور الوسطى وأقدرهم ،فهو فيليب دى كومين (١٤٤٥ م – ١٥٠٩ م) الذى تعبر مذكراته عن بداية النقلة الى المرحلة الحديثة فى كتابة التاريخ . وتتسم هذه المذكرات بالحيوية ، فضلاً عن كثير من الخصائص التى تتصف بها الطريقة الحقة فى كتابة التاريخ ، مثل المقدرة على استقصاء الحقائق وتحليل الدوافع تحليلاً دقيقا ، ووضع الجوانب الثقافية موضع الاعتبار ، ثم الخروج بأحكام عامة مدعمة .

ولقد ابدع كومين عند علاجه للمؤامرات السياسية والديبلوماسية المعقدة . وأكد

الأهمية السياسية والفنية والعملية للتاريخ . ثم نصح رجال الدولة والسياسة بأن «يدرسوا التاريخ جيدا ، حيث أنه مفتاح معرفة كل أساليب الغدر والخداع والأكاذيب » . ولقد تناول كومين فى مذكراته الأحداث من ١٤٦٤ م – ١٤٨٣ م ، ومن ١٤٨٨ م الى ١٤٩١ م . ويعتبر كتابه من خير المصادر عن عهد لويس الحادى عشر وشارل الثانى . ويبدو من كتابته أنه كان مجاملا ، ويذكرنا كلامه وتمجيده للملك لويس ولدور الامير فى السياسة بما كتبه ميكافللى . ويقول المؤرخ الانجليزى هلام Hallam عن كومين إنه أول كاتب يمثل العصر الحديث ... ذلك أنه أظهر بنجاح وحصافة فى دراسة طبيعة الرجال ومعرفة نتائج أعمالهم . وكانت لديه القدرة أن يعطى لملاحظاته واستنباطه صفة التعميم . وذلك باتباع اسلوب المقارنة والتطبيق .

بعض أهم المؤرخين الأيطاليين فى العصور الوسطى

كان بولس الشماس أعظم المؤرخين الإيطاليين أهمية فى العصور الوسطى . وقد سبق أن أشرنا اليه بوصفه أحد الكتاب الذين يمثلون نموذجاً للكتابه التاريخيه فى الفترة الانتقالية ما بين العصور القديمة والوسطى . ومن المعروف أن إيطاليا ظلت البلد الذى يضم العاصمة الدينية للغرب المسيحى فى العصور الوسطى وذلك إذا استثنينا فترة الأسر البابلى التى أنتقلت فيها البابوية الى أفنيون ، وهى فترة قصيرة فى أواخر العصور الوسطى . ولذا فإن الكتابة عن البابوات صارت أمراً له أهميته فى الكتابة التاريخية الايطالية فى العصور الوسطى . وأكثر الكتب أهمية فى هذا المجال «كتاب عن البابوات» الذى بدأ بحوادث القرن الرابع بذكر بعض حقائق مختصرة عن الحياة الرسمية لكل «بابا» من البابوات ، ثم انتقل تدريجيا ليأتى بتراجم مفصلة عن البابوات .

وثمة كتاب آخر له أهميته عن التاريخ الكنسى ، هو تاريخ أساقفة «رافنا» من العصر الرسولى حتى منتصف القرن الثامن ، وألف هذا الكتاب اجلوس الرافنى الذى ولد فى ٨٠٥ م وكما هو متوقع ضمن كتابه العديد من الخوارق والأساطير الى جانب مابه من مادة تاريخيه سليمة .

أما أول المؤرخين البارزين فى ايطاليا ممن يمكن اعتبارهم صورة صادقة لمؤرخى العصور الوسطى ، فهو «ليتوبراند» أسقف كريمونا (٩٢٤ م — ٩٧٢ م تقريبا) وكان أقدر المؤرخين الأيطاليين فى عصره بل ربما كان أكفأ كتاب التاريخ فى أوربا العصور الوسطى طوال القرن العاشر وله ثلاث كتب تاريخية هامة .وأشهر هذه الكتب وأكثرها فائدة هو الكتاب الذى سماه «كتاب الجزاء» وقد عالج فيه الفترة من ٨٨٨ م الى ٩٥٠ م . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب اختص بتاريخ ايطاليا ، إلا أنه تضمن الكثير عن ألمانيا والدولة البيزانطية والتاريخ الاسلامى . وكان عنيفاً فيما كتبه عن الملك برنجاريوس Brengarius ، وهو الملك الذى نفاه . وجاء عنوان الكتاب متماشيا مع ما استهدفه من تحامل على هذا الملك والكتاب فى جملته غنى بالمادة والتفاصيل ، وإذا قورن ليتوبراند بأى كاتب أخر فى عصره ،

بعده أقلهم أيماناً بالخوارق والاساطير. أما كتابه الثانى «تاريخ اوتو» فهو صورة تامه للفترة ما بين سنه ٩٤٠٠ م — ٩١٤٤ م ، وهى فترة عاشها وشهد احداثها . وأخيرا يأتى كتابه الثالث واسمه «قصة سفارة إلى القسطنطينية» ويتضمن صورة ممتعة ولكنها لا تخلوا من هجاء للبلاط البيزنطى .. ههذا كله فضلا عن أن ليتوبراند كان محيطا بالدراسات الكلاسيكيه القديمة ، وهذه ظاهرة نادرة فى عصره ولا وجود لها بين المؤرخين المعاصرين له . وقد إتخذ لوتبراند بوثيوس نموذجا يقتدى بأسلوبه ، كما أنه دأب على الاستشهاد ببعض فقرات كلاسيكية ، بل أنه إقتبس بعض نصوص من الكتاب الإغريق ، وكتبها كما هى بالاغريقية . وربما كانت نقطة الضعف الرئيسية فيه هى استجابته للمشاعر العاطفية فى كتابه مثل التحيز والتحامل والكراهية ، كما يبدو ذلك من تحامله على الملك برنجاريوس لكراهيته له . ثم أنه كان يميل إلى أن يضفى على مادته طلاء جديداً ، مما جعل إحكامه فى بعض الأحيان تتصف بالتهور والاندفاع . ومع هذا كله فإن ليتوبراند يحتل مكان الصدارة بين بقية المؤرخين المعاصرين .

وهناك مؤرخ إيطالى آخر أسهم بنصيب هام فى الدراسات التاريخية فى العصور الوسطى فى القرن الحادى عشر ، هو جريجورى كاتينو صاحب سجل دير فارفا . ذلك أنه نظم «أرشيف» ذلك الدير وجمع محتوياته فى كتاب واحد ، واستنفد هذا العمل منه نحواً من خمس عشرة سنة ، وتمكن بفضل خبرته من نقد هذه الوثائق نقداً تاريخيا . وقد كتب جريجورى بعد ذلك كتاباً فى صورة سرد تاريخى ، استند فى مادته على السجل السابق . وأخيراً ، فإن ثمة «نظماً» على جانب من الأهمية التاريخية كتبه وليم الأبولى ويتناول غزو النورمان لجنوب ايطاليا .

أما التاريخ الذى كتبه ليو أوستينسيس Leo Ostiensis (ت حوالى ١١١٦ م) — هو تاريخ رسمى لدير مونت كاسينو العظيم ، فيعتبر إضافة ثمينةً لتاريخ إيطاليا الدينى والثقافى فى العصور الوسطى . ذلك أن ليو هذا كتب تاريخاً كاملاً عن ذلك الدير ونشاطه منذ تأسيسه حتى سنة ١٠٧٥ م . ويعتبر كتابه من خيرة نماذج الكتابة التاريخية فى إيطاليا خلال العصور الوسطى بأسرها ، لأنه أتسم بالنظام وعدم التحيز ، ووفرة المعلومات التى دونت بأسلوب ممتع . ثم إن ليو كان شديد الحرص والحذر عند تعرضه لإحدى الاساطير أو المعجزات . وقام بمهمة إكمال كتابه والوصول باحداثه حتى سنة ١١٣٨ م بطرس الشماس المتوفى حوالى ١١٤٠ م . على أن عمل هذا الأخير جاء أقل إحكاماً من عمل «ليو» لأن بطرس كان مغروراً بنفسه ، دا نزعه انفعاليه ، ولم يحاول أن يتعرض بالنقد لما صادفه فى تاريخه من أساطير وخرافات .

أما «بونيزو» Bonizo – أسقف سوترى المولود حوالى ١٠٦٠ م فقد كتب مؤلفاً أسماه «كتاب إلى صديقه» عالج فيه تاريخ البابوية على أيامه . وساعده على كتابة هذا التاريخ إلمامه الكبير بالشئون الكنسية ، مما جعله يكتب هذا الكتاب ليقف إلى جانب البابوية فى رحلة النزاع حول التقليدى العلمانى ، وخاصة الصراع العنيف بين البابا جريجورى السابع والامبراطور هنرى الرابع . وهو فى كتابته عن الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى إنما كان شاهد عيان لما كتبه ، كما كان يجنح نحو الاعتماد على نصوص من الكتاب المقدس والقانون الكنسى لتأييد وجهة نظره .

وأما عن تاريخ صقلية وخاصة فى عهد النورمان فكان موضع اهتمام «هوجو فالكاندوس» . وقد ولد هوجو هذا فى فرنسا ولكنه عاش فترة طويلة فى صقلية وإيطاليا ، وأتم تأليف كتابه سنة ١١٦٩ م . وعلى الرغم من أنه كان من أشد أنصار النبلاء النورمان الإقطاعيين فى صقلية ، إلا أنه استطاع التجرد عن الهوى ، وإصدار أحكام سليمة ومحايدة . وتضمن كتابه مادة «قيمة» عن الأنظمة والتقاليد والعادات فى صقلية فى العصور الوسطى ، فضلاً عن أن هذا الكتاب كتب بأسلوب واضح منسق .

وهناك كتاب من أهم الكتب التاريخية فى إيطاليا العصور الوسطى ، وهو كتاب كتبه أحد الرهبان الفرانسسكان ويدعى فراساليمبين Fra Salimbene (١٢٢١ م – ١٢٩٠ م) . وكان ساليمبين قد قام بكثير من الأسفار الواسعة واختلط بمختلف أصناف الناس من البابوات والملوك حتى عامة الناس والمساكين . ولذا جاء كتابه وصفاً روائياً استطرادياً غير منظم ، لكل مارآه وسمعه حتى سنة ١٢٨٨ م . وعلى الرغم من طبيعة الكتاب المتشعبة فإن ساليمبين كان شاهد عيان لأحداث عصره ، وقاصاً وراوياً بسليقته . ومن ثم فإن عمله جاء مهماً للغاية ، وذا أهمية كبيرة فى إعطاء صورة لعادات وسلوك وملابس وثقافة أهل عصره . هذا مع التركيز على بعض الأحداث السياسية فى عصره ، وخاصة ذلك الصراع بين فردريك الثانى والمدن الإيطالية . وكتب كتابه بأسلوب قوى ولكن بلاتينية العصور الوسطى الغير أصيلة .

وعلى النقيض من ساليمبين فى منهجه التاريخى ، كان فيريتوس Ferretus of Vincenza (ولد حوالى ١٢٩٥ م) الذى يغطى «تاريخ الشئون الإيطالية» تاريخ إيطاليا وعلاقاتها الخارجية من ١٢٥٠ م حتى سنة ١٣١٨ م . ولقد أحكم رسم خطة لكتابه ، ذلك أن هذا الكتاب امتاز بحسن التخطيط وبراعة التنظيم ، والمقدمة الكبيرة على انتقاء الحقائق ، أما مادته فقد دونت بلغة لاتينية سهلة . وربما كان العيب الوحيد فيه هو ميله إلى الطريقة التمثيلية فى كتابته ، مما جعله فى بعض الأحيان يحط فى الحقيقة كى يبدع فى الوصف .

ومن المعروف أنه من أهم الأحداث السياسية التى تعرضت لها إيطاليا فى العصور الوسطى ؛ ذلك الصراع بين الجلفيين والجبلليين . ومن أحسن الكتب التاريخية التى تناولت هذا الصراع كتاب «التاريخ الجليل» لمؤلفه البرتينوس موساتوس Albertinus Mussatus (١٢٦١ م – ١٣٣٠ م تقريبا) . وكان البيرتينوس هذا جنديا وسياسيا قام بأسفار واسعة فى البلدان الأوربية . وكتب كتابه بأمانة وغير تحيز وبأسلوب لاتينى جميل .

أما عن البندقية وتاريخها فى العصور الوسطى فقد شدت انتباه كثير من المشتغلين بكتابة التاريخ ؛ فكتب مارت دى كانال Martin de Canale والذى لانعرف عن حياته سوى القليل تاريخاً للبندقية حتى سنة ١٢٧٥ م . والواقع إن كتابه جمع بين الكتابة القصصية وكتابة التاريخ ، ولكنه على أى حال له قيمة فى وصفه للسلوك والعادات وبعض جوانب الفن فى البندقية . وهناك كتاب آخر عن تاريخ البندقية فى العصور الوسطى ، ويمكن الاعتماد عليه أكثر من الكتاب السابق ، ونعنى به كتاب تاريخ البندقية لاندريا داندولا (١٣٠٩ – ١٣٥٤ م تقريبا) . وكان اندريا رجلاً من رجالات الدولة ، فضلاً عن كونه فقيهاً ومشرعاً ومؤرخا . وقد درس فى عناية كل الكتب التى عالجت تاريخ البندقية فى دوره الأول ، ونقل عنها كثيراً من الوثائق التى يرجع الفضل إليه فى حفظها وعدم ضياعها . هذا إلى أنه كان كاتباً منصفاً يمكن الاعتماد على المادة التى وردت فى كتابه ، فيما عدا الأجزاء الأولى من كتابه والتقويم الزمنى للأحداث . ويعتبر كتابه مصدراً لاغنى عنه للوقوف على الحياة العامة والنظم السائدة فى البندقية فى العصور الوسطى وبخاصة مايتعلق بالتطور الدستورى فيها .

أما مدينة جنوا فكان لها الأخرى مؤرخوها من أمثال ؛ كفارو ، اوبرتوس ، أوجريوس بانيس Caffaro, Obertus Ogerius panis . ويعتبر كفارو بالذات أحد مؤرخى الحروب الصليبية فى العصور الوسطى الذين تمتاز كتاباتهم بالاستقامة ، ولذا يمكن الاعتماد عليه أكثر من غيره . وتعتبر حولياته فضلاً عن كتاباته الخاصة بالحروب الصليبية – مرآة طيبةً لعصره .

على أن كتابة التاريخ فى إيطاليا لم تصل ذروة نضجها فى العصور الوسطى إلا فى مدينة فلورنسا فى أواخر تلك العصور . وخيرما يمثل هذا المستوى الراقى لكتابة التاريخ فى فلورنسا هما دينو كامبانى (١٢٦٠ م – ١٣٢٣ م تقريبا) ، وجيوفانى فيلانى (ت ١٣٤٨ م) ويمدنا كتاب دينو عن «تاريخ فلورنسا» بعرض مختصر عن أصول نشأة تلك المدينة ثم يقدم سردا مطولاً لتاريخها منذ ١٢٨٠ م إلى ١٣١٢ م وهى الفترة التى اهتم بها دينو اهتماماً خاصا . ولم يكن دينو مجر سارد حوليات فحسب ، بل كان يأتى فى معظم الأحيان بالتفسيرات الدقيقة التى اعتمد فيها على نفسه ولم يستمدها من غيره . وتعلو كتاب دينو مسحة من الاعتزاز بمدينته ، كما أنه

كتب بأسلوب تصويرى يتصف بالوضوح . ويقول بلزانى عن روح هذا الكتاب : «لقد عاش الكاتب بين الأحداث التى كان يكتب عنها ، وتنفس فى جوها ، وتجول بين أنحائها ، ولانعرف مؤرخا حديثاً له نفس القدرة على نقل كل أحاسيسه إلى قرائه مثلما فعل دينو .»[١]

أما زميله المؤرخ جيوفانى فيلانى فهناك شبه إجماع على انه أعظم مؤرخ إيطالى فى العصور الوسطى ، وبفضله دخلت كتابة التاريخ فى إيطاليا مرحلتها الحديثة . وكان جيوفانى رجلاً عسكرياً ورحالةً وموظفاً ذا شأن فى فلورنسا . وقد تناول فى كتابه «تاريخ فلورنسا» كل الفترة الممتدة من نزول الإنجيل حتى ١٣٤٦ م . ولكن أهميته تقتصر فقط على الفترة التى عالج فيها تاريخ العصور الوسطى . وفى كتابته عن أصل فلورنسا ؛ اتجه فيلانى إلى الأخذ بالقصص الأسطورى . وجاء أكثر شمولاً من كتاب دينو ؛ سواء من ناحية الفترة التى تناولها أو الجوانب والمواضيع التى عالجها .هذا إلى أن كتابه أمدنا بصورة كاملة عن تاريخ فلورنسا فى العصور الوسطى ، فضلاً عن تاريخ أوربا بصفة عامة فى تلك العصور . ثم إنه بنى كتابه على اطلاع واسع ، ودراسة ناقدة للمؤلفات السابقة التى درسها . والحق إنه كان فى كتابته معتدلاً منصفاً ، بصرف النظر عن عطفه على الجلفيين ، مما جعله يقف إلى جانب طبقة التجار . هذا إلى أنه أحسن تنظيم كتابه والتخطيط له ؛ وكانت لديه قدرة فائقة على إصدار الأحكام الناقدة غير المستقاة من أحد . وقد وصفه الأستاذ فردنياند شيفل «بأنه يمتلك إحساساً صادقاً بوقائع الأمور ، وهذه صفة لم تتوافر بنفس الدرجة لدى أى كاتب آخر فى العصور الوسطى»[١] . اما أسلوبه فكان رصيناً واضحاً ، هذا إلى أن الكتاب لايتوقف عند حد سرد تطور فلورسا ، وإنما يلق أيضاً أضواء على مجتمع تلك المدينة وثقافتها . وكما يقول الاستاذ شيفل إن أعظم ماحققه هذا المؤرخ هو وصفه الدقيق لفلورنسا كما رآها بعينيه ، وماوراوه عن تجارتها والصناعة فيها ، وعن بنائها الاجتماعى وتقاليدها الدينيه ، وعلاقتها بجيرانها ، وماكان يحتدم داخلها من منازعات وصراعات لا تنتهى ، وهذه كلها أمور لا يمكننا فى العصور التالية أن نجحف بحقه فيها»[٢] ويعتبر الكتاب أحد الأعمال القليلة فى العصور الوسطى التى اشتملت على معلومات إحصائية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . وقام كل من ماتيو وفيليو فلانى بإتمام هذا الكتاب حتى سنة ١٣٦٤ م .

---

(1) Balzanai: Early chroniclers of Europe: Italy pp. 321-32.

Ferdemand Schevill: A History of Florence (Harcourt Brace, 1936) p. xiv.
ihid, p. xv

زعماء المؤرخين الألمان فى العصور الوسطى

عندما نذكر المؤرخين الألمان فى العصور الوسطى ، علينا أن نضع فى قائمتهم كتابا أمثال ، جوردان ، اينهارد ونيثارد ، وآخرين من الذى اعتبرناهم مؤرخين للفترة الانتقالية ، بين الكتابة التاريخية فى العصر القديم والعصور الوسطى .

وربما كان فلودارد Hodoard أول مؤرخ ألمانى يستحق الأهمية فى العصور الوسطى . وكان فلودارد قسيسا فى ريمز وتوفى ٩٦٦ م . وقد جمع عدة حوليات مليئة بمعلومات قيمة عن الفترة من ٩١٩ م إلى ٩٦٦ م . وتبدو هذه الحوليات وكأنه كان يقوم بكتابتها عند وقوع أحداثها . ومن ثم ، فإنه يعتبر شاهد عيان للأحداث التى وصفها . وقد نظر إليه المؤرخين بوصفه أحد الذين تحروا الثقة فى سردهم للحقائق ويعتبر كتابه مصدراً هاماً عن أواخر العصر الكارولنجى وقيام أسرة كابيه فضلاً عن قيام أصل الأسرة السكسونيه فى حكم ألمانيا . وثمة مصدر آخر جدير بالاهتمام ، عن الفترة الأخيرة من القرن العاشر ، ونعنى كتابات الشاعرة الراهبة هورسويثا Horswitha التى كتبت مجموعة من القصائد الشعرية التاريخية عن عصرها ، وأشهر هذه القصائد ، تلك الملحمة الشعرية عن أسرة أوتو ، والتى أسمتها «أنشودة حول مآثر أوتو» . وتناولت فيها الأحداث حتى سنة ٩٦٨ ، كما أنتجت عدداً آخر من الكوميديات .

ثم شهد الجيل الذى تلا جيلها ، المؤرخ ويدوكند Widkund (ت ١٠٠٤ م) وهو راهب «بندكتى» من رهبان دير كورفى . ويعرف كتابه الرئيسى فى التاريخ باسم «أعمال السكسون» وقد قسمه إلى ثلاثة أجزاء ، تناول فيها الفترة منذ أصل السكسون حتى وفاة أوتو الكبير فى سنة ٩٧٣ م . وكان علاجه للدور الأول من التاريخ المبكر للسكسون ذا صبغة أسطورية إلى حد كبير ، ولكن لكتابه قيمته الكبيرة بالنسبة لتاريخ هنرى الصياد واوتو الكبير وقد بدأ يدون كتابه حوالى سنة ٩٦٨ م فى قمة حكم أوتو ، وكان شديد الإعجاب بالأباطرة السكسون ، وأثنى بدرجة كبيرة على مآثرهم وأعمالهم . أما أسلوبه فقد حكى فيه المؤرخين القدامى وخاصة سالوست . ولكنه على الرغم من ذلك لم يستطع أن يحافظ على قواعد اللغة اللاتينية بشكل سليم

وجاء بعده ثيتمار Thietmar أسقف مدينة مرسبرج ، الذى انتهى فى سنة ١٠١٨ من كتابة التاريخى العظيم الذى غطى فيه عهود أوتو الأول والثانى والثالث ، فضلاً عن هنرى الثانى . أما عهد هنرى الثالث ، فكانت أكثر الكتب التى عالجته أهمية هو كتاب هيرمان راهب دير ريخناو ، الذى عاش من ١٠١٣ م إلى سنة ١٠٥٤ م . كان هيرمان عالماً متعدد المواهب قادراً على معالجة مسائل كثيرة فى وقت واحد ، فضلاً عن كونه مؤرخا ماهراً ، واشتهر أيضاً بكتاباته فى الرياضة والفلك والموسيقى . أما كتابه فى التاريخ فهو تاريخ عام لأوربا من بداية العصر المسيحى حتى سنة ١٠٥٤ م . وبعد ذلك جاء تلميذه بيرثولد Berthold فمضى فى تكملة كتابه حتى سنة ١٠٨٠ م . وخلاصة القول : إن هرمان كان من أقدر المؤرخين فى عصره ، ولكتابه قيمته الكبيرة بالنسبة للعصر الذى عاش فيه ، فضلاً عن أهميته بالنسبة للقرن السابق (القرن العاشر م) لاعتماده على مصادر ذات قيمة كبيرة فقدت منذ ذلك الحين .

وثمة مؤرخ ألمانى آخر هو لامبرت المتوفى حوالى ١٠٨٠ م ، وكان راهباً بندكتياً فى ديرهرسفيلد ، استمد إلهامه من ليفى وسالوست ، وأخرج كتابا يعتبر أكثر الكتب التاريخية المعاصرة فى كافة البلدان الأوربية إحكاما ، وأدقها أسلوبا . وتعتبر الحوليات التى وصفها لامبرت من أهم الإضافات التاريخية التى تلقى أضواء على تاريخ العلاقات بين ألمانيا والبابوية . وبدأ هذه الحوليات بجدول زمنى للأحداث ، امتد منذ بدء الخليقة حتى ١٠٤٠ م ، ويعتبر ما جاء به عن هذه الفترة تكراراً لما ورد فى الكتب العامة المعروفة عن تاريخ العالم ، وبالإضافة إلى ما أخذه من حوليات دير هرسفيلد القديمة . ولكن منذ ١٠٤٠ م فصاعداً ، تتخذ حوليات لامبرت أهمية خاصة لما تحويه من معلومات مبتكرة ، حتى تصل تلك الحوليات إلى ذروة حسنها فى آخر أجزائها ، عندما تعالج السنوات من سنة ١٠٦٩ م حتى ١٠٧٧ م. ويلاحظ أن لامبرت فى هذا الجزء الأخير يعدل عن الطريقة الحولية فى كتابة التاريخ حسب ترتيب السنوات ، ويرتفع إلى مستوى المؤرخ الحق . والواقع ، إنه نجح أكثر من معاصريه فى الإلمام بالأبعاد الزمنية للتاريخ ومجالاته فلم يقف عند حد تسجيل الأحداث فحسب ، وإنما ناقش موضوع السبب والأثر على مجرى التطورات التاريخية . كذلك امتاز بقدرة عالية على وصف المناظر التاريخية . ومن ثم ، فإنه ليس غريباً أن يحظى لامبرت بإعجاب كبير طيلة ثلاثة قرون ، منذ طبعت حولياته لأول مرة سنة ١٥٢٥ م . على أنه ، كاد يتعرض لنقد ليوبولدفون رانكه سنة ١٨٥٤ حتى اهتزت مكانته وفقد كثيراً من أهميته . وبعد مرور جيل على فون رانكه ، قام هانز ولبروك بفحص ما كتبه لامبرت فحصاً أكثر دقة وأوضح أن الأخطاء التى وقع فيها كانت عادة بالنسبة للحقائق التاريخية البسيطة ، وأنه كان منحازا بلا جدال لضعف البابوية ، مما أثر على روايته عن الصراع بين البابوية والامبراطورية حول التقليد العلمانى ، وأنه

أهمل أو هوّن من شأن القانون العلمانى دوره فى ذلك الصراع . وينسب إلى لامبرت أنه مخترع الرواية القائلة بتذلل هنرى الرابع أمام البابا جريجوى الثامن فى قلعة كانوسا . ولكنه على الرغم من هذا كله ، فإن العمل الذى قام به لامبرت يحظى بأهمية تاريخية فائقة ، ويفوق فى قيمته أى إنتاج آخر معاصر فى ميدان الكتابة التاريخية .

أما دير كونستانس ، فقد أخرج كتابين فى التاريخ على جانب من الأهمية فيما يتعلق بعهد هنرى الرابع وصراعه ضد الكنيسة . أما الكتاب الأول فقد دونه برثولد Berthold الراهب بذلك الدير ، والمتوفى ١٠٨٨ م ، وقد عالج فيه الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى ، متخذاً جانب البابا ضد هنرى . أما الكتاب الثانى فقد كتبه راهب آخر من دير كونستانس ، هو هرمان الذى عاش من ١٠٤٦ م - ١١٣٢ م ، وهذا الكتاب أكثر قيمة وأكثر حياداً من الكتاب الأول ، وإن كان هو الآخر معاديا للإمبراطورية .

أما برنو Bruno ، فقد كتب «تاريخ ثورة سكسونيا» وهو كتاب له أهميته بالنسبة لأحداث ألمانيا على عهد هنرى الرابع . أما آدم المنسوب إلى «بريمن» فقد كتب فى أواخر القرن الحادى عشر كتاباً يعالج الأحداث من ٧٨٨ م حتى ١٠٧٢ م ، واسم هذا الكتاب «تاريخ هامبورج وبريمن الكنسى» . وعدنا بمعلومات هامة عن أحوال شمال ألمانيا . ولقد تثقف آدم فى الكتب الكلاسيكيه ، ويحوى كتابه مادةً ثقافيةً ومعلومات عن تاريخ الكنيسة ، فضلاً عن أخبار غزو السلاف لإقليم نهر الألب ، هذا كله بالإضافة إلى ما به من معلومات هامة عن حكم هنرى الرابع . ولآدم كتاب هام آخر عن تاريخ اسكندناوه القديم ، وعن تجارة الشماليين فى عصرهم الأول .

وهناك تاريخ عام للعالم كتبه ماريانوس سكوتس الذى عاش من ١٠٢٨ م - ١٠٨٤ م ، وهو أحد علماء ماينز ، وإن كان ايرلندى الأصل . ويقع هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء ، يختص الأول بالتاريخ القديم ، والثانى يصل بالأحداث حتى حياة المسيح وعصره ، والثالث يمتد حتى العصور الوسطى . على أن القيمة الحقيقة لهذا الكتاب تنحصر فى الفترة المعاصرة لحياة المؤلف . وقد تضمن كثيرا من المعلومات عن التاريخ الايرلندى ، فضلا عن تاريخ مدينة ماينز . ولقد كان ماريانوس عالماً فى الرياضيات ومؤرخا ولذا فإن كتابه حوى أبحاثا طريفةً عن مشاكل التقويم التاريخ ، وقد أكمل هذا الكتاب فلورنس المنسوب إلى وركستر فى انجلترا ، ثم استفاد فيه على نطاق واسع سيجبرت المنسوب إلى جمبلو وفى كتابه عن تاريخ العالم .

أما أكثر الكتب شمولاً كتب التاريخ العامة فى العصور الوسطى ؛ فهو كتاب «تاريخ العالم» الذى بدأه فروثولد مقدم دير ميشلزبرج Fruthold of Michelsberg فى القرن الحادى عشر، وشرع فى اتمامه سنة ١١٠١ م ايكهارد Ekkehard الراهب بدير اوراخ ، وقد مضى به حتى الأحداث التى وقعت سنة ١١٢٥ م وهى سنة وفاته . وقد استعان فى إتمام هذا العمل بمصادر موثوق بها ، وعنى بجمع مادة كتابه عناية فائقة ، وراجعه عدة مرات ؛ حتى أخرجه بحثاً متكاملاً دقيقاً فى تناوله للفترة التى عاصرها . هذا إلى أنه عالج موضوع النزاع حول التقليد العلمانى بروح معتدلة ، ونهج نهجاً مفصلاً وموضوعياً فى علاجه للحملة الصليبية الأولى . وكان واسع الأفق ، وتواترت لديه معرفة واسعة عن أحداث البلاد الأخرى خارج ألمانيا . ثم إن اكهارد كان أكثر حياداً من لامبرت فى علاجه للأحداث وبدت سلامة أحكامه فى حسن أنتقائه للمادة العلمية . وقد قسم كتابه عن تاريخ العالم إلى خمسة أجزاء ؛ خصص الثلاثة الأولى منها للفترة حتى عهد شارلمان ، أما الجزءان الآخران ؛ فقد تناول فيها الأحداث منذ شارلمان حتى حكم هنرى الخامس . وفى الجزء الأخير عالج عهد هنرى الخامس ، وهو أهم أجزاء كتابه ، ومن أحسن مايمكن الاعتماد عليه فى موضوعه ، بل إنه أفضل المصادر عن أعمال هنرى . ويعتبر كتابه من المصادر القيمة فى معلوماته التاريخيه عن شمال المانيا فى العصور الوسطى . ومع أن أسلوب ايكهارد ليس مصقولاً ؛ شأنه شأن أسلوب لامبرت ، فان أسلوب ايكهارد اتسم بالوضوح والسهولة ، كما اتصف بالوضوح وعدم الغموض فى مادته . وقد طلب منه الإمبراطور هنرى الخامس أن يكتب تاريخاً للإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ شارلمان فصاعدا ، ولكن هذا العمل الذى أنجزه ايكهارد جاء أقل قيمة من كتابة السابق .

وهناك مصدر قيم عن تاريخ ألمانيا والمرحلة الأولى من مراحل الحروب الصليبيه ، هو الكتاب الذى كتبه البرت المنسوب إلى آخن ، وهو رجل لا نعرف عن حياته سوى القليل ؛ فيا عدا ما كتبه عن نفسه قبل ١١٥٨ م . وجاء كتابه فى أثنى عشر جزءا ووصل فيه بالأحداث حتى سنة ١١٢١ م . وهو من الكتب العامة ، وخاصة فى الأبحاث التى حواها عن الحملة الصليبية الأولى ومملكة بيت المقدس الصليبية . وقد رجع الصورى إلى كتاب لامبرت واعتمد عليه كثيرا .

أما أهم المؤرخين الألمان وأوسعهم شهرة فى العصور الوسطى ؛ فهو اوتو أسقف فريزنج الذى عاش بين سنتى ١١١٤ م — ١١٥٨ م تقريبا ، وهو عم الإمبراطور فردريك الأول (بارباروسا) . ذلك أنه لم يكن مجرد مؤرخ قدير سارد للاحداث ، وإنما كان أيضاً أول فيلسوف للتاريخ يستحق الذكر فى العصور الوسطى . وأكثر كتبه أهمية كتابان هما : «كتاب المدينتين» و «أعمال الإمبراطو فردريك الأول» . وقد مضى بالأحداث التى سردها فى الكتاب

الأول حتى سنة ١١٤٦ م ، ويعتبر أول فلسفة هامة للتاريخ فى العصور الوسطى . وفى هذا الكتاب اتبع طريقة اوروزيوس ومنهجه فى كتابة التاريخ ، على حين اتبع أوغسطين فى فلسفته للتاريخ . وقد استند الكتاب على نظرية أوغسطين الخاصة بابراز التناقض بين « مدينة الله » و « مدينة الشيطان » . وقد أوضح اوتو الصراع بينهما على نفس الخط الذى وصفه اوروزيوس — ومضى فى تلك القصة منذ بدء الخليقة حتى عصره هو . وقد أتم عمله راهب آخر ، هو اوتو الراهب بدير سانت بلاسن Blaisen الذى مضى بالقصة حتى سنة ١٢٠٩ م . وتم هذا العمل فى ثمانية أجزاء ، خصص الأخير منها ليوم الحساب وقيام القيامة . وكان هذا الكتاب — على حد قول بلزانى — أول محاولة يقوم بها مؤرخ فى العصور الوسطى « يضع فيها قصة الإنسان بأكملها داخل إطار محكم من الأسباب والنتائج » على أن النهج الفلسفى الذى اتبعه اوتو قلل من القيمة التاريخية لكتابه من ناحيتين : الناحية الأولى ، هى أنه جعلته ينحاز ضد النواحى العلمانية والوثنية ، والناحية الثانى ، أن اهتمامه الأساسى بفلسفة التاريخ جعلته أحياناً يهمل سرد التفاصيل . ولقد ساعد على عدم عنايته بذكر الحقائق والتفاصيل حرصه على الجانب البلاغى فى كتابته ، وتصوير المتناقضات المثيرة ، مما جعل الشكل لايقل عنده أهمية عن الجوهر .

وهكذا نجد روايته عن اتفاقية « ورمز » الهامة سنة ١١٢٢ تحوى عنواناً خاطئاً وتفاصيل مختلة . ولكن على الرغم من هذا كله ، فإن المادة التى احتوتها كتابات اوتو ذات قيمة كبيرة ، وخاصة كلما اقتربت الأحداث من عصره وقد اعتمد فى هذه المادة على مصادر موثوق بها ، وخاصة ماكتبه إيكهارد . ولايوجد مؤرخ آخر معاصر يناظره فى الاهتمام بشرح الحاضر فى ضوء الماضى .

أما كتابه الثانى عن أعمال الإمبراطور فردريك فهو أقل وقعًا من كتابه السابق وإن كان أكثر أهمية بالنسبة للتاريخ المعاصر لأنه لاغنى عنه لمعرفة العلاقة بين فردريك والكنيسة ذلك أن اوتو كان شاهد عيان وملمّ تماماً بتلك الأحداث ، وعلى معرفة كاملة بالعمل الذى أقدم عليه . وقد حالت وفاته المبكرة دون إتمام هذا العمل فتوقف به عند ١١٥٨ م وكان متحيزاً للإمبراطورية الالمانية وفكرة توسعها على حساب الإيطاليين ، ولكن نشأته وصفته الدينية قادته إلى الوقوف بجانب البابا . وقد أكمل هذا الكتاب مساعد لأوتو اسمه راهوين Rahewin

ويظن أن اوتو كتب كتاباً عن تاريخ النمسا لكنه فقد . أما من ناحية الأسلوب ؛ فقد كان اوتو صاحب أسلوب مصقول ومثير ، اتسم بالبلاغة وقوة التأثير . ولقد كتب أحد المعجبين باوتو ، وهو الناقد الكاثوليكى فرانز اكس فيجيل يقول عنه ويثنى عليه : « لم تشهد المانيا لعدة قرون كاتباً له ما لأوتو أسقف فريزنج من موهبة أدبية فائقة . وإذا كان لامبرت الراهب بديرهر سفيلد قد فاق اوتو فى قدرته على رواية الأحداث ، فإن أوتو فاقه بنظرته

الفلسفية العميقة الجادة الواسعة الأفق ، وذات الطابع العالمي ، فضلا عن سمو وجهة نظره في المسائل التي عالجها . ومهما يكن الحكم على فلسفته ، فيكفي أنه كان المؤرخ الألماني الوحيد في العصور الوسطى التي توفرت له القدرة على أن يتناول بطريقة فلسفية مسيرة التاريخ العالمي ، محاولاً أن يعرض هذه المسيرة عرضاً حكياً . هذا بالإضافة إلى مكانته بوصفه من أقدر رواة التاريخ في أيامه . »[1]

أما جود فرى المنسوب إلى دير فيتربو Good Frey of Viterbo (١١٢٠ م - ١١٩٦ م) فيعتبر كل من الألمان والإيطاليين أنه منهم . ويبدو انه ولد وتلقى تعليمه في ألمانيا ، ولكنه توفى في دير فيتربو حيث قضى السنوات الأخيرة من عمره . وقد عمل في حاشية فردريك الأول بوصفه واعظاً لرجال جيشه ثم سكرتيراً ، كما أوفد في عدة بعثات دبلوماسية هامة . وتناول في كتابه التاريخي الرئيسي أعمال فردريك الأول في الفترة من ١١٥٥ م - ١١٨٠ م ومعظمه كتب نظما . وقد عالج فيه بصفة رئيسية أحداث إيطاليا التي رواها في قالب قصصي ، فما جعل كتابه دون مستوى الكتب التاريخية التي دونت في ألمانيا في العصور الوسطى والتي سبق أن أشرنا إليها .

وثمة كتاب غريب شائع ، كتبه مارتن المنسوب إلى تروباو (ت ١٢٦٨م) وأسماه «تاريخ البابوات والأباطرة» . وكان مارتن هذا راهباً من الرهبان الدومنيكان ، ثم صار أسقف فيا بعد . وقد عمل في خدمة البابا فترة من الزمان ، ودون كتابه بناء على أوامر منه . ووجه الغرابة في كتابه ، أنه نظمه بطريقة خاصة بحيث وضع البابوات والأباطرة في صفحات متقابلة فاحتوت كل صفحة على خمسين سطرا لكل سنة سطر واحد . وقد استمرت هذه الخطة بصورة منتظمة حتى سنة ١٩٧٦م ، وهى السنة التي شهدت قيام ثلاث بابوات ، ولذا اضطرا مارتن إلى العدول عن خطته ، وأخذ يناقش الأحداث الكبرى المعاصرة ، والواقع أن عمله لا يمكن الاعتماد عليه كثيراً ، ولكنه مع ذلك حظى بشعبية واسعة . وكثيرا ما رجع إليه من جاء بعد ذلك من المؤرخين مثل ، المؤرخ نيقولا تريفت في انجلترا .

---

(1) F.X. von Wegele, Geschichte der deutschen Historiagraphie seit dem Aufreten des Humanismus (leipzig 1885) p. 20

التراجم التاريخية فى غرب أوربا خلال العصور الوسطى

تناولت بعض خيرة الكتابات التاريخية سير وتراجم زعماء السياسة ورجال الدين . ذلك أن النجاح الذى حققته بعض الشخصيات العظيمة - السياسية والعسكرية - فى العصور الوسطى ؛ جعل من الممكن أن تصبح هذه الشخصيات موضوعات جذابة لتراجم تاريخية . وكان يحدث عادة أن يظلل الملك مؤرخ سيرته بعطفة ليضمن ثناء المؤرخ عليه وعلى أعماله . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الكتابة المتصفة المجردة عن الهوى لم يكن لها وجود فى العصور الوسطى ، وأنه يمكن أن نضيف الملق والمداهنة إلى جانب بقية العيوب التى اتصفت بها كتابه التاريخ فى تلك العصور . هذا فضلاً عن أن الصبغة الدينية التى صبغت الحياة الفكرية فى العصور الوسطى ؛ جعلت كاتب التراجم فى غالب الأحيان ، يصور الشخصيات العلمانية العظيمة فى عصره على أنه وليدة العناية الآلهية فى ذلك العصر .

ومن بين سيرتين أو ثلاثة بلغت القمة فى كتابة التراجم فى العصور الوسطى ؛ تحتل ترجمة شارلمان التى كتبها اينهارد بعنوان «حياة شارلمان» - والتى سبق أن تعرضنا لها بالإشارة - مكان الصدارة . ويرتبط أيضاً بكتابة التراجم التاريخية فى العصور الوسطى ؛ كتاب اوتو أسقف فريزنج عن «أعمال الإمبراطور فردريك الأول» على أنه ربما كان أول ترجمة تاريخية يمكن اعتبارها نموذجاً لكتابة التراجم فى العصور الوسطى ؛ هى ما كتبه «آسر» عن «حياة ألفرد» . وكاتب هذه الترجمة قسيس من ويلز ، عاش فى أواخر القرن التاسع أو أوائل القرن العاشر للميلاد . وتبدأ الترجمة بسنة ٨٤٩ ميلادية وهى السنة التقليدية التى تحدد مولد صاحب السيرة . على أن تلك الترجمة تجاوزت الحدود المعروفة لسيرة «ألفرد» فتناول الأحداث العظمى فى عهده . واستعان المؤلف فيما دونه من سيرة وفيما رواه ؛ بكتاب تارين السكسون . ولكن الكتاب جاء مليئا بالأحداث الطريفة ، و تتجه نغمته نحو إطراء ألفرد . أما أسلوبه فيتصف بالسهولة والتشويق . وقد أضاف له بعض الكتاب المتأخرين إضافات كثيرة ، وتضمنت هذه الإضافات بعض قصص قديمة عن «آرثر» مثل تلك الأسطوره القائلة بإهمال نُسب إلى آرثر تسبب عنه احتراق طعام أحد قطعان البقر . وقد نقل فلورنس المنسوب إلى ووركستر (ت ١١١٨ م) كتاب «آسر» بأكمله .

وربما كان أكثر وضوحا بالنسبة لنا ، تلك الترجمة التى كتبها شوجر Suger مقدم دير سانت دينس ، ومستشار الملك لويس السابع ، عن حياة الملك لويس السادس - أو السمين - أحد الملوك الأوائل المبرزين فى أسرة كابيه . ولم يكن كتابه حولية فحسب ، وإنما كان ترجمة للملك لويس . ومن ثم فإنه ينبغى على من يريد الوقوف على كافة الأحداث فى ذلك العصر أن يرجع إلى كتب أخرى . وكان شوجر فى كتابته متحيزاً للملك لويس بصفة عامة ، ولكن ليس بالدرجة التى تعكس الحقائق . هذا إلى أنه كان منصفاً للإنجليز فى كتابته . وإذا كان جافاً ، إلا أنه كان يأخذ طابعا مشوقاً جذاباً فى روايته للأحداث المثيرة أما قواعد النحو اللاتينى ، فلا جدال فى أنها بلغت حداً كبيراً من السوء فى ذلك الكتاب . أما عن ترجمة الامبراطور كونراد الثانى (١٠٢٤ م - ١٠٣٩ م) التى كتبها قسيسه ويبو Wippo فهى سيرة فذة متكاملة على الرغم مما فيها من إفراط فى تملق كونراد .

ومن أكثر الشخصيات الكنسية البراقة التى استهوت كتاب السير والتراجم فى العصور الوسطى ، كان البابا جريجورى السابع ، الذى وجد من ترجم له فى شخص القس الايطالى بولس المنسوب إلى برنريد Bernried . فكتب كتابه «تاريخ جريجورى السابع» وأتم ذلك الكتاب سنة ١٢٢٨ سنة م . وقبل أن يقدم بولس على كتابة هذه السيرة ، أعد نفسه بدراسة واسعة ، فضلاً عن تقصى الحقائق والرجوع إلى كثير ممن شهدوا الأحداث وعاصروها . وكانت نتيجة ذلك أن خرج كتابه من أحسن الكتب التاريخية التى كتبت فى إيطاليا عن النزاع حول التقليد العلمانى . هذا إلى أن بولس اعتمد على مصادر طيبة ، ودرس كثيراً من الوثائق الرسمية . ومن الثابت أنه لم يقم بنقد أو تقنين تلك الوثائق التى رجع إليه ، مما أوقعه فى بعض أخطاء كبيرة ، فضلاً عن استعداده للاعتراف بالخوارق والأساطير . ولكن حتى فى هذه المواضع يستطيع القارئ بسهولة أن يميز بين ما أخذه بولس من الأساطير ، وبين ما استقاه من مصادر تاريخية حقيقية . والكتاب يؤيد البابا جريجورى تأييداً قويا ، ويؤكد فى صفحاته النفوذ الأدبى الكبير لذلك البابا .

أما ملك فرنسا القدير ذو الشخصية البراقة «فيليب أوغسطس» فقد ترجم له كل من ريجورد المتوفى حوالى سنة ١٢٠٧ م ، ووليم بريتون حوالى ١٢٢٧ م . أما ريجورد فكان مثل شوجر ، أحد رهبان دير سانت دنيس . وبدأ كتابة عن «حياة فيليب أغسطس» حوالى سنة ١١٩٠ م . واستغرق فى كتابته عدة سنوات ، حتى غطى فيه الفترة مابين ١١٧٩ ؛ ١٢٠٧ م .وقد أدخل بين ثنايا سرده بعض القصص القديم أو الأسطورى ، مما يرتبط بأصل الأمة الفرنسية ، كما ضمن كتابه أيضاً جداول زمنية بملوك فرنسا . والواقع ، إن ريجورد لم يكن رجلاً كبير العقل ، ولا مؤرخا عظيما ، لكن تحيزه لفيليب أرضى هذا الملك ، ودفعه إلى رعاية كتابه . أما وليم بريتون ، فكان أحد القساوسة فى بلاط فيليب ، وفاق ريجورد إلى حد

يعيد فى كونه مؤرخا ناجحا . وقد عهد إليه بعدة بعثات ديبلوماسية وسياسية ، وصاحب الملك فيليب فى كثير من حروبه . وقد قام بإكمال كتاب ريجورد حتى سنة ١٢١٩ م ، وكتابه لاغنى عنه ، خصوصاً عند دراسة الفترة من ١٢٠٩ م حتى سنة ١٢١٩ م . أما شعر وليم الذى نسبه إلى فيليب ؛ فيلقى كثيراً من الضوء على النواحى الجغرافية ، وعلى تقاليد وعادات ذلك العصر .

وربما كانت الترجمة الوحيدة فى العصور الوسطى ؛ التى تناظر أو تفوق ما كتبه اينهارد عن حياة شارلمان ، هى تلك التى كتبها جوانفيل Joinville (١٢٢٤ — ١٣١٩ م) عن لويس التاسع . ذلك أن جوانفيل كان صديقاً ومستشاراً للملك لويس التاسع ، وموضوع ثقته . ومن المحتمل أنه شرع فى تدوين أو إملاء كتابه «تاريخ القديس لويس» بعد أن تقدم به السن . وتكاد تكون الحملة الصليبية السابعة هى محور الكتاب ، والاطار الاساسى لأحداثه ، حيث إنه ركز على أحداث الفترة من ١٢٤٨ م إلى ١٢٥٤ م . وقد استهدفت المادة التاريخية — مع كونها سليمة ويمكن الاعتماد عليها نسبيا — تأكيد ما للملك لويس التاسع من صفات القداسة . وكان جوانفيل أقل تشككا من فيلهاردون فى المعجزات . أما فلسفته السياسية . فتتجه نحو الدفاع عن تركيز السلطة فى يد الملوك ، مثلما كان فيلها ردون مدافعاً عن الإقطاع والفروسية . وقد كتب جوانفيل كتابه فى أسلوب جميل ممتع ، سواء كان موضوع حديثه وصفا ، أو مدحا ، أو قدحا .

أما سيرة ماتيلدا أميرة تساكنيا ؛ فقد كتبها نظماً باللاتينية فى القرن الحادى عشر دونيزون Donnizone فى كتاب اسماه «حياة ماتيلدا» وهو الكتاب الذى يعتبر أول ما أسهمت به إيطاليا بشكل فعال فى ميدان التراجم التاريخية فى العصور الوسطى . كذلك أنجبت إيطاليا فى القرن الرابع عشر كتاباً غُفْلاً من اسم صاحبه بعنوان «حياة كولادى ريترى» Life of Cola de Rienzi ، وهو أعظم الكتب التاريخية شهرة فى روما خلال القرن الرابع عشر بأسره . ذلك أن مؤلفه أظهر مهارة فائقة فى علاج مشكلة عويصة ؛ هى تصوير شخصية كولا ذات التركيب المتناقض ، وتصوير تطور نفوذه وشخصيته . ولهذا الكتاب أهمية خاصة ؛ من ناحية أنه يكشف النقاب عن المؤمرات المعاصرة داخل الكنيسة والدولة ، مما يجعله فى جملته كتاباً شيقاً للقارئ .

ويأتى فى المرتبة التالية لكتاب جوانفيل من ناحية الأهمية بين كتب التراجم الفرنسية فى العصور الوسطى ؛ الكتاب الذى كتبه حنا جوفنيال (١٣٣٨ م – ١٤٧٣ م) عن حياة شارل السادس .

ومؤلف هذه الترجمة كان محامياً بارزاً ورئيساً لأساقفة ريمس . ومن ثم فإنه كان قوى الصلة بالأوضاع الكنسية والسياسية المعاصرة . وتناول كتابة الفترة من ١٣٨٠ م — ١٤٢٢ م وهى مدة حكم شارل السادس بأكملها : وكتابته لها قيمتها الكبيرة بالنسبة لأمور الدولة والكنيسة جميعا . ويتصف أسلوبه بأنه ممتع وسهل ، ومشوق فى جملته للقراء بدرجة كبيرة ، هذا إلى ان المؤلف امتاز بنظرة محايدة عميقة إلى أمور عصره .

ومن بين التراجم الذاتية فى العصور الوسطى يبرز الكتاب الذى كتبه عن نفسه «ابيلار» وهو من أذكى مواهب تلك العصور . وهناك كتاب يقترب من هذا الكتاب ، وله نفس شهرته ولكنه دونه فى الجودة ، هو كتاب «اعترافات القديس أوغسطين» الذى يرجع إلى عهد آباء الكنيسة ، وهو العهد الأول الذى سبقت الإشارة إليه .

وهناك بالإضافة إلى ذلك ، مادة تاريخية نجدها فى العصور الوسطى فيما كتب من شعر أو أغانى ، أو دعوات دينية ، أو قصص قصيرة ، أو أساطير خرافيه ، أو عهود وبراءات ومراسيم عامة ، مما لا يسمح المجال بدراستها هنا ، مع اعترافنا بأهميتها كمصدر هام للمعرفة التاريخية

المؤرخون البيزنطيون فى العصور الوسطى

ساد إلى وقت قريب اعتقاد خاطئ فى أن التاريخ الوسيط هو بوجه عام تاريخ أوربا اللاتينية خلال تلك العصور . ومن ثم ؛ فإن الكلام عن المؤرخين فى العصور الوسطى كاد لا يتعدى ذكر أسماء المؤرخين الغربيين فى أوربا ، مع إهمال كثيرين من عمالقة المؤرخين فى الشرق ، سواء مؤرخى الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطيه ، أو المؤرخين المسلمين . وسنشير فيما يلى باختصار إلى هؤلاء المؤرخين فى العصور الوسطى .

أما عن الدولة البيزنطية ؛ فقد سبق أن أشرنا إلى بعض مؤرخيها الذين ظهروا فى دور مبكر من تاريخها ، ومن أمثلة هؤلاء المؤرخين الكنسيين ؛ ايوزيبوس ، وسقراط وسوزرمين ، ثيودوريت . ومن المؤرخين العسكريين السياسيين ؛ سبق أن ذكرنا بروكوبيوس . وربما كان أول المؤرخين العلمانين فى الشرق البيزنطى هو اوتريبوس ؛ السكرتير العسكرى للملك قسطنطين . وقد توفى هذا المؤرخ بعد ٣٧٨ م بقليل . وكتب هذا المؤرخ تاريخه باللاتينية ، وذلك قبل أن تصبح اللغة الإغريقية هى اللغة الرسمية فى الدولة البيزنطية . وأهم كتبه التاريخية كتاب أسماه «مختصر عن قيام الدولة الرومانية» التى فيه نظرة مجملة على التاريخ الرومانى حتى أيام الامبراطور فالنز . وقد استخدم هذا الكتاب وأضاف إليه «بولس الشماس» فيما بعد . ومن بين أهم المؤرخين البيزنطيين الأوائل ؛ يبرز اسم «زوسيموس» الذى لمع اسمه حوالى منتصف القرن الخامس . وقد سمى كتابه «التاريخ الجديد» وتناول الأحداث التى وقعت منذ أيام أوغسطس حتى سنة ٤١٠ م . وكان زوسيموس وثنياً ، وكان يحس ؛ إحساساً يفيض بالألم ؛ بضعف الإمبراطورية الرومانية وضياع هيبتها . وأرجع سبب ذلك إلى قيام المسيحية ، وإرساء قواعدها فى الإمبراطورية الرومانية . ولذلك كان قاسياً على قسطنطين ، ومتحيزاً إلى «جوليان المرتد» عن دين المسيحية . وكانت نظرته إلى التاريخ تتعارض مع نظرة اوروزيوس ، وكانت الحاجة إليها ماسة لتصحيح الفكرة عن أبعاد التاريخ ومجالاته .

أما كتاب بردكوبيوس ؛ فهو تاريخ هام لحروب الإمبراطور جوستنيان ، ويتضمن إشادة بعبقرية القائد الحربى بلزاريوس . وقد جاء متمما لهذا الكتاب ؛ كتاب عن تاريخ

الإمبراطورية الرومانية حتى عهد جوليان المرتد ، وكتبه معاصر ليروكيوس اسمه «بطرس الشريف» وهو محام بيزنطي ، وأحد رجال السياسة . وفي عهد جوستنيان قام هسخيوس الملطي بوضع أول كتاب بيزنطي عن تاريخ العالم ، تناول فيه أحداث العالم منذ التاريخ الأشوري حتى ٥١٨ م . ثم أكمله هسخيوس ، فألقى نظرة تاريخية على عهد جستين الأول ، والشطر الأول من حكم جستنيان . وقد فقد معظم هذا الكتاب وهناك كتاب معاصر للكتاب السابق كتبه حنا مالالاس John Malalas (٤٩١ م — ٥٧٨ م) اسمه «سجل تاريخ العالم» ، تناول فيه الأحداث التي وقعت في العالم ، منذ التاريخ المصري القديم حتى عهد جستنيان ، وضمن كتابه كثيراً من الأساطير والخرافات . والواقع ، إن ما قام به لم يتعد سرد موجز للتاريخ حتى الجزء الخاص بتاريخ جستنيان نفسه ، واتخذ مدينة أنطاكية محوراً لتاريخه . ويفهم من كتابه أنه كان متحمساً ومؤيداً للكنيسة والملكية . وعلى الرغم مما يحتويه هذا الكتاب من مادة تاريخية لايعتمد عليها ، إلا أنه حصل على شهرة واسعة ، وذلك نظراً لأنه أول كتاب تاريخي في الدولة البيزنطية يكتب بلغة دارجة بقصد الاستهلاك العام .

وعن عهد جستنيان بالذات وخاصة الفترة من ٥٥٢ م إلى ٥٥٨ م ، كتب أحد علماء ميرينا بآسيا الصغرى ، هو المحامي العلامة اجثياس الذي عاش في أواخر القرن السادس ، كتاباً اسماه «تاريخ عهد جستنيان» . وقد قام ميناندر المحامي باكمال هذا الكتاب حتى سنة ٥٨٢ م ، أي بداية حكم الإمبراطور موريس (٥٨٢ م — ٦٠٢ م) ، ولكن هذه التكملة جاءت على مستوى ضعيف ، وإن كان العمل في ذاته لا يخلوا من أهمية ، نظراً لما تضمنه من معلومات جغرافية ، وعن السلالات والأجناس . كذلك كتب ثيوفانس البيزنطي في أواخر القرن السادس للميلاد ، كتابا عن الفترة من عهد جستنيان حتى عهد موريس ، وهو الكتاب الذي شاءت الصدفة وحدها أن تجعل منه أحد المصادر الهامة عن الأتراك .

وينتمي إلى نفس هذا الجيل من المؤرخين ، العالم ايفاجريوس المسورى المولود حوالى ٥٣٦ م ، وهو الذي أتم التواريخ الكنسية التي كتبها سقراط ، وسوزمين ، ثيودوريت ، فعالج تاريخ الكنيسة في الفترة من ٤٣١ م إلى ٥٩٣ م وذلك في كتابه «التاريخ الكنسي» ، وأما عن حكم الإمبراطور البيزنطي موريس ، فإن من أقيم الكتب في هذا المجال كتاب «ثيوفيلاكت سيموقطا» ، وهو علامة مصري ، حوالى سنة ٦٣٠ م . وجاء كتابه «تاريخ الإمبراطور موريس» في ثمانية أجزاء . وقد اتسم بالبلاغة في الأسلوب مع شئ من التكلف ، ولكنه المصدر الهام المعاصر الوحيد الذي عالج عهد الإمبراطور موريس . وكان كاتبه معاصراً لعهد هذا الإمبراطور . وفي عهد موريس أيضاً جمع حنا المنسوب إلى أفسوس ، المتوفى حوالى ٥٨٦ م — باللغة السريانية كتابه «التاريخ الكنسي» وتناول فيه التطورات الدينيه منذ أيام يوليوس قيصر حتى سنة ٥٨٥ م . ولهذا الكتاب أهمية خاصة ، حيث إنه حكى آخر حلقات

صحوة الوثنية حتى تم القضاء عليها نهائيا ، فضلاً عما يتضمنه الكتاب من وصف للتاريخ السياسى والحضارى للإمبراطورية الشرقية فى القرن السادس .

أما بالنسبة لعهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦١٤ م) فلدينا التواريخ التى كتبت نظاما عن حروب هذا الإمبراطور ضد الفرس والآفار ، وقد قام بنظمها جورج المنسوب إلى بيسيديا ، وهو معاصر عاش فى أيام تلك الحروب . ولدينا عن هذه الفترة أيضاً ، ما كتبه حنا الأنطاكى ، وقد تناول فى كتابه عن تاريخ العالم ، الفترة منذ أيام آدم حتى سنة ٦١٠ م . وقد أتى كتابه أكثر تكاملاً وشمولاً من كتاب حنا مالالاس . ولم يكن حنا الأنطاكى متحمساً للأساطير والخرافات ، وإنما امتاز بنظرة تاريخية واسعة الأفق ، مع عناية باستخدام المصادر . أما العصر « اللاأيقونى » فقد شهد ثلاث أعمال تاريخية هامة ، أولا : كتاب جورج سينكلوس الذى توفى فى أوائل القرن التاسع . وقد عالج علاجاً سريعاً أحداث التاريخ منذ بداية الخليقة حتى عهد دقلديانوس . وقضى مضى فى تكملة كتابه التاريخى « ثيوفانس المعترف » (٧٥٨ م - ٨١٨ م) . وقد أتى ثيوفانس بقدر كبير هام من المعلومات عن الصراع اللاأيقونى . وكان موقفه إلى جانب اللاأيقونيين . ومن أفضل ما عمله ثيوفانس ، أنه استخدم عدداً من المصادر الهامة القديمة ، وبذلك صان مادتها من الضياع . وقد رجع إلى كتابه عدد من المؤرخين البيزنطيين الذين جاءوا من بعده .

أما البطريرق نقفور - بطريرق القسطنطينية (٧٥٨ م - ٨٢٩ م) فقد كتب موجزاً قيما عن التاريخ البيزنطى فى الفترة من ٦٠٢ م إلى ٧٧٠ م ، وهو واحد من أهم المصادر التى تصف ظهور « البلغار » على مسرح التاريخ فى البلقان . وإلى جانب ذلك ، فإن البطريرق نقفور كتب جدولاً زمنيا موجزاً ، لخص فيه الأحداث منذ عهد آدم حتى عصره ، ولكن هذا الكتاب أقل قيمةً من سابقه .

وفى أواخر عصر الحركة اللاأيقونيه - أى حوالى سنة ٨٥٠ م ، كتب جورج هامارتولس كتابه الذى عرض فيه تاريخ العالم منذ آدم حتى ٨٤٢ م . وكان المؤرخ شاهد عيان للأحداث التى ذكرها فى الأجزاء الأخيرة من كتابه ، ولذا فإن كتابته تضمنت قدراً ثميناً من المعرفة الثقافية ، والدينية ، والفنية عن ذلك العصر . هذا فضلاًعن أهمية الكتاب نتيجةً لما ألقاه من أضواء على الحياة الديرية فى الشرق . وقد حظى التاريخ الذى كتبه هامارتولس Hamaftolus باهتمام المؤرخين البيزنطيين فى الوقت المتأخر ، وتأثر به إلى مدىً أبعد ، المؤرخون الروس فى أواخر العصور الوسطى .

وفى عهد قسطنطين السابع (٩١٢ - ٩٥٨ م) كتب « يوسف جنسيوس » كتاباً أسماه « تاريخ القسطنطينية » عالج فيه الفترة من عهد ليو الخامس حتى ليو السادس (٨١٣ م -

٨٨٦ م) . وقد صدر هذا الكتاب فى أربعة أجزاء . ويمكن الأعتماد على المادة التاريخية التى تضمنها ، والتى جاءت بأسلوب واضح مبسط .

وفى أوائل القرن العاشر كتب سيمون ميتا فراستس Simon Metaphrestis وهو أحد السياسين ذوى النفوذ فى توجيه مصائر الأمور فى الدولة البيزنطية ؛ كتابه الشهير «حياة القديسين» . وثمة كتاب نسب إلى الامبراطور قسطنطين السابع ؛ عن حياة الإمبراطور «باسل الأول» . ومن المحتمل أن يكن قد كتب هذا الكتاب أحد العلماء تحت رعاية الإمبراطور قسطنطين السابع . ومهما يكن الأمر ، فإن هذا الكتاب يحوى معلومات كثيرةً عن الأوضاع التشريعية والتاريخ الحربى لذلك العصر .

أما التاريخ الذى كتبه ليو الشماس ، أهم ما كتب عن الفترة من ٩٥٩ م حتى ٩٧٥ م ، وبخاصة فيا يتعلق بحروب البيزنطيين ضد المسلمين والبلغار . على أنه لا جدال فى أن أعظم أعلام الثقافة البيزنطية هو ميخائيل قسطنطين بسيللوس الذى عاش بين سنتى ١٠١٨ - ١١١٠ م . ذلك أنه كتب تاريخاً علمياً قيماً عن الفترة مابين ٩٧٦ م ، ١٠٧٧ م ، ضمنه ما سبق أن كتبه ليو الشماس . ويعتبر أسلوبه نموذجا طيبا لأسمى ما بلغته الكتابه اليونانية من بلاغة فى العصر البيزنطى وثمة كتاب تاريخى آخر يرجع إلى القرن الحادى عشر ؛ هو الكتاب الذى ألفه ميخائيل أتاليانا (حوالى سنة ١٠٧٥ م) ، وعالج فيه الفترة منذ ١٠٣٤ م حتى ١٠٧٩ م ، ولما كان ميخائيل هذا مشرعاً قديراً ، فإن كتابه التاريخى هذا عنى عناية قوية بالتطورات القانونية والإدارية . وقد كتب حنا سكتليتزا تاريخاً دسما للسنوات من ٨١١ م حتى ١٠٥٧ م . ثم قام جورج كدرينوس بتضمين كتابه عن تاريخ العالم (حوالى سنة ١١٠٠ م) الكتاب الذى كتبه حنا سكليتزا .

وفى نفس هذه الفترة ؛ ظهر كتابان تاريخيان فى التاريخ العالمى ، فكتب جورج كدرينورس Cedrenus فى سنة ١١٠٠ م كتابه الذى سبق أن أشرنا إليه ، وتناول فيه أحداث العالم منذ بدء الخلق حتى سنة ١٠٥٩ م فى حين كتب حنا زوناراس Zanaraus (ت ١١٣٠ م) وهو من أقدر المؤرخين البيزنطيين فى العصور الوسطى - تاريخاً حقيقياً للعالم فى ثمانية عشر جزءاً ؛ تناول فيها تاريخ العالم منذ بدأ الخلق حتى سنة ١١١٨ م .

ولم يلتزم فى كتابه هذا بالمنهج التقليدى لمؤرخى العصور الوسطى ، وإنما اعتمد على الحقائق الثابتة وخاصة بالنسبة للفترة الأخيرة التى تناولها فى كتابه . وقد استعان على نطاق واسع بما سبق أن كتبه الكتاب القدامى من الإغريق والرومان . ثم إن زوناراس كتب مؤلفات أخرى أقل أهمية عن تاريخ الكنيسة الشرقية . أما ما كتبه ميخائيل جليكوس فى القرن الثانى عشر عن تاريخ العالم فيعتبر من أكثر الكتابات التاريخية التى صدرت فى الدولة البيزنطية شيوعاً فى العصور الوسطى .

وثمة كتاب طريف عن الإمبراطور الكسيوس الأول كتبته أبنته آنا كومننا Anna Comneta المولودة سنة ١٠٨٣ م . وكانت آنا هذه قد دبرت مؤامرة لتخلف أباها على العرش ، لكن مؤامرتها باءت بالفشل وعندئذ عوقبت بالنفي فعكفت فى منفاها على كتابة تاريخ حياة أبيها الكسيوس الأول وحكمه الذى امتد من ١٠٨١ م حتى ١١١٨ م . وكتبت كتابها هذا بأسلوب بلاغى على نمط كتابات المؤرخين الإغريق القدامى . وقد دفعتها الرغبة فى تملق أبيها واستعطافه إلى المبالغة فى إظهار الحماسة نحوه وتضخيم أعماله ، مما ترتب عليه إهمالها بعض الأحداث العامة الكبرى المعاصرة . ومع أن التاريخ الذى كتبته آنا كومننا به كثير من نواحي النقص والعيوب ، إلا أن له أهمية بخاصة من ناحية كونه من المصادر البيزنطية الأولى عن الحركة الصليبية فى دورها المبكر .

وقد ظهر فى اسرة كومنين أحد المؤرخين البيزنطيين المبرزين تجدر الاشارة إليه وهو السكرتير الإمبراطورى حنا كيناموس John Cinamus (جاء بعد ١١٧٥ م تقريباً) ، ذلك أنه تعمد محاكاة طريقة اكزنيفون وبروكبيوس ، من المؤرخين القدامى . ويقع ما كتبه فى ستة أجزاء تناولت حكم حنا الثانى ومانويل الأول ، وتضمنت أحداث الفترة من ١١١٨ م إلى ١١٧٦ م . وقد أثنى كثيراً على الإمبراطور مانويل ، كما دافع عن الإمبراطورية البيزنطية ضد مطامع البابا والكنيسة الكاثوليكية الغربية . وجاء ما كتبه فى أسلوب رائع متين .

ومن الواضح أن الحروب الصليبية وخاصة الحملة الرابعة منها أثارت اهتمام المؤرخين البيزنطيين كثيراً، وأبرز الأعمال فى هذا المجال ما كتبه نيقتاس أكومیناتوس Nicetas Acominatus الذى توفى سنة ١٢١٦ م ، وهو الذى على وجه التقريب شبيه بالمؤرخ نيلهاردون الذى أرخ عن العصر البيزنطى .ويقع ما كتبه فى ٢١ جزءاً ، تناول فيها الفترة من ١١٨٠ م إلى ١٢٠٦ م وتضمنت وصفاً لحصار الصليبيين للقسطنطينية سنة ١٢٠٤ م . وهذا الكتاب من بعض النواحي عبارة عن عدة دراسات عن حياة الأباطرة المعاصرين . ويعتبر خير ما كتب عن الحقائق الخاصة بحكم عمانويل الأول وسقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م . ويناقش المؤلف فى طريقة محببه تفوق الحضارة البيزنطية على ما أسماه واعتبره بربرية الغرب والواقع أنه كان أكثر إدراكاً لطبيعة وأصول العلاقات بين الشرق والغرب من أى مؤرخ آخر معاصر فى أى بلد من بلدان العصور الوسطى .

وثمة مؤرخ بيزنطى آخر هو نقفور بلميدس Nicephorus Blemmydes برز فى النصف الأول من القرن الثالث عشر وترجم لنفسه فى سيرة شهيرة . وقد تضمنت هذه السيرة وصفاً طيباً لتطور الحياة الكنسية فى ذلك العصر فضلاً عن الأحوال السياسية

والاجتماعية المعاصرة . وجاء تلميذه وهو رجل السياسة جورج اكروبوليتا George Acropoliwa (١٢١٧ - ١٢٨٢ م) فكتب كتاباً من أعظم الكتب التاريخية البيزنطية «تاريخ الإمبراطورية البيزنطية من ١٢٠٣ م إلى ١٢١٦ م» وهو خير ما كتب عن الفترة الحرجة منذ سقوط القسطنطينية حتى بعث الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى . وكان جورج هذا شاهد عيان لكثير من التطورات والأحداث التى كتب عنها ، وامتاز أسلوبه فى الكتابة بالمستوى الراقى الذى امتازت به محتويات الكتاب . وأما عن الفترة التالية ، فهناك كتابات جورج باخميروس George Pachumeres (١٢٤٢ - ١٣١٠ م) التى عالجت تاريخ الإمبراطورية البيزنطية من ١٢٦١ م إلى ١٣٠٨ م . وعلى الرغم مما تتصف به كتاباته من ادعاء وتظاهر بالعلم والمعرفة ، مقلداً فى ذلك المؤرخين القدامى ، فإن هذه الكتابات لها قيمتها الكبرى بوصفها مصدراً للمعلومات والمعرفة عن الصراعى الدينى والمذهبى فى هذا العصر . وقد جاء ما كتبه غير متحيز إلى حد ما بالنسبة لما كانت عليه الكتابة فى عصره .

ولدينا من المؤرخين فى القرن الرابع عشر نقفور جريجوراس (١٢٩٥ م - ١٣٦٠ تقريبا) واسم كتابه «التاريخ البيزنطى من ١٢٠٤ م - ١٣٥٩ م» . وقد جاء هذا الكتاب فى ثمانية وثلاثين جزءاً بمثابة دراسة مفصلة للدين ، والفلسفة ، والعلوم : أما ما كتبه فى التاريخ فله قيمته حيث أنه ألقى ضوءاً على حضارة الدولة البيزنطية ، ومانشب داخلها من منازعات دينية عقب صحوتها فى القرن الثالث عشر .

أما عن العصر الأخير فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وهو العصر الذى انتهى بغروب شمسها وسقوطها فى يد الترك ، فقد عالجه ثلاثة مؤرخين شهدوا جميعا تلك الأحداث ، أولهم دوقاس (١٤٦٠ م تقريبا) وهو من رجال الحاشية فى البلاط البيزنطى ومن رجال السياسة ، وقد تناول فى كتابته الفترة من ١٣٤١ م - ١٤٦٢ م . وأما جورج فرانتزيس George Phrantzes (١٤٠١ م - ١٤٧٨ م تقريبا) فقد عالج أحداث الفترة من ١٢٥٨ م إلى ١٤٧٦ م . أخيرا يأتى لايونيكاس - خالكوندليس Laonikas Chalkondyles (حوالى ١٤٦٠ م) الذى عالج الفترة من ١٢٩٨ إلى ١٤٦٣ م . ويعتبر كتاب فرانتزيس أحسن الكتب الثلاثة السابقة فى تصوير نهاية الإمبراطورية الإغريقية ، ذلك أنه كتب كتابه بوصفه شاهد عيان وبطريقة مشوقة وجاء بمادة يعتمد عليها . اما خالكوندليس فكان أول من فطن إلى خطر ظهور الترك على مسرح التاريخ وإلى تقييم قوتهم فى القرن الخامس عشر . ويجدر بالذكر أيضاً أن نشير إلى ما كتبه المؤرخ البيزنطى كريتو بولس المنسوب إلى امبروس وذلك عن عهد السلطان محمد الثانى حتى سنة ١٤٦٧ م .

وأخيرا ، فإننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن المؤرخين البيزنطيين فاقوا نظراءهم من المؤرخين الغربيين فى سعة العلم والمعرفة . ذلك أن التراث الكلاسيكى القديم كانت له جذوره وسلطانه فى الإمبراطورية البيزنطية أكثر مما كان فى الغرب الأوربى . ولكن هذا الأثر للتراث الكلاسيكى خفف منه وأضعف من نفوذه إلى حد ما الطابع الجديد المتنوع للأدب البيزنطى . وهكذا ظل الكتاب فى الدولة البيزنطية يحاكون فى هذا الشكل والجوهر الكتاب القدامى فى العصر الكلاسيكى دون أن تتاح له فرصة للتجديد والابتكار بالدرجة التى اتيحت لكتاب الغرب الأوربى . ففى العصور الوسطى كانت الحياة الثقافية فى غرب أوربا تتطور من مستوى منحط قريب من مستوى البربرية إلى مستوى حضارى راقد نوعاً ما . أما فى الشرق البيزنطى فكانت الثقافة تتدهور من المستوى الكلاسيكى القديم لتصبح ضحلة صورية . وهكذا فى الوقت الذى كانت ثقافة الغرب تنمو وتتألق إذا بثقافة الشرق تجف وتذبل . وفى كلتا الحالتين سواء فى الشرق أو فى الغرب كانت فلسفة العالم المسيحى تدفع الكتابة التاريخية بطابع خاص ، وهنا نجد أن البيزنطيين فى الشرق جرفهم تيار الخلافات العقائدية أكثر مما حدث فى الغرب المسيحى .

أما عن كتابة التاريخ فى روسيا فى أواخر العصور الوسطى فقد تأثرت بشكل عميق بما كانت عليه فى الدولة البيزنطية . والواقع أن روسيا لم تعرف سوى القليل من الكتابة التاريخية فى بداية العصور الوسطى نظراً لحالة الجهل وعدم المعرفة بالقراءة والكتابة ، باستثناء الجنوب . وقد ظهرت عدة كتب تاريخية مجهول أصحابها منذ منتصف القرن الحادى عشر وأهم هذه الكتب « التاريخ النسطورى و التاريخ الفالسى » فى القرن الثالث عشر ثم وضح بعد سنة ١٤٠٠ م تأثر المؤرخين الروس بالمؤرخين البيزنطيين وخاصة بالمؤرخ هاماركولس . ولم يلبث أن أصبحت الكتب التاريخية التى كتبها المؤرخون الروس بعد ذلك مجرد مجاميع رسميه . وفى أواخر العصور الوسطى جمعت فى روسيا كثير من الكتابات عن حياة القديسين وهى كتابات مليئة بالمعجزات والأساطير .

بعض المبرزين من المؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى

كانت حضارة الشعوب الإسلامية لا الحضارة المسيحية هى أرقى حضارات العالم وأكثرها تقدماً فى العصور الوسطى . ويبدو صدى هذه الحقيقة فى الجانب الثقافى ، الأمر الذى ترتب عليه ظهور عدد من المؤرخين يعتبرون من أقدر المؤرخين الذين عرفتهم العصور الوسطى . وعلى رأس هؤلاء المؤرخين يأتى ابن خلدون الذى فاق تماما أى مؤرخ مسيحى فى العصور الوسطى ، وذلك فى إدراكه لأصول التطور البشرى والثقافى والعوامل التى تتحكم فى ذلك التطور ، ولم يستطع مؤرخ آخر فى العالم المسيحى أن يضارع ابن خلدون فى تلك المكانة حتى عهد فولتير فى القرن الثامن عشر الميلادى . وإذا قارنا المؤرخين المسلمين فى مجموعهم بالمؤرخين المسيحين لجدهم يمتازون بالقدرة على استنباط أحكام مستقلة ، كما يمتازون بسعة الأفق وعدم التعصب فضلاً عن تفوقهم فى الإلمام بأساليب التقويم والترتيب الزمنى للأحداث ، الأمر الذى مكنهم من التأريخ للأحداث على نحو أدق بكثير مما فعله الكتاب المسيحيون . .

وتنحصر البواعث الرئيسية التى شجعت المسلمين على العناية بكتابة التاريخ فى القرون الأولى التى أعقبت البعثة النبوية فى الرغبة فى تزويد الخلف بتراث الإسلام ، والحماسة لإثبات صلة النسب بالرسول (علية السلام) والحرص على تمجيد الفتوح الإسلامية وإعلاء شأن المجاهدين المسلمين . وظل التوثيق التاريخى عند المسلمين يقوم على أساس روايات متصلة يرويها الخلف عن السلف وتتناول أصل العقيدة الإسلامية وإنتشارها . ولم تكن الدراسة التاريخية والنقد أمراً أساسياً عند نقلة الروايات والمأثور من الحديث والسنة . وعلى هذا الأساس فقد بدأت كتابات التاريخ عند المسلمين فى شكل العناية بالتاريخ الدينى والسياسى ولم يعن بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى سوى أقدر المؤرخين المسلمين واعظمهم ابتكارا . ثم إن المؤرخين المسلمين آمنوا بالنظرية نفسها التى آمن بها المؤرخون المسيحيون ، وهى نظرية العناية والمشيئه الالهية وأثرها فى تطور أحداث التاريخ . وكل ما هناك هو الله عز وجل حل محل يهوه اله العبرانيين . ثم إن طريقة الكتابة عند المؤرخين المسلمين تأثرت إلى حد كبير بالأساليب الفارسية كما يبدو ذلك من بعض كتابات الفردوس (٩٣٥ — ١٠٢٠ م) التى ترجمت بسرعة إلى العربية .

ومن الطبيعي أن تنحصر أولى الأعمال التاريخية عند المسلمين في السيرة النبوية من ناحية وفتوح البلدان على أيدى المسلمين من ناحية أخرى . وكان أول كتاب يسترعى الاهتمام من كتب السيرة النبوية هو كتاب ابن إسحق المتوفى سنة ٧٦٨ م ، ويتصف هذا الكتاب بأنه محاولة جادة لجمع الحقائق المرتبطة بالسيرة النبوية من ناحية وأصول الإسلام من ناحية أخرى . والواقع أنه من خيرة الكتب التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة الفترة التى أعقبت البعثة النبوية ، ولذا اعتمد عليه المؤرخون المسلمون الذين جاءوا بعد ذلك ، كما ضمنه ابن هشام (ت ٨٣٤ م) كتابه المشهور عن السيرة النبوية . ومن أوائل الكتب الهامة التى تكلمت عن الفتوحات الإسلامية كتاب الواقدى (٧٤٧ م – ٨٢٣ م) ، وهو المؤرخ الذى حظى بمكانة كبيرة فى بلاط الخلفاء العباسيين .

ثم خطت كتابة التاريخ خطوة واسعة على يد البلاذرى (ت ٨٩٢ م) الذى كتب تاريخا نموذجياً لحروب المسلمين وفتوحاتهم الأولى وسمى كتابه «فتوح البلدان» وينتمى إلى نفس جيل البلاذرى مؤرخ آخر هو الدينورى (ت ٨٩٥ م) الذى كتب كتاب «الأخبار الطوال» وهو مؤلف هام يعالج تاريخ العرب والفرس . أما خير ما كتب عن الخلافة العباسية فى بغداد فهو كتاب «تاريخ بغداد» لأمين أبى الطاهر المتوفى سنة ٩٠٢ م .

أما عمدة المؤرخين فى التاريخ السياسى ورواية الأخبار فى الإسلام فهو الطبرى (٨٣٨ م – ٩٢٣ م) الذى تنقل وتجول كثيراً ودرس الشريعة الإسلامية وعلومها . وقد تناول فى كتابه «تاريخ الرسل والملوك» أحداث التاريخ حتى ٩١٥ م . والواقع أنه أجاد فى كتابه التاريخ كتابة حولية ، فشاع كتابه وتداوله المؤرخون المسلمون الذين جاءوا من بعده ، وحاكوه واتخذوه نموذجاً لهم ، حتى شبهه البعض بأنه صار عند المسلمين فى منزلة المؤرخ ليفى عند الرومان . على أن هذا التشبيه غير دقيق لأنه أدق من ليفى وإن كان دونه فى بلاغة الأسلوب . والواقع أن كتاب الطبرى عبارة عن تجميع لحشد ضخم من المادة التاريخية ، مع قليل من التنظيم والتنسيق ، مما يجعل أهميته تنحصر فى كونه مصدراً ينهل منه المؤرخون من بعده .

أما المسعودى المتوفى سنة ٩٥٦ م فلم يكن مجرد أحد مؤلفى الموسوعات فى الإسلام ، وإنما كان أيضاً واحداً من رواد المؤرخين المسلمين . ذلك أنه نبذ طريقة الطبرى فى التأريخ الحولى ورتب تاريخه وفقا لتسلسل الخلفاء والأسرات الحاكمة والموضوعات . واحتوى كتابه «مروج الذهب» على كثير من المعرفة والمعلومات الخاصة بعلم الأنساب والسلالات فضلاً عن الجوانب الثقافية والاجتماعية ، كل ذلك بالإضافة إلى الأحداث السياسية . وإذا كان المسعودى قد وصف بأنه «هيرودوت العرب» فإن هذا الوصف جاء سليما عادلاً ، لأنه كانت

له نفس القدرة على الاستطلاع والتأمل والحماسة فى جمع المعرفة مثلما كان «لأبى التاريخ» ولكنه كان أكثر انقياداً من هيرودوت فى تقبل الأساطير والعجائب .

أما ابن مسكويه (حوالى ٩٧٠ م) فكان من أقدر المؤرخين المسلمين وأشدهم إعجاباً بالطبرى ذلك أنه جمع بين الذكاء النادر والإلمام الكامل بكثير من المعلومات الجديدة الحية وخاصة فيما يتعلق بالأمور الإدارية والحربية . وامتاز كتابه «تجارب الأمم» بصدق الأحكام والبعد عن الهوى والصراحة حتى فيما يقوله عن أعظم حكام المسلمين . لذلك لاعجب إذا قال عنه الأستاذ مارجليوث عند حديثه عن المؤرخين المسلمين «إن كتابه التاريخ بلغت ذروتها على يد مسكويه» . هذا وإن كان ابن مسكويه لم يرق إلى مستوى ابن خلدون فى فلسفة التاريخ .

وثمة مؤرخ آخر من مؤرخى المسلمين هو أبو على التنوخى (٩٣٩ م - ٩٩٤ م) الذى دون كتابه «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» فيما بين سنتى ٩٨٢ م ، ٩٩٤ م وجمع فيه قدرً كبيراً من النوادر والقصص التاريخية . أما عن دمشق وعن أعلام المسلمين بها فلدينا كتاب «تاريخ دمشق» لعلى بن محمد المعروف بابن عسكر (١١٢١ م - ١١٩٣ م) . أما أغزر المؤرخين المسلمين معرفة وأعالهم بحثاً فى أصول مصر الإسلامية فهو المؤرخ المقريزى (١٣٦٠ م - ١٤٤٢ م) . ولم يكن المقريزى عالماً مبتكراً بقدر ما كان رجلاً ضعيفاً فيما جمع من مادة غزيرة ، وأهم كتبه كانت أبحاثه فى خطط مصر فى كتابه «الواعظ» وهو كتاب لايناظره مصدر آخر عن أخبار القاهرة فى العصور الوسطى . كذلك كتب كتاباً عن تاريخ خلفاء الفاطميين وسلاطين المماليك وموسوعة كبيرة عن تراجم أعيان مصر[1] .

وهناك كتب تاريخية أخرى موسوعة فى التاريخ منها ما كتبه أبو الفرج الأصفهانى (٨٩٧ - ٩٦٧ م)[2] وابن الأثير المتوفى ١٢٣٤ م وأبو الفدا (١٢٧٣ - ١٣٣١ م) ، ونخص بالذكر ابن الأثير بالذات بوصفه أحد المؤرخين المسلمين السباقين إلى النظر إلى التاريخ نظرة فلسفية على أساس تقييم التطور التاريخى فى ضوء الأسلوب والنتائج .

---

(١) من الواضح أن ثمة لبس وقع فيه المؤلف ، حيث إن الموسوعة الكبيرة التى كتبها المقريزى فى التاريخ وهى كتاب السلوك لم يعالج فيها تاريخ الفاطميين ، وإنما عالج تاريخ الأيوبيين والمماليك . وإذا كان المقريزى قد تعرض للفاطميين وتاريخهم ، فإن ذلك جاء عرضاً فى كتابه «المواعظ» السابق الإشارة إليه فى المتن ، فضلاً عما جاء فى كتاب «إغاثة الأمة» وهو كتاب صغير يعالج فيه المقريزى الجانب الاقتصادى والمجاعات والأوبئة التى تعرضت لها مصر على مر عصور التاريخ وأسبابها . كذلك لم يكتب المقريزى كتاباً مستقلا عن تراجم أعيان مصر ، وإنما جاءت هذه التراجم فى ذيل كل سنة من السنوات التى أتى على أحداثها فى كتاب السلوك (المراجع)

(٢) مرة أخرى لم يوفق المؤلف فى اختيار كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ليكون مثالاً للموسوعات التاريخية بالذات عند المسلمين . فمع اعترافنا بأهمية كتاب الأغانى كموسوعة أدبية ضخمة ومع اعترافنا بوفرة ما فيه من مادة تفيد المؤرخ إلا أن أهميته فى خدمة علم التاريخ تأتى دون شك بعد كتاب مثل موسوعة «نهاية الارب» للنويرى مثلاً (المراجع)

أما أقدر المؤرخين المسلمين وأبعدهم شهرة فى علم كتابة التاريخ فهو المؤرخ ابن خلدون (١٣٣٢ م - ١٤٠٦ م). وترجع أهميته إلى قدرته على تعقل موضوع التاريخ وتطبيق ذلك المذهب العقلى على مناهج التاريخ وأهدافه. ونستطيع أن نقول عن ابن خلدون إنه «روجر بيكون» العصور الوسطى بالنسبة لعلم كتابة التاريخ. لقد آمن بأن التاريخ ينبغى اعتباره علماً وأن هذا العلم عليه أن يعالج التطور الاجتماعى، وهو ذلك التطور الذى يعتبر فى رأيه نتاجا للتفاعل بين البيئة والطبيعة وبين حياة الإنسان ككل. واستطاع ابن خلدون فى المقدمة الشهيرة التى وصفها لكتابه «العبر» أن يعرض بطريقة متسقة تلك الآراء والنظريات وأن يخلق تمييزاً واضحاً بين الكتابة الحولية التقليدية أو القائمة على اتباع نظام العهود والعصور من ناحية وبين التاريخ كما تصوره هو من ناحية أخرى، إذ تصور ابن خلدون علم التاريخ بوصفه علم نشأة المجتمع والحضارة وتطورها. وبذلك سبق ابن خلدون كلاً من فيكو وترجو فى قوله بوحدة التطور التاريخى واستمرار ذلك التطور. وكان لابن خلدون إدراك كبير لمفهوم الزمن وأثره على تطور سنن الحياة وشرائعها. وفى معرض مقارنة ذلك بالمفاهيم الثابته أو المتطورة عند المؤرخين المسيحيين المعاصرين له، تبرز نظرية ابن خلدون عن «تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال تبدل الأعصار ومرور الأيام.. وكما يكون ذلك فى الأشخاص والأمصار فكذلك يقع فى الآفاق والأقطار والأزمنة والدول». وأوضح ابن خلدون الدور الذى تلعبه العوامل النفسية وعوامل البيئة على تطور الحضارة. وبذلك يكون ابن خلدون قد سبق ماركس عندما قال بأن ما تضعه الشعوب من شرائع ونظم يقوم على أساس ما تختاره هذه الشعوب من نظم وعادات. وقد طبق ابن خلدون فى كتابه «العبر وديوان المبتدا والخبر» وهو كتاب كبير فى سبعة أجزاء - هذه النظرية عن التاريخ خصوصاً عن تطور العرب الاجتماعى الثقافى ولقد قيم روبرت فلنت عمل ابن خلدون فى الكلمات التالية:

«لقد كان محمد بن خلدون أول كاتب يعالج التاريخ بوصفه علماً له خصائصه الخاصة. وسواء أكان يمكن اعتبار ابن خلدون لهذا السبب هو المؤسس لعلم التاريخ أم لا، فإن هذا قول قد يكون محل اختلاف بين وجهات النظر ولكن أى قارئ أمين لمقدمته لا يستطيع أن ينكر أنه أحق بهذا اللقب من أى كاتب آخر ظهر قبل فيكو.»[1]

أما عن كتابة التراجم والسير فقد كانت مجال اهتمام عدد كبير من المؤرخين المسلمين. ولقد سبق أن أشرنا إلى أهم الكتب التى تناولت سيرة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم). ومن السير التاريخية الهامة أيضاً سيرة صلاح الدين للمؤرخ الإسلامى بهاء الدين ابن شداد (١١٨٥ م - ١٢٣٤) وطبقات ابن سعد (ت ٨٤٥ م) الذى أخرج لنا أول مجموعة تاريخية.

(1) Robert Flint, The philosophy of History in France (Scribner 1894) pp. 158 f.

منظمة من التراجم لها قيمتها عن أعلام المسلمين الأوائل . ثم لدينا ياقوت الحموى (١١٧٩ م - ١٢٢٩ م) وهو أحد الجغرافيين المسلمين المبرزين ، فقد جمع معجم الأدباء وضمنه تراجم عدد كبير من مفكرى الإسلام . على أن العمل الضخم الأكثر أهمية فى مجال التراجم هو الكتاب الكبير الذى كتبه ابن خلكان (١٢١١ - ١٢٨٢ م) وأسماه وفيات الأعيان ، وضمنه ما لايقل عن ٨٦٥ ترجمة لمشاهير الأعلام فى التاريخ الإسلامى . ويشبه هذا العمل ما قام به ترثيميوس فى العالم المسيحى . أما الآثار الإسلامية فقد عالجتها بعض كتب مثل كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وكتاب تاريخ مصر لابن إياس وقد تناول فيه تاريخها حتى الغزو العثمانى . أما العالم الاسلامى الذى يعتبر من علماء الموسوعات فضلا عن كونه من المبرزين فى الرياضيات وعلم الفلك فهو البيرونى (٩٧٣ م - ١٠٨٤ م) ويعتبر كتابه «الآثار الباقية» من خيرة كتب التقويم التاريخى الإسلامى ، إذا حاول أن ينقى هذا التقويم مما علق به من شوائب وأن ينظمه على أسس فلكية . ولم يظهر فى العالم المسيحى حتى زمن سكاليجر علم من أعلام التقويم التاريخى يضاهى البيرونى فى مكانته العلمية .

ملحوظات ختامية عن كتابة التاريخ فى العصور الوسطى

مع أننا لا نميل إلى المبالغة فى انحطاط مستوى الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى عند مقارنتها بما هى عليه فى العصر الحديث ، إلا أننا لا نستطيع أن نجامل مؤرخى العصور الوسطى - وخاصة فى الغرب الأوربى - إلى مدى بعيد . فالنماذج الجاهزة أمامنا للكتابة التاريخية فى تلك العصور ، مثل كتابات أوروزيوس وكاسيدورس كانت منحطة فى مستواها . ولم يكن هناك تجميع منظم مرتب للمصادر ، كما أنه لم يكن هناك تطبيق منظم للدراسة والبحث بل إن النظم والقواعد المتبعة فى الدراسة التاريخية كان من شأنها أن تعوق البحث وتفسده أكثر مما تخدمه . ثم إن تبادل المعلومات بين المجتمعات كان ضعيفاً بسبب ضعف الاتصالات فيما بينها وبين بعض ، الأمر الذى جعل من الصعب على الكاتب أن يلم بأطراف أى موقف من المواقف إلماماً عاماً شاملاً . هذا إلى أن مؤرخى العصور الوسطى نظروا إلى الحياة نظرة بدائية مليئة بالأوهام والخرافات مما جعلهم غير مسئولين عما يكتبون . ولم تكن هناك علوم طبيعية يستندون إليها فى مقاومة الخرافات والمعجزات ، وكذلك لم يكن هناك علم اجتماع يمكنهم من نقد أوضاع المجتمع الذى يعيشون فيه .

وتحت تأثير كل هذه الظروف ، ربما استثار عجبنا وصول مؤرخى العصور الوسطى إلى ماوصلوا إليه فعلاً . ومن عرضنا السابق الوجيز لعلم كتابة التاريخ فى العصور الوسطى تبرز

عدة حقائق يأتى فى المقام الأول منها أن الكتابة التاريخية فى تلك العصور على غرار ما كانت عليه فى العصور القديمة – تناولت الأحداث التى عاصرها المؤرخ وكانت معالجة الفترات البعيده عن عصره تأتى فى صورة رديئة مختصره . والحقيقة الثانية أنه كان من المستحيل التفرقة بين الكتابة التاريخية كما هى فى المدونات التاريخية وبين الكتابة التاريخية السليمة المنتظمة وبين السير التاريخية وذلك استناداً إلى مناهج عامة ثابتة موحدة . ويلاحظ بعد ذلك أن الغالبية العظمى من المؤرخين من رجال الكنيسة كانوا فى معظمهم من رجال الدين وخاصة الرهبان ، وهؤلاء لا يمكن أن نلومهم فى عنف على تجاهلهم للمناهج التاريخية ، فضلاً عن أنه ينبغى أن نذكر أنه لولاهم لكانت المؤلفات التاريخية فى العصور الوسطى أسوء مما هى عليه فعلاً . وبعد ذلك تأتى الحقيقة الرابعة وهى أنه ينبغى فى أول نظرة أن يكون واضحاً أن كتابة التاريخ فى العصور الوسطى فى معظمها اتبعت نظام العهود والفترات ولم تتسم تلك الكتابة بالتحليل العميق للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التى أثرت فى التطور التاريخى . وأخيراً يمكن للباحث أن يدرك الحقيقه الخاصة بأن الرغبة فى مزيد من الثقافة فى أثناء الحروب الصليبية وما بعدها كان من شأنها أن يزيد فى إنتاج المؤرخين وأن يصاحب تلك الزيادة فى الكم رقى فى الكيف وهو الأمر الذى أنبأ بالعودة إلى المستوى الذى كانت عليه الكتابة التاريخية فى العصور الكلاسيكية القديمة .

المــراجــع

1- **Hayes:** An Introduction to the Sources Relating to the Germanic Invasion chaps VIII-XV.
2- **Guilday:** church Historians pp. 71-127
3- **Riter** Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft Book chaps ii-iii.
4- **Thompson:** History of Historical Writing vol I. Books II-IV
5- **Charles Gross:**Sources and Literature of English History (Ma cmillan 1915)
6- **M.L.W. Lastner:** Thought and Letters in western Europe (A.D. 500-900) Dial press 1931.
7- **R.L. Poole:** Chronicles and Annals, Oxford Unversity press 1926
8- **C.H. Jenkins:** The Monastic chronicler London 1922
9- **Maire Schulz:** Die Lehre von der Historischen Mathode bei den Geschichtschreibern des Mittelaters, Berlin 1909.
10- **James Gairdner:** Early chroniclers of Europe England London 1883.
11- **Gustov Masso:** Early chroniclers of Europe France London 1883.
12- **Ugo Balzani:** Early chromiclers of Europse Italy London 1883.
13- **Wilhelm Wattenbach:** Deutschlands Geschichtsquellen im Mittelater, bis zur Mitte der dreizehnten jahrhunderts Berlin 1893-49 2 vols.
14- **Ottokar Lorenz:** Deutschlands Geschichtsquellen in Mittelater Seit der Mitte des dreizehnten Jahrhunderots. Berlin 1886-87- 2 vols.
15- **A.A. Vasiliev:** History of the Byzantine Enpire «Unveristy of Wisconsin Studies» Madison Wis, 1978-29. u Vols.
16- **Karls Krumbacher:** Geschichte der byzantischen Letter atur munich 1897.
17. **D.S. Margoliouth:** Lectures on Arabic Historians. Calcutta 1930
18- **R.A. Nicholson:** Literary history of the Arabs Machiullan 1929.
19- **Nathaniel Schmidt,** Ibn Khaldoun Columbia Unversity press 1930.
20- **J.H. Robinson ed.,** Readings in European History Vol1 Ginn 1904 2 vols
21- **J.A. Giles ed.,** Six Old English chronicles London 1888.
22- **L.R. Loomis ed;** The Book of the popes. Colunhia univ. press 1916.
23- **Ernest Brehaut ed.,** The history of the Franks by Gregory Bishop of Tours. Columbia univ. press 1916.
24- **C.C. Mierow ed.,** Two cities by Otto, Bishop of Freising. Columbia univ. press 1929.
25- **P.K. Hitti and F.C. Murgotten eds.,** The Origins of the Islamic state (Translation of Al Baladhuri) Colunhia Unvieristy press 1916, 1924
26- **J.N. Hussey** Church and learning in the Byzntine Empire. Oxford Univ. Press 1937.
27- **Heinz Quirin** Einführung in des Studium der mittelaterlichen Geschichte. Brunswick 1961.

الفصل الخامس

الحركة الإنسانية والكتابة التاريخية

طبيعة الحركة الإنسانية وتأثيرها العام على الكتابة التاريخية

لقد أدى البحث الحديث والنظرة الناقدة للتيارات الفكرية فى التارخ الأوربى إلى تعديل آراء يعقوب بيركهاردت Jacob Burckhardt ، حنا أدنجتون Johm Adington وهى آراء مبالغ فيها عن علاقة الحركة المعروفة «بحركة النهضة» بتطور الفكر والثقافة فى أوربا . ذلك أن البعض أوضح أن حركة النهضة هذه على الرغم مما فيها من سمات عظيمة لم تمثل تقدماً مباشراً وملموساً نحو الوصول إلى المفاهيم الحديثة . وكل ما هنالك هو أن هذه الحركة جاءت وليداً طبيعياً للعصر السابق لها وهو العصر الوسيط . ولاشك فى أن هذه الحركة تمثل إحياء للعناية بالحضارة القديمة التى كانت فى كثير من جوانبها الرئيسية تتعارض مع النظرة الحديثة للحياة . لكن هذا الإحياء أسهم بطريق غير مباشر فى تطور النظرة الحديثة . وخاصة عن طريق الخروج من نطاق الجمود الذى فرضته الكنيسة على الفكر فى العصور الوسطى وعلى إبراز الاهتمام بالأمور الدنيويه .

وصار متفقا عليه الآن أن يطلق أسم (الحركة الإنسانية) على الجانب الأدبى من حركة النهضة هذه ، وليس معنى ذلك إحياء الاهتمام بالأدب القديم فحسب . بل أيضاً تجدد استحسان وتذوق ما فى الأدب الوثنى من اهتمامات إنسانية عريضة ونظرة علمانية إلى الحياة . فهذه الحركة الإنسانية جاءت رد فعل عاطفى وشعرى للاتجاهات الروحانية المتزمتة التى تمسك بها علماء اللاهوت ، دون أن تكون ثورة حقيقية أو ملموسة على اللاهوت نفسه أو الفلسفة الاجتماعية . والفكر الذى ينتمى الى المذهب الإنسانى إنما يمثل اتجاهاً وسطاً فى ميوله ومُثله بين الفكر المدرسى فى العصور الوسطى والفيلسوف الاجتماعى أو الإنسان المتشكك فى العصر الحديث .

ومن الطبيعي أن يكون هناك تباين كبير من ناحية طبيعة ونوع حصيلة المؤرخين فى تلك الفترة ، مثل ذلك التباين الذى يبدو بين مؤلفات بوجيو Poggio ، وبين كتابات جويكارديني Guicardini . ومع ذلك فإن هناك خصائص رئيسية لعلم كتابة التاريخ عند أصحاب المذهب الإنسانى وهي خصائص عامة وشاملة الى حد كبير مما يجعل من الضرورى حصرها والإشارة اليها .

ولقد جاء تأثير الحركة الإنسانية على الكتابة التاريخيه متمشياً تماماً مع المظاهر الرئيسية لتلك الحركة بوجه عام . فهذه الحركة بالنسبة للتاريخ كانت تعنى البحث عن النصوص القديمة ثم مقارنة ونقد وتصحيح ما تم الوقوف عليه منها . وكان أن خلق نقد النصوص التى حوتها الكتب إحساساً أولياً بقيمة المعالجة الناقدة للوثائق التاريخية .

هذا إلى أن الحركة الإنسانية كان لها أثر هائل فى تضاءل عنصر المعجزات فى عملية تفسير أحداث (التاريخ) فضلاً عن تضاءلُ «الآثار العاطفية» «للملحمة المسيحية» . ومع ذلك لا ينبغى أن نتصور أن الغالبية العظمى من الإنسانيين كانوا من الخارجين على الدين أو المتشككين فى الديانة المسيحية . وإنما الغالب – أنهم تجاهلوا – ولم ينكروا – مزاعم اللاهوت والجدل الدينى . ويرجع ذلك إلى حد ما إلى وداعة النزعة الكاثوليكية .

وهكذا قدر للتاريخ الوثنى أن يستعيد إلى حد ما مكانته البارزة التى فقدها على أيدى الكتاب المسيحيين بصفة عامة وأوغسطين وأورزيوس على وجه الخصوص . ويرجع هذا إلى حد ما إلى إعجاب الإنسانيين بالثقافة الكلاسيكية فضلاً عن حقيقة هامة هى أنه لأول مرة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية صار معظم المؤرخين البارزين من العلمانيين وعامة الناس بعد أن كانوا من رجال الكنيسة ورجال اللاهوت . وكان من الطبيعى أن تكون النماذج القديمة المكتوبة فى التاريخ لها أثرها الكبير فى تحسين الأسلوب من ناحية ، ثم فى شد الانتباه إلى القوى والأحداث السياسية ، وهذا أمر له أهميته . وكل هذا يعنى فى إيجاز العودة بالتاريخ الى الاتجاه العلمانى ، وهو الأمر الذى زاد من قوته النعره الاستقلالية عند المدن الإيطالية التى أخذت تظهر فى صورة جمهوريات تعتز بكيانها ، فضلاً عن ظهور بوادر القوميات الحديثة .

وكان أن بدأت كتابة التاريخ فى عصر الحركة الإنسانية فى إيطاليا بالذات ، واتخذت لنفسها طابعاً محلياً بحيث انحصرت فى دائرة تسجيل منجزات المدنية وأعمال أمرائها . ولكن لم تلبث القوميات الحديثة الناشئة أن أثرت فى كتابة التاريخ مما أدى الى اتساع دائرتها السياسية . وأخيراً فإنه على أيدى الإنسانيين ازداد الطابع التاريخى لعلم التاريخ وضوحا ورسوخاً . ذلك أن اهتماماتهم تركزت أساساً فى حضارة الماضى البعيد ، ومن ثم لم يقصروا كتاباتهم التاريخيه على

التاريخ المعاصر أو مجرد إطالة فيها إضافات متنوعة لما كتبه جيروم . والحق أن ثمة محاولات لا بأس بها لكتابة تاريخ العالم ظهرت فى كتب سابيلكوس ، جيوفانى ، فرانسوا بلفورست ، يوحنا كلوفر ، سير والتر رالى .

والواضح أن الحركة الإنسانية أحدثت تقدماً أدبياً وثقافيا فى الكتابة التاريخية أكثر مما أحدثت من تقدم فى المنهج العلمى . ذلك أن هذه الحركة ساندت التاريخ وزودته بدفعة هائلة بوصفه نوعاً من الأدب لا بوصفه علماً اجتماعياً أو علماً ناقداً . وهكذا حرص مؤرخو الحركة الإنسانية على أن يأتوا بأئمة البلاغة من أمثال ايسقراط ، ليفى ، تاكيتوس ، بلوتارك ، سوتونيوس ، لا بأئمة التاريخ من القدامى أمثال ثيكوديدس ، وبوليبوس . وإذا كان مؤرخو المدرسة الإنسانية قد نبذوا المعجزات التى آمن بها مؤرخو العصور الوسطى فإنهم أبدوا كثيراً من التبجيل للخرافات المأثورة عن الأقدمين وإن لم يستوعبوها دائما ببساطة وسذاجة . وكثيراً ما كانت تشوه الحقائق والمواقف التاريخيه فى عصر الحركة الإنسانية حتى تتمشى مع متطلبات البلاغة وقواعد الخطابة . كذلك كان يتم تفسير الحقائق التاريخية وعلى سبيل المثال أحداث سنة ١٥٠٠ م – بنفس مفاهيم الحضارة القديمة والعكس صحيح مع عدم العناية بروح التاريخ فى الحالتين .

كذلك لم تحقق الحركة الإنسانية للكتابة التاريخيه – كما كان مفروضاً بصفة عامة – تحرراً كاملاً من سيطرة المصالح المتبادلة والرغبة فى محاباة أصحاب السلطة . وكل ما فعلته أنها حررت التاريخ الى حد ما من الاتجاه الدينى . ولكنها أتت فى الوقت نفسه بقيود علمانيه لم تكن أقل خطراً على الموضوعية والدقة التاريخية . من ذلك أن تمجيد الأبطال استمر على ما هو عليه ، وإذا كان مؤرخو العصور الوسطى قد مجدوا رجال الكنيسة والشهداء والعذارى ومن إليهم ، فإن مؤرخى الحركة الإنسانية قد مجدوا أعمال أمراء المدن ومن جاء بعدهم من ملوك الدول القومية . ويوضح الأستاذ بير Burr هذه الحقيقة بقوله :

« يجب أن نعترف بأنه عندما آذنت العصور الوسطى على نهايتها ، لم يؤد إحياء دراسة القدماء فى أول الأمر ولا قيام جمهوريات علمانية تمجد الآداب والعلوم والفنون إلى تحرير كتابة التاريخ بشكل ملحوظ . ذلك أن الكاتب فى عصر الحركة الإنسانية إذا كان يعمل فى بلاط أمير فإنه كان لا يعنى إلا بكتابة ترجمة لذلك الأمير أو لتاريخ أسرته . أما إذا كان مكلفاً من قبل السلطة الحاكمة فى المدينة بكتابة تاريخ تلك المدينة ، فإنه فى هذه الحالة كان لا يجد قدراً من الحرية ، مثلما كان الحال مع المؤرخ من رجال الكنيسة . لأن الأخير لم يخش سيطرة أمير ورث سلطانه عن آبائه ولم يجرفه تيار الغرور والزهو بمديته . وكان القارئ هو الآخر من الإنسانيين ، ومن ثم فإن سطوة البلاغة – وهو الشئ الذى لم يتبدد كلية خلال العصور

الوسطى - عادت لتؤكد نفسها فى عصر الحركة الإنسانية ، وصار لها من السلطان ضعف ما كان لها من قبل . وهكذا ركز أولئك المؤرخون اهتمامهم فى أن يجعلوا من أمجاد أمرائهم ومدنهم أداة يستعرضون بها أسلوبهم اللاتينى الذى نالوا بفضله ما وصلوا إليه من وظائف ومناصب . ولما كان التاريخ على هذه الصورة قد أصبح مرة أخرى فنا ونوعاً من فروع الأدب يتناول الأمور الدنيوية ويعرض عن التنويه بالمعجزات الكنيسيه بل ويتناسى فكرة الخلاص ، فقد كان لابد له أن يأخذ عن الأقدمين ما تمسكت به كتابتهم من ذكر للنبوءات « المسائل الخارقة للطبيعة »[1] .

وعلى الرغم من عدم وجود علاقة مباشرة أو عارضة بين الحركة الإنسانية واختراع آلة الطباعة فقد جاء الاثنان فى عصر واحد . وكان اختراع هذه الآلة أكبر حافز على تأليف الكتب فى مجال التاريخ وغير التاريخ من المجالات الأدبية الأخرى . ولا يقل أثر اختراع هذه الآلة على مستقبل كتابة التاريخ عن أثر إتقان فن الكتابة فى الماضى ، بحيث اننا لا نبالغ إذا قلنا إن اعمال ثيكوديدس ، بوليبوس ، بلوتدس ، مابلون ، فون رانكه لم تكن أكثر شأناً أو أقوى أثراً من عمل ذلك المخترع العظيم الذى اخترع للعالم آلة الطباعة فى الوصول بعلم كتابة التاريخ الى مكانته الحالية .

(1) Burr, loc. cit. p. 261.

وقبل أن نتناول بالحديث مؤرخين بعينهم من الإنسانيين ينبغى أن نتحدث قليلاً عن جانب معين من تلك الجوانب التى أسهموا بها فى خدمة علم التاريخ ، وعلى وجه التحديد جانب البحث بهمة وحماسة عن المخطوطات القديمة فى الأديرة والأماكن الأخرى غير المطروقة وقد تزعم حركة البحث هذه رجال مثل بوجيو ، انوك الاسكولى . وهكذا خرجت الى النور مخطوطات كانت تعتبر مفقودة لشيشرون ، كونتيليان ، نيوس ، بلاوتوس ، مارتيال ، أوفيد ، بلينى ، فارد ، تاكيتوس . وكان لأكتشاف انوك الاسكولى للمخطوط الذى كتبه تاكيتوس بأسم جرمانيا أهمية خاصة . ذلك أن هذا المخطوط صار - كما رأينا - مثار جدل كبير وسط كل الوثائق التاريخية المعاصرة . وهكذا ظهرت إلى النور مصادر تاريخيه هامة وبدأ نشرها ، وكان هذا إيذاناً بمولد حركة واسعة تستهدف النشر والنقد على أسس علمية .

أما النقلة فى الكتابة التاريخيه إلى مثل الإنسانيين وطرقهم ، فتبدو فى إنتاج ألبير تينوس موساتوس Albertinus Mussatus (١٢٦١ م - ١٣٣٠ م) الذى كتب فى مطلع القرن الرابع عشر عن زعماء إيطاليا وأحداثها بلغة لاتينية رائعة . هذا بالإضافة الى إنتاج جيوفانى فيلانى Giovanni Villani الذى سبقت الإشارة اليه . على أن فرانسسكو بترارك Francesco petrarch (١٣٠٤ - ١٣٧٤ م) كان دون منازع الأب الحقيقى للحركة الإنسانية فضلاً عن كتابة التاريخ فى إيطاليا فى عصر تلك الحركة . كان بترارك يكتب بأسلوب لاتينى رفيع مركزاً اهتمامه فى التاريخ على ثقافة العصر الكلاسيكى القديم وشخصياته البارزة خاصة فى روما . فعرض فى كتابه Liber de viris illistribus عرضا لتاريخ روما عن طريق الترجمة لعظمائها ، وترجم لواحد وثلاثين بطلاً من الأبطال التقليديين فى التاريخ الرومانى منذ عهد روميولوس حتى عهد قيصر . كذلك أورد فى كتابه الأخر Rerum memorandum مجموعة من القصص الطريفة عن هؤلاء الأبطال . وعلى الرغم من أنه لم يتشكك فى الأساطير المتواترة فى كتاب العصر الكلاسيكى القديم ، مثلما تشكك فى أساطير العصور الوسطى المرتبطة بروما ، فإنه مع ذلك لم يأخذ ببعض أساطير العصر الكلاسيكى القديم مثل قصة هوراتيوس عند جسر نهر التيبر . هذا الى أن نظرة بترارك الى

التاريخ وإدراكه له كان يشوبهما نقص واضح حيث أنه كان يؤمن بأسطورة وجود عصور مظلمة طويلة أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، كما أنه كان يقيم الثقافة الرومانية بمعايير عصره .

ثم كانت الحصيلة الهامة التالية من نتاج الحركة الإنسانية فى علم تدوين التاريخ كتاباً اسمه (اثنى عشر كتاباً فى تاريخ فلورنسا) ألفه ليوناردو برونى (١٣٦٩ - ١٤٤٤ م) الذى كان محاميا وسكرتيراً للبابوية وأحد كبار الموظفين فى فلورنسا . وفى هذا الكتاب كما فى كتابه الآخر الذى أسماه (التعليقات) تتبين كثيراً من خصائص الكتابة التاريخية للمدرسة الإنسانية وعلى رأسها الالتزام بقواعد الأسلوب الذى سار عليه رجال البلاغة الإغريق والرومان ، فضلاً عن التمسك بفكرة أن الثقافة الكلاسيكية القديمة تفوق الثقافة المعاصرة كمصدر للإلهام التاريخى ، وأخيراً ، فإن ليوناردو برونى حرص فى كتابته على حذف كثير من المعجزات والأساطير المسيحية والوثنية ، واهتم بصفة أساسية بالتحليل العملى للأحداث السياسية والنشاط السياسى . لكن إذا كان برونى قد رفض بوجه عام المعجزات والأساطير بما فى ذلك كثيراً من تلك التى أحاطت بأصل فلورنسا ، فإن الذى كسبه فى هذا المجال خسره فى مجال آخر حيث أقحم فى كتاباته قصصاً خطابية من تلك التى يتشدق بها رجال البلاغة ، مع تكييف الحقائق التاريخيه لتتمشى مع مقتضيات البلاغة . كذلك لجأ برونى إلى استخدام المصطلحات الرومانية عند وصف الحقائق المرتبطة بعصر النهضة . هذا إلى أنه نظر بعين الاعتبار إلى أهمية نقد المصادر التى استخدمها . والحق أنه كان فى إمكانه أن يصل إلى مستوى أعلى مما وصله لو أنه لم يستسلم للقواعد البلاغية التى سادت العصر القديم . وكانت فلورنسا فى روايته مركز العالم على الرغم من أنه كان على درجة من الإنصاف جعلته يقر بأن أهل فلورنسا لم يكونوا جميعاً معصومين من الخطأ ، وكذلك سياسة فلورنسا نفسها . كذلك وضع برونى الاتجاه الإنسانى الذى يعزى الأحداث السياسية الى أسباب شخصية ويصور بشكل مثير أعمال زعماء السياسة وشخصياتهم .

وكان لنهج برونى واتجاهاته أثر كبير على أول مؤرخى المدرسة الإنسانية فى البندقية وهو ماركانتونيو كوشيو Marcantonio Coccio (١٤٣٦ م - ١٥٠٦ م) الشهير باسم ذى صبغة كلاسيكية هو سابيكلوس . وعرف عن سابيلكوس هذا أنه أستاذ للخطابة ، كلفته حكومة البندقية بوضع تاريخ رسمى للمدينة . وكان أن فعل هذا ، فجمع فى قصة محبوكة مختلف القصص المأثورة بتاريخ البندقية فضلاً عن الوقائع الخاصة بذلك التاريخ ، معتمداً بصفة خاصة على ما كتبه داندولا Dandola ، وحرص على أن يضفى على هذا التاريخ كثيراً من الزخارف البلاغية والخياليه . والواقع أن هذا التاريخ الذى وضعه سابيلكوس جاء ضعيفاً هذيلاً لأنه تجاهل كلية التاريخ الكنسى والاقتصادى وهما جانبان لهما أهمية خاصة لمن

يدرس تطور البندقية بالذات . كذلك كتب سابيلكوس بحثاً امتدح فيه ليفى . على أن أهم ما قام به سابيلكوس هو محاولته كتابة تاريخ العالم وهو التاريخ الذى أطلق عليه اسم « التاسوع » ويمثل أولى محاولات المدرسة الانسانية فى هذا المجال .

والحق أن سابيلكوس لم يكن معداً من الناحية المهنية لمثل هذا العمل . وإذا كان قد نجح فيه فإن هذه حقيقة تبين كيف ساعدت الحركة الإنسانية على تنمية الحاسة التاريخية عند المعاصرين . حقيقة إنه كان بين مؤرخى العصور الوسطى علماء عظماء ، لكن نظرتهم المعادية للماضى الوثنى وتعسفهم ضده كانا عاملين كبيرين أديا الى تضاءل قيمة كتاباتهم عن فترة ما قبل العصور الوسطى . وعلى الرغم من أن سابيلكوس استمد تقويمه للأحداث بصفة أساسية من إيزبيوس ، وجيروم ، فإنه أعاد إلى تاريخ العصور القديمة بعض ما يستحقه من الاعتبار ، وخصص فى مؤلفاته مساحة كافية لمعالجة عديد من الأمم القديمة . هذا الى أنه أبى أن يتقبل ما فى التاريخ العبرانى من أشياء غير معقولة ، مثلما فعل غيره من السابقين طوال ألف عام . ولم يكن ذلك هو التناقض الوحيد بين كتاب (التاسوع) من ناحية والكتب التاريخية فى العصور الوسطى من ناحية أخرى ، بل كان سابيلكوس متشككا فى معجزات الكتاب المقدس نفسه ووضعها فى نفس المرتبة مع القصص الكلاسيكى القديم ، حتى إنه اعتبر شمشون هرقل العبرانيين . كذلك لا نجد فى كتبه أى ذكر « للممالك الأربع » الشهيرة على الرغم من معرفته الجيدة بالتاريخ الذى كتبه جيروم . وواضح أن سابيلكوس لم يسترشد إلا بأعمال عدد قليل نسبيا من المؤرخين القدامى عندما كان يكتب تاريخه عن العصر القديم . ولكنه حاول أن يخلق انطباعاً زائفاً بسعة علمه ، فتظاهر بأنه رجع إلى كافة المصادر التى استخدمها مرشدوه . كذلك وقع فى خطأ عام من أخطاء المدرسة الإنسانية وهو النظر الى أجزاء كثيرة من التاريخ القديم بعين رومانية . ونجد تقدما كبيراً عند كتابته عن العصور الوسطى نتيجة لأستخدامه مؤلفات المؤرخين الممتازين أمثال بولس الشماس ، فلافيوس بلوندوس . ولكن كتابه جاء ضعيفاً فى معالجته للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى والثقافى . أما من ناحية اللهجة والمحتويات فنجد أن هذا الكتاب يمثل تقدماً ملحوظاً عن أوروزيوس وكتاب العصور الوسطى الذين عالجوا التاريخ القديم والوسيط . ولم يكن سابيلكوس هو المؤرخ الوحيد من عصر الحركة الإنسانية الذى كتب عن تاريخ العالم وإنما هناك جيوفانى دوجليونى Giovanmi Daglioni وهو مؤرخ من البندقية كتب موجزاً لتاريخ العالم (١٦٠١ م) . ويعتبر هذا الموجز أكثر نضجاً من كتاب سابيلكوس فى مجال التاريخ العلمى :

وإذا كان برونى هو هيرودوت الحركة الإنسانية فى علم كتابة التاريخ وسابيلكوس هو ديودورس تلك الحركة فإن بوجيو براتشيولينى Poggio Bracciolini (١٣٨٠ م - ١٤٥٩ م) كان ايفورس تلك الحركة . كان بوجيو - شأنه شأن برونى - سكرتيراً بابويا

وصاحب منصب رفيع فى فلورنسا فضلاً عن أنه كان يستهدف التفوق على سلفه كمؤرخ ، وان يظهر براعته بصفة خاصة فى الكتابة باللغة اللاتينية القديمة . ويصور مؤلفه « ثمانية كتب فى تاريخ فلورنسا » التأثير الواضح للبلاغة الكلاسيكية على الكتابة التاريخية فى عصر الحركة الإنسانية . ولهذا فنحن نتفق مع فيوتر فى رأيه « إن ما حققه بوجيو كأديب خسره كمؤرخ » . ومع ذلك فإن بوجيو تميز بقوة الملاحظة وجاء عمله أكثر اتساعاً وموضوعية من عمل برونى . وكان فى استطاعته أن يحقق تفوقاً أكبر لو أنه فلح فى تخليص نفسه من الرغبة الملحة فى محاكاة كبار الكتاب فى العصر القديم . كذلك حال منصبه الرسمى دون جعله أكثر صراحة وتعمقاً فى تحليله للسياسة الداخلية لفلورنسا . على أن ذلك كله لا ينبغى أن يجعلنا ننسى نشاط بوجيو وأن نشيد بنجاحه كبحاثة متحمس فى النصوص القديمة .

ويختلف عن إنتاج بوجيو اختلافاً كبيراً فى طبيعة ما كتبه لورنزو فالا (١٤٠٧ — ١٤٥٧ م) أول مؤرخى المدرسة الإنسانية فى نابولى وأبرز النقاد التاريخيين الإيطاليين فى تلك الفترة . والملاحظ أن المؤلف الوحيد المنسق من إنتاج فالا هو كتاب عنوانه « تاريخ فرديناند الأول ملك أرغونه » . لكن هذا الكتاب لم يلق نجاحاً كبيراً . ففيه يبدو المؤلف وكأنه تاجر فضائح وليس مؤرخاً يعمل فى مجال السرد التاريخى . كذلك لم يهتم فالا إلا قليلاً بالأمور السياسية والعسكرية . وربما كانت أبرز نواحى الضعف فى هذا الكتاب هى أنه جاء الى حد كبير تاريخاً « رسمياً » وهو عمل لا يتفق وعقلية فالا الناقدة .

أما العمل الذى حقق لفالا شهرة كبيرة ومكانة قوية كناقد فكان ما قدمه من أدلة قاطعة على زيف الوثيقه التى تعرف بأسم (هبة قسطنطين) Donation of Constantine [(١)]. وكان كوزانوس Cusannus قد أعلن تشككه فى صحة هذه الوثيقة . كذلك قام الأسقف رينالد بيكوك Regionald peacock فى انجلترا بإثبات عدم صحتها . ولكن كما يقول فيوتر اكتسب فالا شهرة كبيرة لا بسبب ما كان للوثيقة التى هاجمها من طبيعة هامة فحسب ولكن أيضاً بسبب المهارة والمعرفة الجمة التى اتضحت من تحليله لها . والحقيقة أن هذا الهجوم الذى شنه فالا على صحة هذه الوثيقة ينم عن شجاعته أكثر مما يكشف عن قدراته كناقد — تلك القدرات التى يعلو إلى مستواها كثير من كتاب المدرسة الإنسانية . وكما يقول إمرتون : إن أمتع شئ فيما جاء به فالا هو السهولة المذهلة لما عرضه ، وهو أمر لا يثبت ما تمتع به الكاتب من علم ومهارة لأن كلاهما لم يكن شيئاً مطلوباً . ففى اللحظة التى يعرض فيها

(١) هبة قسطنطين : هبة يقال إن الإمبراطور قسطنطين الأعظم منحها للبابا سلفستر الأول (٣١٤ — ٣٣٥ م) وخلفائه تعطيهم سيطرة روحية كامله على كافة البطاركة وسلطة مطلقة فى أمور العقيدة والعبادة وكذلك سلطة زمنية على روما وإيطاليا وسائر أرجاء العالم الغربى وكان الدافع على ذلك هو عرفان الإمبراطور بجميل البابا الذى شفاه من البرص بمعجزة وأدخله فى الدين المسيحى والمعتقد الآن أن هذه الهبة مزورة . (المترجم)

الحقائق عارية امام جمهرة العلماء يتمزق تلقائيا النسيج الكامل للسخافات التي حيكت فيها تلك الوثيقة »[1] .

ولقد أظهر فالا مهارة أكثر وأصالة أكبر في كتابه الذى أسماه (مدينتا تاركوينى)[2] Duo Tarquinii الذى كان هجوما على الطريقة التى عالج بها ليفى أجزاء معينة من التاريخ الرومانى المبكر . ولقد وضح فى كتابه أن أكبر المصادر العلمانية القديمة ذات المكانة الكبيرة لم تسلم من الفحص الناقد الذى قام به فالا ، شأنها شأن تلك الوثائق الكنسية التى كانت تتمتع بهيبة كبيرة واحترام عظيم . والحق أن التشكك فى أمر الأساطير الكلاسيكية القديمة كان يحتاج الى قدر من الشجاعة من جانب الكاتب الإنسانى أكبر من القدر الذى يتطلبه التشكك فى المعجزات التى حوتها بعض كتابات العصور الوسطى . واذا كان معظم الكتاب الإنسانيين قد تشككوا فى معجزات وأساطير العصور الوسطى فإن قلة منهم هم الذين جرءوا على انتقاد المصادر الكلاسيكية القديمة الكبرى من أمثال كتابات ليفى . والحق أن المدرسة الإنسانية لم تنجب حتى عهد ارازموس ناقداً على نفس مستوى فالا فى الكفاية والمقدرة .

ولقد طبق أحد معاصرى فالا من أهل البندقية وهو برناردو جويستينيانى Bernardo Giustiniani (١٤٠٨ – ١٤٨٩ م) نفس منهجه فى تفنيد الأساطير المرتبطة بنشأة مدينة البندقية وذلك فى كتابه «أهل مدينة البندقية ونحوها حتى ٨٠٩ م» كان جويستينيانى رجل سياسة أكثر منه أديباً من أدباء المدرسة الإنسانية ، ومن ثم فإنه تحاشى القيود البلاغية التى اتصفت بها الكتابة التاريخية فى تلك المدرسة . على أنه لم يكن يكتب تاريخاً رسمياً . ولذا فإنه فكر وكتب بعقلية مستقلة تماماً .

أما فلافيوس بلوندوس Flavius Blondus فكان أعظم علامة فى التاريخ أنجبته الحركة الإنسانية فى إيطاليا . وقد عاش فلافيوس من ١٣٨٨ م – ١٤٦٣م وكان اسمه الايطالى الحقيقى فلافيو بيوندو Flaviu Biondu ويعتبر «طيماوس» الحركة الإنسانية . ذلك أنه كرس حياته لدراسة آثار روما القديمة وقيام دول العصور الوسطى . واعتمد فيما كتبه عن التاريخ الرومانى على الآثار والمخلفات القديمة . وكانت كتبه «إيطاليا فى صور» و «تأسيس روما» و «انتصار روما» بمثابة أول ما أسهمت به المدرسة الإنسانية فى مجال طوبوغرافيه وآثار روما القديمة . كذلك يبدو أن كتابه «تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية» يعنى بصفة

(1) Ephraim Emerton: The Beginnings of Modern Europe (Gian 1917) p. 504.

(٢) تاركوينى : مدينة قديمة فى سهول تسكانيا لها شهرتها فى فجر تاريخ روما (المراجع) .

أساسيه على الآثار القديمة . وكان يقيس عظمة كل عهد أو عصر من عصور الإمبراطورية الرومانية فى ضوء مقدار ما حظى به ذلك العهد أو العصر من أمن وسلام من ناحية وازدهار فكرى وثقافى من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من أهمية كتاب بلوندوس عن الآثار الرومانية فقد كان أعظم ما أسهم به هو نظرته الأصلية والمبتكرة إلى تاريخ العصور الوسطى وتصويره الدقيق نسبياً لها . وفى هذا المجال جاء كتابه الرئيسى «حلقات من التاريخ منذ اضمحلال قوة الرومان» (٤٧٢ – ١٤٤٠ م) الذى ظهر فى واحد وثلاثين مجلداً . وبصرف النظر عما فى هذا الكتاب من دراسة تتسم بالجهد والعناية فإن أهم ما يميز هذا الكتاب هو نظرة المؤلف المبتكرة فى تقييمه للعصور الوسطى . وفى هذا يقول الأستاذ بور Bürr وإن العنصر الجديد فى اتجاه بلوندوس هو أنه بدلاً من أن ينظر إلى العصور الوسطى على أنها امتداد لتاريخ الإمبراطورية الرومانية فإنه ترك روما بماضيها وتناول قصة الشعوب الجديدة التى حلت محلها[1] . ويقول فيوتر عن بلوندوس إنه أضاف لمعلوماتنا عن العصور الوسطى وعن العصر الرومانى القديم أكثر مما أضافه سائر كتاب المدرسة الإنسانية مجتمعين[2] .

ولعل خير ما يصور المثل التى سادت الحركة الإنسانية أن بلوندوس – وهو الذى كان أعظم مؤرخيها فى إيطاليا – لم يعط حقه من التقدير والتبجيل ولم يقدر عمله العظيم حق قدره لأنه لم يكن يمتلك أسلوبا أدبياً رائعاً . ولكن الحقيقة أن أعمال بلوندوس صادفت فيما بعد حقها من التقدير والتقييم . فمن بين كل حصيلة الدراسات التاريخيه فى ذلك العصر صار كتاب بلوندوس قبلة الكتاب اللاحقين الذين أخذوا عنه واقتبسوا منه الكثير ، وعن هذا الطريق أسهم بلوندوس إسهاما غير مباشر فى تقدم الدراسة التاريخيه فى عصر الحركة الإنسانية . والواقع أن المعاصرين لم يقدروا العلم لذاته وكما يبدو بوضوح فى حالة بلوندوس – وربما كان هذا هو السر فى أنه ليس له إلا تلميذ واحد هو تريستان كالشى Trirten calchi (١٩٤٢ م – الى حوالى ١٥١٦ م) مؤرخ ميلانو الفذ المعروف باستقلاله فى الراى يضاف إلى ذلك أن بلوندوس كان الرائد الحقيقى سلفاً لكل من ليبنتز ، ومابيلون ، وتيلمونت .

وعندما نتكلم عن التاريخ والمؤرخين فى عصر الحركة الإنسانيه ، يجدر بنا أن نذكر البابا إيناس سلفيوس بيكولوميني Aenas Sylvius piccolomini وذلك نظراً لأهميته المستمدة لا مما أسهم به فى مجال الكتابة التاريخية المنسقة أو أدخله من تحسين على المنهج التاريخى فحسب – وإنما أيضاً وبدرجة أكبر بحكم طبيعة مهنته وما كان له من تأثير على

---

(١) جاء ذلك فى رسالة إلى المؤلف

(2) Edyard Fueter: Histoire de l'Historiographie pariss 1914 p. 131

الكتاب الألمان اللاحقين . ومن بين أعماله العديدة التاريخية « تعليقات على مجمع بازل » ، « تاريخ أوربا » ، « تاريخ العالم » ، « التعليقات » . ويشوب هذه الكتب كما يشوب ترجمته التى كتبها عن نفسه كثير من السطحية والافتقار إلى النظرة الفلسفية العميقة ، وكذا عدم إتمام ما تهض به من كتابات فى أغلب الأحيان . والواقع أنه لا يرقى إلى مستوى برونى كناقد ، وليس هناك ما يدعو إلى مقارنته بفالا أو بلدوندوس . ومع ذلك فإنه بلغ درجة من المهارة فى إدراك أبعاد السياسة تجعله على مستوى ثيكوديدس ، بوليبوس ، تاكيتوس . ولم يكن هناك بين معاصريه من هو أكثر منه علما بالسياسة والثقافة الأوربية . ولعل أقيم ما فى كتاباته التاريخيه ، امتلاؤها بالذكريات الشخصية . وقد فاق فى اهتمامه بالتاريخ الألمانى والثقافة الألمانية أى معاصر له فى إيطاليا وذلك نظراً لكونه عضواً فى المحكمة الإمبراطوريه العليا على يد فردريك الثالث من ناحية ولعلاقاته الكنسية مع الإمبراطورية فيما بعد من ناحية أخرى . وتكمن أهميته بالنسبة لتطور علم كتابة التاريخ فى استخدامه مؤلفات المؤرخين السابقين من الألمان ، إذ استعان فى كتابة تاريخ فردريك الثالث بالكثير مما كتبه أوتو المنسوب إلى فريزنج Otto of Fressing بذلك لفت أنظار معاصريه إلى هذا المؤرخ . كذلك استعان بمؤلفات جوردوان مما ترتب عليه إحياؤها وإكسابها شهرة . وربما كان كتابه تاريخ بوهيميا أول محاولة يقوم بها مؤرخ من المدرسة الإنسانية لإدخال علم وصف الأجناس البشرية فى مجال الكتابة التاريخية . وأخيراً فإن كتابيه « تاريخ أوربا » ، « تاريخ العالم » يمثلان محاولة جادة لإبراز العلاقة بين علمى التاريخ والجغرافيا . وكان تأثيره كبيراً فى هذا المجال وبصفة خاصة على المؤرخين الألمان اللاحقين . وفى هذا يقول فيوتر : « يعتبر إنياس سلفيوس المسئول الأول عن ذلك الاتجاه الذى التزم به كثير من المؤرخين الألمان اللاحقين والذين يضمن المؤلفات التاريخية أبحاثاً عن نشأة القانون وتطوره وعن أثر الجغرافيا فى تطور التاريخ فضلاً عن وقوفه موقفاً يوصف على الأقل بأنه نصف ناقد من الأساطير التى أحاطت بأصول الأجناس البشرية ، يضاف إلى هذا كله أنه اظهر غلواً فى الوطنية فى المسائل التى تمس الاتجاه القومى »[1]

أما خير مايصور الانتقال بعلم كتابة التاريخ فى إيطاليا من المذهب الإنسانى البحت إلى بداية الكتابة التاريخيه الحديثة ذات الطابع السياسى والقومى ، فهى تلك المؤلفات التى كتبها المؤرخان الفلورنسيان البارزان ماكيافللى وجويكارديني . وكان من الطبيعى أن يؤدى تفوق فلورنسا الحضارى ونشاط الحياة إلى خلق مناخ مناسب لإنتاج مؤلفات تاريخيه ذات قيمة عاليه . ولم يكن ميكافللى وجويكارديني أقل من بلوندوس من ناحية عنايتهما بالحقيقة أكثر من البلاغة ، لكنهما اختلفا عن بلوندوس فى بقائهما مغمورين غير مشهورين لأنهما تجنبا الإطالة وكثرة الكلام والإكثار من التفاصيل بقصد ادعاء العلم والتظاهر به . وقد أصبح التاريخ على

(1) Feuter op, cit p.143

أنتجها رواية للأحداث الطليانية وتقتصر أساساً على السرد والتحليل المباشر للأحداث السياسية . هذا إلى أنها عاما يمثل المحاولات لإحلال التفسيرات المادية والنفسية لأحداث التاريخ محل القوى الخارقة للطبيعة والمعجزات التي لم يعد هناك سبيلاً للأخذ بها .

ويشرح الأستاذ شيفل اهتمام ميكافللي وجويكارديني الكبير بالحكومات عامه وبحكومة فلورنسا خاصة فيقول :

« لقد رقيا إلى مستوى تلك النظرة نتيجة لتأثرهما بمن احتذوا حذوهم من الأقدمين ، لكن ذلك جاء أساسا نتيجة للتطورات الفعلية التي حيرت الأذهان في بلادهم . وعلى مدى عدة أجيال منذ انهيار الإقطاع في القرن الثالث عشر ظهرت في طول إيطاليا وعرضها إلى الوجود حكومات تزعمها أفراد وجماعات ، لكن هذه الحكومات كانت سرعان ما تتبدل قبل أن يمضى على قيامها سنة أو حتى شهر – ويحل محلها وضع جديد يستبشر به الناس أكثر من سابقه »

كان نيقولا مكيافللي Nicola machiavelli (١٤٦٩ – ١٥٢٧ م) أولا وقبل كل شيء فيلسوفاً سياسياً لايكن للتاريخ عاطفة معينة ولا يهتم إلا بالقدر الذي يمكنه من استغلاله لصالح النظرية السياسية . وكان هذا الاتجاه هو الذي أعطى كتاب ميكافللي « تاريخ فلورنسا » وهو الكتاب الذي كتبه على عجل وأصدره في ثمانيه أجزاء – خصائصه المميزة . والواقع أن هذا الكتاب لا يرقى من ناحيتي الأسلوب والدقة – إلى مستوى بعض المؤلفات التاريخيه الأخرى المعاصرة . ولكنا نعتقد أن أي مؤرخ سابق منذ بوليبوس – الذي عرفه ميكافللي – كان له مثل قدرته من حيث إدراكه لطبيعة العوامل السياسية التي تحرك التاريخ أو من حيث عرضه صورة واضحة لعملية التطور السياسي . وتبدو عبقرية ميكافللي بوصفه مفكراً سياسيًّا في قدرته على تنظيم العوامل المسببه لتطور المدنيه ، وربما بدت قدرته في هذه النواحي أكثر منها في رواية الأحداث السياسية بطريقة موضوعية . ويشير الأستاذ شيفل إلى أن هذا الاهتمام بالانعكاس السياسي من جانب ميكافللي قد نجم عن الوضع الغريب الذي ساد إيطاليا حيث كانت لها الزعامة في المجال الثقافي ولكنها كانت عاجزة سياسيًّا بصورة يصعب عليها الدفاع عن نفسها ضد أي هجوم أو غزو « وكان من نتيجة ذلك أن جعل ميكافللي كتابه ، معملا سياسيًّا وضع فيه مذاهب الأقدمين ومذاهبه هو نفسه موضع الاختبار العملي »[1]

والحق إن ميكافللي أوتي من نفاذ البصيرة بالعوامل التاريخيه المستمرة التي تحرك التطورات السياسية مالم يتوافر لأي مؤرخ آخر من المدرسة الإنسانية حتى عهده . ذلك أنه أدرك العلاقات المتداخلة بين التيارات السياسية الداخلية والخارجية وبين الأنشطة العسكرية

(1) Schevill, op cit p. xviii

والتطورات السياسية ، وبوضع فلورنسا فى تاريخ إيطاليا بوجه عام ، وتحمس للفكرة المثالية الخاصة بتحقيق الوحدة الإيطالية وقيام دولة إيطالية متحدة . ولذلك فإنه مجد الرجال والجماعات الذين حبذوا قيام هذه الدولة ، وفى الوقت نفسه فإنه وقف موقفاً معادياً من البابوية التى اعتبرها عقبة كئوداً فى طريق الوحدة الإيطالية . ولعل هذا يفسر الترجمة المليئة بالرومانسية التى وضعها لكاستراكانى وهو قائد بعض فرق الجند المرتزقة . على أن ميكافللى كان يعمل بوجه عام إلى الإقلال من العنصر الشخصى بوصفه أحد العوامل المحركة للتاريخ . ويقول فيوتر فى هذا الشأن . لا يوجد كاتب منذ أيام بوليبوس ذهب أبعد مما ذهب إليه ميكافللى فى جعل التاريخ « تاريخاً طبيعياً للسياسة »[1] وهكذا حلت نظرية مادية صريحة لتعليل التاريخ محل النظرية القديمة التى فسرت التاريخ فى ضوء قوى ماوراء الطبيعة أو عبادة الأبطال . وتعكس هذه الفلسفة التاريخية المبادئ والآراء التى ضمنها ميكافللى كتابه « الأمير » . كذلك نبذ ميكافللى إلى درجة كبيرة الترتيب الحولى للمادة التاريخية وهو الترتيب التقليدى فى تلك العصور ونظم كتابته على أساس موضوعى . هذا إلى أنه تحاشى الأسلوب البلاغى الجامد وكتب بطريقة واقعية خاطفة . وإذا كان ميكافللى لم يستخدم سوى عدد قليل من المصادر ، إلا أنها كانت من النوع الطيب ، وخاصة مؤلفات بلوندوس ، وجيوفانى ، وفيلانى ، وسيمونيتا . وأفضل أجزاء كتابه ذلك الجزء الذى تناول فيه تطور السياسة الداخلية فى فلورنسا . وفيه نجد وصفاً مفصلاً للأحداث وكثيراً من التعليقات الشخصية « وانطباعات عديدة عن الحكومة والأحزاب وأعمال القادة الذين كانت تحركهم مشاعر الغيرة والحماسة والطموح وسائر الانفعالات التى توارثها الإنسان والواقع أن الزاوية فى كتاب ميكافللى كانت أقل أهمية من « هذه التعليقات المستفيضة »[2] . أما إذا نظرنا إلى ميكافللى على أنه مؤرخ راو . فإننا وفق مستويات البحث الحديثة – نجد كتابه مليئاً بعديد من الأخطاء فى الحقائق وينقصه الاستناد إلى الوثائق والحجج » .

أما فرانسسكو جويكارديني. Francesco Guicciardini (١٤٨٣ – ١٥٤٠ م).

فإنه وإن يكن فيلسوفاً على مستوى ميكافللى ، فإنه فاقه كمؤرخ حقيقى . ذلك أن كتابه « تاريخ فلورنسا » الذى كتبه فى شبابه – جاء أحد الأعمال المبتكرة فى مجال كتابة التاريخ . إذ خرج الكاتب فيه عن نطاق كل من الكتابة التاريخية الدينية والإنسانية فى مراحلها الأولى – وكذلك خرج عن التقاليد التاريخية القديمة بأن استبعد نص الأحاديث مباشرة التى تأتى على لسان أبطال الرواية التاريخية ولا نجد فى أسلوبه السلس – المتحرر نسبياً من الإسهاب والتفاصيل الخارجة عن الموضوع – أثراً للمحسنات البلاغية . كذلك نلاحظ أن اهتمامه الكبير

(1) Salis, op. cit. pp. [illegible]
(2) Salis, op. cit. pp. [illegible]

بالتاريخ السياسي المعاصر دفعه إلى أن يتخلى فى الجزء الأخير من مؤلفه بصورة واضحة عن النظام الحولى الذى ساد الكتابة التاريخيه فى عصره . وكانت محاولته فى تحليل التاريخ تحليلاً فلسفيًا أقل توفيقاً من ميكافللى.وإن كان قد كرس نفسه بصفة رئيسيه لوصف الأحداث وصفاً قويًا قاطعاً وللنقد الصريح للأشخاص والاتجاهات . وكانت لديه قدرة نادرة على انتقاء الحقائق الأساسية . وإذا جاز أن تكون لديه نظرية خاصة فى التاريخ ، فإن هذه النظرية كانت على أساس الأفتراض العقلانى القائل بأن الظروف السياسية فى مرجعها فى النهاية الحساب والتآمر . وكان فرانسسكو نفسه لا يؤمن بالأوهام والخرافات ، الأمر الذى أدى إلى اتزان كتابته وعدم تحيزة نسبيًّا . وتبدو اللمسة الساخرة نوعاً ما فى كتاباته من بعض ملحوظاته ومنها قوله « لا عيب فى فرديناند ملك أرغونه سوى شحه وعدم وفائه بالعهد » أما ميوله الشخصية فكانت إلى الأسر القديمة والجماعات الحاكمة فى فلورنسا . ويقول فيوتر إن كتاب « تاريخ فلورنسا » يمثل البداية الحقيقية فى التاريخ للكتابة التاريخيه التحليلة الحديثة والاستنتاج السياسي »[1] ويتفق معظم النقاد على أن الكتابة التاريخية فى أوربا الغربية استعادت بفضل هذا الكتاب المستوى الذى كانت قد بلغته على أيدى ثيكوديدس وبوليبوس . ومع ذلك فإن هذا الكتاب لم يكن له تأثير كبير على علم تدوين التاريخ فى عصر النهضة لأنه لم ينشر حتى سنة ١٨٥٩ م .

وثمة كتاب آخر كبير ألفه جويكارديني عنوانه « تاريخ إيطاليا » وقد كتبه فى مرحلة النضج . ومع ذلك فإنه جاء أقل أصالة من ناحية الأسلوب والتنظيم إذ كان المؤلف قد تشرب التقاليد البلاغية للمدرسة الإنسانية وهو الأمر الذى لا وجود له فى مؤلفه الأول . ومن هذه التقاليد مثلاً اهتمامه بالمعارك الحربيه على نطاق كبير والحرص على إثبات الحوار المباشر ونصوص الخطب . ومع ذلك فإنه نظراً لاتساع مجال كتابه الثانى وطريقته المبتكرة فى معالجة الموضوعات فإنه يعتبر بداية مرحلة جديدة فى الكتابة . فلأول مرة منذ العصور القديمة استطاع مؤرخ أن يخرج عن نطاق ما هو مألوف وأن يحرر نفسه من الاتجاه السائد فى التاريخ ، وهو الاتجاه الذى يستهدف الاهتمام أساساً بدولة أو أسرة حاكمة معينه – وأن يكرس جهده لمجال أكثر اتساعاً « وهو تاريخ وحدة جغرافيه » . لذا فإن هذا الكتاب – تاريخ إيطاليا – الذى يعتبر أول تاريخ عام لإيطاليا ، أتاح لمؤلفه فرصة عظيمة لدراسة نشأة الدول واضمحلالها وتفاعلها فيما بينها وطبيعة العلاقات الدولية وعملية التطور السياسي . ومن جهة أخرى فإن مادة الكتاب هيأت إمكانيات نادرة لدراسة تاريخ العالم وإعادة كتابته على نطاق محدود . وعلى الرغم من أن جويكارديني كانت تعوزه بصيرة ميكافللى وتحليله الفلسفى للأمور الاجتماعية والسياسية . وهو الأمر الذى لم يتمكن بسببه من وضع تحليل دقيق للتطور الاجتماعى

(1) Feuter op. cit p. 88

والسياسي ، فإن المجال الذي تناوله جويكارديني والجديد الذي أتى به يمثلان بالتأكيد تقدماً كبيراً في المنهج التاريخي ومفهوم التاريخ .

وربما أنكر قليلون أن كتب جويكارديني قد بلغت أعلى مستوى للكتابة التاريخيه بعد العصر القديم الكلاسيكي وحتى عهد كامون ، ثاونس ، كلارندون . ويمكننا أن نتبين مقدار التقدم الهائل الذي كان لا بد منه لمولد التاريخ السياسي العلمي الحديث لو تأملنا النقد القاسي الذي وجهه ليوبولد فون رانكه – أول رائد مميز للمدرسة العلمية الحديثة – إلى جويكارديني . ذلك أن صفوة مؤرخي عصر النهضة أنفسهم أمثال ميكافللي جويكارديني كان يعنيهم في المقام الأول « الانطباعات السياسية والاستنتاجات والحكم » وبعد ذلك يأتي في المقام الثاني الاهتمام بتحري الدقة في الحقائق » وغالباً ما كانوا يبقون على ما اقتبسوه من الكتاب السابقين دون تغيير كلمة واحدة ، حتى ميكافللي وجويكارديني سلكا طريقاً إذا حكمنا عليه بالمعايير الحديثه – يضعهما في موضع الادانه الواضحة بانتحال ثمرة أفكار غيرهما من الكتاب » هذا إلى أنهما لم يميزا تمييزاً دقيقاً بين الرواة الذين يأتون في المرتبة الثانية والذين أخذوا عنهم وبين الوثائق الأصلية التي استخدموها ، ولم يظهر هذا التميز في كتابة التاريخ على أسس علمية في أعملها إلا في شكل أولي[1]

ولقد كان من الممكن بلوغ المستوى الحديث في الكتابة التاريخيه بسرعة أكبر لولا ما تسببت فيه حركة الإصلاح الديني من نكسة عرقلت تقدم هذه الكتابة ، إذ بعثت تلك الحركة من جديد الاهتمامات بعلوم اللاهوت والجدل الديني بعد أن كانت الحركة الإنسانيه قد أضعفت منها تدريجيًا وسلميًا وهكذا صار إحراز التقدم غير مستطاع حتى تم سحق ذلك التحكم الديني بفضل ازدهار الحركة العقلانية في القرن الثامن عشر وازدياد الاتجاهات العلمانيه قوة وتدعيماً نتيجة للتوسع الأوربي والثورة التجارية ونشأة الأمم الحديثة[1]

وقد ظهرت البداية الحقيقة للتراجم التاريخيه في المدرسة الإنسانية في كتاب ، حياة دانتي ، الذي ألفه جيوفاني بوكاشيو Giovanni Boccaccio (١٣١٣ – ١٣٧٥ م) وهو كتاب كانت له أهميته في فهم دانتي بوصفه أديبا فناناً . ومع ذلك فإن بوكاشيو كان ضعيفاً في معالجته لاهتمامات دانتي السياسية . ويعزى ذلك إلى قلة اهتمام بوكاشيو نفسه بالسياسة .

أما الخطوة الثانيه في هذا المجال فقد خطاها فيليبوفيلاني Filippo Villani (حوالى ١٣٢٥ م – ١٤٠٥ م) . وقد اتخذ فيلاني بوكاشيو مثلاً يحتذ به ، وكان أول عهده بهذا المجال هو نشرة كتاب «حياة دانتي » الذي ألفه بوكاشيو . ولم يلبث أن دفعه ذلك إلى

(1) Schevill op. cit pp xxi-xxii.

(١) انظر الفصل السابع (المؤلف) .

إعداد سلسلة من التراجم لأبرز رجالات فلورنسا. وأصبح هذا العمل نموذجاً لمن جاء بعده من كتاب التراجم فى المدرسة الإنسانية . الذين جاءت أعمالهم فى صورة مشابهة لعمل فيلانى . ولقد حوت هذه الأعمال كثيراً من خصائص سوتنيوس وأسلوبه ، وهو الذى كان ينظر إليه كتاب التراجم فى المدرسة الإنسانيه بوصفه النموذج الكلاسيكى الذى عليهم أن يحتذوه.

ثم كان أن تحطمت سيطرة الأسلوب البلاغى القديم بدرجة كبيرة على يد أشهر كتاب التراجم الإنسانيين وهو جيورجيو فاسارى Giorgio Vasari (١٥١١م — ١٥٧٤م) صاحب الكتاب الخالد « حياة أبرز الرسامين والنحاتين والمعماريين » . كان فاسارى نفسه رساماً ومهندساً معمارياً ولذا ظهر اهتمامه الكبير بحياة كبار الفنانين الإيطاليين فى عصر النهضه وأعمالهم . وشجعه على إصدار سلسلة تراجمه الكاردينال فارنيز Farnese ، وباولوجيوف Paolo Giovi وغيرهم والواقع أنه كان مؤهلاً تماماً لمثل هذا العمل لأنه تجول كثيراً وتحدث إلى كثير من الفنانين المعاصرين وسجل عديداً من ملحوظاته . واستمر على هذا النحو يدرس الصور والتماثيل والمنشآت العظيمة التى تميزت بروعة جمالها ، مع استعداد لاستيعاب كل شئ . ويرجع إلى المعلومات الكثيرة التى جمعها السر فيما اتصفت به أعماله من سحر وضعف فى نفس الوقت . وقد صدر كتابه لأول مرة سنة ١٥٥٠ م ولكنه استمر بعد ذلك يتنقل ويقابل كثيرين ، مماتطلب منه إصدار كتابه مرة أخرى فى صورة مفخمة سنة ١٥٦٨ م .

ويعتبر كتابه هذا أول تاريخ هام وشامل للفن ، وهو موضوع لايوجد لدينا أى سجل عنه فى تاريخ الكتابة التاريخيه . هذا إلى أن فاسارى على دراية بأساليب الفن وعالج موضوعاته علاج المتمكن ، ومن وجهة نظر المتمرن . ثم إن ما كتبه جاء لا نظير له فى روعته وجاذبيته ، إذ كانت له قدرة نادرة على جعل شخصياته تنبض بالحياة . أما طريقته فاتصفت بالعدل وعدم التحيز حتى فى المواضع الكفيلة بأن تغرى الكاتب على التحيز والتعصب . ولا غنى إطلاقاً عن دراسة تاريخ الفن فى عصر النهضه عن ذلك القدر الضخم من المعلومات التى جمعها فاسارى . ومع ذلك فإنه لم يكن حريصاً فى غربلته للمصادر والأخذ منها ، ويتبين ذلك من تقبله لقدر كبير من الشائعات والحقائق المشكوك فى صحتها . كذلك يؤخذ عليه عدم الدقة فى تحديد التواريخ ويحوى كتابه كثيراً من المتناقضات ، اذ كان يأتى أحياناً بمعلومات مستفيضة عن فنانين تافهين فى الوقت الذى لم يعط البعض الآخر من المبرزين حقهم من المعالجة . وعلى الرغم من كل هذه العيوب ، فإن كتابه يعتبر من أشهر التراجم التى أتمتها المدرسة الإنسانية لا فى إيطاليا فحسب بل فى أوروبا كلها ، وهو يمثل بحق بداية مرحلة رئيسية فى تاريخ الفن . أما أبرز التراجم لنفس هذه المدرسة الإنسانية فهو ما كتبه بنيفونتو شيللنى Benovenuto cellini (١٥٠٠م - ١٥٧١ م) ويعتبر كتابه صورة رائعة لشخصيته وعصره

الكتابة التاريخية للمدرسة الإنسانية فى خارج إيطاليا

صادفت الحركة الإنسانية خارج إيطاليا قبولاً من كثيرين ، شايعوها وناصروها ، ومن هؤلاء غير قليل ظهر فى ميدان التاريخ . ولقد سار المؤرخين الإنسانيون على وجه العموم فى مجال الكتابة التاريخيه على نفس الأسس والمبادئ التى عرفت فى إيطاليا مع شئ من التنويع والتغير الذى اقتضته الظروف الثقافيه المحلية المحيطة .

ولما كانت الحركة الإنسانية جاءت متأخرة نوعاً فى مناطق ما وراء جبال الإلب ، فإن هذه الحركة عاقت من تقدمها الصراعات الدينية التى صاحب حركة الإصلاح الدينى ، ومن ثم فإنها أعطت شيئاً من الاهتمام للجدل الدينى الذى لم يكن له وجود فى كتابة التاريخ بإيطاليا فى القرن الخامس عشر . هذا إلى أن ثمة تغير طرأ على تذوق الأدب الكلاسيكى ، فى غمرة الحماسة للكتابة البلاغية المنمقة والحرص على الأسلوب اللاذع الساخر صار تاكيتوس أقرب من ليفى إلى العقول والقلوب ، بل لقد صار تاكيتوس بمثابة النموذج الذى تميز به كتاب الحركة الإنسانية فى شمال أوربا فى القرن السادس عشر كذلك أدى الشعور بالروح القومية التى جاءت نتيجة لحركة الإصلاح الدينى ولحركة الاستعمار الأوربى ولنشأة الرأسمالية إلى صبغ الكتابة التاريخيه للمدرسة الإنسانيه فى شمال أوربا صبغة وطنية قومية . فى ظل الأنظمة السياسية الجديدة نشأت الصراعات الحزبية ، وبالتالى فإن الكتابة التاريخيه الإنسانيه أخذت تبدو بين طياتها الملامح السياسية التى نلحظها فى الكتابة الحديثة للتاريخ .

وفى سويسرا كان أقيم ما أنتجته كتابات المدرسة الإنسانية هو كتاب تاريخ دير سانت جال St Gall وكتاباً عن المقاطعات السويسرية ذات الغابات التى وصفها يوافيم فون وات Joachim von Watt (١٤٨٤ م — ١٥٥١ م) المشهور بفاديانوس Vadianus . وكثيراً ما نظر إلى فاديانوس على أنه يفوق بلوندوس كمؤرخ ، لأنه لم يمتاز عليه فى قدرته على نقد النصوص فحسب ، ولكنه تقدم عليه خطوة واقترب بشكل أكبر من فون رانكه عندما أظهر تقدماً أولياً فى النقد الداخلى أى فى مجال فحص ميول كاتبى الوثائق واتجاهاتهم . والواقع أنه كان ماهراً بصفة خاصة فى تتبعه للأساطير الدينية وتفنيدها لرفضها .

وكذلك تمكن فاديانوس من أن يجمع بين المعرفة الفريدة والأسلوب القومى الواضح وأن يبرز العوامل الرئيسية فى التطور التاريخى . ثم إنه تميز بدرجه عالية من القدرة على إصدار أحكام مبتكرة ، وكانت أفكاره وآراؤه خالية من الشطط ومعقولة إلى حد كبير . ومع ذلك فإنه يقف فى الصف الأول بين المؤرخين الإنسانيين لقدرته على تتبع تطور النظم الدينيه والسياسية وإبرازه فكرة التطور الاجتماعى . يضاف إلى ذلك أنه تبنى نظرية السببية التاريخيه أى تعليل أحداث التاريخ وذكر مسببات لها ، بصورة تنم عن سعة الأفق ، مع رفض الاتجاه التقليدى الذى يعزى التطورات التاريخيه إلى الشخصيات أو الأحداث التافهة دون غيرها : ويرى فيوتر أن ما جاء به فاديانوس يمثل أقصى ما بلغه إنتاج المدرسة الإنسانية من سعة الأفق وذلك لما تميز به ذلك الكاتب من ذكاء وحيدة . وما اتصفت به كتبه نفسها من ضخامة فى مجال موضوعاتها وتنوع اهتماماتها .

ومع ذلك فقد تعرض كتاب فاديانوس للنسيان فترة أطول أكثر مما تعرض له كتاب جويكارديني عن « تاريخ فلورنسا » ، حيث إن الكتاب الأول لم ينشر حتى الربع الثالث من القرن التاسع عشر .

أما فى ألمانيا فقد بدأت قائمة المؤرخين الإنسانيين البارزين باسم ألبرت كرانتز Albert Krantz (١٤٥٠م — ١٥١٧م) الذى اتبع نفس منهج إنياس سلفيوس فى تطبيق المناهج التاريخيه والأدبية للمدرسة الإنسانيه على دراسة الشعوب البدائية التى عالج تاريخها فى كتبه ، مثل السكسون والونديين الأوائل . ويفوق كرانتز فى الشهرة المؤرخ جوهانز تورير Johamnes Turmair المعروف بافنتيوس Aventius (١٤٧٧ ١٥٣٤م) صاحب كتاب «حوليات دوقات بافاريا» . وفى هذا الكتاب كما فى كتاب آخر كتبه تورمير عن تاريخ ألمانيا المبكر نجده يحاول الجمع بين القواعد الأدبية التى حرص عليها برونى والعلم الغزير الذى تميز به بلوندوس ، وإن كان لم يوفق فى الوصول إلى مستوى أى منها . هذا إلى أن تعقبه الشديد للمذهب البروتستانتى منعه من معالجة موضوع الكنيسة الكاثوليكية أو البابوات وغير ذلك من الشئون المعاصرة بطريقة موضوعية ، فضلا عن تحمسه لقوميته الألمانية وتعصبه لبافاريا والبافاريين على وجه الخصوص . وعلى الرغم من أنه اجتهد اجتهادا غير عادى فى جمع مصادره فإنه لم يكن ناقدا بدرجه بارزة عند استخدامه لها ، بالإضافة إلى أن أعماله شابها نوع من عدم التناسب والتناسق ، فتجده يفسح مجالاً كبيراً فى كتاباته للأباطرة الرومان كما لو كان يكتب تاريخاً عالميا . أما المزايا الرئيسية لكتابه فهى أنه وضع له مقدمه عبارة عن وصف للبلاد والشعوب التى تناولها فضلاً عن قدرته النادرة على وصف سلوك وعادات الشعوب التى قام بدراستها يضاف إلى هذا كله أسلوبه الذى امتاز بالوضوح وتعبيراته التى اتصفت بالقوة .

وبعد ذلك يأتى اولبرخ هوتن Ulrich von Hutten (١٤٨٨ — ١٥٢٣م) الذى ترجع شهرته الواسعة إلى حملته القوية ضد التعصب الدينى أكثر مما ترجع إلى كتاباته فى مجال التاريخ . والواقع أنه قام بعمل هام جدًا يعتبر إضافة قيمة للمعرفة التاريخية ، هو إحياؤه للمنشور الذى أصدره الإمبراطور هنرى الرابع ضد البابا جريجورى السابع ويعتبر هذا المنشور فى حد ذاته سلاحاً قوياً استخدمه البردتستانت ضد البابوية وروما ، فضلا عن كونه إضافة هامة للمعرفة التاريخية .

أما بيتوس ريناتوس Beatus Rhenenaus (١٤٨٦ — ١٥٤٧م) فهو الوحيد الذى يعتبر أبرز ممثلى الاتجاه الناقد الذى عرف به بلوندوس والميل نحو المعرفة الغزيرة . وذلك فى مدرسة المؤرخين الإنسانيين فى ألمانيا . كان ريناتوس صديقاً وتلميذاً لإيرازموس وفى كتابه « أحوال ألمانيا » تولى فحص مصادر التاريخ الألمانى فى دوره الأول بنفس الطريقة العلمية الموضوعية واللغوية التى فحص بها إيرازموس السجلات والوثائق الكنسية . ويعتبر ريناتوس من أكثر الباحثين فى التاريخ جهدا وصبراً وبلغت على يديه الكتابة التاريخية على عصر الحركة الإنسانية فى ألمانيا أعلى درجاتها .وكان يرجع دائماً إلى المصادر الأصلية ويفحصها بدقة كبيرة كما كان يتقل منها فى أمانه بالغة . كذلك كان متشدداً فى رفضه للأساطير الكلاسيكية قدر تشدده فى نبذ الأساطير الدينية ، هذابالإضافة إلى ما امتاز به من حب حقيق للبحث التاريخى وحكم سليم عندتقييمه لما توصل إليه فى بحثه عن نتائج . وعلى الرغم من مشاعره القومية فإنه لم يدع شعوره الوطنى يؤثر على أحكامه . وربما يتمثل عيبه الرئيسى فى عجزه عن صهر مادته كلها فى سرد كامل محكم ، كما كان تاريخه عن الألمان غير مترابط ووصل به حتى الأباطرة الساكسون فقط ، فى حين أنه كان متكاملاً إلى حد معقول فيما يتعلق بسيطرة الرومان وغزواتهم .

ومن بين عديد من كتاب القانون الدولى والشرعيه الذين لهم مكانتهم فى كتابات المدرسة الإنسانية الألمانيه يبرز اسم صموئيل بوفيندوروف Samuel Pufendorf (١٦٣٢ — ١٦٩٤م) بوصفه رائد هؤلاء الكتاب فى ميدان التاريخ ، ومن جملة كتبه كتاب « تاريخ السويد » وكتاب « تاريخ شارل جوستاف العاشر » وكتاب « تاريخ فردريك وليم الناخب الأعظم » ومقدمة « لتاريخ القوى والدول التى تزعمت أوروبا » . وامتازت كتابة بوفيندورف بطابعها الرفيع وأسلوبها المميز الواضح الراق . ولكن ربما كان هذا للأسف هو خير ما جاء فى كتاباته التاريخية . ولما كان يرتب مادته فى أغلب الأحيان طبقاً لتاريخ الوثائق التى استخدمها وطبيعة تلك الوثائق فإنه أخفق فى إعطائنا سرداً تاريخياً واضحاً خالياً من التناقض . هذا إلى أنه حرص إلى أبعد حد على أن يفسر التاريخ فى ضوء سير الأشخاص والتراجم ، كما

كانت أعمالهم — من وجهة نظرة أيضا — هى التى تحدد مجرى الأحداث التاريخيه . كذلك لم يفسر الأحداث التاريخيه فى ضوء الحركات التاريخيه العامة التى صاحبته ولم يوضح العلاقة بين السياسة الداخلية والشئون الخارجية . ثم إنه يبدو فى صورة المؤرخ الرسمى ، حيث إنه أخفى كثيراً من الحقائق والمعلومات . وكان يكتب أساساً بهدف تعريف من هم خارج ألمانيا وتعليمهم ، ومن ثم فقد صوَّر ألمانيا فى صورة إمبراطورية موحدة ومماسكة ، دون أن يذكر سوى القليل عن التناقض السياسى بين مختلف الولايات الألمانيه ، وما اكتنف شئون ألمانيا الداخلية من تعقيد وتداخل . لذلك فإن فيوتر أصاب إلى حد بعيد عندما قال عنه « إن بوفيندورف كتب للإمبراطورية أكثر مما كتب عنها » .

وعالج بوجسلاوى فيليب دى شمنتز Bogislaw philippe de Chemnitz (١٦٠٥ — ١٦٧٨ م) مملكة السويد وعلاقاتها الخارجية وبصفة خاصة حرب الثلاثين عاما فى ألمانيا وذلك على غرار ماكتبه جويكارديبى عن سياسة فلورنسا وعلاقاتها الخارجية وماكتبه بوفيندورف عن براند نبرج والإمبراطورية الألمانيه . وقد رجع بوفيندورف إلى هذا الكتاب عندما تعرض لشئون السويد فى كتابته .

أما فى هولندا فإن أبرز شخصية بين مؤرخى المدرسة الإنسانية كان هوجو جروتيوس Hugo Grotius (١٥٨٣ — ١٦٤٥ م) . الذى اشتهر بأنه أب القانون الدولى والذى كتب عدة مؤلفات تاريخية عن القوط والوندال واللمبارديين فضلا عن تاريخ بلجيكا وهولندا . وقد حاكى فى أسلوبه تاكيتوس . ولذلك جاءت كتابته مليئة بالحشو المطول والمعقد ، وإن فاق كثيرين غيره ومن بينهم تاكيتوس — من حيث مقدرته على استخدام علم النفس فى تحليل المواقف التاريخية . وبدت هذه المقدرة بصفة خاصة فى استقصائه للأسباب الحقيقية الكامنه للحروب بين أسبانيا وهولندا . وكان يرفض دائما أن يقرن تفسير التاريخ بالأشخاص والأحداث ، وهو التفسير الذى وجده بوفيندورف مناسباً جداً ، كذلك اتخذ جروتيوس موقفاً غير متعصب بوجه عام تجاه المشكلات الدينية واتفق مع ثاونس فى أن الحروب الدينية تمثل خطرا كبيراً على النظام العام ورفاهية الشعوب عموماً أما فى معالجته للسياسة الداخلية فإن كتابة جروتيوس تدل على أنه كان ارستقراطيا اكثر منه جمهوريا متحمساً

وثمة مؤرخ أكثر مقدرة هو بطرس كورنيلسن هوفت Cornelissen Hooft (١٥٨١ م - ١٦٤٧) الذى فاق جروتيوس فى إعجابه بتاكيتوس حيث قام بترجمة أعماله إلى اللغة الهولندية ، وسار على نهجه فى الطريقة والأسلوب . ولكنه فاق تاكتيوس فى نهجه العلمى ، إذ دأب على فحص المصادر التاريخية بكل دقة ، واتصفت كتاباته بالبعد عن التحيز فى أحكامها . وقد تناولت كتاباته بصفة اساسية التاريخ الفرنسى والهولندى ، كما تضمنت تاريخاً لهنرى الرابع وأسرة ميدتش بالإضافة إلى تاريخ هولندا فى النصف الثانى

من القرن السادس عشر . أما المؤرخ يوحنا كلوفر Johannes Clüver الذى ألف كتاباً باسم مجمل تاريخ العالم (١٦٣٧ م) فإن كتابه يعتبر من الكتب الموثوق بها عن تاريخ العالم

فإذا ما انتقلنا إلى إنجلترا وجدنا كتابة التاريخ فى عصر الحركة الإنسانيه مرتبطة أرتباطا وثيقاً بأصول الحركة الأدبيه فى إيطاليا . وأول مثال لهذا النوع من أعلام الكتابة التاريخيه فى إنجلترا هو بوليدور فيرجيل (١٤٧٠ - ١٥٣٥م) الذى كتب كتاباً عن تاريخ إنجلترا يتصف بإحكام الأسلوب وغزارة المادة . وكان فيرجيل من رجال الكنيسة الإيطاليين وأحد أصدقاء أرازموس ثم اتخذ إنجلترا موطناً له . ولم يكن فى عصره فى الجزر البريطانية من يفوقه فى اتساع العلم والمعرفة حتى أيام كامدن أى بعد عهد فيرجل بحوالى قرن من الزمان . هذا إلى أنه أظهر فى كل أجزاء تاريخه قدرة عظيمة على النقد ، ولم يقف عند حد شن هجوم عنيف على الأساطير التى امتلأت بها كتابات جوفرى المنسوب إلى موعادث عن أصل الشعب البريطانى ، وإنما استطاع أن يقدم خير ما كتب عن حكم هنرى السابع .

أما سير توماس مور (١٤٧٨ م — ١٥٣٥ م) فهو أول مؤرخ بارز من أهل إنجلترا ينتمى إلى المدرسة الإنسانيه ، وظهر أسلوبه المصقول فى كتابه الموجز «تاريخ الملك ريتشارد الثالث» . وقد كتب مور كتابة هذا مرتين ، إحداهما باللغة الإنجليزية والأخرى باللاتينة ووصل فى كليتهما إلى أعلى مستوى فى فن الكتابه . وتتمتع النسخة الإنجليزية من كتابه بأهمية خاصة حيث إنها تمثل أول كتابة بلغة محلية طبقت أساليب المدرسة الإنسانية فى صورتها النقية الخالصة . ومع ذلك فإن الصورة الزاهية التى رسمها مور بشخصية ريتشارد الثالث لم تكن دقيقة تماماً وكان يشوبها بعض من خرافات وأساطير ذلك العصر . وبرغم ذلك فقد اعتمد عليها شكسبير مما جعلها مصدر الانطباع العام عن ريتشارد الثالث فى نظر الناس منذ أيام مور حتى عصرنا هذا .

أما أصول الدراسة العلمية لتراث الأقدمين فى انجلتره فقد أرسى اساسها جون ستو John Stow (١٥٢٥ م — ١٦٠٥ م) وحنا ليلاند John Leland (١٥٠٦ — ١٥٥٢ م) وقد تجولا كثيراً فى طول البلاد وعرضها بحثاً عن المادة التى تفيد فى كتابة التاريخ والآثار لكل من إقليمى إنجلترا وويلز . ومع ذلك فإن الكتابات التى بنيت على هذه الرحلات لم تنشر إلا فى مطلع القرن الثامن عشر .

أما سير والتر رالى وهو من رجال البلاط الإنجليزى وأحد دعاة الاستعمار المتصفين بالشجاعة والجرأة (١٥٥٢ — ١٦١٨ م) فقد ألف كتاباً بعنوان «تاريخ العالم» بينما كان مسجوناً فى برج لندن . ويجمع هذا الكتاب بين ما درج عليه كتاب المدرسة الإنسانية من حب لتراث القدامى وما هو معروف عن البيورتان من ميل للإنجيل والحرية . ومع أن رالى كان ملماً

بأعمال عطاء المؤرخين القدامى إلا أنه كان شديد التأثر بيلوتارك على وجه الخصوص . على أن هذا الكتاب برغم مايمتاز به من تشويق وأسلوب رفيع ، فإنه لم يضف شيئاً لمعلوماتنا ولم يأت بجديد فيما يتعلق بتاريخ الماضى . وقد خصصت الفصول الأخيرة منه بصفة رئيسية للتاريخ الأنجليزى .

ويمثل مدرسة بلوندوس الناقدة ذات المعرفة الواسعة من المؤرخين الإنجليز مؤرخ البلاط وليام كامدن . William Camden (١٥٥١م – ١٩٢٣ م) الذى كان شديد الإعجاب بيوليبوس . ويعتمد كتابه «بريطانيا» من الكتيبات الرائعة التى تناولت تاريخ الجزر البريطانية وجغرافيتها وآثارها ورددكامدن فى سخرية لطيفة الأساطير التى أحاطت بأصل البريطانيين . وأوضح فى كتابه حوليات التاريخ الإنجليزى الأيرلندى فى عهد الملكة إليزابيث «مثل ما أوضح معاصره الفرنسى ثاونس – أن التاريخ السياسي للقرن السادس عشر لا يمكن فصله عن المسائل الدينية . ولكنه كان أقل حياداً من بلوندوس فى كتاباته التاريخية حيث إنه كان ملكيًا محافظاً ومن أنصار الكنيسة الرسمية فى انجلتره .

أما العلامة الفيلسوف فرانسس باكون (١٥٦١ – ١٦٢٦ م) فيعتبر مريداً فى إنجلترا لكل من ميكافللي وجويكارديني . والواقع أن هناك تشابهاً كبيراً بينه وبين أولئك الفلورنسيين السابقين له فى الأسلوب ووجهات النظر . وجاء مؤلفه التاريخى الرسمى «تاريخ عهد الملك هنرى السابع» كتاباً رافعاً فى خطته وتعبيره وروحه الفلسفية ، مع أن أحكامه القاسية كانت موضع نقد شديد من جانب النقاد الذين جاءوا بعده . ولقد أظهر باكون احتراماً يثير الدهشة للكنيسة ، مع ما كان عليه من نزعة علمية . ولكن باكون كان رجلاً إنجليزيًا مهذباً قبل أن يكون فيلسوفاً مما دفعه إلى احترام الكنيسة الإنجليزية . أما نظرته إلى التاريخ فهى أكثر أهمية من أى إنتاج له فى مجال الكتابة التاريخية . وتبدو هنا النظرة وذلك الإدراك الكامل للمفهوم التاريخى حين يؤكد «أننا نحن القدماء» «وستعرف أيامنا هذه بالعصور القديمة ذلك عندما يشيخ العالم على مر السنين . إن عصرنا نحن أكثر قدماً من الزمن الذى أحصيناه وراءنا وذلك إذا بدأنا بعصرنا هذا وقسنا عليه المستقبل» . [1] وحين يؤكد باكون هذه الآراء يتضح كيف كان ينظر إلى التاريخ نظرة شاملة واسعة . وعلى نفس المستوى من الأصالة والأهمية كانت دعوة باكون الفلسفية لكتابة تاريخ أوربا الثقافى والفكرى . [2] وكان أول من نهض بهذا العمل أكثر النقاد قسوة على باكون وهو أستاذ العلوم الأمريكى حنا وليم درابر John William Draper

---

يؤكد باسكال وجهة النظر هذه بصورة قاطعة . انظر بريزرند سميث (المؤلف) :

(2) Preserved Smith «A History of Modern Culture (Holt 1930) 1,255.

وفى إنتاج سيلدن وكلارندون وبورنت امتزجت الكتابة التاريخية فى عصر الحركة الإنسانية لكتابة التاريخ الحديث السياسى والحزبى . ذلك أن حنا سيلدن (١٥٨٤ – ١٦٤٥ م) كتب مقالات مستقلة عن القانون ونظام الحكم فى إنجلترا بما فى ذلك نظم الحكم التى سبقت الفتح النورمانى ، وتاريخ الألقاب وضرائب العشور فى إنجلترا . ولقد سجنه الملك جيمس الأول فترة من الزمن لمعاداته النظام الملكى ولتمجيده إطلاق الحريات .

وكانت الحرب الأهلية التى وقعت فى الستة الأخيرة من حياة سيلدن خير حافز له على كتابة التاريخ السياسى وتاريخ الأحزاب فى إنجلترا . أما كتاب تاريخ الثورة والحروب الأهلية فى انجلترا الذى وصفه إيرل كلارندون (إدوارد هايد) (١٦٠٩ – ١٦٧٤ م) فيشبه فى نظامه العام إلى حد كبير «المذكرات» الفرنسية . وعلى الرغم من أن كلارندون كان سطحيًّا للغاية فى تحليله للأسباب الرئيسية – الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية – للحرب الأهلية الأولى فى انجلترا ، إلا أنه لا يوجد مؤرخ سبقه سواء من الإنسانيين أو القدامى استطاع أن يفوقه فى قدرته على وصف وتحليل الشخصيات . وعلى الرغم من أنه كان يعطف على الملكية لأنه من أنصارها ، إلا لم يجحف هاميدون وكرومويل وغيرهما من قادة الثورة حقهم «فأعطى للشيطان حقه» . وقد فسر الحرب الأهلية على أنها منبع القانون الدستورى لكن نظريته فيما يتعلق بالسببية التاريخية كانت من النوع الشخصى الأخلاقى التى وإن ناسبت فنه فى تصوير الشخصيات فإنها لم تكن مناسبة للموضوع .

ثم يأتى بعد ذلك الأسقف جلبرت بيرنت Gilbert Burnet (١٦٤٣ – ١٧١٥ م) الذى كان أول مؤرخ عالج الدسائس الحزبية والمناقشات البرلمانية ، وهما موضوعان قلما عرض لهما مؤرخ سابق . وقد عالج بيرنت هذين الموضوعين فى كتابيه «حركة الإصلاح الكنسى فى انجلترا» و «التاريخ المعاصر» ولذلك يعتبر بيرنت أحد رواد التاريخ السياسى الحديث مثلما هو أحد تلاميذ المدرسة الإنسانية . وعلى الرغم من أن كتابه عن تاريخ حركة الإصلاح الكنسى فى انجلترا يعبر عن تحيز واضح للبروتستانت ، كما أنه غير دقيق فى كثير من تفاصيله ، إلا أنه عالج الموضوع على أساس دراسة الأسباب والنتائج ، كما أنه فاق كلارندون فى فهم الإطار العام – الفكرى والاجتماعى – للتطورات الدينية . أما كتابه «التاريخ المعاصر» فيحوى عرضاً سريعاً ممتازاً للمسرح السياسى السريع التبدل والتغير فضلاً عن الدسائس الحزبية والنميمة داخل البلاط وهو أيضاً دفاع رائع متحمس عن حزب الأحرار وقد احتوى هذا الكتاب على قدر كبير من التاريخ الثقافى . ويلاحظ فيه أن الكاتب يؤمن بتدخل القوى الإلهية فى صنع أحداث التاريخ . وعلى الرغم من أن بيرنت قد قبل منصب أسقف فى الكنيسة الانجليزية فإنه كان دائما منصفا لفئة المنشقين عن تلك الكنيسة ، كما كان يكتب بأسلوب بالغ الوضوح والسلاسة .

أما أبرز كتاب المدرسة الإنسانية فى اسكتلندا فهو العلامة جورج بوخنان Buchanan (١٥٠٦ - ١٥٨٢ م) الذى كان شاعراً بارزاً ومؤرخاً وفيلسوفاً سياسياً ومصلحاً دينياً وزعيماً حزبياً . ولا يدانيه فى نقاوة أسلوبه اللاتينى وقوة ووضوح سرده سوى قليل من أحسن الكتاب الإيطاليين . والكتاب الرئيسى الذى كتبه بوخنان هو كتاب «تاريخ اسكتلندا» (من أقدم الأزمنة حتى ١٥٠٨ م) تميز بروعة الأسلوب وإن كانت تشوبه نغمة التحزب وعدم دقة الرد . ثم انه عند علاجه للدور المبكر من تاريخ اسكتلندا اتخذ موقفاً شديد العداء لانجلترا واضح التعصب لاسكتلندا . وعلى الرغم من أنه استطاع تحليل المعجزات والأساطير إلا أنه لم يكن متحمساً لنبذها . ومع أن الكتاب عظيم فى معالجته للفترة المعاصرة ، إلا أنه حتى فى ذلك الدور كان منحازاً إلى جانب اسكتلندا وكنيستها المشيخية . كذلك لم يتحرج فى إعطاء صورة لنوكس Knox والحركة الإصلاح الدينى فى اسكتلندا . ولقد كان بوخنان معاديا للعقلانيين من المفكرين الأحرار وأيضاً للملكيين ، كما كان من ألد خصوم النظام الكوبرنيقى .

أما فى فرنسا فإن أثمن ما أنتجته المدرسة الإنسانية هو ما كتبه العلامة الفرنسى جوزيف جستوس سكاليجر Joseph Justus Scalger (١٥٤٠ - ١٦٠٩ م) صاحب كتاب «تصحيح التقويم التاريخى» Restoration of chronology Emendatione Temporum وجاء هذا الكتاب محاولة جريئة لتقويم التاريخ على أسس علمية ، وذلك بمراجعة التأريخ «المقدس» فى ضوء شواهد مستقاة من تواريخ الأمم الماضية الأجنبية الوثنية . وقد احتوى الكتاب على عرض لكل التقاويم المعروفة وطرق حساب الزمن . أما كتاب «سجل التواريخ» فهو عمل علمى رائع يشمل كتاب ايوزيبوس المفقود بعد أن استمده من جيروم ومن كتاب يونانى ويعتبر هذا العمل أهم تقويم يمكن الاعتماد عليه للتاريخ القديم وذلك حتى ظهرت أبحاث دوم كلمنت وأبحاث المتخصصين المحدثين .

وعاصر سكاليجر القانونى الضليع جنا بودين (١٥٣٠ - ١٥٩٦ م) صاحب كتاب «طريقة لفهم التاريخ بسهولة» (١٥٦٦ م) وهو يمدنا بأول بحث مطول عن منهج التاريخ ، معتمدا على شرح وتفسير ما جاءت به المصادر من ارتكازه على نقدها . وقد اهتم بودين كثيراً بإيضاح تأثير العوامل الجغرافية على تطور التاريخ . وبهذا فتح طريقاً أمام مونتسكييه وريتر . كذلك فإن كتابه - وليس كتاب ليبروخ - يسجل شبعاً على الفصل الأول من كتاب باكل «تاريخ الحضارة فى انجلترا» . أما عن الطريقة التى عالج بها مؤرخو الحركة الانسانية تاريخ العالم ، فتبدو واضحة فى كتاب «تاريخ العالم» (١٥٧٧ م) الذى كتبه فرانسودى بلفورست .

وعلى الرغم من أن فكرة بودين الخاصة بتأثير العوامل الجغرافية قامت على أساس عام من التنجيم ، فإن مغزاها كان كبيراً وهاماً . ذلك أنه أظهر بوضوح طبيعة فلسفة التاريخ وقسم

تطور الإنسان تاريخياً إلى ثلاث مراحل : مرحلة الشعوب الشرقية ، مرحلة شعوب البحر المتوسط ، ومرحلة شعوب أوروبا الشمالية . ثم إنه عرض فى البداية نظرية أوليه للتقدم كانت متبعة فى الكتابة التاريخية للمسيحية ومؤداها التشكك فى الاعتقاد السائد وقتذاك والخاص بالانحدار من عصر ذهبي أو الابتعاد عن الجنة . ففى رأيه أن الإنسان قد أحرز الكثير من التقدم المطرد منذ بدأت الخليقة على الأرض .

وفى النصف الأخير من القرن السادس عشر تحولت الكتابة التاريخية عند الإنسانيين فى فرنسا إلى دراسة السياسة الفرنسية والحروب الدينية ويتضح هذا الأمر فى كتاب « تاريخ العالم » الذى ألفه تيودور اجريبادى اوبانى Theodore Agrippa d'Aubignè (١٥٥٢ - ١٦٣٠ م) الذى كان بروتستانتيا ، ولذا أمر برلمان باريس بحرق نسخ من كتابه القيم .

وفى أعمال المؤرخ جاك أوجست دى ثو المعروف عادة بثاونس (١٥٥٥ - ١٦١٧ م) نجد استكمالاً للغرض التاريخى الخاص بهذه الفترة . ذلك أن ثاونس يعتبر على الأرجح أبرز مؤرخ فرنسى أسهم فى الكتابة التاريخية المنظمة خلال الحركة الإنسانية . وكتابه « التاريخ المعاصر » قصد به أن يكون استكمالاً لكتاب بنفس العنوان لأحد مؤرخى الحركة الإنسانية فى إيطاليا وهو بولس جوفيوس (١٤٨٣ - ١٥٥٢ م) . ويصف هذا الكتاب الحروب الأهلية والدينية فى فرنسا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر (١٥٤٦ م - ١٦٠٧ م) وصفاً أملته روح كاثوليكى فرنسى مستنير معتدل . ولقد أدخل ثاونس على الكتابة التاريخية الاتجاهات العظيمة التى أتى بها فى عالم السياسة مولاه وصديقه الملك هنرى الرابع . وكما هو متوقع من مشرع اشترك فى صياغة مرسوم نانت [1] لم يكن ثاونس منصفاً لبيت جويز ، أعداء البروتستانت الألداء فى فرنسا ، وكذلك للحزب الكاثوليكى المتطرف . ولكن منهجه كان يعبر عن روح سامية نبيلة من أجل التسامح الدينى فى سبيل مصالح فرنسا الكبرى . ذلك أنه حث الملوك الفرنسيين على التسامح والسلام كذلك فإن أعماله تكشف عن قدرة ذهنية عظيمة وعن قدرة على التعبير . وكان من الممكن أن يتساوى ثاونس مع ميكافللى وجويكاردينى لو أنه لم يدافع عن نظرية التوجيه الإلهى للتاريخ ، ولو أنه امتلك الخيال التاريخى البناء الذى يمكنه من تنظيم العمل التاريخى فى سرد محكم . ومع ذلك يمكن أن يقال إنه قد فاقهما فى ناحية معينة وهى إيضاح أهمية بل ضرورة مناقشة الأمور الدينية للتوصل إلى فهم كامل للتطورات السياسية والدستورية . وكان أسلوب ثاونس على درجة كبيرة من الوضوح ، ولكن يعاب عليه كثرة التصنع والحرص على تقليد النماذج الكلاسيكية . .

---

(١) صدر هذا المرسوم سنة ١٥٩٨ وهو يسمح لغير الكاثوليك من الفرنسيين بالحرية المذهبية الدينية وفى سنة ١٦٨٥ أبطله لويس الرابع عشر وأمر بحرق كنائس البروتستانت (المترجم) .

أما ما أسهم به اسحق كوسبون Isaac Casaubon المعاصر لثاونس ، فسوف نتناوله فى مجال آخر . والواقع أن خلفاء ثاونس فى فرنسا كانوا أقل منه كثيراً فى القدرة الدقة ، وأولهم هو انريكو كاتيرنيو دافيلا Enrico Caterino Davila (١٥٧٦ – ١٦٣١ م) الذى كان جنديًّا شارك فى الحروب الدينية الفرنسية ، ثم هاجر إلى إيطاليا وكتب باللغة اللاتينية تاريخاً معروفاً للحرب الأهلية فى فرنسا . وقد كان فهمه سطحيًّا لحركة الهجنوت وهم بروتستانت فرنسا فى ذلك العصر . ويليه فى الأهمية فرانسوا ايود الشهير بميزراى Mezeray (١٦١٠ – ١٦٨٣ م) صاحب كتاب «تاريخ البرجوازيين فى فرنسا» سنة ١٦١٠ ولم يكن دقيقاً فى تفاصيله التى لا يعتمد عليها ، ويعكس عواطف الطبقة البرجوازية ومشاعرها الطيبة نحو الملكية القوية فى فرنسا ، ولذا فإنه يمجد الملوك الفرنسيين وخاصة الأقوياء منهم . وجاء هذا الكتاب بلغة فرنسية مصقولة .

أما التحفة الأدبية بالنسبة للكتابة التاريخية للمدرسة الإنسانية الفرنسية فهى مذكرات دوق سان سيمون (١٦٧٥ – ١٧٥٥ م) التى تتناول فرنسا فى عهد البوربون . والواقع ان سان سيمون كان لا يتمتع بصفة العلامة المتعمق الدقيق أو المؤرخ الفلسفى ، فهو لم يلتزم الدقة فيما يتعلق بالتفاصيل ولم تكن لديه القدرة على تقدير القيمة الحقيقية للمادة التى توافرت له ، كما أنه كان متحيزاً لطبقة النبلاء التى ينتمى هو نفسه إليها . يضاف إلى ذلك قلة اهتمامه بالسياسة الخارجية وشغفه بالدسائس والنميمة ، ولكنه مع ذلك كله كان عظيما فى تصوير الشخصيات والمناظر المسرحية عن دوائر البلاط وشخصياته ، مما جعل كتابه من أكثر الكتابات التاريخية متعة . ويقول عنه جورج بيبودى جوخ «بأنه له تأثيراً مغناطيسيا» وينوه «بمركز المؤلف فى البلاط وعلاقاته الوثيقة بشخصياته الرئيسية وقدرته التى لا تبارى على اعطاء تفاصيل كاملة وكذلك قدرته الغير عادية على الملاحظة وتصويره الرائع للشخصيات وأسلوبه الواضح» . هذا وان كان رواد المدرسة الناقدة أمثال شيرويل وبواز ليزل Boislisle لم يغفروا لسان سيمون عدم توخيه الدقة فى كتاباته .

أما فى اسبانيا فقد كان للمدرسة الإنسانية ثلاثة كتاب على جانب من الأهمية هم دايجو هورتادودى مىندوزا Diego Hurtado de Mendoza (١٥٠٣ – ١٥٧٥ م) ، وجيرديمو دى زوريتا (١٥١٢ – ١٥٨٠ م) وجوان دى مارينا (١٥٣٥ – ١٥٧٥ م) . كان ميندوزا كاتباً ذا خبرة إدارية وعسكرية كبيرة ، صار فى يوم ما من الشخصيات المقربة لفيليب الثانى ولكنه طرد بعد ذلك من البلاط . وأدى هذا الحدث إلى تزويده بالأساس السيكلوجى للاتجاه الناقد وهو الاتجاه الذى ظهر فى كتاب تاريخ حرب غرناطة ، الذى يعتبر سرداً قائماً بذاته ممتازاً يتضح منه أن المؤلف كان متمكناً بدرجة كبيرة من مادته وكان صريحاً متزناً ومتعمقا فى أحكامه على نحو ما كان عليه جويكاردينى ، باكون . هذا

وان أدى تعطشه مثل بقية رجال المدرسة الإنسانية إلى تقليد القدماء إلى عدم وضوح كتاباته والانتقاص من قيمتها . وكان هدفه دائماً أن يقلد سالوست ، وتاكيتوس . ولكنه لم يفعل ذلك بمهارة ولم يحقق نجاحاً فيا ذهب إليه ، لأنه مزج ملاحظاته الدقيقة بعبارات وتركيبات قديمة مستمدة من تاكيتوس . ثم إنه لم يكتف بهذا بل ذهب إلى حد تناول المواقف التاريخية المعاصرة بنفس أسلوب تاكيتوس وطريقته مما أفسد كتابته وشوه الصورة التى أرادها وجعلها بعيدة عن أن تكون سرداً مباشراً له قيمته الكبرى .

وربما كان جيرونيمو دى زوريتا Geronino de Zurita المؤرخ الرسمى لمملكة أرغونه وأبرز تلامذة بولونلوس بين المؤرخين الأسبان فى ذلك الدور وأكثرهم إخلاصاً له . ويتناول فى كتابه حوليات لمملكة أرغونه وتاريخ هذه المملكة منذ نشأتها حتى سنة ١٥١٦ م . ولعل أهم شئ فى هذا الكتاب هو أن مؤلفه كان أحد المؤرخين الأوائل الذين استفادوا بدرجة كبيرة من الأرشيفات والمراسلات الدبلوماسية ، استغل ذلك فى وضع سجل جديد للأحداث السياسية منذ الماضى البعيد كذلك فإن كتابه له قيمة خاصة بالنسبة لدراسة عهد فرديناند .

أما الكاتب الأسبانى ماريانا الذى ينتمى إلى المدرسة الإنسانية فكان فيلسوفاً سياسياً معارضاً لاستبداد الملكية . وهو أشهر المؤرخين الإنسانيين فى أسبانيا ، ودفعته نزعته الوطنية إلى أن يهدى أسبانيا عملاً تاريخياً يليق بها ويكشف للأجانب عن عظمة بلاده فتناول فى كتابه «تاريخ أسبانيا» منذ الفترة التى يقال إن أحد أحفاد نوح حط رحاله فيها حتى عصر اكتشاف أمريكا سنة ١٤٩٢ . وبعد ذلك أكمل ماريانا هذا الكتاب بشكل مختصر حتى وصل إلى سنة ١٦٢١ م . ومع انه استخدم المصادر المعروفة إلا أنه لم يكن ناقداً أو مدققا فى استخدامها على نحو ما كان عليه زوريتا . كذلك كان ميالاً لتقبل المعجزات والأساطير التى جاء بها الأقدمون والمسيحيون الأوائل . ولكنه مع ذلك كان لبقاً فى تناوله للسياسة الأسبانية ، وخاصة فى الفترة الأقرب لعصره هو . واحتوى سرده على قدر كبير من الوعظ السياسى والتنويه بدروس التاريخ وضرورة الاستفادة منها . ويبدو أنه كان يبغى الحصول على شعبية وشهرة ، ولذا كتب بأسلوب واضح سلس معبر مما جعله يعرف — بأنه بوخنان الأسبانى ولهذه الشهرة ما يبررها . وإذا لم يكن ماريانا فى مستوى بوخنان الأسكتلندى العظيم من ناحية الأسلوب الرفيع فإنه يفوقه كمؤرخ علامة .

ولابد فى هذا المقام من أن نشير إلى المؤرخ فيقولا أنطونيو (ت ١٦٨٤) والذى كتب أول تاريخ للأدب الأسبانى .

ولقد سبق أن أشرنا إلى الخلافات الدينية التى نشأت فى القرن السادس عشر بقيام حركة الإصلاح الدينى البروتستانتية وردود فعل هذه الحركة ، ولذا فإن دراسة هذه الحركة وردودها سيكون موضوعنا التالى ويعتبر فيلب ميلانكتون (١٤٩٧ - ١٥٦٠ م) خير من يمثل كتاب الفترة الانتقالية من الحركة الإنسانية إلى عهد الإصلاح الدينى .

المـــراجع

1. Articles «Humanism and Renaissance in Encyclopaedia of the social sciences
2. **Hulme**: The Renaissance The Protestant Revolution and the Catholic Reformation in continental Europe Chaps V, XXXIX, century 1915.
3. **E.P. Cheyney**: The Dawn of a New Era 1250 - 1453 Hapers 1936.
4. **Thompson**: History of Historical Writing Vol. 1 chaps XXVIII - XXIX
5. **M.P. Gilmore**: The World of Humanism (Harper) 1957.
6. **Will Durant**: The Renaissance, Simon and Schuster 1953.
7. **James Gairdner**: Early chroniclers of Europe England chap. VII.
8. **Ugo Balzani**: Early chroniclers of Europe Italy chap. VII
9. **Ritter**: Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft Book II.
10. **Preserved Smith**: A History of Modern Culture I, 252, 270, Holt 1930
11. **Robert Flint**: Historical philosophy in France pp. 183 - 207. Scribners 1894.
12. **John Morley**: Critical Miscellanies IV, I - 108. Machillan 1908.
13. **Ferdinand Schevill**: A History of Florence, Introduction. Harcourt, Brace, 1936.
14. **W.K. Ferguson**: The Renaissance in Historical Thought (Houghton Mifflin), 1948.
15. **Eduard Fueter**: Histoire de l'Historiographie moderne Books I - II Paris 1914.
16. **F. X. Von Wegele**: Geschichte der deutschen Historiographe Seit dem Auftreten des Humanismus Book, Lepzig 1885.
17. **Paul Joachimsin**: Geschichtsauffassung und Geschichtschreilung in Deutshland unter dem Einfluss des Humanismus Berlin 1910.
18. **A.A. Tilley**: The Literature of the French Renaissance Macmillan 1904. 2 Vols.
19. **A.W. Wasd and A.R. Waller ads, Cambridge**: History of English Literature, Vols III-VI. Macmillan 1907 - 17. 15 Vols.
20. **J.E. Spingarn**: History of Literary Criticism in the Renaissance. Columbia University press 1908.
21. **Sin J. E. Sandys**: History of Classical Scholurship, Puntam 1906-8 3 vols.
22. **Merrick Whit combs**: Literary Source Book of the renaissance University of Pennsylvania press 1904.

الفصل السادس

الكتابة التاريخية الكنسية خلال عصر الإصلاح الديني والحركة المضادة

الأثر العام لحركة الإصلاح الديني والحركة المضادة في الكتابة التاريخية

حدث في نفس السنة التي نهض فيها ميكافيلي بكتابه « تاريخ فلورنسا » أن أقدم مارتن لوثر على حرق المرسوم البابوي في وتنبرج[1] . وبهذا انطلقت الثورة البروتستانتينيه . وهكذا تعرضت الحركة الإنسانية لهزة عنيفة ، في الوقت الذي أخذت تلك الحركة تسلك في ميدان الكتابة التاريخية طريقاً دنيوياً صحيحا . ومرة أخرى أخذت الأهتمامات التاريخية تنحصر في دائرة المهاترات والجدل الديني التي حاول المؤرخون منذ عهد بترارك وبوكاشيو تحرير أنفسهم منها . ونعود مرة أخرى للاقتباس مما قاله الأستاذ بير في هذا الشأن :

لقد تعرضت حرية التاريخ لصدمة مفاجئة عند ظهور رد الفعل الديني العظيم الذي نسميه حركة الاصلاح الديني . ومرة أخرى نجد مصالح البشر وقد غاصت في قاع النسيان ، لأن ماأعطته آراء لوثر وكالفن الدينية من اهتمام بالجهد البشري وتقدير له كان أقل مما أعطته الكنيسة في قديم عهدها . حقا إن لوثر قدر التاريخ حق قدره ، ولكنه فعل ذلك بوصفه درساً سماوياً مقدساً كذلك أخذ ميلانكتون[2] يتلمس يد الله في التاريخ وكيّف تعاليمه كلها وفق احتياجات العقيدة البروتستانتينيه . وسواء كان على الكاثوليك أو البروتستانت أن يحققوا وحدة للعالم المسيحي ، فإن التاريخ صار عليه مرة أخرى أن يصبح صنيعة اللاهوت[3]

---

(١) تم ذلك في العاشر من ديسمبر ١٥٢٠ وكان البابا حينئذ هو البابا ليو العاشر (تولى البابوية من مارس ١٥١٣ – ديسمبر ١٥٢٦ م) وقد أعلن لوثر أنه يحتقر البابوية واتهمها بأنها قوة معادية للمسيحية (المترجم)

(٢) بعد وفاة لوثر ١٥٤٦ تولى ميلانكتون زعامة حركة الإصلاح الديني في أوربا وكان رائد علماء اللاهوت في جامعة وتنبرج ومثل اللوثريين في كل المفاوضات للوصول لاتفاق مع الكاثوليك في أوربا (المترجم) .

(3) Burr, loc. cit., p. 262.

ولم يقتصر الأمر على أن تصبح العقيدة والمنظمات الدينية هي صاحبة المقام الأول والأكبر في مجال البحث التاريخي . بل أن التاريخ العالمي صور مرة أخرى على أنه الصراع الكبير بين الله والشيطان بعد أن حلت «مدينتان جديدتان للشيطان» محل المدينة الوثنية التي عرضها القديس أوغسطين وأوروزيوس ، وهما على التتابع «وكر الشيطان في روما» و «اتباع الراهب المجنون في ويتنبرج» . وهكذا اقتصر الصراع في ذلك العصر على العالم المسيحي الذي أصبح بيتا منقسم على نفسه واستخدمت اساليب أوروزيوس في تلك «المعركة العائلية» التي تعرض لها الوطن المسيحي .

وغنى عن القول أن احياء النزعة الدينية في مجال الاهتمامات التاريخية كانت ضربة قاصمة للموضوعية الخالصة التي لمسناها في كتابات بعض المؤرخين من أمثال جويكارديني ، بقدر ما كانت بالغة الضرر بالنسبة للحفاظ على الاتجاه الدنيوى في كتابة التاريخ ، وهو الاتجاه الذي كانت تمثله المدرسة الفلورنسية . كذلك ترتب على أحياء تلك النزعة ضعف الاعتقاد بأن دراسة التاريخ تتم بدافع من حب الاستزادة من المعرفة وزيادة حصيلة المعلومات عن الماضي ، وهو الأمر الذي أضفى بوليبوس نفسه من أجله ، ذلك لأن التاريخ في تلك الظروف الجديدة أصبح أداة عملية بدرجة لا تقل عنفاً عما كان عليه أيام القديس أوغسطين وتلاميذه . وبعبارة أخرى فأن النظرة الى الماضي في ذلك العصر جعلت «ترسانة» شاسعة ومتنوعة يستمد فيها الفريقان المتخاصمان أسلحة وذخيرة لا حدود لها لاستخدامها في تشوية صورة خصومهم . كذلك ظهر هناك تجاهل خفيف لمبادئ النقد التي أحياها خيرة كتاب المدرسة الانسانية . ذلك أن أتباع كل مذهب من المذاهب الدينية كان يحاول أن يجد في الماضي ما يؤيد وجهة نظره ويظهر معارضيه في أقبح صورة ، وبالتالي لم يعد الحكم على مصادر المعلومات ينبع من حيث مدى امكان الاعتماد على صحتها ، ولكن من حيث قدرتها على المساهمة في الجدل القائم . وهكذا حل الجدل الصاخب المليئ بالاتهامات والعنف محل السرد الهادئ الرتيب . ونتج عن ذلك كله أن تضاءلت لفترة طويلة بعد حركة الاصلاح الديني . الفرصة لدراسة العصور الوسطى دراسة كاملة حرة بعيدة عن التحيز . ففي فترة كهذه شهدت انقسام العالم المسيحي الى حزبين دينيين كبيرين لم يكن هناك مجال للتحليل الهادئ غير العاطفي .

على أننا نبتعد عن الدقة إذا ما أعتقدنا أن حركة الاصلاح الديني تسهم في دفع عجلة البحث التاريخي ، اذ لم يوجد في اخصب الكتابات التاريخية القديمة أو تلك التي تنتمى الى المدرسة الأنسانية مثل ما وجد في حركة الاصلاح الديني من طاقة محمومة تجلت في التنقيب والبحث الدقيق في سجلات الماضي وبعبارة أخرى فأن العيب الرئيسي لم يكن في اضمحلال النشاط أو ضعف الاهتمام بالبحث ، وإنما كان في طبيعة الدوافع التي أدت الى هذا النشاط

الكبير فى البحث عن المعلومات . وفى الطريقة التى استغلت بها هذه المعلومات بعد جمعها . فالمؤرخون البروتستانت التمسوا العون من إله القديس بولس فى بحثهم عن أدلة قاطعة لا تقبل الشك تثبت أن عقيدة الكنيسة الكاثوليكية وطقوسها بما تتصف به من تقصير ومماطلة تحوى الكثير مما لا يوجد له أصل فى الكتاب المقدس وأنها أقرب الى الوثنية ، وأن البابا نفسه هو خصم المسيحية الخارج على المسيح وتعاليمه . أما الباحثون الكاثوليك فقد التمسوا العون والتوجيه من « السيدة العذراء » ليثبتوا أن الكنيسة وكافة أجهزتها هى التطبيق الصحيح الكامل للإنجيل . وأن البروتستانت سيحل بهم العقاب الشديد جزاء ما كسبت أيديهم من خطيئة فى حق الدين وفى حق كنيسة القديس بطرس التى أقامها تنفيذا لكلمة المسيح .

ولعل أهم ما أسهم به دعاة الجدل فى مجال التاريخ هو إحياؤه ونشره للوثائق المباشرة الهامة عن الكنيسة وتاريخها بعد أن أمضى كل من الطرفين فى نقده للطرف الآخر ، الأمر الذى استغله أصحاب المذهب العقلانى بعد ذلك بقرن من الزمان فى هدم المعسكرين المتنازعين جميعاً .

إن حكمى الأخير هو أنه على الرغم من أن رواية هذا المؤرخ البندقى جنحت نتيجة للتعصب عن الحقيقة الكاملة فى بعض أجزائها ، إلا أن هذا الكتاب من ناحية الدقة يعلو فى مستواه أى نموذج آخر للكتابة التاريخية فى عصره »[1] على أن الآراء اختلفت بالنسبة لتقدير ساربى وعمله ، فمثلاً يعتبره ماكولاى — أحد كبار الأحرار — من خيرة المؤرخين فى أوائل العصر الحديث ، فى حين يقول عنه المؤرخ الكاثوليكى البارز لورد آكتون إنه لم يعد كونه طائرا سجيناً .

كان أول عمل هام أنتجه المعسكر البروتستانتى هو كتاب « حياة بابوات روما » الذى ألفه روبرت بارنز (١٤٩٥ — ١٥٤٠ م) . وكان بارنز لوثرى أنجليزى فر إلى المانيا طلباً للحماية وألف كتابه تحت رعاية لوثر نفسه وإشرافه المباشر . وفيه حاول أن يلقى على البابوات والكنيسة الكاثوليكية مسئولية كوارث العصور الوسطى ، كما امتدح فضائل المعارضين العلمانيين للبابوات . وهكذا أنقلبت طريقة أورزيوس ومنهجه لتصبح سلاحا ضد الكنيسة نفسها .

وثمة وسيلة أخرى أختارها البروتستانت هى إلقاء الضوء — ولو بشكل مبالغ فيه إذا ما اقتضى الأمر على أضطهاد الأحزاب الكاثوليكية للمصلحين الدينيين فى دول أوربا المختلفة وهكذا أستفادت البروتستانتينية من الشهداء الذين سقطوا ضحية الأضطهاد الكاثوليكى واستغل البروتستانتى هؤلاء الشهداء فى دعايتهم للتشهير بالكاثوليك ، بالضبط مثلما استفادت الكنيسة الكاثوليكية فى عصرها الأول من شهداء المسيحية الذين ذبحهم الرومان الوثنيون . وكانت أولى المؤلفات التى ظهرت فى هذا المجال «كتاب الشهداء» The Book of Martyrs الذى ألفه حنا كرسبين Jean Crespin وهو بروتستانتى فرنسى ونشر سنة ١٥٥٤ م . وكان هذا الكتاب جدلاً صريحاً مصوراً ليس فيه ماينم عن أهتمام كبير بالدقة التاريخية . وقد وضح فيه على أى حال الأمكانيات المتعددة فى هذا النوع من الكتابة التاريخية . والحقيقة أنه كان مخططاً بطريقة ماهرة ليستثير المشاعر ويزيد من تأييد أعداء روما للحركة البروتستانتينية .

أما كتاب المؤلف الأنجليزى جون فوكس John Foxe (١٥١٦ — ١٥٨٧ م) الذى صدر بعنوان أعمال الشهداء المسيحيين وآثارهم فكان ثانى كتاب من هذا النوع وهو أكثر تكاملا وتحقيقا لهدفه من سابقه . ولقد صمم بحيث أتخذ كتاب كرسبين بصورة قاطعة نموذجاً له . وفيه يبدأ فوكس بالمصلح الأنجليزى حنا وكلف وتتبع سجل الشهداء البروتستانت بطريقة تمثل النضال الدينى القائم فى ذلك الوقت وكأنه صراع بين نقاوة المسيحية وانحرافها ، او بين المسيح وخصومه وقرر فوكس بعد شئ من التفكير أن يوسع كتابه ويجعله

تاريخاً عاماً وناقداً للكنيسة المسيحية ومن ثم وجد نفسه يسرق على نطاق واسع من كتاب مثويات ماجدبرج ، Matthias Vlacich Illyricus والذى سوف نتعرض له بعد قليل . وبفضل ماتمتع به فوكس من مواهب أدبية وقدرة على التأثير فى الدهماء – فأنه أكتسب شعبية كبيرة لدى مجموعة ضخمة من القراء المتحمسين له والمتشيعين به . وإذا كانت المصادر التى اعتمد عليها قد تعرضت لنقد لاذع من جانب الكتاب الكاثوليك ، فان الدراسات اللاحقة وبخاصة تلك التى قارن فيها الأستاذ بريزرفد مميث بين أعمال فوكس والمصادر التى أستخدمها قد أثبتت أن أخطاؤه أقل بكثير مما أدعى أعداؤه ، وإن كان ينبغى أن يؤخذ ماجاء فى كتابه بتحفظ شديد .

أما فى اسكتلندافقد وجدت البروتستانتينية بطلها فى شخص من أتباع كالفن يدعى حنا نوكس John Knox (١٥٠٥ — ١٥٧٤ م) وهو صاحب كتاب تاريخ الاصلاح الدينى فى أسكتلندا وقد ألف نوكس كتابه ليثبت أن الشيطان وحده هو النصير الكبير للكاثوليك . وعلى الرغم مما فى هذا الكتاب من تميز واضح للبروتستانتينية فضلاً عن كثرة حديث المؤلف عن نفسه ، ألا أنه أعظم بكثير من كتاب «مثويات ماجدبرج» وكتاب نوكس . والواقع أن هذا الكتاب يمثل من ناحية قيمته الأدبية والتاريخية عملاً فذاً يكشف عن دقة مذهلة وكفاءة تامة فى أختيار التفاصيل المثيرة الهامة وعرضها . وإذا مانظرنا إلى المؤلف بوصفه كاتباً جدلياً نجده يتميز بموهبة لا مثيل لها وحاسة فكاهية ، تبدو فى سخريته وأسلوبه اللاذع . ولم يفت نوكس أن يدين بشدة أولئك الذين أعتنقوا مذهب كالفن لأتخاذه وسيلة لتحقيق أغراض ذاتيه مادية وكذلك أولئك الذين لجئوا الى العنف باسم الدين من أجل الأنتقام الشخصى أو السياسى وعلى الرغم من أن نوكس كان ينظر الى الحقائق بعين متميزة فإنه لم يعمد إلى تزويرها أو حجبها .

أما أكثر الكتب طموحاً وأشهرها بين كتب البروتستانت الجدلية فهو ذلك المجلد الضخم بعنوان «مثويات ماجدبرج» الذى وضع خطته وأصدره ماتياس (متى) فلاكيش الإليرى Matthias Vlacich Illurius (١٥٢ — ١٥٧٥) الشهير باسمه اللاتينى فلاكيوس Flacius وقد ساعده فى هذا العمل عدد من العلماء البروتستانتى أمثال أليمان Aleman ، كوبس Copus ، ويجاند Wigand ، وجودكس . وكان منهجهم هو نفس منهج أويزيوس ولكن على صورة أكبر وموجه ضد الكنيسة الكاثوليكية . وشغف المؤلفون فى هذا الكتاب بإبراز كل حقائق التاريخ الكنيسى التى تدين الكاثوليك والبابوات . كما أستعرضوا تاريخ الكنيسة والعقيدة المسيحية قرناً بعد قرن على التوالى حتى سنة ١٣٥٠ م . وذلك بهدف الوصول إلى سند تاريخى لموقف لوثر وإثبات أن

مبادئ الكاثوليك ونظمهم ليست إلا أتجاهاً دخيلاً ، وهو أتجاه غير مقدس بعيد كل البعد عن المسيحية فى صورتها النقية التى جاء بها الحواريون . وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب مابين سنتى ١٥٣٩ ، ١٥٤٦ ميلادية . وعلى الرغم من أن خطة المؤلفين الأصلية كانت دراسة تاريخ الكنيسة المسيحية بأكمله فإنهم قصروا أهتمامهم على تاريخ العقائد والمذاهب المسيحية وبذلك أضعفوا من شأن التاريخ السياسى والقانونى للكنيسة بل أساؤا تفسيره . وعلى الرغم مما أبدوه من مقدرة فائقة فى تفتين معتقدات البابوية وآرائها فإنهم برعوا فى الخداع وسوء النية عندما تقبلوا المصادر والروايات الغير صحيحة ليدعموا جانبهم فى الجدل مع خصومهم . وفى الوقت نفسه فإنهم نظروا الى المعجزات نظرة ذات وجهين فأعتبروا المعجزات معجزات أصلية . أما تلك التى كانت تؤازر الكاثوليك فأعتبروها زائفة خداعه . وهكذا بلغت مقدرتهم على النقد ذروتها عندما كان النقد فى صالحهم كما هو الحال عندما تقدوا المراسيم البابوية المزورة المنسوبة إلى ايسيدور المزور .

ومهما يكن من أمر فإن اهمية كتاب « مئويات ماجدبرج » تكمن فى أنه أرسى أسس التاريخ الكنيسى فى صورته الحديثة .

أما مؤلفات سليدانوس وبولينجر Sleidanus & Bullinger عن حركة الاصلاح الدينى فكانت أقل طموحاً من الكتاب السابق ويمكن الاعتماد عليها بدرجة أكبر بالنسبة للجانب البروتستانتى وذلك فى مجال الجدل بين البروتستانت وخصومهم .

والواقع أن خير ما كتبه الكاثوليك أو البروتستانت، عن تاريخ لحركة الاصلاح الدينى قبل عهد الأسقف جلبرت بورنت هو كتاب ، شروح الاحوال السياسية والدينية فى عهد الامبراطور شارل الخامس ١٥١٧ — ١٥٥٥ م الذى وضعه حنا سليدان John Sleidan (١٥٠٦ — ١٥٥٦ م) المشهور باسمه اللاتينى سليدانوس Sleidanus وقد تمتع هذا الكاتب بحصيلة فكرية تشبه ما كان لعلماء الحركة الانسانيه وما كان لطلاب الدراسات التاريخية فى أواخر العصور الوسطى . كان سليدانوس تلميذاً فى حياته المبكرة لارازموس . وقبل أن يكتب عن حركة الاصلاح الدينى قام بترجمة أعمال فرواسار وكومنيز . وساعده ذلك على تزويده بنظرة أكثر اتساعاً وأوسع أفقاً من نظرة أى مؤرخ آخر من المؤرخين الجدليين العاديين ، ومعرفته بما ينبغى أن تكون عليه مثل الكتابة التاريخية السليمة . ذلك أن أحداً لا يستطيع أن يترجم كومنيز إلا إذا نظر إلى التاريخ نظرة مستقلة تفسيرية . هذا الى أنه جمع معلومات أصلية عن حركة الإصلاح الدينى بطريق مباشر من خلال عمله كدبلوماسى ومشرع. مضيفا الى ذلك أنه قضى قرابة عشر سنوات فى جمع المادة التاريخية اللازمة لتاريخة عن حركة الإصلاح الدينى . وقد أذكى من خبرته كسياسى ومشروع دراسته لمبادئ كالفن وارائه .

وتكمن أهمية كتاب سليدانوس فى حقيقة انه كان أول تحليل سياسى لحركة الاصلاح الدينى والثورة البروتستانتينية . ذلك أن سليدانوس كان المدافع الرسمى القانونى عن المناطق التى اعتنقت المذهب اللوثرى فى شمال ألمانيا . بحيث جاءت مهمته تبرير شرعية انفصال الأمراء البروتستانت عن الكنيسة تبريرا شرعيا يرضى الرأى العام . وبهذا يكون قد عالج تاريخ حركة الإصلاح الدينى من وجهة النظر السياسية والدستورية . وفى نفس الوقت من وجهة النظر الدينية . لذلك التزم باستخدام الوثائق للوثوق فى صحتها فجاء كتابه تأييداً معتدلا للبروتستانتينية . وعلى الرغم من أن الكتاب لم يكن من النوع الجدلى . فانه كان نوع من المرافعة المتزنه لمحام رتب بعناية أدلته التاريخية التى استند اليها فى القضية . وكما هو متوقع فى مثل هذه الحالة تميز كتابه بترتيب المادة وحسن عرضها . كما امتاز بروعة التعبير وسمو الطابع . حيث أن خطته وضعت بهدف مخاطبة الجماهير المثقفة فى أوربا . وعلى الرغم من أنه لم يجد شيئا من الحماسة الدينية الرومانية التى ميزت كتاب فون رانكه فى كتابه أو شيئا من تلك الدراسات الاجتماعية التى قام بها جانسين janseen أو التحليل الاقتصادى الذى تلمسه فى كتابه ويبر weber وسومبارت . فإن كتاب سليدانوس كانت له أهمية كبرى بوصفه نذيرا مباشرا للنظرية التى وضعها الأستاذ جيمس هارفى روبنسون والتى تلقى اليوم قبولاً واسعاً وهى النظرية القائلة بأن الثورة البرو تستانتينة كانت حركة سياسة أكثرمنها دينية . وأنها كانت تسعى إلى إجراء تعديلات سياسية فى صلح أو جزيرج ومعاهدة وستفاليا أكثر مما كانت تهدف إلى الانتصار العقائدى الدينى وحده .

والواقع أن سليدانوس سبق أن توصل إلى هذا التفسير لا بطريقته العامة فى معالجة المشكلة فحسب . بل بتعليقاته المحددة عن المراحل السياسية البارزة للثورة . أوكما يقول هو نفسه عندما كنت أصف الأمور الدينية لم أكن قادرا على أستبعاد الجانب السياسى لأن الدين والسياسة كما سبق أن ذكرت يتداخلان ويتفاعلان معا بصفة دائمة . ولا يمكن الفصل بينهما على الأقل فى عصرنا هذا[1] .

وخلاصة القول أن عمل سليدانوس لم يكن تاريخاً كاملاً أو عميقاً يعالج أسباب حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى أو بطبيعتها أو مبادئها . إنما كان يفوق نسبيًا غيره من الكتب المعاصرة الأقل فى المستوى . ولقد تمتع كتابه بأهمية دائمة نظراً لأنه أكبر الحقيقة الرئيسية الخاصة بالجوانب السياسية للحركة البروتستانتينية . فضلاً عن أنه زاد من إهتمام المؤرخين السياسيين أمثال كامبرون . ثاوتس بالتطورات الدينية . وكان من المتوقع أن يتعرض سليدانوس لهجوم شديد من جانب المتطرفين الكاثوليك والبروتستانت على السواء وذلك نظرا

---

(1) Preserved Smith The Age of the Reformation (Holt 1920) p. 705

لتسامحه واتزانه ، فقال العلامة اللوثرى ميلانكتون عن كتابه أنه لايصلح لأن يتداوله الشباب البروتستانتى فى حين كان الكاثوليك أقل تقديراً له .

أما المصلح الدينى السويسرى هنريخ بولينجر Henrich Bullinger (١٥٠٤ — ١٥٧٥ م) فكان أحد تلاميذه زونجلى ومن أقدر الكتاب البروتستانت الذين عالجوا فترة حركة الإصلاح الدينى . وفى كتابه «تاريخ حركة الإصلاح الدينى ١٥١٩ — ١٥٣٢ م» نلمس تأثيراً واضحاً باتجاهات سليدانوس وآرائه ، كما نشعر بأن المؤلف يؤرخ عن معرفة تامه لتاريخ السنوات المبكرة من الحركة ، ولهذا فهو يختلف فى نغمته عن أعمال فوكس ومؤلفى كتاب «مئويات ماجدبرج» وهذا الكتاب وأن كان تاريخاً بروتستنتيناً متحيزاً إلا أنه يبدو فى صورة رسالة دفاعية ، وليس حواراً كتاريخ فوكس . ومع ذلك فإن بولينجر يشابه فوكس فى عنايته الفائقة باستقاء الحقائق والألفاظ فضلاً عن أنه كان معتدلاً فى اتجاهاته . وقد أراد بوجه عام أن يكون أميناً وعادلاً ، ومع هذا كله فإنه لم يستطع فى بعض الأحيان أن يقاوم أغراء حجب بعض الحقائق المخجلة التى حدثت خلال الحركة البروتستانتيه . والواقع أن بولينجر كان مجتهداً فى جمع الحقائق واتبع نفس طريقة بولرندوس فى نسخ وثائق بأكملها ولكن مع فارق بينهما إذا كان بولينجر ينسج تلك الوثائق بمهارة داخل السرد العام . ولكونه سويسريا وطنياً فإنه حاول أن يصور حركة الإصلاح الدينى فى سويسرا بأنها مستقله عن الحركة الألمانية . هذا بالإضافة إلى أنه قصر معالجته على الأمور الدينية فقط دون أن يستعرض النواحى السياسية إلا بالقدر الذى تضمنه برنامج زونجلى .

أما فى فرنسا فإن تاريخ حركة الإصلاح الدينى قد وجد من يكتبه ببراعة فى شخص أحد أتباع كالفن وهو العلامة الأنسانى تيودور بيزا Theodore Beza (١٥١٩ — ١٦٠٥ م) صاحب كتاب التاريخ الدينى لإصلاحات الكنيسة فى المملكة الفرنسية الذى صدر سنة ١٥٨٠ وهو الذى يقدم عرضا كاملا لنشأت الحركة الكالفينية فى فرنسا . ويعتبر بيزا خليفة كالفن وجاء كتابه أستمراراً وتكمله لكتاب كريسبين «كتاب الشهداء» ، ومع ذلك فإن هذا الكتاب لايتصف بالطابع العلمى الذى كنا نتوقعه من كاتب فى مثل علم بيزا وثقافته . وعلى الرغم من أن كتابه صدر دون أن يحمل اسم مؤلفه فإن كل الدلائل تشير إلى إن مؤلفه هو بيزا نفسه[1]

أما الرد الكاثوليكى على كتابه «مئويات ماجدبرج» فكان كتاباً أكثر أسهاماً ألفه الكاردنيالى قيصر بارونيوس «١٥٣٨ — ١٦٠٧ م» تحت عنوان «الحوليات الكنيسية» ولم يكن الأسلوب والمنهج اللذان أتبعها الكاردينالى قيصر فى وضع هذا الكتاب بأحسن من تلك التى أتبعها مؤلفو كتاب «مئويات ماجدبرج» وعلى الرغم من أستعانته بعدد أكبر من الوثائق

(١) لاتزال هناك فى المصادر الحديثة حول صاحب هذا الكتاب ومؤلفه .

حيث أن مكتبة الفاتيكان كانت تحت تصرفه . ذلك أنه كان هو الآخر أقل أمانة فى ذكر مصادره وتنسيقها فى مواجهة المسائل الصعبة بأسلوب مباشر وفى هذا يقول بريزرفد سميث وهو مصدرنا الرئيسى عن حركة الإصلاح الديني مهما يكن من ضعف كتاب « مئويات ماجديرج » فإن أقل مايمكن أن يتصف به مؤلفوه هو أنه فى ترتيب مصادرهم وهذا أمر لم ينطبق تماما على قيصر بارديتيوس الذى جاء كتابه الحوليات الكنيسية بمثابة الرد الرسمى العنيف على كتاب « مئويات ماجديرج » وعلى الرغم من أن نقد بارونيوس لم يكن بأى حال أحسن من نقد مؤلفى كتاب « مئويات ماجديرج » فإن بارونيوس استخدم سياسة ماكرة أنتشرت على الأسف أنتشاراً واسعاً منذ أيامه وهي سياسة تجاهل الحقائق المسيئة لوجهة نظره وحجبها بدلاً من وصفها أو تنقيتها من الشوائب التى علقت بها ..وأدت قدرته على تحويل الأنتباه الى مسائل فرعية وعلى تعقيد المشكلات بدلاً من السعى لحلها إلى أن أسماه البروتستانت وهم على حق فى هذا « المخادع الأكبر »[1]

وقد تلقى بارونيوس تعليمه الدينى ودرس تاريخ الكنيسة على يد فيليب نيرى الشهير . ومنذ وقت مبكر قرر أن يكرس حياته لكتابة تاريخ الكنيسة والتى محاضرات حول هذا الموضوع قبل أن يشرع فى كتابة حولياته . وإذا كان قد بدأ يلقى محاضراته حوالى سنة ١٥٥٩ م فإنه يمكن القول إنه كرس قرابة نصف قرن من حياته لدراسة تاريخ الكنيسة المسيحية وبعد سنة ١٥٥٩ م أصبح الأمين الأول لمكتبة الفاتيكان . ويتناول كتابه « الحوليات الكنيسية » تاريخ الكنيسة منذ البداية حتى ١١٩٨ م . وظهر هذا الكتاب فى عدة أجزاء بين ١٥٨٨ ، ١٦٠٧ م . وأتبع الكتاب الطريقة الحولية أى أنه عالج الأحداث سنة بعد أخرى ، وكان لهذه الطريقة أهميتها فى إثبات التزامه التاريخى ، ولكنها مزقت سرد القصة الواحدة ، وحالت دون موضوع الرواية التاريخية وتسلسلها . وكان بارونيوس باحثاً لايكل فى بحثه عن المادة ، ففحص كل ماكتب تقريبا عن تاريخ الكنيسة المسيحية دون أن يمنعه ذلك حتى من الرجوع إلى كتب التاريخ فى العصر الوثنى . ولذلك أشتمل كتابه على قدر كبير من المعلومات المستخدمة من الوثائق التى لم يسبق نشرها . ونلمس فى هذا الكتاب بوجه عام قدراً من الحماسة الشخصية والطلاوة والجاذبية أكثر مما تمتع به كتاب « مئويات ماجديرج » .

وأظهر بارونيوس أحتراماً كبيراً للمصادر المسيحية التى عالجت القرون الأولى لتلك الديانة . ولكن قدرته على النقد برزت فى صورة اكبر عندما تعرض للمادة التاريخية الخاصة بأواخر العصور الوسطى . فبينما هو يتقبل رأى فالا فى نقد هبة قسطنطين ، وما يحيط بها من أوهام وخيال هنا إذا به لا يبالى بمناقشة رأى « مئويات ماجديرج » فى المراسيم البابوية المزودة

(1) Preserved Snith. The Age of the Reformation p. 585.

وهو الرأى الذى فوض تلك المراسيم المنسوبة الى يسلور المزور . ومن الواضح أن الحوليات التى كتبها بارونيوس عبارة عن كتاب يدافع عن الكاثوليكية ، أختار بارونيوس مادته بالشكل الذى يحقق له هذا الغرض تماماً مثلما فعل مؤلفو كتاب «مئويات ماجدبرج» ولكن مع فارق كبير هو أن بارونيوس كشف النقاب عن دائرة أكثر أتساعا من المصادر التاريخية التى ساعدته على تحقيق غرضه ، ولعل هذا هو خير مايميز عمله الكبير ، أما عيوبه الرئيسية فقد أنحصرت فى ميله لتجاهل الدولة المعارضة لرأيه وأبتداعه أسلوب التهرب من النقاط المحرجة والتحايل على إبراز النقاط الأقل أهمية ، وهو ذلك الأسلوب الذى شاع بين اليسوعيين الجدليين . هذا الى انه بذل قصارى جهده فى تحاشى الأصطدام فى مسائل محرجة ، ولذلك حجب النقط الرئيسية وحول كتابته إلى مناقشة مسائل ثانوية لاعلاقة لها بالمجرى الرئيسى للموضوع . هذا وقد قام أودوريكوس ريناالدوس Odericus Raynaldus بإكمال حوليات بارونيوس على نحو أفضل ، حتى إنه فاق بارونيوس فى نشر وثائق جديدة هامة .

ويأتى دون بارونيوس فى المقدمة والشهرة نيقولا ساندرز ، وهو إنجليزى كاثوليكى كتب كتاباً عن حركة انفصال الكنيسة الإنجليزية عن روما سنة ١٥٨٥ وكيف نشأت أحداث ذلك الانقسام وتطورت . وجاء هذا الكتاب أكبر حشد لحملات التشهير التى ظهرت فى تاريخ الجدل الدينى كله فى ذلك العصر ، إذ ذهب ساندرز إلى حد اتهام الملك هنرى الثامن بأبشع أنواع الزنا بأن أشاع أن آنا بولين كانت فى الحقيقة ابنة هنرى نفسه ، ولم تلبث طريقة ساندرز هذه فى التشهير أن جعلت البروتستانت يحرفون اسمه ليصبح «دكتور سلاندرز» .

ونعود مرة أخرى إلى كتاب «مئويات ماجدبرج» لنذكر أنه حتى ذوى الفطنة وأهل الثقة من البروتستانت لم يترددوا فى انتقاده . ونذكر على سبيل المثال جوتفريد أرنولد صاحب كتاب «التاريخ المحايد للكنيسة والهرطقة» الذى ظهرت سنة ١٦٩٩ . وكان أرنولد رجلاً تقياً ورعاً يكره العنف بقدر ما كان يكره الجوانب السياسية للحركة الثورية وكان نقده خاصاً بالعقيدة والأخلاق أكثر من نقده للجانب التاريخى ، شأنه فى ذلك شأن كتاب «مئويات ماجدبرج» .

ثم كان أن كشف أحد علماء الحركة الإنسانية الفرنسيين وهو إسحق كازوبون (١٥٥٩ ـ ١٦١٤ م) عن كثير من الزيف والأخطاء التى احتواها كتاب بارونيوس . فرأى أن نقط الضعف عند بارونيوس ترجع إلى عدم إلمامه باللغة اليونانية بشكل واضح . وأمضى إسحق السنين الأخيرة من حياته فى تأليف كتابه الذى أسماه «دراسات حول كتاب بارونيوس» وفيه نقد كتاب بارونيوس ولخص ما به من آراء بتحريض من الملك جيمس الأول ملك إنجلترا . كان كازوبون من الهجونت ــ أى بروتستانت فرنسا ــ المعتدلين لم يتشككوا فى

صحة السيرة المسيحية ، وهذا هو الصرف فى أن نقده أقتصر على الأخطاء التاريخية والشكلية فى النصوص وفى اللغة وما شابه ذلك . ثم إنه آمن فى سذاجه بالأساطير والعجائب التى أوردها الكتّاب القدامى مثلما آمن بارونيوس بالمعجزات المسيحية . ولو كان له بالإضافة إلى علمه قسط من مقدرة بايل او فولتير لاستطاع ان يهدم كل ما جاء فى كتاب بارونيوس الواسع من تلفيق واختلاق .

أما باولو ساربى فهو راهب وسياسى من أهل البندقية (١٥٥٢ - ١٦٢٣ م) فكان من أقدر مؤرخى عصر الجدل الدينى وأكثره متعة . وعلى الرغم من أنه تعرض لكراهية المحيطين بالبابا بدرجة شديدة حتى إنه أصيب فى مؤامرة دبرها له بعض أفراد حاشية البابا لأغتياله إلا أنه مع هذا كله كان كاثوليكياً حقاً ، يريد إصلاح أحوال الكنيسة ومن ثم فقد ناصب حاشية البابا العداء ، وانتقد الخرافات والمظالم والمساوئ السياسية التى عمت الكنيسة الكاثوليكية . ثم إنه أراد أن يدفع قدما بمبدأ الاستنارة والتسامح الدينى وتحقيق النقاوة داخل جهاز الكنيسة الكاثوليكية ، الأمر الذى جعل من ساربى «دولنجر القرن السابع عشر» . وفى سبيل ذلك شن ساربى معركة مريرة ضد البابوية حتى دهمه سنة ١٦٠٧ بعض المترمتين المتدينين فوق أحد الكبارى الصغيرة العديدة فى البندقية ،، وتركوه وقد أشرف على الموت . ولكن شاءت الأقدار له أن يشفى ليعاود نضاله بحماسة أكبر . فكانت نظرية ساربى أن حركة الإصلاح الدينى حدثت بسبب مساوئ الكنيسة الكاثوليكية ومظالمها فضلاً عما وقع من غيرة وخلاف بين الرهبان الأوغسطنطيين والدومنيكان .

وقد كتب ساربى عدة مقالات ، لكن كتابه الرئيسى هو تاريخ مجمع الترنت History of the council of Trent (١٦١٩ م) الذى بدأه بمقدمة عالج فيها اسباب حركة الإصلاح الدينى ومظاهرها — واعتمد فى هذه المقدمة على سليدانوس . ثم أخذ ساربى بعد ذلك يشن هجومه على مجمع الترنت الذى أدانه بوصفه مثلاً من أمثلة انحراف البابوية وصورة معبرة عن الدسائس التى دبرها اليسوعيون . ولعل نقطة الضعف الرئيسية فى مؤلف ساربى هى أنه فى غمرة اهتمامه الكبير بتفاصيل ذلك المجمع المسكونى والروح التى سادته ، لم ينجح فى أن ينظر إلى ذلك المجمع من زاوية تاريخية سليمة . فهو لم يقدر قضاياه حق التقدير كما أنه لم يقدر رد فعله بالنسبة لطبيعة الكنيسة الكاثوليكية ومنهجها . ولكنه مع ذلك كان يكتب بأسلوب واضح ينم عن بصيرة سيكلوجية نفاذة ، كما دافع فى حرارة عن ضرورة الحرية والاستنارة . ولهذا تعرض كتابه لهجوم عنيف من جانب الكاثوليك الذين سبق لبعضهم أن هاجموا جد مؤلف هذا الكتاب . ولقد تولى (بريزرفد سميث) فى تقييمه الأخير الدفاع عن ساربى إذ يقول :

وقد رد على ساربى أحد المؤرخين اليسوعيين المعاصرين هو الكاردينال سفورزا بالافيكينو (١٦٠٧ – ١٦٦٧ م) الذى كتب كتاباً بعنوان «تاريخ مجمع الترنت» وظهر الكتاب سنة ١٦٥٧. وجاء هذا الكتاب بمثابة رد مستفيض على ساربى لتنفيذ آرائه ولكن رده كان أقل إحكاماً ولا يمكن الاعتماد على ما به من معلومات مثل كتاب ساربى. والواقع أن هذا الكتاب جاء أشبه بعمل محام يهاجم الملخص الذى جاء به خصمه نقطة بعد أخرى. ورجع بالافيكينو Pallavicino إلى كثير من المصادر، ولذا جمع قدراً من المادة أغزر من تلك التى توفرت لساربى. ومن ثم لم يكن من المستغرب أن نراه يتفوق على ساربى بإبراز تفاصيل كثير من المسائل المتناهية فى الدقة. ولكنه أبهم المسائل الكبرى بل تجنب ذكرها كلية مما جعله يتفوق فى حجب الحقائق المحرجة، ويفوق الجميع فى هذا الشأن بما فى ذلك بارونيوس نفسه.

أما بطرس جيانون (١٦٧٦ – ١٧٤٨ م) فكان فى عداوته المكشوفة للكنيسة الكاثوليكية أشد قسوة من ساربى. وكان بطرس هذا – مثل المؤرخ فالا – ينتمى إلى مدينة نابولى وقد هاجم بطرس بلا هوادة ما قامت به الكنيسة من اغتصاب للسلطة السياسية بصفة عامة وذلك فى كتابه «التاريخ المدنى لمملكة نابولى». واستنكر فى سخرية شديدة لاذعة امتيازات الكنيسة فى نابلى. ومع ذلك فإن أهمية هذا الكتاب الكبيرة بالنسبة لعلم كتابة التاريخ لا تكمن فى هجومه اللاذع على الكنيسة، وإنما فى الحقيقة الخاصة بأن مؤلفه كان أول مؤرخ يجعل من تاريخ القانون والنظم ميداناً مشروعاً من ميادين البحث والدراسة التاريخية. ولكى يثبت رأيه فيما يختص باغتصاب الكنيسة للسلطة السياسية ولكى يبرهن على عدم شرعية هذا العمل، اضطر جيانون إلى التعرض لتاريخ القانون وتاريخ الدساتير والإدارة. وكان أن ساعده ذلك – وبطريقة عارضة – على إيضاح أن الكنيسة الكاثوليكية كانت منذ البداية ذات نزعة سياسية بغض النظر عما إذا كان هذا أمراً شرعياً أو لا واستطاع جيانون فى مهارة جمع أبحاث المتخصصين فى تاريخ القانون والإدارة ووصفها جميعاً فى رسالة تاريخية عامة. واتصفت كتابته بالوضوح والحيوية بهدف اكتساب أكبر عدد من القراء.

وثمة هجوم شديد على المذهب اللوثرى شنه أحد اليسوعيين الفرنسيين هو لويس ميمبورج (١٦١٠ – ١٦٨٦ م) وقد ضمنه ذلك فى كتابه عن «تاريخ المذهب اللوثرى». وقد جمع ميمبورج معظم نواحى الحوار الكاثوليكى التقليدى ضد اللوثرية ولكن دون أن يتبع المنهج القاتم الكئيب الذى كان شائعاً فى ذلك العصر. وأهم ما تميز به هذا الكتاب هو أسلوبه اللاذع الذى كان يرضى الذوق الأدبى فى ذلك العصر ويجتنب فى نفس الوقت مجهوداً

(1) History of Modern Culture 1, 267.

كبيراً من القراء . ولقد لاقى هذا الكتاب نجاحاً باهراً بوصفه صورة شعبية محببة للجدل التاريخي والديني . ولكن أهميته تتضاءل إذا نظرنا إليه بوصفه بحثاً قائماً بذاته . هذا وقد ألف ميمبورج كتاباً آخر عن مذهب كالفن بعنوان «تاريخ مذهب كالفن» ولكن هذا الكتاب أقل شأناً من سابقه من ناحية النقد والمادة . وإذا كان ميمبورج من المؤرخين الذين ناصبوا البروتستانتية العداء إلا أنه لم يكن بوقاً من أبواق البابوية المخلصين لها . ذلك أنه دافع بقوة عن حرية الكنيسة الفرنسية الأمر الذى حدا بالبابا إلى طرده من هيئة اليسوعيين سنة ١٦٨٢ م ، ولكن الملك لويس الرابع عشر قرر له معاشاً .

ثم كتب لودفيج فون سيكندورف Ludwig von Seckendorf (١٦٢٦ – ١٦٩٢ م) من إقليم ساكس جوتا (فى بافاريا) كتاباً كبيراً بعنوان «شرح تاريخى ودفاع عن اللوثرية وحركة الإصلاح الدينى» صدر فيما بين سنتى ١٦٨٨ م – ١٦٩٢ م . وينتمى سيكندورف إلى مدرسة سليدانوس . ولا يحوى كتابه كثيراً من المادة المبتكرة ومع ذلك فإنه تلخيص طيب وسليم لموقف البروتستانت . ولم يهدف سيكندورف من وضعه إلى الرد على ميمبورج فحسب بل منازلة عدو أكثر خطراً يتمثل فى مشكلة التشكك وعدم المبالاة بالأسس الرئيسية الخاصة بحركة الإصلاح الدينى . وكان أن وضع الأمراء السكسون كل سجلاتهم تحت تصرف سيكندورف ، وبهذا استطاع أن يستخدم مصادر لم يقترب منها من قبل أحد المؤرخين البروتستانت . وجاء كتابه فقرة بعد فقرة دحضاً للآراء التى جاء بها ميمبورج مستنداً إلى المصادر ، ومضيفاً الكثير على سبيل التوضيح والشرح والتعليق . ووضع سيكندورف كتاباً مفيداً عن تاريخ الكنيسة لأغراض الدراسة الجامعية باسم «موجز التاريخ الكنسى» .

وإذا كان بارونيوس قد استعان فى دفاعه عن الكاثوليكية بتاريخ الكنيسة فإن ثمة مؤرخ آخر دافع عن الكاثوليكية مستعيناً بالتاريخ أجمع ونعنى به الأسقف جاك بنيامين بوسويه Jacque Benigne Bousset (١٦٢٧ – ١٧٠٤) صاحب كتاب «تاريخ الخلافات بين الكنائس البروتستانت» وقد حاول فى هذا الكتاب أن يقنع البروتستانت أنهم سائرون فى طريق خاطئ بأن وضح لهم أن الانقسامات الطائفية لا يمكن أن تنتهى وأن النتيجة النهائية الحتمية لمثل هذا الانفصال هى الالحاد والفوضى وانحلال الأخلاق . وتلمس بوسويه مبررات كافيه لتبرير وجهة نظره فى مجرى تاريخ الحركة البروتستانية ذاتها من بدايتها حتى أيامه . وتكمن أهمية بوسوية فى أنه الوحيد بين رجال الجدل الكاثوليك والبروتستانت على السواء – الذى استطاع أن يغوص إلى مستوى أعمق من مستوى الشخصيات والأحداث وأن ينظر إلى الصراع فى أعمق مظاهره الفلسفية بوصفه صراعاً بين الحرية والسلطة . وكان معنى انتصار الحرية فى هذا الصراع بالنسبة له هو انتصار اللامبالاه والإلحاد والفوضى الدينية . ولقد بذل بوسويه جهداً عظيماً حتى يكون متزناً فى عمله فوجه كتابه مباشرة إلى القراء البروتستانت

الذين كان ينشد عودتهم إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . لذلك نراه يعترف بأن هناك بعض البابوات المنحرفين وأن الكنيسة فى أيام لوثر كانت محتاجة فعلاً إلى الإصلاح وأن لوثر نفسه كان يتمتع بكثير من الصفات الطيبة ولكن بوسويه كان حريصاً فى الوقت نفسه على أن يستغل كل ما وجه للبروتستانت من اتهامات لتدعيم آرائه .

ولقد بان واضحاً فى كتاب بوسويه الذى اسماه «حديث عن تاريخ العالم» رجوعه إلى دراسة كل تاريخ البشرية . وتتبين فى هذا الكتاب أن بوسويه اعتنق آراء القديس أوغسطين ومنهج أوروزيوس . ولذلك قيل عنه حقا إنه «أوروزيوس الحركة المضادة للإصلاح الدينى . وعلى الرغم من أن كتابه عن تاريخ العالم يفوق فى مستواه ونظرته الفلسفية كتاب «سبع أسفار فى التاريخ ضد الوثنية» الذى كتبه أوروزيوس ، إلا أنه كان من وجهة النظر التاريخية دون مستوى كتاب مابيلكوس ، ويقول فيوتر عن كتاب بوسويه إنه لم يكن عملاً تاريخياً إذ لم يعد كونه مجموعة من العظات الدينية استبدلت فيها نصوص الإنجيل بمادة تاريخية[1] وواضح أن الكاتب بذل جهداً كبيراً ليؤكد القدرة الإلهية فى صنع التاريخ . لقد اعتقد بوسويه أن أحداث التاريخ الدينى كانت من صنع الله شأنها شأن التاريخ الدنيوى ، وإن كانت القدرة الإلهية تبدو بصورة مباشرة وواضحة فى صنع التاريخ الدينى . وقسم بوسويه كتابه إلى ثلاثة أجزاء رئيسية ، فاستعرض فى الجزء الأول التاريخ منذ بدء الخليقة حتى عهد شارلمان وتناول فى الجزء الثانى تاريخ العقيدة المسيحية مبيناً أنها كانت دائما تحت الرعاية والتدبير الإلهى . ثم وصف بوسويه فى الجزء الثالث والأخير قيام الإمبراطوريات وسقوطها مبيناً أن ذلك كان رد فعل لرضاء الله أو غضبه .

وهكذا نرى أن كتاب بوسويه عن تاريخ العالم ، يمثل إحدى المحاولات الأخيرة الجادة لتفسير تاريخ العالم فى ظل العناية الإلهية وذلك بمنطق اللاهوت القديم . وبعد أن أصدر فولتير كتابه عن سلوك الأمم وروح الشعوب فى منتصف القرن التالى لبوسويه لا نجد سوى قليلاً من مشاهير المؤرخين توافرت لهم الجرأة للإقدام على إحياء مبادئ أوروزيوس وبوسويه

(1) Futer op. cit p. 360.

اليسوعيون (الجزويت)

ظهرت فى أعقاب الحركة البروتستانتية كرد فعل أخطر ما يكون لحركة الإصلاح الدينى حركة أطلق على رجالها «مجتمع يسوع» وتعرف الآن عادة باسم «اليسوعيين» ولقد أسهمت هذه الحركة بقدر هائل فى كتابة التاريخ الكنسى ، ولهذا وجب علينا أن نقف عند بعض مؤلفاتها الرئيسية .

كانت أحسن التراجم الشخصية فى ذلك الوقت بأجمعه هو ما كتبه عن نفسه مؤسس الحركة اليسوعيه وهو إجناتيوس لويولا الذى أملى مادته فى الفترة ما بين سنة ١٥٥٣ ، ١٥٥٦ م فجاءت تحفة رائعة من التحليل الذاتى المساير للعقل ولقد أقدم لويولا على هذا العمل بعد أن أعد نفسه له ، فقضى سنوات فى التأمل والعبادة . ومع أن أى محلل نفسانى حديث سوف يفسر خبرات لويولا الشخصية بطريقة مخالفة تماماً للطريقة التى فسرها هو بها ، إلا أن كتابه يعتبر عملاً فريداً بالنسبة لعصره .

أما أحسن التراجم التى كتبت عن لويولا فى ذلك العصر فهى ما كتبه بطرس ريبادنيرا Pierre Ribadeniera وهو يسوعى من الإنسانيين (١٥٢٧ – ١٦١١ م) . ويعتبر فيوتر هذا الكتاب أحسن التراجم التى كتبها المؤرخون من رجال المدرسة الإنسانية . ذلك أنه تعمد الابتعاد عن طريقة كتاب التراجم فى العصور الوسطى وهم الذين كانوا يقبلون الحقائق على علاتها ، واستبعد المعجزات غير المعقولة ونسخ فى كتابه هذا أجزاء مما كتبه لويولا عن نفسه ، محاولا أن يضعه فى المكان اللائق به فى تاريخ الكنيسة ، وخاصة فى مجرى تطور الكنيسة الكاثوليكية . والواقع أن بطرس ريبادنيرا كان من أنصار الكنيسة الكاثوليكية ومن أشد المعجبين بلويولا ، ولكنه لم يترك ما جاء به من مادة تاريخية معلقة وحدها فى فضاء التاريخ ، وإنما ربطها لويولا بالتطورات التى حدثت فى عصره وساعده على ذلك براعته فى الكتابه بأسلوب لاتينى رفيع واضح .

وثمة كتاب آخر عن لويولا وإن كان أقل فى مستواه بكثير عن الكتاب الأول ، ونعنى به الكتاب المسمى القديس اجناتيوس لويولا وعاداته الذى ألفه جيامبترو مافى Giampietro Maffi (١٥٥٣ – ١٦٠٣ م) . ومن العيوب الظاهرة فى هذا الكتاب سطحيته

وتمجيده لشخص لويولا إلى حد العبادة ، ونسبه كثير من المعجزات إليه مستخدما اسلوب بلاغياً محاكياً فيه أسلوب شيشرون .

أما أول كتاب جيد عن تاريخ المجمع اليسوعي فهو ذلك الكتاب الذى ألفه يسوعى من فلورنسا يدعى نيقولا أورلانديني Niccolo Orlandini (ت ١٦٠٦ م) وكان نيقولا هذا مؤرخا قديرا استطاع بكتابه هذا أن ينتج عملاً ينم عن مقدرة عظيمة . أما من الناحية الفكرية فكان يميل نحو الشك المعتدل الذى اتصفت به المدرسة الإنسانية فى أواخر عصرها فى إيطاليا . ولذا فإنه فقد الغالبية العظمى مما نسب إلى لويولا من معجزات وأعمال خارقة ، هذا مع احتفاظه بصفة الأمانه إلى الحد الذى جعله يكشف النقاب عن النشاط السياسى لليسوعيين ، كما أعطى اهتماماً كبيراً لنشاطهم الثقافى وخاصة فى مجال التربية والتعليم . أما أسلوبه فكان مثل اسلوب ريباردنيرا – أسلوباً لاتينياً سليماً راقياً .

على أن أعظم ما أسهم به اليسوعيون فى الدراسة التاريخية فى ذلك العصر كان العمل الذى بدأه هربرت روزويد Herbert Rosweyde (١٥٢٩ – ١٦٢٩ م) والذى جمع فيه عدداً هائلاً من تراجم القديسيين جمعاً مرتباً منظماً . وكان أهم من اشتركوا فى هذا العمل العظيم حنا بولاند اليسوعي (١٥٦٩ – ١٦٦٥ م) وهو من الأراضى المنخفضة الاسبانية[1] . وعرف هذا الكتاب قبل أن يستكمل بعد باسم «أعمال القديسين» وفيه رتب القديسون بترتيب أعيادهم وهى تواريخ وفاتهم التى تعتبر تواريخ ميلادهم بالنسبة للحياة الأخرى . توضع فى المقدمة جميع القديسين الذين وافتهم المنية فعلاً أو الذين روت الأساطير أنهم ماتوا فى أول يناير . أما أولئك الذين توفوا فى ٣١ ديسمبر فيأتون فى المؤخرة . ويعتبر هذا الترتيب مربكا من الناحية التاريخية ويفضل عليه الترتيب التاريخى المعتاد . ولقد تم فى حياة بولاند إتمام الأجزاء التى تتناول القديسين الذين توفوا فى شهرى يناير وفبراير وظهر أول جزء منه سنة ١٦٤٣ م . وبعد ذلك قام تلامذته : هنشن ، بابيروخ بتكلة الكتاب . وتكمن أهمية هذا الكتاب فيما اشتمل عليه من حشد هائل للقديسين ، كما أنه يستوعب مادة ضخمة للتراجم جمعت فى مكان واحد ، هذا بالإضافة إلى أنه أسهم ولو بقدر محدود فى تطوير مبادئ النقد التاريخى . ذلك أن الكاردينال روبرت بالرماين Robert Bellarmine الذى نذكره بالعرفان لما كان من أمر صداقته لجاليليو كان قد حذر من أن كثيراً من الحقائق المتداولة عن حياة القديسين فى دنياهم الحقيقة تبعث على الفكاهة أكثر مما تبعث على الاقتناع والإيمان . ولهذا رفض بولاند ومساعدوه كثيراً من المعجزات التقليدية واحتفظوا فقط بتلك التى تحوى قدرا من الإقناع والإيمان .

---

(١) تعرف الآن باسم بلجيكا (المؤلف) .

وكان أن اقترب عصر الجدل الديني من نهايته عندما ظهر اتجاه جديد كان بمثابة البداية للتاريخ العلمي للكنيسة . واتضح هذا الاتجاه في أعمال يوحنا فون موشيم jahannes von Mosheim (١٦٩٤ م – ١٧٥٥ م) وهو أستاذ جامعي بارز في علم اللاهوت وتاريخ الكنيسه . وقد ألف عدداً من الكتب في حقل تخصصه ، ولكن أتم هذه المؤلفات كان كتابه « مبادئ وأسس التاريخ الكنسي القديم والحديث » الذي ظهر سنة ١٧٥٥ م . ذلك أنه جمع في كتابه هذا بين طول الباع في المعرفة بتعاليم المذهب البروتستانتي والنظرة البروتستانية إلى تاريخ الكنيسة،وأخرج ذلك في مجلد ضخم قصد به أن يكون مرجعاً للدراسة الجامعية في ذلك الميدان وتميز هذا الكتاب باعتدال لهجته واقترب نوعاً من المذهب العقلاني ، ولو أنه لم يشارك مطلقاً العقلانيين في نقدهم لأسس العقيدة المسيحية . هذا إلى أن موشيم رفض الأخذ بفكرة أن نظام الوجود صادر مما فوق الطبيعة Supernaturalism وهي الفكرة التي أخذ بها الكاثوليك والبروتستانت تاريخ الكنيسة . والملاحظ . أنه كان ضعيفاً في معالجته للعصور الوسطى ليس فقط بسبب نظرته إلى تلك العصور من الوجهة البروتستانتية ، وإنما لأنه تجاهل أموراً بالغة الأهمية مثل قانون الكنيسة ونظم إدارتها . هذا إلى أن روايته عن أسباب حركة الإصلاح الديني وتطورها اعتمدت تماماً على تفسيرات البروتستانت . ومع ذلك فإن حديثه عن الثورة البروتستانتية جاء معتدلاً ومتزناً . والحق أن كتابه هذا أتم كتاب في موضوعه قدمه مؤرخ بروتستانتي سابق ، أو أنه على حد قول فيوتر « يمثل انتاج أستاذ قدير وكاتب متمرس ولكنه لايمثل عمل مؤرخ عظيم أو مفكر مبتكر . »[1]

ومع ذلك فإن علاج تاريخ حركة الإصلاح الديني من زاوية الجدل أو من زاوية ماوراء الطبيعة لم يتوقف بعد وفاة موشيم . ولعل أشهر تاريخ يحتفظ بالطابع البروتستانتي من ناحية وبطابع مافوق الطبيعة من ناحية أخرى ، هو ما كتبه المؤرخ السويسري حنا هنري ميرليه دي او بينه Jean Henri Merle d'Aubigné (١٧٩٤ – ١٨٧٢م) الذي يعتبر كتابه . تاريخ حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر (١٨٣٥ – ١٨٥٣) عملاً واسع الشهرة إجتذب كثيراً من القراء ، بل إنه كان آخر صدى عظيم لروح كتاب « مئويات ماجديرج »

وإذا كنا قد تعرضنا للأسقف بورنت في مناسبة سابقة ، إلا أنا لا ينبغي أن يفوتنا هنا أن نشير إلى كتابه . تاريخ حركة إصلاح الكنيسة الإنجليزية ، بوصفه – على الارجح – خير إنتاج تاريخي تناول كل مرحلة من مراحل حركة الإصلاح الديني من بدايتها حتى أيام موشيم وترجع أهمية هذا العمل بصفة خاصة إلى عنايته بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي حركت موجة الإصلاح الديني أو التي نتجت عنها .

(1) Fueter op. cit. 336.

وبعد ، فانه لا يفوتنا فى هذا الفصل الذى تناولنا فيه التاريخ والجدل الدينى فى عصر حركة الإصلاح الدينى والحركة المضادة أن نقول كلمة عن الجدل الذى دار حول التقويم التاريخى ، وهو الجدل الذى استحوذ على اهتمام المؤرخين منذ البداية والذى حاول أن يضع حلاً له بالنسبة للمسيحين كل من ايوزبيوس ، جيروم ، بيدى .

والواقع أن كل التقديرات والحسابات التاريخية فى العالم المسيحى كانت على أساس ماجاء فى الإنجيل عن بدء الخليقة ، ومن ثم فقد صار من المفروض أن يبدأ تاريخ البشرية بعهد آدم . ولكن هناك تقدير عبرى مقبول يحدد بداية الخليقة لسنة ٣٧٦١ ق . م . وقد عدل المؤرخون المسيحيون هذا التاريخ بحيث يتفق مع مفاهيمهم التاريخية ونظرتهم الى التاريخ وفكرتهم عنه ، تلك الفكرة التى قامت أصلاً على وجود سبعة عصور رمزية للانسان – تكون فى مجموعها مايعرف بالأسبوع الكونى – ويمتد كل عصر منها الى ألف سنة . وعلى هذا حدد المسيحيون بداية الخليقة لسنة ٤٠٠٠ ق . م ، وكان الاعتقاد السائد هو أن العصر المسيحى سيستمر ألفى سنة أخرى وبعدها تأتى الألف سنة الأخيرة ، وكان أن أقر لوثر هذا التقدير واعتبره مقدساً وقال إن نوح جاء بهنة ٢٠٠٠ ق . م . أما العلامة سكاليجر الذى عنى بدراسة التقاويم فكان يرى أن بداية الخليقة حدثت سنة ٣٩٤٧ ق . م وأن المسيح ولد فى السنة الرابعة ق . م ، وأن آدم قد خلق فى ٢٣ أبريل . وبالاعتماد على علم الفلك والكتاب المقدس توصل يوحنا كبلر إلى تقدير بداية الخلق لسنة ٣٩٩٢ ق . م وقال إن ميلاد المسيح تم فى السنة الخامسة ق . م .

ومهما يكن من أمر فإن أكثرهذه التقديرات قبولاً وشيوعاً هو تقدير الأسقف جيمس أوشر الذى بلغ درجة هائلة من الدقة فى كتابه «حوليات العهدين القديم والجديد» (١٦٥٠ – ١٦٥٣ م) فقال إن أسبوع الخلق بدأ يوم الأحد ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م وأن آدم خلق يوم الجمعه ٢٨ أكتوبر من نفس السنة بينما ولد المسيح فى السنة الرابعة ق . م . ثم أجرى لايتفوت lightfoot بعض التغيير على هذا التقدير ليجعله أكثر دقه بأن حدد

إلى جانب الأيام الساعات فذكر أن آدم خلق فى الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعه ٢٨ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م .

ولم يلبث أن ظهر الرواد الأوائل لعلم الجيولوجيا فأتوا بأفكار ومعلومات جديدة جعلت كل التقديرات الدينية تبدو غاية فى الحماقه والعجز والبعد عن المنطق الطبيعى برغم مابذل من جهد .

وأخيراً ، فإن الكتب والمؤلفات التى ذكرناها فى حديثنا فى هذا الفصل ليست إلا أبرز ما كتب عن الجدل الدينى من بين عدد ضخم من المؤلفات التاريخية الأقل أهمية عن عصر حركة الإصلاح الدينى والحركة المضادة لها . ومع ذلك فهى تكفى لتصوير الاتجاهات العامة فى منهج التاريخ وتفسيره على ذلك العصر . والواقع أن الجدل لم يتوقف كلية فى الزمن المعاصر ، كما يتضح عند مقارنة بين إنتاج فون رانكه وسكاف من ناحية وبين ما كتبه دولينجر ، ويانسين من ناحية أخرى . وبينما أهل الجدل من الإنسانيين ورجال الدين يواصلون كتاباتهم ، إذا بأوربا تتطور لتأخذ شكلاً جديدا بتأثير التوسع الجغرافى والثورة التجارية وهى العوامل التى تجمعت عن الحضارة الحديثة وما صحبها من مولد كتابة تاريخية على اسس علمية عقلانية.

المـــراجع

1. **Preserved Smith:** The Age of the Reformation pp. 579 - 88, 699, 750
2. **A History** of Modern Culture 1, 258, 69, 11, 24. 16.
3. **Guilday;** church Historians, pp. 153-211.
4. **Thompson:** History of Hisorical Writing Vol. 1 chaps XXX-XXXVI
5. **Will Durant:** The Reformation, Simonand Schuster 1958.
6. **H.O. Taylor:** Thought and Expression in the Sixteeth century 2 vols.. Macmillan.
7. **T.M. Lindsay:** History of the Reformation 2 vols (Scribner 1928).
8. **A.C. Mc Giffert:** Protestant thought before kant (Scribner) 1915.
9. **R.H. Tawrey:** Religion and the Rise of Capitalism (Harcourt Brace) 1926.
10. **Piene Janlles:** The Catholic Reformation Bruce, 1949.
11. **J.H. Robinson:** «The Study of the Lutheran Revolt» American Historical Review, January 1903 pp. 205 - 16.
12. **Fueter:** Histoire de l'historiographie moderne pp. 303 - 06.
13. **Wegele:** Geschichte der deutschen Historiographie Books 1 - 11.
14. **Hippolyte Delehaye:** The Work of the Bollandists through Three centuries, 1615 - 1915 (Princetion University press 1927.
15. **Gustav Wolf:** Reformation geschichte:. Gotha, 1915 - 22 2 vols.
16. **Heinrich Boehmer:** Luther and the Reformation in the light of Modern Research. London 1930.
17. **F.C. Bauer:** Die Epochen der Kirklichen Geschichtsbriehung, Tubingen, 1852.
18. **K. Völker:** Die Kischenges chichtss chreibung der Auflklärung, Tubingen 1921.
19. **Eberhard Gothein:** Schriften Zur Kulturgeschichte der Renaissance, Reformation and Gegenreformation, Munich 1924.
20. **Adolph Harnach:** History of Dogma 7 vols bound as 4 vols Dover publications Inc. 1961. vol. 111.
21. **I.F. Mozley:** John Foxe and His Book Macmillan 1940.
22. **Emil Menke - Glückert;** Die Geschichtss chreibung der Reformation und Gegenreformation Leipzig 1912.
23. **Amabel Kerr:** Life of Cesare Card, Baronius London 1898.
24. **George Goyan:** Le Catholicisme et L'histoire Ecclesia, paris 1927.
25. **J.M. Headley:** Luther's view of church History Yale university press 1936.

الفصل السابع

نشأة التاريخ الاجتماعى الثقافى

عصر الكشوف الجغرافية ونمو الحركة العقلانية

الأثر العام لحركة التوسع الأوربى على الكتابة التاريخية

ظل التاريخ فى العهود القريبة جدًا يمثل دائرة تخصص الأدباء ورجال اللاهوت ، الأمر الذى نتج عنه اعتبار عصر النهضة وحركة الإصلاح الدينى بداية المرحلة الحديثة فى تطور الكتابة التاريخية . وإذا كان هناك اليوم شبه إجماع على اعتبار التاريخ من أوسع معانيه فرعاً من العلوم الاجتماعية الأمر الذى جعله من حيث نوعيته ينتمى إلى أسرة العلوم بوجه عام ، لذلك بات من الضرورى أن نبحث فى مكان آخر عن الأسباب التى أخرجت الكتابة التاريخية الحديثة إلى حيز الوجود . وهناك نجد أن أصول الكتابة التاريخية الحديثة تكمن فى النتائج الفكرية التى ترتبت على فترة التحول العظيمة التى تمثل بداية الوضع الاجتماعى والفكرى الحالى ، ونعنى بهذه الفترة « التوسع الأوربى » . ونعنى بهذا الاصطلاح الأخير تلك الفترة التى امتدت خلال قرون ثلاثة من ١٤٥٠ م ألى ١٧٥٠ م ، والتى شهدت اكتشافات جغرافية هائلة كان لها أكبر الأثر على الفكر الأوربى والأنظمة الأوربية[1] . ولم يعد من الممكن أن تساير حياة العزلة والحياة الرئيسية المألوفة والاستقرار فى ظل العزلة الإقليمية الوضع الجديد الذى تميز باتصال واسع بين الحضارات المختلفة . وهو الاتصال الذى كان أقوى العوامل الباعثة على تحويل الفكر وتنشيط البحث والحث على إحداث تغيير فى كل مجال .

ويتضح تأثير حركة التوسع الأوربى على الكتابة التاريخية أكثر مما يتضح فى ذلك الطابع الثورى الذى أحدثته هذه الحركة بالنسبة لدائرة اهتمام المؤرخ . ذلك أنه لم يعد من الممكن أن تستمر الدائرة الضيقة التى دارت حولها الكتابة التاريخية على ماهى عليه ، كما لم يعد

---

(1) H C. Brarnes A History of Western Civilization vol 11 part 1. (Harcourt Braee 1935) 2 Vols

من الممكن كذلك أن يظل البحث التاريخى يتسم بالسطحية على النحو الذى استمر عليه منذ أيام ثيكوديدس واورزيوس . وكان العهد الجديد يحمل فى ركابه بشيراً بمضى المؤرخ قدما فى نفس الطريق الذى سبق أن مضى فيه هيرودوت . ولذلك نرى الكتاب فى ذلك العهد وقد توقفوا إلى حد ما عن معالجة التاريخ معالجة سطحية لاتتعدى جوانبه السياسية والكنسية ، ونراهم قد اهتموا لأول مرة بدراسة الحضارة البشرية بوصفها وحدة متكاملة . وإذا كانت الحركة الإنسانية قد أحيت عند المؤرخ سعة الأفق واتجاهه لدراسة الأمور العلمانية فإن هذه الحركة الجديدة أكدت هذه المعانى وأعطتها قوة دفع جديدة وحددت له معالم الطريق . ذلك أن الأمر لم يقتصر على مجرد العثور على رصيد ضخم جديد من المعرفة نجم عن الاتصال بحضارات الشرق القديمة ، وإنما عثر المؤرخون والفلاسفة فى ثقافات الشعوب الأخرى على « الإنسان الطبيعى » Natural man الذين كانوا يعتقدون أنه ليس له وجود إلا فى العهود الأسطورية التى سبقت عهد الطوفان . وليس هناك أفضل لإيضاح أثر حركة الكشوف الجديدة بالنسبة للمؤرخ من أن نقارن بين مجالات اهتمام مؤرخ مثل بوفيندورف ومجالات اهتمام مؤرخ آخر مثل جومارا .

يضاف إلى ذلك أن اتساع دائرة نشاط علم التاريخ وازدياد مجالات اهتمام المؤرخ أتاح مزيداً من الفرص للابتكار والتجديد فى عالم الفكر ، وذلك لعدم وجود سوابق مليئة بالأخطاء فى هذه المجالات الجديدة يمكن أن يستشيرها الباحث ويعتمد عليها ويستمد منها . فنحن لا نجد مثلاً أى حديث واضح يعتمد عليه بخصوص عادات الزواج فى بورنيو أو العلاقة بين الناس فى اركواز فيما كتبه ثيكوديدس أو بوليبوس أو ليفى ، ولا عند أوغسطين واكويناس ، إذ لم تتعد كتاباتهم من هذه الناحية أكثر من ذكر « للدولة الطبيعة » التى تناقلوا فكرتها عن الرواقيين والمحامين الرومانيين ، التى بدا عندئذ فى عصر الكشوف أن لها أساس عملى فى حياة السكان الأصليين فى البلاد المكتشفة .

والواقع أن حركة التوسع الأوربى كان لها تأثير كبير وإن كان غير مباشر على الكتابة التاريخية وذلك نظراً لما صاحب هذه الحركة من تغيرات فكرية واجتماعية ، ثم انعكاس هذه التغيرات على الاهتمامات والمناهج التاريخية . ومع ذلك فقد كان لهذه الحركة أيضا نتائج مباشرة سريعة ظهرت فى الكتابة التاريخية التى كتبها أولئك الذين تناولوا موضوع الكشوف ، إذ نلاحظ فى هذا النوع من الكتابة تغييرات جذرية فى الأسلوب وطريقة العرض . ذلك أن الطريقة الحولية فى كتابة التاريخ لم تعد مناسبة للمقام بعد أن اصبحنا أمام ظواهر تتطلب أن تكون الكتابة عنها وصفاً شاملاً لامجرد عملية تأريخية . هذا إلى أن الغالبية العظمى من المؤرخين الأول لحركة الكشوف كانوا رجال أعمال عمليين فكتبوا بأسلوب مباشر بعيد عن الافتعال وعلى الرغم من وجود ميل لدى بعض الكتاب الذين جاءوا بعد قليل مثل هيرارا نحو

محاكاة طريقة الإنسانية فى الكتابة ، فإن الكتابة التاريخية فى ذلك العلم أبتعدت تماماً عن الطريقة التقليدية من حيث الشكل والأسلوب ، فضلاً عن أن ماتضمنته هذه الكتابة من مادة جاء مخالفاً تماماً عن سابقه .

وهكذا لم تعد الكتابة التاريخية مجرد سرد للمؤامرات والدسائس فى مجال السياسة والأوساط الدينية بل أصبحت وصفاً شاملاً لعادات الشعوب وسلوكها . وكان لهذا الاتجاه تأثيره القوى حتى على الكتاب الذين اقتصرت كتاباتهم على شعوب أوربا والمسائل الأوربية . من ذلك أن العالم الإسبانى جوان بايز دى كاسترو وهو من أعلام الحركة الإنسانية فى منتصف القرن السادس عشر – أوضح القيمة التربوية التعليمية من مقارنة سلوك شعوب ماوراء البحار وعاداتها بشعوب أوربا . وبعبارة أخرى فإن ماكتبه جيروم فى تاريخه لم يعد أهم ما يمكن أن يصدر به كتاب التاريخ ، وكذلك شجرات أنساب الملوك والأسرة الحاكمة . وصار لابد من أن يحل محل هذا كله وصف البلاد والشعوب . ولأول مرة منذ عهد المؤرخين الأيونيين فى القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد . احتل علم الجغرافيا ووصف الشعوب مكاناً مرموقاً فى كتابة التاريخ وذلك باستثناء ماكتبه عدد محدود من المؤرخين أمثال جيرالدوس كامبرنسيس ، رالف هيجدن فى انجلترا ، إيتاس سلفيوس وتلاميذه فى ألمانيا . وأخيرا وعلى الرغم من أن الرواد الأول لهذه المدرسة الجديدة كانوا فى المحل الأول من جامعى المعلومات الخاصة بوصف الشعوب وعاداتها ، إلا أنهم أصبحوا بعد ذلك من النوع الناقد المحلل . وفى أعمال فولتير وهيرور تبدو محاولات لكتابة تاريخ العالم وفق المنهج الجديد وبصورة اتسمت بالشمول واتضح فيها جانب التحليل والإستنتاج .

ولقد ظهر مقدمات آثار حركة الكشوف والتوسع الأوربى على المعرفة التاريخية وكتابة التاريخ فى أدب الرحلات الذى أنتجه رحالة العصور الوسطى ومغامروها فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، أمثال حنا بلانو كاربينى ، وليم روبروك ، وماركوبولو ، وحنا مونت كورفينو وابن بطوطه ، وظهر هذا الأثر على التاريخ أشد مايكون وضوحاً فى الكتاب الشهير الذى كتبه ماركوبولو عن رحلاته (١٢٥٤ م — ١٣٢٤ م) وكذلك فى كتاب رحلات حنا دى مانديفيل ، وهى ممتعة حقًّا على الرغم مما فيها من خيال ، وقد ظهرت بعد منتصف القرن الرابع عشر بقليل .

أما ماركوبولو فقد قضى عشرين سنة فى الشرق الأقصى شغل خلالها مناصب هامه مكنته من أن يدرس عادات أهل الشرق مما أفاده فى كتاباته . وفى السنوات التى أعقبت سنة ١٢٨٩ م ، وبينما كان ماركوبولو سجينا فى جنوه بعد عودته من الشرق أملى ماركوبولو ما تذكره من رحلاته ومشاهداته على رفيقه فى السجن ، روستيكانو البيزى Rusticiano of pisa الذى كان لحسن الحظ ذا كفاية أدبية عالية . وهكذا ظهرت رحلات

ماركوبولو التي تعتبر من أهم ماكتب في موضوعها . وفي هذا تقول إلين باور Eileen Power «من المستحيل أن نبالغ في الحديث عن مدى اتساع نطاق مشاهدات ماركوبولو ووقتها حقيقة إن كان يعيد بعض حكايات الرحالة السابقين الدارجة وأنه عندما كتب اعتمد على السماع مما أوقعه في أخطاء هنا وهناك ، ولكنه سجل كل مارآه بعينيه بكل دقة ، إذ كانت لديه فرصة عظيمة للمشاهدة وكان رائعا في استغلال هذه الفرصة أعظم استغلال»[1] .

أما كتاب رحلات السير جون دى مانديفيل فكان ذا طبيعة مختلفة إذ غلب عليها الطابع الميداني الخيالي المستمد بطريقة عشوائية من أعمال السابقين وموسوعاتهم أمثال بلينى ، ومما جمعه رجال العصور الوسطى أمثال فنسانت المنسوب إلى بوفيه Vincent of Beavaies فضلاً عن تقارير الرحالة المغامرين الذين جابوا الشرق الأقصى . وعلى الرغم من أن هذا العمل لم يكن سوى خليط نادر من الحقيقة والخيال فإنه أخذ بألباب الناس ، وكان له أكبر الأثر في زيادة فضولهم بالشرق وبثرواته وعجائبه وثقافاته . ومهما يكن من أمر ، فإنه يحسن بنا ألا نخرج كثيراً عن الموضوع الأساسي الذي نعالجه في هذا الباب وهو الكلام عن مؤرخي حركة الكشوف وحركة التوسع والاستعمار بعد سنة ١٤٩٢ م .

أما أول هؤلاء فهو كريستوفر كولمبس الذي لم يستطع ان يكمل ما كان يطمع فيه من وصف العالم الجديد ، ولكنه كتب بإسهاب عن اكتشافاته ، ودفعته رغبته في تمجيد نفسه تحت تأثير الغرور إلى المبالغة واختلاق أشياء ووقائع خيالية لا أساس لها . وعلى الرغم من ذلك فإنه وصف مشاهداته وصفاً على درجة معقولة من الدقة والاعتدال والموضوعية . ولعل ما أشيع عنه من أنه «تاجر أساطير» إنما يرجع إلى وصفه أشياء لم يكن قد رآها فعلاً . أما أهم وصف لطبيعة العالم الجديد وثقافته فجاء في التقارير التي كان يرسلها إلى أسبانيا هرناندو كورتز Hernando Cortez الذي غزا المكسيك . ذلك أن تقاريره تضمنت وصفاً غاية في الوضوح برغم ما فيها من اختصار وإيجاز ، وكل ما يشوبها هو حرص كاتبها على تبرير أعماله . ويقارن فيوتر هذه التقارير بتقارير يوليوس قيصر ، وهي مقارنة لها بعض ما يبررها . وبإمكاننا الآن أن ننتقل إلى عرض لقوائم المؤرخين الذين أمدونا بأول وصف تاريخي دقيق للكشوف والفتوحات .

فإنه من الطبيعي أن يكون المؤرخون الأوائل لهذه الفترة من رجال المدرسة الإنسانية الذين استثارت الحركة الجديدة انتباههم فطرأ تغيير ملحوظ على أسلوبهم وطريقة عرضهم للمادة . ولسوف نبدأ بمناقشة الكتابات التاريخية للمؤرخين في أسبانيا وإيطاليا والبرتغال في ذلك الدور .

---

(1) In A.E Newton, Travel and Travellers in Middle Ages (Kropf, 1926) p. 135

كان أول المؤرخين ذوى الأهمية الذين كتبوا عن العالم الجديد هو بطرس مارتر دى انجيرا Pietro Martire d'Anghiera (١٤٥٥ - ١٥٢٦م) الذى اشتهر باسم بطرس مارتير Peter Martyr كان هذا المؤرخ من رجال المدرسة الإنسانية فى إيطاليا ومن تلامذة إينياس سيلفيوس وبوجيو . ولكنه هاجر إلى أسبانيا ليعيش فيها حتى إذا ما كانت سنة ١٥٢٠ عين المؤرخ الرسمى لمجلس جزر الهند الغربية . وفيما بين سنتى ١٥١٦ ، ١٥٣٠م ظهر كتابه « عشرات السنين فى العالم الجديد » الذى كتب بطريقة فريدة عبارة عن رسائل أخبارية . وقد ظهر فى الكتاب براعة مارتير الأدبية وقدرته الفائقة على الوصف ، كما تظهر فيه أيضاً حرصه على البعد عن مناهج المدرسة الإنسانية كلما عن له ذلك . وبرغم افتقار الكتاب إلى العمق والنظرة الناقدة فإن كاتبه زودنا بملخص واف للتقارير التى كانت ترسل عن شعوب العالم الجديد حتى سنة ١٥٢٥ . وتنحصر أهمية هذا الكتاب بالنسبة لكتابة التاريخ فى أنه أول عمل من نوعه يصف ثقافة الشعوب ويبتعد تماماً عن الشكل السابق التقليدى فى كتابة التاريخ داخل إطار الحوليات السياسية والدينية .

أما كتاب « التاريخ العام الطبيعى لجزر الهند » الذى كتبه جونزالو فرناندزدى أوفيدوفلدس وهو أسبانى كان مهتما بدراسة العلوم الطبيعية ثم تحول إلى دراسة التاريخ (١٤٧٨ - ١٥٥٧م) ، فهو وإن كان دون كتاب مارتير من الناحية الأدبية فإنه يعلوه من ناحية القيمة التاريخية ، لأن فالدس قضى أكثر من عشرين سنة فى أمريكا يؤلف كتابه هذا فجاءت معلوماته دقيقه حيث إنه استمدها بنفسه ومن مشاهداته . ولقد تميز هذا الكاتب بمنهجه الموضوعى الذى يشبه منهج العلماء الطبيعيين ، ومن ثم اتصفت كتاباته بالدقة التى لا يرقى إليها الشك .

والملاحظ أن معظم الكتاب الذين تناولوا حركة الكشوف والتوسع الأوربى كانوا كثيراً ما يمجدون الغزاة فى كتاباتهم ، ولكننا نجد كاتباً كالأسقف الدومنيكانى بارتوليم دى لاس كاساس Bartoleme de Les Casas (١٤٧٤ - ١٥٦٦م) لا ينسى أن يشيد ببطولة المواطنين الأصليين من الهنود كما يبدو ذلك فى كتابه « عرض موجز لتخريب جزر الهند » وكتابه الثانى « تاريخ للدفاع عن جزر الهند » ثم كتابه الثالث « تاريخ جزر الهند » . ولعل عطفه على الهنود فى كتاباته هو الذى أوحى بفكرة « الهمجى النبيل » Noble Savage عند الأوساط الهندية الأوربية فى القرن الثامن عشر . وكان أن استخدم الإنجليز والهولنديون تعليقاته الناقدة كدعاية ضد الأسبان فى عدم اهليتهم لامتلاك وأدارة المستعمرات الجديدة .

أما فرانسيسكو لوبيز دى جومارا (١٥١١ - ١٥٦٠) فقد وصف فتح بيرو والمكسيك فى كتابه « التاريخ العام لجزر الهند » وقد ركز الحديث على فتح المكسيك حيث كان يعمل فى خدمة أسرة كورتز وإذا كان فيوتر يعتبره أقدر مؤرخى عصر الكشوف ، فإن الأستاذ ويلجس

Wilgus يعارضه فى ذلك ويعتبر جومارا كاتباً اعتمد على الاستماع أكثر مما اعتمد على الوثائق ولجأ فى بعض الأحيان إلى الاختلاق .

أما جوزى دى اكوستا José de Acosta (١٥٣٩ - ١٦٠٠ م) الذى كان من الرجال اليسوعيين المسئولين فى بيرو . فهو كاتب لا يشك فى صحة كتابته ودقتها . وقد ألف كتابه «التاريخ الطبيعى والأخلاقى لجزر الهند» واعتمد فيه إلى حد كبير على معلومات أصليه جمعها بنفسه ، وإن كان قد أضفى عليه روح اليسوعيين كما برزت فيها النزعة الأخلاقية .

وثمة كتاب آخر تناول وصف الكشوف الجغرافية هو كتاب جوان لويز دى فيلاسكو الذى سماه «جغرافيه جزر الهند ووصفها العام» (١٥٧٤) وجمع مادته من الوثائق التى وضعها - مجلس جزر الهند تحت تصرف المؤلف . أما رحلة ماجلان فقد وصفها أحد بحارته وهو انطونيو بجافيتا (١٤٨٠ - ١٥٣٤ م) فى كتابه «رحلة ماجلان حول العالم» .

ومن أهم الكتب عن أمريكا اللاتينية فى القرن السابع عشر كتاب وضعه انطونيو دى هيريرا توردسيلاس وأسماه «التاريخ العام» . وقد ألف كتابه هذا تحت رعاية الملك فيليب الثانى وظهر ما بين سنة ١٦٠١ وسنة ١٦١٥ م . وفيه تعرض للأحداث الهامة فى العالم الجديد حتى سنة ١٥٥٧ م . ولم يعتمد مؤلف هذا الكتاب على الوثائق اعتماداً واسع النطاق ولكنه سرق كثيراً وبطريقة مباشره من أعمال لاس كاساس . ويبدو أنه كان معجباً بمنهج المدرسة الإنسانية ، فجاءت أعماله مليئة بالبلاغة والمحسنات اللفظية . وعلى الرغم من اعتماد هذا الكاتب على مؤلفات لاس كاساس ، فإنه لم يشاركه احترامه للسكان الأصليين . وقد استغل هذا الكتاب الشهير على أنه دعاية أسبانية وترتب عليه تشويه الرأى العام الأسبانى عن الفتوحات . أما كتاب برنابية كوبو دى بيرالتا اليسوعى (١٥٨٢ - ١٦٥٧ م) فهوا أعظم قيمة من كتاب هيريرا حيث إن بيرالتا اعتمد أساساً على مشاهداته وملحوظاته الخاصة .

وتمخض القرن الثامن عشر عن عدة كتابات هامة عن العالم الجديد . فى سنة ١٧٧٢ م ظهر كتاب انطونيو دى اولوا Antonio de Uiloa بعنوان «ملحوظات عن الامريكتين» وهو غنى بالمعلومات القيمة عن أمريكا الأسبانية وخاصة بيرو ، وأكوادور . وفى سنة ١٧٨٩ أصدر انطونيو دى الكيدو بكسارافو (١٧٣٦ - ١٨١٢) كتابه المعجم الجغرافى والتاريخى لجزر الهند الغربية الأمريكية . ويحوى وثائق فى خمسة مجلدات ويعادل هذا الكتاب فى دقته كتاب جوان بوتستا موتوز Juon Bautista Munoz . (١٧٤٥ - ١٧٩٩ م) وعنوانه «تاريخ العالم الجديد» وقد ظهر سنة ١٧٩٣ م .

ثم إن هناك مؤلفات عديدة تتناول مراحل معينة محدودة من حركة الكشوف

والاستعمار فى أمريكا اللاتينية منها الكتاب الذى ألفه أوغسطين دافيلا باديلا (١٥٦٢ - ١٦٠٤ م) وهو أول كتاب هام عن الإرساليات الأسبانية فى دورها الأول بعنوان تاريخ مقاطعة سانتياجو بالمكسيك .أما ألونزو فرناندز فقد حكى جهود الكنيسة الكاثوليكية فى تبشير أهالى تلك البلاد بالديانة المسيحية وذلك فى كتابه الذى ظهر سنة ١٦١١ والذى أسماه التاريخ الكنسى للعصور الحديثة . ولم تقف جهود المؤرخ (جيل جونزالز دافيلا) عند حد تناول دور البعثات التبشيرية ، بل تعرض كذلك لعقائد الهنود أهل البلاد الأصليين . أما جوكان دى ريبادينيريا يبارنتوسRibadeneira y Barrentosفقد جمع فى كتبه الذى صدر سنة ١٧٥٥ كل الوثائق الكاثوليكية المتعلقة بالتبشير فى أمريكا اللاتينية . كذلك قام جوان دى سولرزا نو بيريرا (١٥٧٥ - ١٦٥٥) بجمع القوانين السائدة فى أمريكا اللاتينية فى أيامها الأولى فى كتابه الذى أسماه «تحرى الحقيقة حول قوانين جزر الهند» أما عن القانون التجارى فى ذلك العصر فلقد كتب جوزيه دى فتيا ليناج سنة ١٦٧٢ كتابه الذى أسماه «قواعد التجارة الأسبانية فى جزر الهند الغربية» وقد أمدنا برناردو دى فارجاس ماشوكا (١٥٥٧ - ١٦٦٢ م) بأحسن وصف للنواحى العسكرية فى أمريكا اللاتينية .

وهناك مؤلفات كثيرة عن المناطق التى احتلها الأسبان والبرتغاليون فى العالم الجديد وكان أول كتاب هام عن البرازيل هو كتاب عن «آسيا» الذى كتبه جوادى باروس (١٤٩٦ - ١٥٧٠ م) وهو مبنى على وثائق أصلية ، وصدر فيما بين عامى ١٥٥٢ ، ١٦١٥ م . وقد تناول أحداث اكتشاف البرازيل وغزوها بأسلوب واضح قوى ، كما عالج نفس الكتاب الغزوات البرتغالية فى جزر الهند الشرقية . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه ساعد كثيراً على محو الخرافات التى سادت فى هذا العصر عن تلك الجزر . وهناك كتاب هام آخر عن البرازيل وجزر الهند الشرقية وهو «التاريخ العام للهند الشرقية» (١٦٠٣) كتبه انطونيو دى سان رومان . وثمة كتاب ثالث لا يقل أهمية عن الكتابين السابقين هو كتاب . مانويل دى فاريا Manuel de Fariay Sousa (١٥٩٠ - ١٦٤٨ م) وأسماه «موجز تاريخ البرتغال» وقد تناول فيه أحوال البرازيل والمستعمرات البرتغالية فى جزر الهند الشرقية أما كتاب «تاريخ المجتمع السياسى فى البرازيل» الذى صدر سنة ١٦٦٣ فقد كتبه سيمان دى فاسكونسيلى اليسوعى Siman de Vasconcellos (١٥٩٧ - ١٦٧١ م) . كذلك من المؤلفات الهامة والمفيدة التى ظهرت فى البرازيل فى القرن الثامن عشر كتاب سيبا ستيوروخابيتا (١٦٦٠ - ١٧٣٨ م) واسمه «تاريخ أمريكا البرتغالية» سنة ١٧٣٠ م .

وأما بيرو فكتب عنها فرانسيكودى اكسترسيس (ولد ١٥٠٤ م) سكرتير بيزارو كتابه المشهور «نبذة صادقة عن فتح بيرو» (١٥٣٤) وقد كتبه بناء على طلب بيزارو نفسه كذلك يوجد تاريخ شامل لبيرو هو كتاب «تاريخ فتح بيرو» الذى ألفه بدرو دى جيزادى ليون (١٥١٨ - ١٥٦٠ م) . ومن أشهر الكتاب الأوائل الذين كتبوا عن بيرو جاركيلاسو دير

لافيجا (١٥٣٩ - ١٦١٦ م) صاحب كتاب «تعليقات على قبائل الانكا .» و «التاريخ العام لبيرو» ، ومع ذلك فقد أختلف النقاد فى تقدير قيمة أعماله إذ وصفها فيوتر بأنها كتابة غير ناقدة هدفها تقريظ قبائل الانكا . وفى نفس الوقت وصفها وليجاس بأنها «خير مصدر تستمد منه معلوماتنا عن التاريخ المبكر لهذا البلد» . وفى سنة ١٥٧١ أصدر ديجو فرناندز (ولد ١٥١٠م) تاريخ بيرو وهو خير ماكتب عن الحروب الأهلية فى بيرو . كذلك وصف جوزى دى أريجا (١٥٦٢ - ١٦٢٢ م) انتشار الديانة المسيحية الكاثوليكية بين هنود بيرو فى كتابه الذى صدر سنة ١٦٢١ بعنوان «استئصال الوثنية من بيرو» .

وخير ما كتب عن شيلى فى ذلك الدور المبكر ما كتبه الونزو دى اوفال Alonso de Ovalle (ت ١٦٥٠ م) كذلك كتب انطونيو رويزدى مونتويا (١٥٩٣ - ١٦٥٢ م) عن انتشار المسيحية فى بورجواى . وكان انطونيو هذا يحس تجاه السكان الأصليين نفس الأحاسيس التى كان يحس بها كاساس .

ولقد آثار فتح المكسيك (أسبانيا الجديدة) اهتمام عدد من أقدر المؤرخين أمثال برنال دياز ديل كاستيلو Bernal Diaz del Castillo (١٤٩٢ -١٥٨١ م) صاحب كتاب «التاريخ الحقيقى لفتح أسبانيا الجديدة» . وكان كاستيلو جندياً شجاعاً كفئاً ، استهدف تأليف كتابه الثناء على الجيش الأسبانى وضباطه وليبرز أعمال الجيش وبطولته الفذة . كذلك يتضمن هذا الكتاب سرداً رائعاً لأحداث الفتح الأسبانى للمكسيك ووصفاً للمكسيك والمعدات الحربية التى استعملها الغزاة ، بالإضافة إلى ماورد به من ملحوظات ومشاهدات عن العالم الجديد وسكانه الأصليين . ولايقل أهمية عن هذا الكتاب كتاب برناردو ساهاجون Bernardo Sahagun (ولد ١٥٩٠) واسمه «التاريخ العام لاحتلال أسبانيا الجديدة» . أما خير وصف كتب فى ذلك العصر عن غزو المكسيك فقد جاء فى كتاب «تاريخ غزو المكسيك» الذى ألفه انطونيو دى سوليس ريفادنيرا (١٦١٠ -١٦٨٦) وهو كتاب تفوق قيمته الأدبية قيمته التاريخية . وقام فرناندودى آلفا اكستليلز شيتل Fernando de Alva Iktiblzóchitl (١٥٦٨ - ١٦٤٨ م) بتصوير وحشية الغزاة تصويراً دقيقاً ، وذلك فى كتابه «قوة غزاة المكسيك المثيرة» . ومن خيرة ماكتب عن غزو المكسيك كذلك ما كتبه جاسباردى نيلاجرا (ت ١٦٢٠ م) فى كتابه «تاريخ المكسيك الجديدة» وأما عن كاليفورنيا الأسبانية فإن أقيم ما كتب عنها كتاب «نبذة عن كاليفورنيا» (١٧٥٧) لمؤلفه ميجويل فينجاس Miguel Vènegas وعن فلوريدا ، لدينا كتاب «نبذة وتعليقات» لمؤلفه ألفار نتز كابيزا دى فاكا Alvar Nunez Cabeza de Vaca (١٤٩٠ - ١٥٦٤ م) . كذلك كتاب «فلوريدا بلد ألانكا» لمؤلفه جارسيلاسو دى لافيجا وهذا الكتاب عبارة عن سرد رومانتيكى غير ناقد لفتوحات سوتو .

ولم يكن الكتاب فى شمال أوربا أقل اهتماماً بحركة الكشوف الجغرافية . فمن هولندا ظهر لدينا أول عمل ذو قيمة فى هذا الصدد وهو ما كتبه جوان دى ليت Joannes de Laet (١٥٩٣ – ١٦٤٩ م) تحت اسم «العالم الجديد أو جزر الهند الغربية» . وقد عنى فيه بعلاج التاريخ الطبيعى للعالم الجديد وعادات السكان الأصليين فضلاً عن حركة الأستعمار . وهناك أيضاً ارنلدوس هونتانوس (١٦٢٥ – ١٦٨٣ م) الذى تناول فيه فى «عالم جديد مجهول» حركة الكشوف فى أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية والبرازيل . وفى سنة ١٦٧٨ أصدر حنا اسكوميلين (هندريك سميكس) كتاب «الرحلات البرية إلى أمريكا» الذى يعتبر واحداً من أحسن الكتب التى تناولت موضوع القراصنة وقطاع الطرق . ومن خير ماظهر فى هولندا فى ذلك العصر أيضاً عن الرحلات البرية ذلك الكتاب الذى أصدره بطرس فان در آزا Pieter von der Aa سنة ١٧٠٧ ويقع فى ١٢٧ مجلداً .

وظهرت فى ألمانيا كذلك عدة كتب عن حركة الكشوف والاستعمار فى العالم الجديد من أشهرها كتاب جاسبار إن Gaspar En «تاريخ الهند الغربية» (١٦١٢) وكتاب جوهان لودفيج جوتفريد «العالم الجديد وتاريخ أمريكا» (١٦٥٥) .

أما فى فرنسا فإن أول كتاب ينبغى الإشارة به عن الرحلات كتاب بعنوان «مجموعة روايات عن رحلات غريبة متنوعة» وقد صدر فيما بين سنتى ١٦٩٣ – ١٦٩٦ م لمؤلفه ملشيدش ثيفينو Melechise dech Thevenot وفى سنة ١٧٠٧ أصدر الأب بيلجارد كتاباً بعنوان «التاريخ العالمى للرحلات» وقد أعطى فيه اهتماماً خاصًا لرحلات الأسبان إلى أمريكا . أما الموسوعات التى كتبها شارلفوا عن الكشوف الجغرافيه فستعرض لها فيما بعد ومن أعظم الكتابات الفرنسية التى تناولت حركة الكشوف والاستعمار كتاب التاريخ العام للكشوف الجغرافية الذى ألفه أنطوان بريفوست دى اكزيل (١٦٩٧ – ١٧٦٣ م) prevost d'Exiles وعلى الرغم من أنه مجرد تجميع مادة ومشروع لناشر إلا أنه حوى قدراً هائلاً من المعلومات . وقد ظهر فى عدة مجلدات ما بين سنتى ١٧٤٦ – ١٧٥٤ م . وأهم ما نلاحظه على هذا الكتاب هو أنه يثنى على السكان الأصليين لكنه ينتقد حماسة لاس كاساس الساذج ، ثم إنه يعكس وجهة نظر مونتسكيه الخاصة بالنظر إلى الثقافة والنظم من وجهة مقارنة وملاحظة تأثير المناخ على الأنظمة الاجتماعية ومما يلاحظ على هذا العمل كذلك أنه أفسح مجالاً كبيراً للتحليل النفسى ونمو المجتمعات فى العالم الجديد . أما عن التاريخ الدينى للعالم الجديد فهناك كتاب شامل يقع فى أربعة عشر مجلداً صدر سنة ١٧٧٠ م وألفه انطوان تورون بعنوان «التاريخ العام لأمريكا منذ اكتشافها» .

أما أول كتاب فى إنجلترا يتناول حركة التوسع الأوربى هو كتاب ريتشادر إيدن وعنوانه «العالم الجديد فى بضع عشرات من السنين» وقد صدر سنة ١٥٥٥ م . واستند مؤلف هذا

الكتاب إلى حد ما إلى ما كتبه بطرس مارتر . وبعد ذلك ظهر كتاب ريتشارد هاكولويت وعنوانه الملاحة والرحلات والكشوف الرئيسية عن الأمة الإنجليزية . وقد ظهر لأول مرة سنة ١٥٥٨ م ثم صدر مرة ثانية فى صورة موسعة سنة ١٦٠٠ م . ويكمل هذا الكتاب كتاب آخر أصدره بعد ذلك بربع قرن صمويل بيرشاز عن رحلاته وأسفاره . كذلك كتب توماس جاج كتاباً بعنوان «وصف جديد لجزر الهند الغربية» (١٦٤٨) وقد كتبه المؤلف ليضمنه ثمرة إقامته فترة طويلة فى جزر الهند الغربية . وهناك بحث أشمل منه كتبه حنا أوجلبى John Ogilby (١٦٠٠ – ١٦٧٦ م) بعنوان «أمريكا : أحدث وأدق وصف للعالم الجديد» (١٦٧١) واستقى بعض معلوماته مما كتبه الهولندى مونتانوس .

ومع مطلع القرن الثامن عشر أصدر أونشام تشرشل Aunsham Churchil كتابه المشهور «مجموعة من الرحلات والأسفار» سنة ١٧٠٤ م ثم غد ذلك بعام كتاب جون هاريس «مكتبة الرحلات البحرية والبرية» . كذلك أصدر جون كامبل سنة ١٧٤٢ كتاب التاريخ الموجز لأمريكا الأسبانيه وقد أعطى اهتماماً خاصاً للتجارة والعلاقات الخارجية . واختص الكتاب الإنجليز مناطق معينة من العالم الجديد باهتمامهم . وخير مثل لذلك ما كتبه روبرت سوثى Robert Southey (١٧٧٤ – ١٨٤٣) «تاريخ البرازيل» الذى هو جزء من كتاب أكبر شرع فيه ولكنه لم يكمله وهو كتاب «تاريخ البرتغال» . وكان سوثى وافياً أنصف فى بحثه جميع السكان الأصليين من الهنود فضلاً عن ما قاهرهم من الأوربين واستحوذت على مشاعره فكرة المستقبل المرموق المتوقع للبرازيل .

أما أول مؤلف مشهور عن تاريخ الاستعمار الإنجليزى فهو كتاب الكابتن جون سميث وعنوانه «التاريخ العام لفرجينا و «نيو انجلاند» ويؤخذ على هذا الكتاب الذى صدر سنة ١٦٢٤ مسحته الخيالية وإحساسه بالزهو . والواقع أن سميث لم يؤلف سوى جزء بسيط من هذا الكتاب الذى يحمل اسمه فى حين أن ذلك الجزء الأعظم منه ليس إلا تجميعاً لبعض القصص القديمة وذكريات المهاجرين الإنجليز الذين استقربهم المقام فى العالم الجديد . ومن بين ما اختلقه سميث أسطورة البوكاهونتاس التى تحتل مكانة مشهورة على قدم المساواة مع أسطورة شجرة الكرز بين أساطير التاريخ الشعبى الأمريكى . ويصف الدكتور ج . ف . جيمسون عمل سميث هذا فى سخرية دقيقة . فيقول «إن ما يحويه هذا الكتاب من معلومات تاريخية ليست من عمل سميث ، أما العمل الذى قام هو نفسه به فلا يمت للتاريخ بصلة .»[1]

أما كتاب روبرت بيفرلى «تاريخ فرجينيا» الذى صدر سنة ١٧٠٥ م فهو كتاب من طبيعة أخرى مختلفة كتبه صاحبه تلبية لرغبة أحد باعة الكتب فى لندن ، وهو عبارة عن ملخص ممتاز للوثائق والسجلات المبكرة فى أسلوب واضح يتصف بالحيوية . وثمة كتاب آخر

وليم ستيث Stith «أكتشاف فرجنيا لأول مرة» وقد صدر سنة ١٧٤٧ م . ويتفوق هذا الكتاب على كتاب بيفرلى من ناحية أنه أعظم منه فى معلوماته وأدق منه وإن كان أقل منه تشويقاً للقارئ . وكان أول ما كتب عن تاريخ «نيو إنجلاند» فى أيامها الأولى فى صورة جديرة بالتصوير والاهتمام هو ما كتبه اثنان من حكامها هما وليم برادفورد وجون ونيثروب . وقد سمى الأول كتابه «تاريخ الزراعة فى بلايموث» ، فى حين سمى الثانى كتابه تاريخ «نيو انجلاند» . واتصفت رواية برادفورد (١٥٩٠ – ١٦٥٧ م) بالسهولة والصراحة وعبث عليها مسحة من التفوق تدل على تأثره بالنظرية الإلهية فى تفسير التاريخ ، هذا إلى أنه قضى أعواما طويلة فى جمع الوثائق الخاصة بكتابه مما جعل مادته لايرقى إليه شك . وأهم ما جاء فيه وصفه لحركة استقرار المهاجرين الإنجليز فى مستعمرة بلايموث حتى سنة ١٦٤٦ م . أما ونيثروب فجاءت روايته الرائعة على طريقة الحوليات ، فسرد تاريخ مستعمرة خليج ماسوشت حتى سنة ١٦٤٨ . والواقع أن كتابه ليس تاريخاً لنيوانجلاند على طول الخط ، ولذا قام أحد الناشرين فى لندن بتغيير عنوان الكتاب فيما بعد ليزيد اهتمام القارئ به ، وبالتالى يزداد رواجاً . والحق أن هذا الكتاب هو أحسن كتاب بيورتانى فى تاريخ العالم الجديد .

ثم يأتى بعد ذلك كتاب مثير للفزع والعجب معا ذلك هو كتاب التاريخ الكنسى لنيوانجلاند تأليف كوتون ماثر Cotton Mather (١٦٦٣ – ١٧٢٨ م) وهو بحق موسوعة شاملة تتناول جوانب كثيرة من الحياة الدينية والثقافية للنازحين الجدد ، بما فى ذلك النبوءات الدينية المزعومة والخاصة بتعمير «نيو انجلاند» والاستيطان فيها ، ويمضى فى روايته حتى يتناول تاريخ التعليم العالى فى ماسوشست . ويتضمن هذا الكتاب حياة الحكام والمعلمين والوزراء وسائر الشخصيات البارزة ، كما يتناول كذلك تاريخ كلية هارفارد وتاريخ الحروب الهنديه ودلائل العناية الإلهية على طول التاريخ لنيوانجلاند وفى هذا الجانب نجد ماثر يطبق نفس النظريات التى أخذ بها بوسويه ولكن على نطاق أصغر .

وهنا بالإضافة إلى ذلك كتاب توماس برينس Thomas Prince «تاريخ نيوانجلاند» (١٧٣٦) الذى يعتبر أحسن ملخص لتاريخها المبكر حتى سنة ١٦٦٣ م . ولا يفوقه فى اتساع المفهوم والقدرة الأدبية سوى كتاب توماس هتشنسون (١٧١١ – ١٧٨٠ م) تاريخ مقاطعة خليج ماسوشست ، الذى ظهر فى ثلاثة أجزاء كان هتشنسون أستاذاً أمريكياً وفى نفس الوقت آخر حاكم ملكى لماسوشست ولذا كان متأثراً بالمدرسة العقلانية فى كتابة التاريخ . والحق أن كتابه من المصادر التى يعتمد عليها لأمانته وحيدته ، وهو أيضا من أحسن الكتابات التى تناولت موضوع التطورات التشريعية والدستورية .

---

(1) J.F. Jameson: The History of Historical Writing in America (Houghton Mufflin 1891) p. 16

وثمة عدد من الكتاب البريطانيين تناولوا بالبحث الهنود فى أمريكا الشمالية والجنوبية وحاولوا أن ينقلوا إلى أهل أوربا الحقائق المتعلقة بهم . هناك مثلا آدم فيرجسون الذى عالج فى كتابه «تاريخ المجتمع المدنى» الحياة الاجتماعية للهنود الحمر فى أمريكا بشئ من الإنصاف فكان كتابه انعكاساً مقبولاً لفكرة «الهمجى النبيل» وعلى العكس نجد كاتباً مثل ج . ه . وين J. H. Wynne يهاجم بعنف مثل هذا التفسير لثقافة الهنود الأمريكيين فى كتابه «التاريخ العام للإمبراطورية البريطانية فى أمريكا» (١٧٧٠) . وادعى فى هذا الكتاب أن أية محاولة لتعليم الهنود وتهذيبهم ليس إلا مضيعة للوقت . ويقصد (وين) فى هذا الاتجاه كل من وليم روبرتسون فى كتابه «تاريخ أمريكا» و س .ه . ارنولد فى كتابه التاريخ العالمى المحايد للأمريكتين الشمالية والجنوبية (١٧٨١ م) وتنتقد هذه الكتب الثلاثة السابقة الاشارة إليها كل تقريظ للسكان الأصليين فى الأمريكتين .

وثمة اتجاه وسط بين أصحاب فكرة الهمجى النبيل وبين الناقدين لها فى عنف . ويتزعم هذا الاتجاه الوسط جيمس آدير Adair صاحب كتاب «تاريخ الهنود الأمريكيين» (١٧٧٥ م) الذى استخدم فيه طريقة مونتسكييه فى كتابه «رسائل فارسية» وذلك للرد على ناقديه الأوربيين الذين تناولوا موضوع الهنود . وقد نحا وليم راسل هذا الاتجاه الوسط فى كتابه «تاريخ أمريكا ١٧٧٨» الذى عرض فيه الجوانب الحسنة والسيئة من حياة الهنود وثقافتهم ، ودعا راسل الأوربيين الذين افزعتهم القسوة الوحشية التى نسبت إلى الهنود فى غاراتهم على البيض أن يقارنوها بحروب أوربا فى العصور الوسطى وبداية العصر الحديث أو يقارنوها بحروب أوربا فى العصر القديم أو حتى ما جاء ذكره فى الإنجيل من غزوات وحروب .

أما فيما يختص بالكشوف الفرنسية فى حوض المسيسبى فإن أول مؤلف هام كان كتاب ماركويت «الرحلات والكشوف» (١٦٨١) ثم تلاه كتابان للمبشر البلجيكى لوى هيبنين Louis Hennepin (ولد ١٦٤٠ م) هما «الكشوف الجديدة» و«ووصف لويزيانا» .وهذان الكتابان على قدر عظيم من الأهمية لما يتضمناه من معلومات وافية عن الكشوف الأمريكية وعن السكان الأصليين على الرغم من كذب ما ادعاه هيبنين من أنه تتبع نهر المسيسبى حتى مصبه .

على أن أشهر الكتب عن الكشوف الفرنسية والاستعمار الفرنسى فى أمريكا هو كتاب «التاريخ العام والوصف الشامل لفرنسا الجديدة» الذى ألفه الرحالة الفرنسى اليسوعى بطرس فرانسوا كزاميزدىشارلفو Franceis xJavier de charlevoix (١٦٨٢ - ١٧٦١ م) . ويمتاز هذا الكتاب بأن مؤلفه رجع فيه إلى السجلات والوثائق ولكنه اعتمد إلى حد كبير على ما جمعه بنفسه من معلومات . وعلى الرغم مما فى هذا الكتاب من إسهاب وثرثرة وادعاءات كثيرة مع افتقاره إلى النظرة الناقدة ، إلا أنه يعد أكثر الكتب تشويقاً ومتعة ومن ثم كان من

أكثرها رواجاً . وهناك كتب أخرى لشارلفوا تناولت جهود اليسوعيين فى التبشير فى اليابان والشرق الأقصى على غرار أعمال كايمفر وغيره . هذا كله بالإضافه إلى ما كتبه من أوصاف شهيرة لجزر هايتى وبرجوّاى .

ولعل أقيم كتاب تناول بالوصف والتحليل ثقافة الهنود الأمريكيين فى ذلك العصر هو كتاب جوزيف فرانسوا لافيتو Lafititeau (١٦٨١ – ١٧٤٦ م) وعنوانه «مقارنة عادات الأمريكان الهمج بما كان عليه الناس فى الأزمنة القديمة» . وكان لافيتو مبشراً يسوعياً فرنسياً وقد أسهم بأبحاثه الطيبة عن قبائل Hurons and Iroquois فى وضع الأسس التى ساعدت على نشأة علم دراسة الأجناس البشرية من النواحى الاجتماعية والثقافية .

أما المؤرخ الإنجليزى وليم روبرتسون وهو من رجال الحركة العقلانية فقد ألف كتاباً سنشير إليه فيما بعد عنوانه «تاريخ أمريكا» يعتبر أبرز كتب التاريخ العامة التى كتبت عن العالم الجديد قبل مطلع القرن التاسع عشر .

وفيما يتعلق بتاريخ الشرق الأدنى نجد أن أشهر كتاب فى هذا المجال هو ذلك الذى وصفه ريتشادر نول Richard Knolle تحت عنوان التاريخ العام للأتراك (١٦٠٣) وقد أثنى عليه كل من صمويل جونسون وهنرى هالام لما تميز به من صدق الوصف وروعة الأسلوب . وهناك كتاب آخر عنوانه «رحلات فى فارس وجزر الهند الشرقية» كتبه حنا تشاردن على فترات فيما بين ١٦٨٦ ، ١٧١١ م وقد استفاد منه مونتسكيه كثيراً . أما الكتاب العظيم الذى وصفه السيرجون مالكولم بعنوان «تاريخ فارس» «١٨١٥» فقد جمع مادة من المصادر ومما حصل عليه مباشرة من معلومات . كذلك هناك كتاب داود بريس Dauid price «تأملات فى التاريخ الإسلامى» (١٨٢١) . وقد ساعدت هذه الكتب وغيرها على خلق اهتمام عظيم بالثقافة الإسلامية والأدب العربى وهو الاهتمام الذى ازداد كثيراً بترجمة قصص «ألف ليلة وليلة»

وفيما يتعلق بالاتصالات المبكرة بين أوربا من ناحية واليابان والشرق الأقصى من ناحية أخرى ، فإن أول رواية منذ أيام ماركوبولو عن تلك الاتصالات تبدو فى كتاب «تاريخ اليابان» الذى ألفه الطبيب الألمانى انجلبرشت كامبفير Engelbrecht Kaempfer (١٦٥١ – ١٧١٦) وهو الكتاب الذى ظل لمدى قرن أو أكثر المصدر الرئيسى لمعلومات أوربا عن اليابان مثلما كان كتاب دى باروس مصدراً عن جزر الهند الشرقية . كذلك ساعد كتاب وليم مارسدن «تاريخ سومطرة» ، (١٧٨٣ م) على إلقاء مزيد من الضوء على جزر الهند الشرقية وتميز هذا الكتاب بنزعة عقلانية تاريخية واضحة . وثمة كتاب . يعتبر من الكتب العالمية فى الرحلات ووصف البلاد ، ونص به الكتاب الذى كتبه ديرك دى براى Dirk de Bry بعنوان «رحلات إلى جزر الهند الشرقية والغربية» وصدر فى

فرانكفورت فيما بين سنتى ١٥٩٠ م ، ١٦٣٤ م . أما كتاب روبرت أورم orme بعنوان «تاريخ العمليات الحربية للأمة البريطانية فى هندوستان منذ ١٧٤٥ م » (١٧٧٨ م) فنجد فيه وصفاً دقيقا للمراحل المتأخرة من الفتوح البريطانية فى الهند . وقد اهتم فيه المؤلف بالعمليات الحربية اهتماماً كبيراً . وعن شركة الهند الشرقية البريطانية فلدينا كتاب حنا بروس «حوليات عن تاريخ شركة الهند الشرقية الموقرة » (١٨١٠) Annals of the honourable East Irdia Company " واستند المؤلف فيه على الوثائق التى تجمعت لديه .

على أن أول عمل كامل تناول الكشوف والاستعمار فى الهند هو الكتاب المفصل الذى كتبه جيمس ميل Mill بعنوان «تاريخ الهند البريطانية » (١٨١٨) ومؤلف هذا الكتاب من فلاسفة المذهب النفعي . وقد ضمن كتابه معلومات كثيرة وعظيمة كما تناول الحضارة الهندية والحكم البريطانى فى الهند بكثير من النقد ويشابه ما كتبه ميل فى تقييمه السلبى للحضارة الهندية ما كتبة من بعده كاترين مايو بعنوان «الهند الأم » . على أن ميل قام فى نفس الوقت بتقييم لإدارة شركة الهند الشرقية مستخدما معايير بنتام ، فوجد أنها تفتقر إلى الكفاية فضلاً عن العدل والاقتصاد وهناك كتب أخرى ألقت مزيداً من الضوء على جزر الهند الشرقية أمثال كتاب الاستعمارى الإنجليزى السير توماس ستانفور رافلز وعنوانه «تاريخ جاوة» (١٨١٧) وكتاب حنا كروفورد «تاريخ الجزر الهندية » وكلاهما غنى بأوصاف عادات وسلوك السكان المحليين .

ونجد اقيم المعلومات وأهمها عن جنوب أفريقيا فى كتاب «رحلات فى إفريقيا الجنوبية » الذى ألفه السير حنا بارو (١٧٦٤ — ١٦٤٨ م) . وقد جمع هذا المؤلف بنفسه أول مجموعة تامة تضم بياناً بكل الجهود غير الموفقة التى بذلت للتوصل إلى طريق يوصل إلى الهند من جهة الشمال الغربى . وجاء ذلك فى كتابه «رحلات للكشف والبحث فى المناطق القطبية » .

ومع مطلع القرن التاسع عشر ظهر اتجاه جديد لربط أدب الرحلات بعلم الجغرافيا ، واتضح هذا فى بعض الكتاب مثل الكسندرفون همبولدت Humboldt ، كارل ريتر Karl Ritter ويبدو ان التأثير العام لحركة الكشوف الجغرافيه على المؤرخين أقوى ما يكون فى كتاب « التاريخ الفلسفى والسياسى للمستوطنين الأوربين وتجارتهم فى جزر الهند الشرقية » الذى ألفه الصحفى وليم توماس رينال (١٧١٣ — ١٧٩٦) وظهر هذا الكتاب سنة ١٧٧١ مبيناً تأثير حركة التوسع والكشوف على الفكر الأوربى . وقد ردد بعد ذلك فرانسو حنا شاستللو Jean Chastellaux (١٧٣٤ — ١٧٨٨) آراء رينال الفلسفية فى كتابه «بحث عن مزايا وأضرار اكتشاف أمريكا » . أما تأثير المعلومات الجغرافيه الجديدة على مفاهيم التاريخ

فى ذلك العصر فقد عبر عنها نيقولا لينجلت وفرسنوى (١٦٧٤ - ١٧٥٥م) وخاصة فى كتابيه «طرق دراسة التاريخ» ، «طرق دراسة الجغرافيا» .

وبعد ، فإنه يتبين مما سبق ذكره أن بعض من تناولناهم من الكتاب كان لهم دور هام فى تغيير أسس الأسلوب التاريخى ومجال اهتمامات المؤرخ ، ولكنا نتبين كذلك أن تأثير حركة التوسع الأوربى على المؤرخين بكل ما فيها من عمق لم يكن أقوى من تأثير نفس الحركة على بقية معظم مجالات الحياة والفكر فى أوربا فى القرون التى تلتها . ذلك أنه ترتب على هذه الحركة بطريق مباشر أو غير مباشر نشأه ونمو اتجاهات جديدة ومن ثم حدوث تغييرات عظيمة فى المفاهيم والمناهج التاريخيه .

ليس هناك من بين المؤثرات الغير مباشرة لحركة التوسع الأوربى على الكتابة التاريخيه ماهو أكثر أهمية ووضوحاً من مساعدتها فى وجود الفلسفة الطبيعية الناقدة التى يمثلها أصدق تمثيل كل من بيكون ، وديكارت ، ولوك . ذلك أنه ترتب على استكشاف ذلك الجزء الأعظم من سطح الأرض أن عرف الناس أن هناك بقاعاً شاسعه فى هذه الكرة الارضيه تصلح لسكناهم ، وأكثر من هذا ثبت لهم أن المزاعم التى كانت تحيط بالأجزاء غير المعروفة من أعاجيب وأمور مثيرة للذعر إنما هى نوع من الأساطير التى لا أساس لها من الحقيقه فى شئ .

وفى نفس الوقت الذى كان فيه داجاما ، كولومبوس ، وماجلان يقومون بالكشف عن امتداد الكرة الأرضية وطبيعتها ، كان هناك آخرون كرسوا أنفسهم للكشف عن الكون كله . وكان لكل من العملين من النتائج ما عصف بالتقاليد والمعتقدات الدينية القديمة . لقد كشف كوبرنكس ، برونو ، جاليلو ، تيكوبرا عن عظمة الكون واتساعه . كما وضع جاليلو وكبلر ونيوتن أفكاراً جديدة أهمها مايختص بالنظام الكونى وحركة الكواكب . ويضاف إلى هذا ماحدث من تقدم رئيسى فى العلم بتفسير كافة الظواهر الطبيعية فى كل مجال من مجالات العلم الطبيعى فى القرن السابع عشر ، وهى الظواهر التى نعتبرها اليوم شيئاً عاديًّا معروفاً فى حياتنا المعاصرة . وكانت النتيجة النهائية لكل هذا التقدم العلمى أن واجه التفسير الدينى القديم للعالم تحديًّا خطيراً وهو التفسير القائل بوجود آله متحكم يقوم دائماً بتغيير أو إيقاف قوانين الكون ليعاقب أمير عاق أو يستجيب لصلوات ودعوات أسقف مخلص .

وكان أن استطاع كل من فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت وجون لوك أن ينظم مغزى الاكتشافات العالمية السابق ذكرها فى فكر ظسنى مستقيم . لقد أوضح باكون بصفة خاصة ضرورة اتباع طريقة الاستقراء . أما ديكارت فقد فسر حركة الكون تفسيراً آلياً فى حين حاول لوك أن يبنى المعرفة والحقيقة على الخبرة البشرية . وهكذا نجد أن الكشوف العلمية والفلسفة الجديدة كانت تميل نحو إيجاد تفسير عقلانى للظواهر الطبيعية والاجتماعية وهو الأمر الذى كان

يمثل تحدياً كبيراً للآراء القديمة والذى كان مقبولا حتى ذلك الوقت والذى كان أساسه تفسير الظواهر الطبيعية على أنها معجزات وعجائب وهو ما رأيناه بوضوح فى كتابات المؤرخين المسيحيين فى العصور الوسطى . ومن بين المفكرين الإنجليز الربوبين ـ الذين آمنوا بالله وأثبتوا وجوده عن الخصوص تذكر ولستون ، وهيوم[1] وتشكك هؤلاء جميعاً ـ وشاركهم فى ذلك المتعلمون من معاصريهم فى مبدأ المعجزات والعجائب . ولم يلبث أن انهارت تماماً فلسفة لعجائب والمعجزات عندما هاجم هوبز ، سبينوزا ، واستروك ، وريماروس ، والجن الآراء التقليدية حول محتوى العهدين القديم والجديد . ولم تكن الدلائل والبراهين العلمية الجديدة هى وحدها السبب فى حدوث ذلك الانهيار ، بل إن هناك أيضاً الشك الذى أثير حول صحة الكتابات التى حوت تلك المعجزات . وفى القرن الثامن عشر أمكن التعبير بحرية أكثر عن كل هذه الآراء وخاصة فى إنجلترة وهولندا حيث سادت روح الاعتدال والتسامح الفكرى ، وبالتالى ازداد شيوع تلك الأفكار .

ثم إنه كان من الطبيعى أيضاً أن يكون هناك رد فعل عميق للاكتشافات العلمية الجديدة والفلسفة الجديدة للطبيعة على الفلسفة الاجتماعية المعاصرة فى ذلك الحين . وهكذا ظهر مفكرون أمثال فيكو ـ هيوم ، ترجو عرض فكرة استمرار المجتمع وتطوره تطوراً منتظما شأنه فى ذلك شأن الطبيعة . ومعنى ذلك أن الفكرة القديمة عن التطور الاجتماعى والتى مؤداها تدهور المجتمع البشرى من عصر أولى ذهبى تبدلت بمفهوم التقدم المستمر من المراحل الدنيا فى الحضارة إلى المراحل الأعلى . وظهر هذا المفهوم الجديد على وجه الخصوص فى كتابات فونتيل . بيرولت . فيكو . فولتير . هيوم . تيرجو ، وكانت ، وجودوين ، وكندورسيه . وفى ضوء هذا المفهوم تضاءلت الحاجة إلى المعجزات لتبرير أحداث التاريخ وغيره من العلوم الأخرى التى تناولت النشاط الإنسانى . وكان سبب هذا التضاؤل ازدياد نمو فكرة الإيمان بالله عن طريق العقل وحدة عند الربوبين . ثم افتراض مبدأ تأدب الانسان وحسن سلوكه ، وهو المذهب المناقض تماماً للآراء القديمة التى اعتنقها آباء الكنيسة الأول واعتنقها كالفن نفسه والتى كانت تؤكد فساد الإنسان وعدم طهارته . وأخيراً فإن الاكتشافات الجديدة وخروج الفلسفة الطبيعية والدينية عن النطاق الدينى المحدود كان لها أكبر الأثر فى توسيع دائرة اهتمامات المؤرخ التى ظلت مقتصرة حتى ذلك الحين على مجالى السياسة والدين .

وفى كتابات فولتير ، رينال ومونتسكييه ، وهيرين يتضح فى صورة أكبر الاتجاه نحو توسيع مجال التاريخ ، ليس عند الذين تناولوا مراحل حركة الاستعمار والتوسع فحسب بل عند

(١) ان وجهة نظر ميدلتون تجاه المعجزات أكلت فى عمق آراء إنكار جيون عن المسيحية (المؤلف)

كثيرين غيرهم . هذا مع ملاحظة أن ظهور الاتجاه القومي كان من بين العوامل التي اعترضت طريق هذا الاتجاه السليم لأن القومية حددت الاهتمام بالتاريخ السياسي . ومع ذلك فإن هذا الاتجاه الجديد استطاع أن يثبت أقدامه وخاصة بعد أن دعمه الاهتمام بالموضوعات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وهو الأمر الذي تجدد وازداد قوة في الفترة التي أعقبت الثورة العلمية والصناعية في القرن التاسع عشر .

وكان أن ظهر تأثير هذه الفلسفة الطبيعية وكذلك رد فعل الفلسفة الاجتماعية على كتابات التاريخ في كتابات « المدرسة العقلانية » للمؤرخين . وعلى الرغم من أن كتابات هذه المدرسة اختلفت فيما بينها اختلافات شتى بحيث أصبح من المعتاد أن يقسم كتابها إلى مجموعات عديدة ، فإنها تميزت بوحدة أساسية ظهرت في المنهج والطريقة والاهتمامات ، مما أمكن معه وضع خواص موحدة لكتابة التاريخ لدى المدرسة العقلانية في القرن الثامن عشر .

والواقع أن أهم ما جاءت به هذه المدرسة من جديد هو اتجاهها العام نحو توسيع مجال التاريخ بحيث يتعدى مجرد سرد دسائس الكنيسة والدولة وبحيث يشمل تاريخ المجتمع والتجارة والصناعة والحضارة في أوسع معانيها . وإذا كان مؤرخو عصر الكشوف قد أخذوا بنفس هذا الاتجاه فإن أعمالهم اقتصرت على معالجة العالم الجديد ولم يصبحوا أصحاب مدرسة بمعنى الكلمة . بينما نرى أن المؤرخين العقلانيين بذلوا جهودهم للتوصل إلى مدخل ثقافي عريض للتاريخ بغض النظر عن الفترة أو البلد التي يعالجونها ، ولذلك حاولوا جادين أن يدخلوا بعض الأسس الاجتماعية عند تحليلهم للتاريخ .

ولا يقل أهمية عما سبق محاولتهم عدم الأخذ بالخرافات والنظريات اللاهوتية لتفسير أسباب التاريخ وأحداثه ، وإنما أرجعوا ذلك كله إلى العوامل الطبيعية . هذا إلى أن المؤرخين العقلانيين اخذوا بفكرة أن الكون والمجتمع يسيران آليا وهي الفكرة التي كان قد توصل إليها الربوبيون استناداً إلى ما قدمه نيوتن من حقائق فلكيه . وإذا كان الله يوجه الكون فإنه يفعل ذلك من خلال ما وضعه هو نفسه من قوانين للطبيعية . إن كل شئ في التاريخ البشرى هو نتاج علاقة محددة بين السبب والأثر . ولكن هذا لم يمنع المؤرخين العقلانيين من الاعتقاد في إرجاع بعض أحداث التاريخ إلى أسباب شخصية ذات طبيعة ثانوية ، بل لقد اقتربوا في بعض الأحيان من نظرية أن الكوارث تصنع التاريخ وبها تعلل أحداثه ، وذلك عندما فسروا الحركات الكبرى والخيوط الرئيسية للسياسة على أنها نتاج لعمل شخصي فردى . وهكذا التزموا بوجه عام بنظرية أن العوامل الفكرية – أو بمعنى آخر الأفكار هي العنصر البارز المسيطر في التاريخ ، ومن هنا ركزوا اهتمامهم على التاريخ الفكرى .

ثم أن هؤلاء المفكرين ككل اعتقدوا في أن العقل البشرى لا يختلف أساساً من مكان إلى آخر في العالم . وأن مايوجد من اختلافات يعزى إلى اختلاف البيئة الاجتماعية أى

أنماط السلوك والعادات . وقد عزا بعض المؤرخين اختلاف عادات الشعوب إلى اختلاف ظروف البيئة الجغرافية وخاصة المناخ . ويركز مونتسكيه ومدرسته أهمية خاصة على تأثير هذه العوامل الجغرافية . فى حين أوضح فولتير أن هناك ثلاثة عوامل رئيسية تؤثر على تشكيل عقل الإنسان . وهي المناخ ونظام الحكم والديانه . كذلك اعتقد المؤرخون العقلانيون أن التقدم أمر حتمى وأن أعظم خطوة اتخذها الإنسان فى تاريخه هى تحرير عقله من الخرافات والخوف مما وراء الطبيعه . ومن ثم فقد شعر هؤلاء المؤرخون بالرضا والفخار بعصرهم الذى فاق أى عصر سابق من عصور تاريخ البشر . فالعقل قادر على محو المفاسد المترسبة عن الماضى . على أن يقود البشر الى حياة أفضل . وإذا كان التقدم قد ظل بطيئاً نسبياً حتى القرن السادس عشر فأن معدل الاستفادة البشرية تزايد بسرعة بعد ذلك .

ثم أن العقلانين أضفوا على التاريخ السياسى أيضاً ثوباً جديداً وضاءً ، فلم يعد يقتصر على الدفاع عن التصرفات السياسية، ولكنه أصبح بحق تاريخاً سياسياً ناقداً . كذلك لم يعد يحتكر كتابه هذا النوع من التاريخ أفراد الطبقات الحاكمة أو ممن يحظون بعطفهم ، بل صار كتابة التاريخ فى ذلك الوقت فى أيدى الطبقة البروجوازية الجديدة أو الطبقة الثالثة التى لم يكن لها نفوذ كبير فى الحكومات الأوروبيه . وهكذا غدا التاريخ أداة للنقد السياسى وحافزاً على الإصلاح ولكنه لم يصبح أداة للثورة إلا فى القليل النادر . وكان هناك اعتقاد عام بأن من شارك بقدر أو بآخر فى الشئون العامة أقدر من غيره على معالجة التاريخ السياسى ، فإذا لم يكن المؤرخ من رجالات الدولة أو الدبلوماسيين فلا أقل من أن يكون ممن تطلق عليهم رجال الإعلام . .

وينبغى أن نذكر أن النقد البناء الذى جاء به العقلانيون انحصر أساساً فى نظرتهم العامة إلى مادة التاريخ دون أن يكون لمصادر المعلومات نصيب كبير من ذلك التقدم . أما عن دراسة المخطوطات والمصادر المطبوعة ونقدهم لها فإنهم لم يتخطوا ما وصلت إليه مدرسة مابيلون . وعموماً فإنهم استخدموا بشئ من القدرة والتميز المصادر المطبوعة التى توفرت لديهم .

وكذلك عنى المؤرخون العقلانيون عناية كبرى بالناحية الأدبيه فى أعمالهم ، وهم فى هذا يشاركون مؤرخى المدرسة الإنسانية برغم ما بين المدرستين من خلاف واسع حول مدلول الفن الأدبى . فالمتعقلون لم يحاولوا الكتابة بأسلوب بلاغى لاتينى مصطنع ، محاكين شيشرون وليفى وتاكيتوس . وإنما كتبوا بأسلوب مباشر واضح وبلغات بلادهم ، وفى هذا يقول الأستاذ بلاك :

« لم تكن المسألة مجرد إيجاد الكلمات المضبوطة أو وصل الجمل ببعضها بشكل يجعل الترابط بينها سهلاً ، بل لقد كان الهدف الدقيق بناء فقرات وفصول بأكملها بحيث يتكون

ضبط المعنى وبحيث يكون هناك ربط بين التفاصيل بطريقة فنية »[1]

وكان أبرز مظاهر الكتابة التاريخيه للمدرسة العقلانيه هو ما استهدفته من ربط الحقائق التاريخيه بالإطار الاجتماعى الفلسفى للمدرسة الإنسانيه وهو مايمكن أن نصفه اليوم بهذه الكلمات .

«مهما يكن من قصور عند مؤرخى القرن الثامن عشر فإنهم من غير شك قد توصلوا إلى حكم قوى واضح على الماضى ذلك أن القارئ لفولتير وهيوم يستطيع أن يفهم ماذا يريد كل منهما أن يقول دون لبس أو غموض . فوضعا حقائق التاريخ العامة فى إطار عريض وأوضحا انعكاسها على الإطار الأخلاقى العام وقياها على أسس اعتبراها نهائية ، سواء كانا على صواب أو خطأ فى ذلك . وعلى هذا فإن وأولئك الذين ينظرون إلى التاريخ بوصفه أكثر من مجرد سرد للحقائق والذين يعتقدون أن الحقيقه التاريخيه لا يمكن تذوقها أو تقديرها إلا إذا وضعت فى إطارها الفلسفى ، هؤلاء و أولئك لن يعلوا استحسان مؤرخى عصر التعقل الذين ضربوا على مر الزمن أروع الأمثلة التى تبين كيف يمكن ربط ثقافة البشر ربطاً مفيداً بالماضى الذى نظر إليه الكثيرون. وكأنه شيء لاحياة فيه ولا قيمة له[2] »

أما عن الفلسفة التاريخية الخاصة بالمدرسة العقلانية وهى تلك الفلسفة التى ارتبط بها كل كتاب تلك المدرسة والتى كانت إحدى دعائم كتاباتهم التاريخيه كما حددت كثيراً من أهدافهم ومنهجهم فى كتابة التاريخ ، فإنها توضح لنا لماذا ركز كتاب المدرسة العقلانية كثيراً على فكرة أن التاريخ فلسفة تعلم عن طريق المثل Philosophy teaching by example ، وهى العبارة التى تنسب إلى بولنجبروك وهو أحد السياسين من رجال المدرسة العقلانية . ذلك أن حماسة رجال هذه المدرسة للتاريخ نبعت أساساً من اهتمامهم بالفلسفه الطبيعية الجديدة ومن رغبتهم فى حل التناقض الظاهر بين أفتراض وجود الشر فى الكون وبين نظريتهم القائلة بطبيعة الإنسان الخيرة . وازاء صعوبة إثبات صحة عقيدتهم بالنسبة لقوانين الطبيعة وطبيعة الرب ، اضطروا إلى تحكيم العقل فلجئوا إلى فحص خبرات الإنسان فى الماضى على سطح الأرض فحصاً شاملاً دقيقاً أو حاولوا أن يثبتوا أنه حتى إذا كان الشر موجوداً فى الكون فإن الشر فى الإنسان لا يوجد ألا إذا اعتنق الإنسان ديانة أو عقيدة خاطئة دون تعقل وكان أن ظهر لهذا الشر عند الإنسان فى الماضى فى تلك ، العصور التعسة ، عندما سيطرت عليه ناحية الديانة وخاصة المسيحيه وطمست طبيعته الخيرة . وعلى العكس فإن خبرة الإنسان فى العصور السعيدة عندما لم تستطع الديانة ولا الكنيسة أن تسيطر عليه — توضح مايمكن أن

(1) J. B. Black. The Art of History (F. S. Crofts and company 1926) pp. 17-18.

(٢) المراجع السابق ص ٧ ..

يصل إليه الإنسان من مستوى عال وسلوك طيب فى ظل الظروف الطبيعية . وهكذا نتبين أن للتاريخ «فلسفة ذات مثل الأمر» التى ساعد على إظهار الجانب الأخلاق فى المذهب العقلانى . ويمكن وصف هذه المدرسة بأنها تناقض طريقة أورزيوس وأوغسطين .

ومن هنا ينبع اهتمام المؤرخين العقلانيين البالغ «بالصينى السعيد» والهنود الامريكين وغيرهم ممن كانوا بعيدين عن قيود الكنيسة وسيطرتها ، فضلاً عن اهتمامهم الزائد بالإسلام والثقافة الإسلامية . وعلى الرغم مما تميزت به المدرسة العقلانية من موضوعيه فإن المغزى الأخلاق من سردهم للتاريخ ظل ثابتاً لا يتغير سواء أكان الموضوع هو تاريخ إنجلترا أو انهيار الإمبراطورية الرومانية أو العصور الوسطى . لقد كانت استنتاجاتهم العامة موضوعة مقدماً قبل أن يبدأوا أبحاثهم . وكانت لديهم فكرتهم عن الإنسان قبل لجوئهم إلى التاريخ يستمدون منه المعلومات التى تساير أفكارهم وتؤيدها .

يعتبر فرانسوا آرويه François Arouet المعروف بفولتير (١٦٩٧ - ١٧٧٨) مؤسس المدرسة العقلانية فى علم التاريخ ، بوصفه العقل الكبير الموجه لها . والواقع أن أعماله جاءت محققة لبعض ماتطلع إليه منذ زمن فرانسيس باكون وفينلون ، وآخرون من ضرورة وجود كتب تعالج التاريخ الفكرى والثقافى والاجتماعى . أما العوامل الرئيسية الكائنة وراء فلسفة فولتير السياسية والتاريخية فهى إيمانه بالعلم والعقل وإعجابه الشديد بالحضارة الإنجليزية فى عصره وقدرته التى لا مثيل لها فى النقد . لقد رأى فى انجلترة على عهد والبول مثله الأعلى فى السياسة والدولة ، لأنه جعل من نفسه مدافعاً عن نظم الحكم المستنيرة التى تسمح للطبيعة البرجوازية بأن تتطور ثقافياً واقتصادياً تطوراً حرًّا . لذلك ارتبط حرصه على وجود حركة إصلاح فى فرنسا بالرغبة القوية فى أن تأخذ هذه الحركة بما هو موجود فعلاً فى إنجلترا . ويرى فولتير أن العقل يمكن المؤرخ من علاج للماضى علاجاً يتسم بالذكاء والقدرة على الاستفادة منه ، كما يمكن رجل السياسة فى الحاضر من العمل لخلق عالم أفضل أمام الإنسان . ولايوجد فى أى عصر من يدانى فولتير فى عظمته كناقد ، لأنه لم يُكِن فى نفسه أى احترام زائف لأى نظام . ومن ثم فقد كانت لديه الحرية التامة لأن يعبر عن تحديه لكل مظاهر الركود الفكرى .

وأول كتاب تاريخى هام لفولتير هو كتابه الذى كتبه سنة ١٧٣١ م عن حياة الملك شارل الثانى عشر ملك السويد . وعلى الرغم مما يفتقر إليه هذا العمل من تقدير لمنطق الأحداث والنظم الدستورية — وهى النواحى التى أسهمت فى هزيمة شارل أكثر مما أسهم به بطرس الكبير — على الرغم من هذا فإن الكتاب يعتبر تحفة أدبية رائعة ، ويعطينا وصفاً لا مثيل له لشخصية شارل . ويقول عنه الأستاذ بلاك :

« لا يوجد فى هذا الكتاب ما يمكن اعتباره مادة زائفة لا لزوم لها ، فضلاً عن أنه بعيد عن المغالاة فى الاستنتاجات ، والمبالغة فى المحسنات دون محاولة من الكاتب لإقحام آرائه . إن كل سطر فيه يتميز بالاختصار والدقة وسهولة الفهم ، الأمر الذى جعل شخص الملك شارل الثانى عشر يبرز من المتن وكأنه منقوش على لوح من الصلب. »[1]

(1) Black, op. cit pp. 63-64.

أما أروع أعمال فولتير التاريخية فهو كتابه الذى صدر سنة ١٧٥١ بعنوان عصر الملك لويس الرابع عشر ، ويصف فيوتر هذا الكتاب بأنه . «أول كتاب تاريخى بالمعنى الحديث» . ففى هذا الكتاب نجد فولتير وقد تخلى تماماً عن طريقة الكتابة على منهج الحوليات ، أو حتى الالتزام بتتابع زمنى معين ، بل نظم كتابه تنظيماً موضوعياً . ولأول مرة نجد فى هذا الكتاب وصفاً لحضارة دولة أوربية عظمى من جميع جوانبها وعناصرها . لذلك يعتبر هذا الكتاب من وجهة النظر الناقدة من أعظم الأعمال . ويتضح منه أن فولتير قرأ كثيراً وبإمعان وذكاء قبل أن يشرع فى تأليف كتابه . كما أنه لم يترك مصدراً من مصادر ذلك العصر إلا ورجع إليه واستفاد منه .

ثم إن عرض فولتير لعصر لويس الرابع عشر لم يكن مجرد تجميع ماهر للحقائق والأحداث ، وإنما كان محاولة كبرى لعرض تيارات التطورات الرئيسية فى حياة دولة (فرنسا) لها جوانب قوتها ، فضلاً عن أنه دراسة لمجتمع مثقف مع ربط ذلك كله بالنواحى السياسية السائدة . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الكتاب اتصف بما كان للمدرسة العقلانية من نظرة دولية ، فجاء بعيداً عن روح العصبية الوطنية وهى الروح التى شوهت أعمال المؤرخين السياسيين فى القرن التالى. كذلك أبرز فولتير محاسن ومساوئ لويس وعصره بقدر متعادل من الوضوح والصراحة . فنراه يدين بشدة حروبه وتعصبه الدينى الممقوت ، كما نراه يثنى على النشاط الثقافى فى فرنسا . والحق أن كتابه هذا يعتبر تحفة أدبية رائعة ، وإن كان أهم ما يؤخذ عليه هو أن فولتير لم ينجح فى ربط عصر لويس بالتطور العام للحضارة الأوربية ، ولم يحاول أن يضع هذا العصر داخل الإطار العام لتطور الثقافة الحديثة ككل .

أما كتابه «مقاله فى سلوك الأمم وروحها» (١٧٥٦) ، فهو وإن كان أقل شمولاً من الكتاب السابق ، إلا أنه لا يقل عنه أهمية . ذلك أنه يعتبره أول تاريخ عالمى بالمعنى الحقيق للعبارة ، ووضعت خطته على أساس أن يكون تاريخاً شاملاً لثقافة كل العصور وكل الشعوب . وعلى الرغم من أن فولتير لم يكن لديه من الوقت والمعرفة ما يؤهله لتنفيذ هذه الخطة بنجاح ، وعلى الرغم مما بهذا الكتاب من عيوب وثغرات خطيرة ، إلا أنه يعتبر من أهم العلامات على طريق تطور الكتابة التاريخية . ذلك أن هذا الكتاب يعتبر فعلاً أساس تاريخ الحضارة بمعناه الحديث ، فضلاً عن أنه أول عمل ينصف غير المسيحيين وخاصة الشرقيين والمسلمين ، ويقر بدورهم الذى أسهموا به فى تطور الحضارة الأوربية . هذا إلى أنه من أوائل الكتب التى أوضحت علاقة التاريخ السياسى بالتاريخ الاقتصادى والاجتماعى فى إطار التطور العام للبشرية . وأخيراً فإن هذا الكتاب قضى نهائيا على فكرة تفسير أحداث التاريخ فى ضوء التدابير الإلهية وهى الفكرة التى سادت منذ عهد أوروزيوس حتى بوسويه .

وثمة ميزة أخرى اتسمت بها أعمال فولتير وهى عدم تقيده بتلك الدائرة الضيقة التى

التزم بها المؤرخون والتى جعلتهم ينظرون إلى الأحداث من وجهة نظر أوربية بحتة . ذلك أنه لم يكتف بمعالجة الحضارات القديمة وأنما تناول كذلك الشعوب البدائية التى اكتشفت مؤخرا ، كما أنه ساعد على تحطيم الاتجاه الذى ساد على أيدى رجال المدرسة الإنسانية لتقديس كل ما هو كلاسيكى . كذلك لم يحفل بالمصلحين البروتستانت لأن اعتقادهم فى قوى الغيب وتعصبهم الدينى جعله ينفر منهم . ولكن عصر التعقل هو الوحيد الذى حظى باحترامه وتقديره وان كان لم يصل للحديث عنها فى المقالة السابقة لأنه أنهاها بحكم لويس الثالث عشر . وينظر فولتير إلى التاريخ على أنه فى أساسه نتاج احتكاك الأفكار والحضارات . فالمسيحية جاءت لتتحدى الوثنية ، والإسلام دخل فى صراع مع المسيحية ، والمذهب البروتستانتى ظهر ليتحدى الكاثوليكية التى كانت سائدة فى العصور الوسطى . أما عصر فولتير نفسه فقد تغلب فيه العقل على كل الخرافات وشتى البدع . ولعل العيب الأكبر فى كتابه «المقالة» هو عدم اكتماله وأفتقاره إلى الوحدة . كذلك فإنه لم يربط حديثه عن الثقافة البدائية وثقافة الشرق القديم ببقية حديثه عن الثقافات فجاء الحديث عنهما بالخروج عن الموضوع الأصلى فى بداية الكتاب . هذا إلى أن فولتير مر سريعاً على العصور الموغلة فى القدم ، ولم تأخذ روايته وضعها الصحيح إلا منذ عهد شارلمان . أما علاجه لفترة العصور الوسطى فجاء غير متناسق تنقصه الوحدة .

وكان أبرز تلاميذ فولتير من الفرنسيين هو الفيلسوف ايتين دى كونديلاك (١٧١٥ – ١٧٨٠) الذى نشر كتابين هما «التاريخ القديم» و «التاريخ الحديث» . وفى هذين الكتابين نجد قدراً من المادة فى مجال الفكر والثقافة والاجتماع وأكثر مما جاء به فولتير . ذلك أن ايتين تناول العصر العقلانى تناولا شاملا ، وصاغ بوضوح ودقة آراء العقلانيين حول المسببات التاريخية ، فضلاً عن أنه ركز كثيراً على الفنون والعلوم ، بل لقد تناول بالتفصيل فى كتاب خاص تأثير التجارة على السياسة والحكومة .

ولم تلبث طريقة فولتير فى معالجة التاريخ أن صار لها صدى هام فى انجلتره واسكتلنده على أننا نلاحظ فرقاً واضحاً وهاماً ، بين فولتير والمؤرخين الإنجليز ، وهو أن أولئك المؤرخين لم تكن لديهم دوافع قوية للإصلاح وكانوا قانعين تماماً بالأحوال التى سادت ذلك العصر ، ومؤمنين بأن النظم الإنجليزية تتميز بالكمال والتمام ، وهو الأمر الذى ظهر جلياً فى مؤلفات بلاكستون عن القانون ، وهى المؤلفات التى أثارت غضب بنتام فيما بعد . وربما نجد تفسيراً جزئياً لهذه الظاهرة فى الحقيقة الخاصة بأن الثورة البرجوازية فى إنجلترا جاءت متأخرة إلى حد ما لأنها لم تتم إلا فى القرن السابع عشر . أما فى فرنسا فإن الثورة كانت أمراً محتماً بحكم رضوخها تحت حكم ملكى مستبد ونظام إقطاعى متداعى ، ومن ثم كان اهتمام المفكرين والمؤرخين الفرنسيين بالإصلاح كبيراً وعميقاً ، فضلاً عن أن إبتعادهم عن السياسة جعلهم يركزون على مسائل الفكر حتى يصلوا إلى حرية الرأى .

وخير مثال يعبر عن اتجاهات الكتابة التاريخية فى انجلترا فى ذلك العصر هو إدوارد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦ م) مؤلف كتاب «تاريخ إنجلترا من غزو يوليوس قيصر حتى ثورة ١٦٩٨». ولم يكن هيوم أحد أولئك المؤرخين الذين قلدوا فولتير لأنه فرغ من كتاباته التاريخية قبل أن يكتب فولتير كتابه «عصر لويس الرابع عشر» وكتابه «المقالة» ولكن الحقيقة هى أن كليهما كان متأثراً إلى حد بعيد بذلك الحشد الهائل من الأفكار التى سادت عصر الاستنارة. كما لاحظ أحد النقاد فإن هيوم كتب مؤلفاته فى التاريخ كما يتلو السحرة تعاويذهم، بمعنى أنه ابتدأ من عصره ثم جعل يعود إلى الوراء. فمثلاً ظهرت المجلدات الخاصة بتاريخ ملوك أسرة استيوارت (١٦٠٣ - ١٦٨٨) فى سنة ١٧٥٠ ونظراً لما أثارته هذه المجلدات من عاصفة فقد كتب بدافع عنها سنة ١٧٥٩ فجاءت كتاباته عن أسرة تيودور بعد ذلك. وحتى يكمل الصورة ويستمر فى جذب انتباه القراء كتب عن الجزء المبكر من تاريخ انجلترا من عهد قيصر حتى عهد الملك هنرى السابع (١٧٦٢). ومهما يكن من أمر فان ما كتبه هيوم يعتبر فى مجموعه أول تاريخ «قومى» كامل لانجلترا. وكان لهذه الحقيقة، بالإضافة إلى أسلوبه المشوق ومذهبه العقلانى المشهور أثر فى رواج كتابه بصورة لا مثيل لها مما جعل له تأثيراً ثقافيًا هائلاً

ولم يقم هيوم بجمع مادته بنفس الطريقة الشاملة الحاشدة للمعلومات التى استخدمها فولتير فى كتابه المقالة أو بشكل أوضح فى كتابه عصر لويس الرابع عشر وإنما كل الذى فعله هيوم هو أنه قرأ جيداً أعمال المؤرخين السابقين. وكان متأثراً بصفة خاصة ولسوء الحظ بما كتبه كلارندون عن تاريخ الحرب الأهلية الكبرى. لذلك نلمس من الناحية الأكاديمية تقصيراً بالغاً فى أعمال هيوم كما نلحظ كذلك اخفاقه فى تقديم سرد منظم للقارئ، حتى إن كتاباته تبدو فى بعض الأحيان وكأنها مذكرات غير منظمة. وظهر ذلك بصفة خاصة فى الأجزاء التى تناول فيها الأفكار والعادات والسلوك، وهى الأجزاء التى كان ينبغى أن تظهر فيها براعته وقوته. وعلى العموم فإنه يمكن القول بأن قدرة هيوم الذهنية فاقت بدرجة كبيرة قدرته على الإنتاج كمؤرخ محترف، بحيث امتلأت كتبه بالمسائل الفلسفية والملحوظات القوية وروح التشكك أكثر مما امتلأت بحقائق التاريخ ولعل هذا هو الذى أعطى هذه الكتب قيمة دائمة. أما إذا نظرنا إليها من زاوية التاريخ فإننا نجدها عرضاً فقيراً للتاريخ الإنجليزى. ولم تكتسب هذه الكتابات صفة الخلود إلا نتيجة لقدرة هيوم الذهنية وهى القدرة التى جعلت المادة التاريخية طيعة بين يديه يصوغها كيف شاء.

لقد اعتبر هيوم التاريخ سجلاً لأفكار البشر من الناحيتين الثقافية والأخلاقية، ولكنه آثر فى نفس الوقت أن يكتب تاريخاً سياسيًّا. ولذلك سارت كتاباته على نمط ثابت يستهدف ابراز الحقيقة الخاصة بأن الأفكار والأخلاق والدين هى التى تشكل السياسة. فهو يحكم على السياسة من وجهة نظر العلم والفلسفة والدين والأخلاق. ولم تكن لديه رغبة فى تهيئة الناس

للثورة إذ استهدف من كتاباته أن تكون ممتعة وذات قيمة ثقافية لاغير ، أو باختصار أراد أن يرفع مستوى السفسطة المهذبة ، لقد كان عداؤه للخرافات وترمت المسيحية مبعث احتقاره للعصور الوسطى التى اعتبرها ألف سنة من الفراغ الثقافى أو منخفض هائل فى الخط البيانى للتقدم البشرى . وأثر هذا الاتجاه على نظرة هيوم إلى حركة الإصلاح الدينى والصراع الإنجليزى الدستورى فى القرن السابع عشر . ودفع هيوم لاتخاذ موقف معاد من حركة الإصلاح الدينى ومن الصراع البيورتانى ضد الملكية الإنجليزية نتيجة لتعصب المصلحين البروتستانت والأفكار الأخلاقية البيورتانية التى تنم عن ضيق الأفق . ولهذا اتهم بأنه من أنصار المحافظين فى السياسة والتاريخ ، وهو أمر يخالف الحقيقة . حقيقة أن هيوم وقف موقفاً معارضاً من حزب الأحرار ، ولكن ذلك مبعثه كان تحرره الأخلاقى والدينى ورفضه لفكرة الثورة . وعلى الرغم مما تعرض له تاريخ هيوم للقرن السابع عشر من نقد مرير فإنه ليس هناك عمل آخر وصل إلى ما وصل إليه عمله ، وذلك بسبب نظرته للحركة نظرة لا تتغلب عليها نظرة تاريخية متحيزة . وعلى حد قول الأستاذ بيردون عنه :

« لقد حاول هيوم فى كتبه عن اسرة استيوارت أن يعالج صراعات القرن السابع عشر بروح محايدة مع العناية بدرجة كافية بالاطار الذى تمثلت فيه مطالب الملك والبرلمان وادعاءات كل فريق . واعتقد هيوم أن كثيراً مما بدا للملك من أسره استيوارت أنه قانونى ودستورى اعتبر هجوماً على الحريات العامة فى القرن التالى . وأكد كذلك أن الدستور لم يكن واضح الخطوط حتى سنة ١٦٨٨ . وبهذا أضفى هيوم شيئا من الواقعية على روح الحزبية التى كانت تسود جو المناقشات فى القرن السابع عشر . »(١)

يضاف إلى ذلك أن نظرة هيوم إلى الدين ساعدت على توضيح الحقائق التاريخية لأن هذه النظرة صححت ما سبق ظهوره من تاريخ متحيز متعصب للكنيسة الإنجليزية ، وما كتبه المتزمتون من الكاثوليك والبروتستانت عن التطور الدينى فى إنجلترا . وأخيراً فإن ما نختم به حديثنا عن هيوم هو ما كتبه الأستاذ بلاك ملخصاً أهمية أعمال هيوم وقيمتها الدائمة :

« إننا نقرأ هذه الأعمال اليوم بنفس الاهتمام واللذة اللذين قرأت بهما عندما ظهرت فى عصر هيوم . وهناك كثير من الدارسين ، داخل أو خارج نطاق محترفى دراسة التاريخ وكتابته يرون فى أعماله غذاء ومتعة . وإن سلاسة الأسلوب الذى كتبت به هذه المجلدات وقوته ووضوحه ، فضلاً عما تحويه من عمق وحكمة وخبرات مركزة جعلت منها ما كان يرجوه لها هيوم وهى أن تكون كتابات مشوقة تزود القارئ بالعلم والثقافة لأقصى درجة »(٢)

---

(1) T.P. Peardon, The Transition in English Historical Writing 176- 1830 (Columbia University press 1933). p. 20.

(2) black Op. cit. p. 116.

أما المؤرخ الأسكتلندى وليم روبرتسون (١٧٢١ - ١٧٩٣ م) فقد فاق هيوم مقدرته الفنية حتى إنه يعتبر أقدر المؤرخين فنيًا فى المدرسة العقلانية الإنجليزية بحيث لايدانية فى قدرته سوى جيبون . والواقع أن روبرت اتصف بكافة المواهب التى يمكن أن يتحلى بها عالم ، فعمل فى جد ودأب ليتمكن من مادته واستخدم مصادره استخدام المتمكن ، كما تميز بتبجيله للحق . ويشهد له الأستاذ بلاك فيقول « تميزت كتابات روبرتسون التاريخية بالدقة والصدق »

ثم إن روبرتسون كتب بطريقة واضحة ومؤثرة متحررة من التصنع البلاغى ، واتخذ من سويفت وديفو Defoe نموذجين يحتذيهما فى الأسلوب الأدبى . ويكفى أن نشير إلى أن إعجاب جيبون باسلوب روبرتسون كان أحد الأسباب التى دعته إلى وضع مؤلفة التاريخ العظيم . كذلك كان روبرتسون يؤمن بأن التاريخ يعالج المسائل العظيمة ويسرد أعمال الشخصيات الكبرى فضلاً عن الشخصيات العادية التى لها مكانتها الهامة وهذا ما جعل من الصعب عليه أن يعطى اهتماماً كافياً للتاريخ الثقافى والاقتصادى والاجتماعى ، حيث إن جانباً كبيراً من هذه النواحى تتناول أموراً عادية وعامة سواء من ناحية الأحداث أو من ناحية الأشخاص . ومن ثم فإننا نجد أن التاريخ السياسى لا يمكن أن يكون غير دراسة سطحية للجوانب السياسية والعسكرية .[1] ومع ذلك فإن روبرتسون لم يغفل وجود العناصر الثقافية والاقتصادية والاجتماعية فى التاريخ ، فيشير إليها كثيراً وإن لم تكن المادة الأساسية لأعماله . ويلاحظ أن روبرتسون كان من أقل مؤرخى المدرسة العقلانية فى إنجلترا أقلهم تمسكاً بأصول هذا المذهب ، لأنه أمضى شطراً من حياته قسيساً بروتستانتيا وكان يعتقد أن حركة الإصلاح الدينى هى أصلا من تدبير العناية الإلهية . وعلى الرغم من أنه لم يكن بروتستانتيا متعصباً فإن استحسانه للمدرسة العقلانية ظهر بصفة رئيسية فى تناوله لتاريخ الكنيسة الكاثوليكية .

وأعمال روبرتسون الرئيسية هى « تاريخ اسكتلندا »(١٧٥٩) » و « تاريخ عهد الإمبراطور شارل الخامس » (١٧٦٩) « وتاريخ أمريكا (١٧٧٧ - ١٧٩٤) » ، « دراسة تاريخية عن الهند فى العصور القديمة » . (١٧٩١) . ويجمع معظم النقاد على أن كتابه عن تاريخ الإمبراطور شارل الخامس هو أحسن ما أنتجه روبرتسون . ولكن الأستاذ بلاك وهو أكبر حجة بين النقاد الإنجليز عن روبرتسون يميل إلى تفضيل كتاب « تاريخ أمريكا » . على أن كتاب « تاريخ اسكتلندا » باعتباره كتاباً تاريخياً كاملاً ومتكاملاً - لابد أن يأتى على رأس القائمة مثلما يحتل كتاب فولتير « عصر لويس الرابع عشر » الصدارة بين مؤلفاته وخاصة « المقالة » بوصفه كتاباً متكاملاً يتسم بالوحدة والترابط . ذلك أن روبرتسون فاق مؤرخى عصره عندما عالج تاريخ اسكتلندا ، إذ اطلع على معظم المصادر المتوفرة واستقى منها مارآه مناسباً وعالج مادته بطريقة معقولة تتسم بعدم التحيز . ثم استطاع أن ينسج كل شئ فى أسلوب مبسط شيق رفيع ، مما جعل الهوة سحيقة بين أعماله وأعمال بوشنان Buchanan

W.C. Abbott: Adventures in Reputation (Harvard University press 1936

(١) بالنسبة للدفاع المعاصر عن هذا الاتجاه بالنسبة للتاريخ انظر

أما عظمة كتابه «شارل الخامس» فترجع بدرجة كبيرة إلى تحليل روبرتسون الفلسفي للعصور الوسطى، وهي الدراسة التي ظهرت في صورة جزء مستقل لتكون بمثابة مقدمة لدراساته التي بدأت بـ «القرن السادس عشر». وقد سميت هذه الدراسة «نظرة على حالة المجتمع في العصور الوسطى». وتفوق هذه الدراسة في مستواها العلمي وفي حجمها الأجزاء التي كتبها فولتير عن العصور الوسطى في كتابه «المقالة». والواقع أنه ليس هناك ما يفوق نظرة روبرتسون وشرحه للعصور الوسطى بين كل كتابات القرن الثامن عشر سوى أعمال جيبون. والحق أن روبرتسون كان قاسياً إلى حد ما في نظرته إلى القصور الثقافي في العصور الوسطى على الرغم من أنه لم يتطرف في الحكم عليها كما فعل هيوم. كذلك لم يتطرف في عدائه ضد الكاثوليكية مثلما فعل فولتير. هذا إلى أنه من أوائل المؤرخين الذين أوضحوا طبيعة التطور السياسي وتطور النظم في العصور الوسطى فأبرز دور العوامل الاقتصادية والثقافية التي أسهمت في تقدم تلك العصور ومن بين هذه العوامل الحروب الصليبية والتطور التشريعي ونمو المدن والنشاط التجاري وما شابه. ذلك كذلك يلاحظ أن روبرتسون كان مبالغاً بعض الشيء في تصوره لأثر الحروب الصليبية وأنه أحيا أسطورة العام الألف والتي ابتدعها راالف الأصلع وانتقلت عنه عبر حوليات بارونيوس. وإذا كان كتاب روبرتسون عن «شارل الخامس» كتاباً طويلاً يبعث على السأم إلى حد ما — فإن أهم ما فيه هو ذلك الاهتمام الذي أبداه الكاتب بالأسباب «الثانوية» لحركة الإصلاح الديني» وهي على وجه التحديد: فساد الكنيسة، وزيادة الضرائب البابوية زيادة كبيرة، وإحياء العلوم، واختراع الطباعة وما إلى ذلك. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يعط اهتماماً كافياً لعنصر القومية فضلاً عن عناصر أخرى مثل نشاط التجارة وظهور الطبقة الوسطى، فإنه أحسن الكتب التي عالجت حركة الإصلاح الديني والتي ظهرت ما بين قيام هذه الحركة وعصر روبرتسون. ومما لا شك فيه أن روبرتسون كان من أتباع مارتن لوثر ذوى النفوذ والمكانة وأنه كان يشايع سائر المصلحين الدينيين

أما كتاب روبرتسون «تاريخ أمريكا»، فإنه يعتبر بحق أكثر أعماله دقة وابتكاراً ويفوق غيره من ناحية المعالجة المثيرة والمعبرة عن الموضوع. وكانت طبيعة المادة التي تناولها تدفع به إلى عدم التقيد بمستوى الكتابة التاريخية التقليدية والاهتمامات التاريخية المألوفة، فاتجه إلى الإفاضة في الحديث عن السلوك والعادات والأصول الجغرافية للثقافة الأمريكية في مراحلها الأولى فضلاً عن مغامرات المكتشفين والفاتحين. ومع ما هنالك من ضعف ملحوظ في مناقشات الكتاب لموضوع السكان الأصليين، فإنه يعطينا عرضاً رائعاً لحياة ومغامرات المكتشفين والفاتحين. والواقع أنه أحسن كتاب ظهر في ذلك العصر وعالج طبيعة النظام الاستعماري الأسباني وتطوره وكان روبرتسون أول من أثار فكرة أن الهنود الأمريكيين نزحوا إلى أمريكا عن طريق مضايق بيرنج وألاسكا، وهي الفكرة التي أصبحت تمثل الرأي المقبول في هذه

القضية . والملاحظ أن روبرتسون وضع كتابه «دراسة عن الهند» فى شئ من العجلة ، ومع ذلك فهو عمل له أهمية لما يلقيه من ضوء على أهمية ومدى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب فى الأزمنة القديمة والعصور الوسطى .

أما أبرز الكتاب بين مؤرخى المدرسة العقلانية فهو المؤرخ والكاتب إدوارد جيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤ م) . ومع أن جيبون كان أقل ابتكاراً وتأثيراً من فولتير على مجرى الكتابة التاريخية فى العصور التالية ، كما أنه لم يكن على مستوى روبرتسون فى علمه ، إلا أن شهرته بين جماهير المثقفين - غير المؤرخين المحترفين - فاقت شهرة كل من فولتير وروبرتسون . ويرجع ذلك إلى عدة ظروف أولها : أن موضوع بحثه الخاص « بانهيار الحضارة الرومانية والأنظمة الإمبرياليه كان مقصوداً به أن يأخذ بألباب الجماهير ، ولهذا فإن كتابته عن هذا الموضوع أخذت شكل الملاحم . ثم إن جيبون نظم عمله بطريقة فذة ، وكان أسلوبه رفيعاً ومؤثراً يدخل البهجة على نفس قارئه ، فضلاً عن أن عمله تميز بدقة متناهية وهو أمر مدهش بالنسبة لعصر جيبون . ولقد ظل كتابه مرجعا يحتذى به ومصدراً لا يرقى إليه الشك طوال قرن ونصف . وعلى هذا فإن كتاب «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» لم يكن كتاباً رائجاً مشهوراً فحسب بل وعملاً خالداً .

وعلى عكس كثير من أعلام مؤرخى المدرسة العقلانية ، كرس جيبون حياته بصفة رئيسية لدراسة التاريخ وكتابته . فعلى حين كان فولتير أديباً ومصلحاً وزعيماً شعبياً ، وكان هيوم فلسفياً كما كان روبرتسون رجل دين ومدير جامعة ، إذا بجيبون يعد نفسه منذ البداية لمهنة المؤرخ . ولهذا قرأ كثيراً عن التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى وإن اعتمد أساساً على المصادر المطبوعة ، كما أن اهتمامه بالبحث فى المخطوطات كان ضئيلاً . ثم إن جيبون كان يعتبر المؤرخ مهندساً عظيماً يقوم بمشروع أدبى علمى ، ولم ينظر إليه أبداً كمجرد ناسخ للوثائق أو كاتب أبحاث ، وهو ما آل إليه أمر المؤرخ فى أيامنا هذه . وبينما هو يعتقد فى سمو المؤرخ الحقيقى على غيره من الكتاب الذين اهتموا بجمع المادة عن موضوع معين ، فإن جيبون لم يدرك تماماً أن الكتب التاريخية فى شكلها الحديث لم تكن لتوجد لولا ماقام به هؤلاء الذين جمعوا الحقائق فى الماضى .

وقد تبحر جيبون فى تاريخ روما القديم ، وكانت خطته الأصيلة هى أن يكتب تاريخاً لروما حتى عهد أوغسطس . ولكنه قرر فى سنة ١٥٦٤ م أن يتناول تاريخ روما منذ عهد أوغسطس حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية ١٤٥٣ م . وكانت النتيجة مؤلفه الرفيع المعظم الذى أسماه «تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» (١٧٧٦ - ١٧٨٨) . وجاء كتابه مليئاً بالتفاصيل عن الفترة من سنة ١٨٠ م إلى ٦٤١ م ، ثم قدم بعد ذلك عرضاً مختصراً عن التطورات منذ سنة ٦٤١ م حتى سنة ١٤٥٣ م . أما ماتلا ذلك من

أحداث فقد عرضه جيبون عرضاً سريعاً فمثلاً أعطانا ملخصاً سريعاً لنتائج حركة الإصلاح الدينى وتأثيرها على الثقافة والنظم .

كانت الروح الفلسفية أقل ظهوراً فى كتاب جيبون مما كانت فى كتب غيره من مؤرخى المدرسة العقلانية أما كتابته فكانت أقرب إلى الملاحم الأدبية ، لأنه اهتم بالأسلوب والشكل أكثر من اهتمامه بالمغزى الفلسفى العملى . وتركت الصورة العامة لكتابه أثراً بالغ العمق فى عقول الناس ، حتى وصفه كثيرون من رجال الأدب والبيان أوصافاً مختلفة عند رجوعهم إليه ، فوصفوه بأنه « انتصار لروما » و « ختام رائع لتاريخ الإمبراطورية » و « أشبه بكاتدرائية قوطية عظيمة » أو « أشبه بقاعة استقبال فاخرة فى قصر لويس الرابع عشر » أو بأنه « قمة جبل شامخ يختلف منظرها باختلاف الضوء والظل » . و « صخرة عظيمة تتحطم عليها أمواج الزمن » وغير ذلك من الأوصاف . أما أسلوب جيبون فنال كل إعجاب واستحسان فكتب فردريك هاريسون عنه فيقول :

« تربع جيبون فوق قمة الفن الأولى ، إذ كانت له القدرة على أن يجعل جبالاً من البحث الدقيق إلى كتلة متماسكة تنبض بالحياة فى كل جزء من أجزائها . إنه لكتاب رائع إذا ما نظرنا إليه ككل » ولعل أحسن تلخيص لمواهب جيبون الأدبية التى تشكل ركناً هاماً بارزاً فى كل أعمال ما كتبه الأستاذ بلاك : « إن سمو الأسلوب وعظمته وجاذبيته تمشى تماما مع عظمة الموضوع وسموه ... فجيبون لايأتى بالحقيقة عارية بطريقة يسهل فهمها على النحو الذى تتراءى له ، وإنما لابد وأن تدخل فى سلسلة من تفاعلات غامضة ومعقدة تخرج بعدها فى صورة يشهد لها الجميع بأنها مصقولة منمقة وسمة ذات زخرف بديع . ومن يقرأ كتاب « اضمحلال الإمبراطورية وسقوطها » كما أراده صاحبه أن يقرأ – أى بإمعان وتأمل وتقدير ومراعاة لذكاء المؤلف الفذ – فإنه لن يجد فى العالم كله وثيقة أكثر منه روعة وأخذاً بالألباب . حقيقة إنه كتاب مطول يفيض بالحصانة والمعرفة التى قد يتحير القارئ فى فهمها ويقف عاجزاً أمامها ولكن خفته وحيويته لاتبارى . إن جاذبية أسلوبه قادرة على استيعاب أى شئ فى حديثه عن الحروب الفارسية والبيزنطية التى لانهاية لها إلى الخلافات الدينية داخل الكنيسة فى أيامها الأولى إلى إصلاحات جستنيان الدينية »[1] .

ويبدو أن جيبون تأثر كثيراً بمؤرخى روما العظام . فمن المؤرخ الرومانى الأشهر ليفى أخذ جيبون فكرة السرد الملحمى الفصيح ، ومن تاكيتوس أخذ النظرة الفلسفية العملية إلى مادة التاريخ ، ومن بوليبوس أخذ مراعاته الدقة والتزامه لها وتقديسه إياها ، فضلاً عن الوعى التام للأمور العامة . ومن ناحية أخرى تراه متأثراً بآراء هؤلاء المؤرخين عن المادة التاريخية . فهو يرى

---

(1) Black op. cit, 144, 175.

أن الحروب وإدارة الشئون العامة ينبغى أن تكون الموضوع الرئيسى للتاريخ ، وعلى الرغم من أننا نجد فى كتابه بعضاً من التاريخ الثقافى والاجتماعى والاقتصادى ، إلا أن ذلك كان أمراً عارضاً تماماً . هذا إلى أن أسلوبه الرفيع لم يكن يتناسب مع معالجة هذا النوع من الكتابة التاريخية .

وعلى الرغم من أن جيبون كرس جهده بإخلاص لروما وتاريخها واعتبر سقوطها كارثة عالمية وعالج تاريخ روما علاجاً مطولاً ، إلا أنه لم يأت بتحليل علمى منظم . حقيقة إنه ذكر معظم الأسباب التى أدت إلى سقوط روما التى أقرها اليوم المتخصصون فى التاريخ ، لكنه لم يحسن صياغة هذه الأسباب ولم يؤلف بينها فى نظرية واحدة تفسر سقوط الإمبراطورية الرومانية . وأكثر تفسيراته الجامعة والتى استقاها من مونتسكيه هى أن الإمبراطورية الرومانية أصبحت شاسعة جداً ولكنه لم يوضح أن هذا الاتساع كان مميتاً لها لسبب رئيسى وهو افتقار الإمبراطورية للأساليب الحديثة فى الصناعة وإلى طرق النقل والاتصال المعاصرة ربما كان لجيبون العذر ، كان يكتب فى وقت لايسمح له بالإحساس بأهمية هذا العامل .

ومن أبرز عناصر التجديد التى أدخلها جيبون على كتابة التاريخ علاجه لأصول المسيحية . وهو أمر كان مهيئاً له تماماً بحكم دراسته وخبراته الشخصية . ذلك أن جيبون كان على التعاقب بروتستانتياً ثم كاثوليكياً ثم ربوبياً آمن بوجود الله عن طريق العقل وحده . وقد ألف كتابه العظيم وهو فى هذه الحالة الأخيرة . لكن اعتراضه على المسيحية لم يكن بتلك الدرجة الكبيرة التى صورها بيورى وآخرون من ناقدى جيبون . والواقع أن جيبون شارك هيوم رأيه فى أنه ينبغى النظر إلى الدين كما ننظر إلى أى نظام اجتماعى آخر - أى بطريقة طبيعية . ولذا فإنه عالج نشأة المسيحية لأول مرة بطريقة موضوعية بحتة وعلل نموها وتطورها بنفس الطريقة التى كان يستخدمها لو أنه تعرض لتطور أى ديانة أخرى أو أى نظام علمانى . وخلاصة القول إنه عالج المشكلة من الناحية التاريخية لا من الناحية الدينية وأنكر وجود شئ خارق فيها أو أى تأييد من قوى ماوراء الطبيعة . وكان جيبون عنيفاً فى نقده للآثار التاريخية الخاصة بالمسيحية فاعتبر أن الإمبراطورية الرومانية أعظم ما أنتجه الجنس البشرى وأن المسيحية قد لعبت دوراً هاماً فى اضعافها وتقويضها ، ومن ثم فإنه ناصبها العداء . ومع ذلك فإنه أشاد بقوة هذه العقيدة وتماسكها وخاصة بعد الوهن الذى أصاب الدولة . كذلك لم يغفل جيبون الخدمات الثقافية التى أدتها الكنيسة خلال العصور الوسطى وذلك على الرغم من انتمائه إلى المدرسة العقلانية التى لاتنظر باحترام كبير إلى عصور الإيمان.هذا كله بالإضافة إلى أن جيبون كان واحداً من أوائل الكتاب فى العالم المسيحى الذين تناولوا بطريقة عادلة موضوع نشأة الإسلام وفضل المسلمين على الحضارة . وبغض النظر عن الأخطاء التى وقع فيها جيبون عند تفسيره للتاريخ البيزنطى ، فإن معالجته لهذا الموضوع أمر جديد لأن معظم مؤرخى العصور الوسطى فى الغرب لم يحفلوا به .

ولعله مما يخلد اسم جيبون ويوضح مكانته العلمية ويؤكد عظمة إنتاجه أن كتابه وقد مضى على كتابته أكثر من قرن ونصف لايزال يعتبر من أحسن وأمتع ما كتب عن الإمبراطورية الرومانية .

وهناك أعمال عديدة أخرى أقل شأناً مما سبق ذكره يتضح منها أثر المدرسة العقلانية على الكتابة التاريخية فى إنجلترا . من ذلك كتاب ريتشارد هنرى (١٧١٨ – ١٧٩٠ م) «تاريخ انجلترا» وقد رسمت خطته على أساس صورة فى عشرة مجلدات وقصد به أن يكون مجلدا لتاريخ الحضارة مع العناية بالتاريخ الثقافى والاجتماعى والاقتصادى . وتمكن صاحبه من أن ينفذ خطته فجاء كتابه بعيداً تماماً عن التاريخ السياسى المألوف . ولكن يعاب عليه أنه جاء سرداً حرفيًا مما جعله يبدو وكأنه دائرة معارف وليس كتاباً فى التاريخ . وترتب على ذلك افتقار الكتاب إلى عنصر التشويق شأنه شأن سائر الكتب الجامعة المحشوة بالمادة . وعلى الرغم من أن هنرى كان من العقلانيين المتشككين فى المسيحية فإنه أظهر سذاجة كبيرة عند تعرضه للأساطير والقصص الوثنية والدينيه المتواترة . وتوقف بكتابه عند أحداث سنة ١٥٤٧ وبعدها قام جيمس بتيت اندروس بتكملته حتى سنة ١٦٠٣ م .

كذلك أصدر وليم راسل كتاباً من أجل الشباب عن تاريخ أوربا من وجهة نظر العقلانيين تحت عنوان «تاريخ أوربا الحديث من سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى ١٧٦٣» وقد ظهر فيما بين سنة ١٧٧٩ م ، ١٧٨٤ م . وجاء هذا الكتاب فى صورة رسائل من أحد النبلاء إلى ابنه ، ويتضمن كثيراً عن التاريخ الثقافى والاجتماعى ولكن ليس بالقدر الذى وعد به الكاتب . ومع ذلك فإن شهرته ككاتب تناول موضوعاً معيناً ظلت قائمة فترة تزيد عن نصف قرن .

ويماثل كتاب راسل روحاً وشهرة كتاب «عناصر التاريخ العام» الذى ألفه الكسندر فريزر تيتلر وصدر سنة ١٨٠١ . واختلف الكسندر عن راسل فى أنه تناول فى كتبه تاريخ العالم وبذل محاولة لم تنجح كثيراً فى تفسير التاريخ السياسى فى ضوء العوامل غير السياسية . وثمة محاولة مثيرة استهدفت التوفيق بين الفلسفة العقلانية وتلك الفلسفة القائمة على اساس تفسير التاريخ تفسيراً دينياً تمت فى كتاب «محاضرة فى التاريخ» الذى ألفه العالم والفيلسوف الموحد يوسف بريستلى (١٧٧٣ – ١٨٠٤ م) . أما عن آدم فيرجسون فسنتناول أعماله بعد قليل .

ومن بين الأعمال العظيمة الأخرى كتاب وليم جودوين (١٧٥٦ – ١٨٣٦ م) وهو من رجال المدرسة العقلانية المبرزين وقد صدر كتابه فى أربعة أجزاء تحت عنوان «تاريخ الكومنولث الإنجليزى» وعالج فيه الحرب الأهلية الكبرى فى إنجلترا . وتميز بالصراحة فى التعبير عن أحكامه وهى أحكام امتازت بالحيدة وبأنها غير مستقاه من أحد بحيث إنه وجه نقده لكلا الجانبين اللذين اشتركا فى الحرب الأهلية . ومع إحساسه بأن شارل الأول كان أحد كبار

المذنبين المجرمين فى هذا العالم ، إلا أنه اعتقد أن إعدامه كان خطأً استراتيجياً ساعد على جعل عودة الملكية أمراً محتماً . كذلك اعتقد أن كروميل خان أصدقاء الحرية والجمهورية ، ولكنه أشاد بقدراته وعبر عن إيمانه بأنه لو عاش لفترة عشر سنوات أخرى لأمكنه إنشاء أسرة حاكمة جديدة فى انجلترا .

أما وليم روسكو Willaim Rocsoe (١٧٥٣ - ١٨٣١ م) فكان أحد تلامذة فولتير الإنجليز الجديرين بالانتماء إليه . وكان يأمل فى ملء الفراغ بين مؤلفات جيبون وروبرتسون ولذلك كرس حياته لدراسة أسرة الميديتيشى وبابوات عصر النهضة الذين أعجب بهم لاهتمامهم بالعلوم والفنون . وأهم أعماله الرئيسية هى تراجم لورنزو دى ميدتش والبابا ليو العاشر ولكن هذه الأعمال تضمنت أيضاً عرضاً لتاريخ العصر وثقافته . وقد أوضح روسكو التناقض بين أمجاد تلك الفترة وبين ما اعتبره ظلام وتعصب كل من كاثوليكية العصور الوسطى وبروتستانتية حركة الإصلاح الدينى .

يأتى بعد ذلك هنرى هالام (١٥٧٧ - ١٨٥٩) الذى حذا حذو جيبون ورجال المدرسة العقلانيه رغم أنه كان فى أول أمره من المؤمنين بأن التاريخ من صنع وتدبير العناية الإلهية . ونظر هالام إلى الماضى نفس نظرة جيبون الفلسفية ، فرأى أن تاريخ الماضى يعطى درساً للحاضر . كما شارك العقلانيين فى تحقيرهم من شأن ثقافة العصور الوسطى ، وأبدى إهتماماً حقيقياً بتاريخ المجتمع والفكر والثقافة . ثم إن هالام يشبه جيبون وروبرتسون فى سعة الأفق والمعرفة والمكانة العلمية ، فكان رجلاً مهذباً متعلما ، ثقف نفسه بطريقة تلقائية دون كلفة ، ودون أن يتبع أساليب مدرسة النقد الجديدة التى ظهرت فى القارة الأوروبية مثلما فعل نيبهور Neibuhr وفون رانكه ومع ذلك فإن بلغ درجة واسعة من الاطلاع التاريخى حتى إنه فاق فى ذلك كل من جيبون وروبرتسون كلما فاتهما فى دقة اعتماده على المصادر .

كان أول كتاب مرموق لهالام هو كتابه «نظرة على حالة أوربا فى العصور الوسطى (صدر سنة ١٨١٨) ويقع فى ثلاثة مجلدات ، ويعالج الفترة منذ عهد كلوفيس حتى شارل الثامن . وهذا أول عمل تاريخى فى غرب أوربا ينافس كتاب جيبون سواء فى حجمه أو فى قوة التأثير على القراء . ومع أنه لايدانى كتاب جيبون فى الأسلوب والتصوير إلا أنه يفوقه فى كونه تاريخاً للنظم الاجتماعية والسياسية فى العصور الوسطى . وقد استبعد هالام القصص الدارجة والخرافات الشائعة وتفسير أحداث التاريخ تفسيراً غير موضوعى ، ووجه عنايته نحو تتبع تطور النظم . ولعل العيب الرئيسى فى كتاب هالام هو عدم وجود دراسة مقارنة للنظم الأوربية فى فترة العصور الوسطى وذلك فى الفصول التى تناولت دولاً عديدة ، وإنما جاء علاجه للموضوع فى صورة دراسات منفصلة لنظم كل دولة على حدة . وعلى الرغم من أن حكمه على العصور الوسطى لم يكن شديد القسوة ، فإنه كان حكما لا أثر للعواطف فيه ، واتصف بعدم الانفعال وذلك باستثناء إنجلترا التى خصص لها جزءاً كبيراً من الكتاب . وقد دفعه إلى ذلك

إعجابه بها ، مما يعتبر مظهراً للشعور القومي في كتابه . هذا إلى أنه أبدى إيماناً بالفلسفة العقلانية للتاريخ في الجزء الأخير من كتابه الذي تناول فيه الطبيعة العامة للحضارة الأوربية .

ويعتقد معظم النقاد أن أهم وأقدر أعمال هالام هو كتابه «التاريخ الدستوري لإنجلترا» الذي ظهر في جزئين عام ١٨٢٧ وتناول فيه الفترة منذ عهد الملك هنرى السابع حتى عهد الملك جورج الثالث . وهو كتاب يمثل وجهة نظر حزب الأحرار وإن كان قد كتب من زاوية منفصلة تميل إلى التشكك فضلاً عن حرصه على عرض وجهتي نظر الفريقين المتنازعين . وإذا قورن بهيوم فإنه يفوقه في المعرفة وصدق البصيرة . وقد بلغ التاريخ الدستورى وتاريخ الحياة الحزبية في إنجلترا أرقى مراتبه في هذا الكتاب ويتضح ميله إلى وجهة نظر الأحرار من أنه في كتابه يؤكد دائما حقيقة أن إنجلترا كانت دائماً وبصفة أساسية ملكية دستورية تتعرض بصفة دورية لفترات من الاستبداد والفوضى . أما خير ما أسهم به هالام في تاريخ الفكر والثقافة فهو كتابه الذي صدر في أربعة أجزاء بعنوان «مقدمة للأدب الأوربي» في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر» . ويعتبر هذا الكتاب بالنسبة لعصره من الكتب التي لا ينافسها كتاب آخر عن تاريخ أوربا الفكرى والثقافي .

وأخيراً ، يبقى الجناح المتطرف من كتاب المدرسة العقلانية في إنجلترا هنرى توماس بكل الذي سنتعرض له عندما نتكلم عن نشأة فلسفة التاريخ .

أما في ألمانيا فكان لفولتير ثلاثة أتباع رئيسيه هم فون شولزر ، شميلت ، سبتلر وكان الأول — وهو أوجست لودفيج فون شولزر — (١٧٣٥ — ١٨٠٩) صاحب كتاب «التاريخ العالمي» وهو كتاب منهجى متداخل التفاصيل أخذ فيه مؤلفه بالقول الدارج التقليدى حول تاريخ الخلق . وقد ركز فيه على الدول السلافيه في أوربا حيث وجد فيه خير نموذج للملكية المستبدة المستنيره في شخص كاترين الثانية . وإلى جانب هذا الكتاب ظهر لشولزر كتابان آخران هما : «تاريخ روسيا» وقد ظهر سنة ١٧٦٩ م و «التاريخ العام لبلاد الشمال» وقد نشر سنة ١٧٧٢ . وهذان الكتابان هما على الأرجح — أحسن الكتب عن السلاف الصقالبة في أوربا . ويلاحظ أن قدرة شولزر على النقد كانت محدودة ، خصة فيما يتعلق بما ورد في الإنجيل . وكان شولزر أبرز المدافعين عن الملكية المستبدة المستنيرة بين المؤرخين العقلانيين .

أما المؤرخ الألماني ميخائيل اجناتز شميلت Michael Ignatz Schmidt (١٧٣٦ — ١٧٩٤) فكان دوره في ألمانيا شبيه بدور فولتير في فرنسا ، هيوم في إنجلترا ، روبرتسون في اسكتلندا . ذلك أن كتابه «تاريخ ألمانيا» الذي تناول فيه تاريخ ألمانيا حتى سنة ١٦٦٠ يعتبر من أبرز ما أنتجته المدرسة العقلانية في مجال الكتابة التاريخية . وامتاز هذا المؤرخ بأسلوبه الرائع ودقته وحذره في إستخدام المصادر وبعده عن روح التعصب لوطنه . هذا فضلاً عن أن

شميدت كان واحداً من أوائل الكتاب الذين تناولوا حركة الإصلاح الديني في ألمانيا بطريقة لا تحيز فيها . وهو يشبه فولتير في أن كلاهما كتب تاريخاً حقيقيًا للحضارة .

أما الدويلات الألمانية الصغيرة والكنيسة المسيحية فقد وجدت في لودفيج تيمو ثيوس سبتلر Ludwig Timotheus Spittler (١٧٥٢ - ١٨١٠ م) مؤرخها الذي ينتمي إلى المدرسة العقلانية . وسبتلر هذا هو صاحب كتاب « عرض لتاريخ الدول الأوربية » الذي ظهر سنة ١٧٩٣ « وتاريخ الكنيسة المسيحية » الذي صدر سنة ١٧٨٢ . وبلغ سبتلر ذروة عظمته كمؤرخ عندما عالج الفترة القريبة من عصره . ونجده في كتاباته يمجد العصور الوسطى . وإليه يرجع الفضل إلى حد ما في أنه وضع أساس النظر إلى العصور الوسطى نظرة مشرقة مليئة بالرومانسية واعتبار تلك العصور عصوراً نشطة شهدت حياة الفروسية وبرز فيها الفرسان وشعراء التروبادور فضلاً عن شعراء الألمان الفنانين . ثم إن سبتلر كان أول مؤرخ يعالج تاريخ الكنيسة علاجاً كاملاً من وجهة النظر العقلانيين ، وكان نقده لها معتدلاً نسبيًا . وقد تبنى فكرة الحكم على الكنيسة من زاوية أنها أداة لدفع قضية الرومانسيه قدما . وكما يقول فيوتر كان هذا الاتجاه منه إسهاماً في مجال التسلية التاريخية أكثر منه إسهاما في مجال البحث التاريخي وإلقاء ضوء على التاريخ .

وثمة مؤرخ اقدر من سبتلر في كتابته عن الكنيسة هو جوتيليب يعقوب بلانك Gottleib Jakab planck (١٧٥١ - ١٨٣٧ م) . وإذا كان سبتلر قد عالج تاريخ الكنيسة من وجهة نظر شخصية ومن زاوية تناولت الأحداث الهامة . فإن بلانك عالجها من زاوية تاريخ الفكر والنظم . ويعتبر كتابه History of the christian constition of society دراسة طيبة للتنظيم السياسي لكنيسة العصور الوسطى وعلاقة الكنيسة بالدولة ثم جهود الكنيسة في تأكيد سيادتها وسموها على الدولة . كذلك كتب بلانك كتابة مفصلة عن تاريخ العقيدة والمذهب البروتستانتي مؤكداً بصفة خاصة آراء البروتستانت عن الديانة المسيحية . وبذلك يعتبر بلانك أول من وضع أساس الدراسة المقارنة عن طوائف البروتستانت وأبطل بعمله هذا ما كتبه بوسويه من كتابات معادية غير محايدة . هذا إلى أن بلانك كان من أشد مؤرخي المدرسة العقلانية تطرفاً في الإيمان بنظرية الصدفة في التاريخ . وكان يعتقد فيما يختص بحركة الإصلاح الديني أن طبيعتها تثبت أنها كانت تحظى برضاء العناية الإلهية .

مدرسة مونتسكيه

لم تستطع مدرسة فولتير التى كانت أكثر تقدما فى المذهب العقلانى أن تحظى بقبول عام وأن تحافظ على مكانها فى القرن الثامن عشر إلا بمشقة كبيرة ، نظراً لأنها كانت أكثر تقدماً من المستوى العام للفكر المعاصر لها . هذا إلى أن هذه المدرسة لم تسلم من بعض القيود التى اقترنت بمحاولتها الأولى والجريئة فى إعادة صياغة التاريخ وإيجاد تناسق بينه وبين التقدم المعاصر فى الفكر العلمى والفلسفة الاجتماعية وكان من الطبيعى أن يتولد رد فعل ضد كثير من نظرياتها ومناهجها بسبب تجدد حالة من الخمول الذهنى من ناحية ثم بسبب ما بذل من جهد لتصحيح بعض العيوب فى مدرسة فولتير من ناحية أخرى . وكانت مراحل رد الفعل هذه متدرجة وواضحة المعالم تدرجت من تعقل مونتسكيه المعتدل والمحافظ إلى عاطفة روسو اللاعقلانيه ، ثم انتهت إلى تخيلات الرومانسية المثالية الغامضة . ولم تفق مدرسة فولتير إلى نفسها إلا بعد أن أحيتها الجهود الكبيرة التى بذلها كل من باكل ، وليكى ، وليزلى ستيفن ، ودرابر ، وهويت ، وروبنسون وذلك نتيجة لرد الفعل الذى أحدثته الحركة العلمية فى القرن التاسع عشر والحركة الفكرية الناقدة فى الكتابة التاريخية .

وعلى الرغم من أن أعمال مونتسكيه نفسه لم تكن ذات قيمة عظيمة فى ميادين البحث والنقد التاريخى ، فإنه يمثل مكانة بالغة الأهمية فى مجال مناهج البحث ذلك أنه لم يكن متطرفاً أو عنيفاً فى نظريته السياسية وكان أقرب إلى المدرسة الإنسانية من المدرسة العقلانية . ومع ذلك فإنه قدم اتجاهات فكرية جديدة فاقت ما جاء به فولتير . فمع أن مونتسكيه تقبل مذهب فولتير القائل بوجود بعض الشعوب التى تتسم بالعبقرية إلا أنه حاول أن يفسر هذه الظاهرة ، فقال بأن هذه العبقرية إنما ترجع إلى تفاعل القوى الطبيعية وعلى الأخص تأثير المناخ . كذلك فإنه وضع لأول مرة وفى وضوح فروضاً أساسية وهى أن الحكم على الأنظمة الاجتماعية يجب ألا يكون حكماً مطلقاً وعلى نطاق عام وإنما فى ضوء ملاءمة تلك الأنظمة لروح الشعب الذى وضعت من أجله .

ولا يقف الفرق بين مونتسكييه وفولتير عند هذا الحد ، فعلى حين أن فولتير وأتباعه لم يقدموا سوى بعض الملحوظات العابرة فى مجالات معينه ، إذا بمونتسكييه يقدم تحليلاً وربطاً بين العوامل المختلفة التى يتأثر بها التاريخ فى تقدمه وتطوره . وإذا كان ما قدمه مونتسكيه فى هذا الشأن يعوزه الصقل والتكامل ، فإنه يعتبر تقدماً هائلاً فى مناهج البحث . وأخيراً فإنه إذا كانت مدرسة فولتير قد اكتفت بمجرد اقتراح دراسة العوامل الاقتصادية وعلاقتها بالتطور السياسى ، فإن مونتسكييه وأتباعه اهتموا اهتماماً كبيراً بتأكيد التأثير العميق للنشاط الاقتصادى والمالى على الدولة . وأوضحت مدرسة مونتسكييه فى صدق أثر الثورة التجارية على الكتابة التاريخية فى أوربا .

وكانت أبحاث مونتسكييه الرئيسية فى التاريخ هى دراسة مطولة بعنوان «أسباب عظمة الرومان» و«اضمحلالهم» وظهر سنة ١٧٣٤ ومع أن هذا العمل ليس به ما ينم عن بلوغه شأواً بعيداً فى مجال نقد المصادر أو اتساع المعرفة ، فإنه كشف عن قوة مذهلة فى تفسير الاتجاهات والعوامل الرئيسية فى تقدم المجتمع الرومانى واضمحلاله . وبهذا الكتاب يكون مونتسكييه قد سبق العلماء المحدثين المهتمين والمتخصصين فى دراسة نمو وتفكك السياسة الرومانيه وقوتها الإمبراطورية ، حيث إنه أكد حقيقة هامة هى أن الإمبراطورية اتسعت كثيراً إلى الحد الذى لم يضمن لها السيطرة على اقتصادياتها . كان مونتسكيية فى كتابته مثل السائر وسط غابة لكنه لم يدع أشجارها تحول بينه وبين الوصول إلى هدفه . هذا إلى أن آراءة الخاصة باضمحلال الإمبراطورية الرومانية كان لها تأثير كبير على كتابات جيبون .

ولما كان مونتسكييه فليسوفاً سياسياً أكثر منه مؤرخاً ، فإن تلاميذه من أصحاب النظريات السياسية كانوا لا يقلون عدداً عن تلاميذه من المؤرخين البارزين . ومثال ذلك ما كتبه ج . ل . لولم عن دستور إنجلترا ، وآدم فيرجسون عن تاريخ المجتمع المدنى اللذان يعكسان بوضوح آراء مونتسكييه فى مجال الفلسفة السياسية .

أما كتاب «دستور انجلترا» فقد نشر لأول مرة سنة ١٧٧٠ واتبع مؤلفه نهج مونتسكييه فى التحليل الخيالى وذلك بتوضيحه ما يتسم به الحكم الإنجليزى من فصل أكيد بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية وما يراه فى ذلك الفصل من ضمان لحرية الفرد . وقد اعتقد دى لولم أن المواطن يتحقق له الأمن التام إذا تساوى الناس أمام القانون وإذا تحددت دائرة السلطة التنفيذية . ولهذا فإنه عارض بشدة فكرة روسو القائلة بالحكم عن طريق الحصول على تفويض شعبى لأنه يرى أن الناس يكونون دائماً «ضحايا التآمر الصامت القوى النشط من جانب الحكام» .

وأما آدم فيرجسون وهو الفيلسوف الاجتماعى الاسكتلندى فقد كتب سنة ١٧٨٢ تاريخ ازدهار الجمهورية الرومانية ونهايتها ، وينافس فيرجسون مونتسكييه فى قدرته على

استخلاص جوهر ما يريد أن يقوله ويشرحه . كذلك أشار بوضوح إلى ما يحويه التاريخ الرومانى فى عصره الأول من معلومات موضع شك وبعيدة عن اليقين . وقد أكد بصفة خاصة تأثير الفتوح الرومانية على الأنظمة القائمة وأوضح أن النظام الجمهورى لم يعد قادراً على مواجهة الأزمات التى وجدت فى ذلك الحين . وكان إيمان فيرجسون القوى بنظرية حرية الإرادة حائلاً بينه وبين القدرة على إصدار حكم عادل على أولئك الذين أرادوا أن يطيحوا بالجمهورية ويخلقوا النظام الإمبراطورى المطلوب . وأكثر ما يبعث على السخرية فى كتاب فيرجسون هو التماسه الأعذار لمجلس السناتو الرومانى فى القرن الأخير من العصر الجمهورى ، وهو ذلك المجلس الذى تميز بقصر النظر واللبس .

وكان فيرجسون قد أصدر قبل ذلك سنة ١٧٦٥ كتاباً بعنوان « تاريخ المجتمع المدنى » وهو أفضل عرض للتطور الاجتماعى كتب حتى ذلك الحين ، كما يعتبر البداية الحقيقية لدراسة علم الاجتماع التاريخى . ويؤكد فيرجسون فى هذا الكتاب أهمية الحروب فى المراحل الأولى من التطور السياسى .

وإذا كان تلاميذ مونتسكييه قلة بين أوساط المؤرخين المحترفين فإن حبه تلميذه العظيم أرنولد هيرمان لودفيج هيرين (١٧٦٠ — ١٨٤٢ م) وهو أحد أساتذة جامعة جوتنجن العظام فى عصره وخير ما أنتجه هو كتاب « صور لسياسة الأمم الكبرى فى العصور القديمة وعلاقاتها وتجارتها » ويعكس هذا الكتاب نفس مبادئ مونتسكييه ، إلا أنه يمتاز ببعض التحسن ازاء تحليله العلمى للجانب الاقتصادى وهو الجانب الذى تجسم فى انتاج آدم سميث . ذلك أن هيرين حاول فى مهارة فائقة أن يعيد دراسة الحياة التجارية القديمة ليبين أثرها على مجرى تاريخ العديد من الأمم القديمة . والحق أن هيرين كان واحداً من أقدر مؤرخى عصره ، ولم يحرص على المحسنات البلاغية مما جعل كتابه عملاً فكرياً واضحاً ومتماسكاً . ووصفه إدوارد ميار وهو حجة بين المؤرخين عن العصور القديمة — بأنه يتزعم أولئك الذين تناولوا بالبحث نفس المجال الذى كتب فيه . ولم تلبث طريقة هيرين فى ربط التاريخ بالمناهج المدرسية المعاصرة أن ظهرت مرة أخرى فى كتاب ويلهلم فون هايد « تاريخ التجارة مع الشرق فى العصور الوسطى » الذى ظهر سنة ١٨٧٩ م. أما طريقة مونتسكييه فى علاج المسائل السياسية عن طريق ربطها بالعوامل الجغرافيه فقد انعكست فى كتاب هيرين « تاريخ نظم الدول الأوربية ومستعمراتها » ويكفى فى نهاية حديثنا عن هيرين أن نذكر أنه ألهم بيرتز فى دراسته لمصادر العصور الوسطى وألهم بيرتز فيما ألفه عن التاريخ الدستورى وأثار اهتمام ريتر بالجغرافيا السياسية .

وهناك كاتبان بريطانيان أبرزا اهتمام مونتسكييه بتأثير التجارة ، هما آدم اندرسون دافيد ماكفرسون . أما الأول فهو صاحب ذلك الكتاب المفيد وعنوانه « المفهوم التاريخى والزمنى لنشأة التجارة » . وقد أعاد دافيد ماكفرسون فى بداية القرن التاسع عشر كتابه الأجزاء الخاصة

بالعصور الوسطى فى ذلك الكتاب . والف ماكفرسون كتاباً آخر أكثر شمولاً واتساعا وهو «تاريخ التجارة الأوربية مع الهند» الذى ظهر سنة ١٨١٢ ويشبه الجزء الأخير من هذا الكتاب ما كتبه رينال عن علاقة التوسع الأوربى بالحضارة الأوربية ورفاهية الجنس البشرى .

ومن بين تلاميذ مونتسكيه كذلك المؤرخ الاسكتلندى الفذ «جلبرت ستيوارت» (١٧٤٢ - ١٧٨٦) الذى عاب على كل من هيوم وروبرتسون نظرتهما غير الطيبة تجاه العصور الوسطى . فقى كتابه «رسالة فى التاريخ» تناول موضوع الدستور الإنجليزى كما نجد فى كتابه «نظرة على المجتمع الأوربى» النظم الديمقراطية السياسية التى نسبها إلى الجرمان الأوائل وذهب إلى أن انجلترا الأنجلوساكسونية كانت تيوتونيه بحته . كذلك اعتقد أن الدستور الإنجليزى وضعت بذوره فى أرض ألمانيا وغاباتها ، وبذلك يكون قد سبق المدرسة الألمانية التى ظهرت فى إنجلترة فى القرن التالى .

ثم إن إعجاب استيورات بالشطر الأول من العصور الوسطى فاق إعجابه بالشطر الأخير منها . وأخيراً فإنه وضع سلسلة كاملة من الكتب عن تاريخ اسكتلندا يهدف تفنيد آراء روبرتسون التى تضمنها كتابه «تاريخ اسكتلندا» ومناقشة تفسيراته حول ذلك الموضوع .

تلاميذ روسو

وثمة اتجاه آخر للمدرسة العقلانية أضعف من الاتجاه السابق يمثله أولئك الذين اتبعوا روسو ، وهم الذين يصورون مرحلة التحول المنطقى من العقلانيه إلى الرومانسية . والواقع أن هناك عدداً من الفروق الهامة بين روسو وفولتير من ناحية نظرة كل منهما للمشكلات التاريخية والاجتماعية ففولتير كان فى المقام الأول كاتباً ناقداً لا تحركه العاطفة ولا يتأثر بها . أما روسو فكان فى معظم الأحيان عاطفياً إلى درجة المرض ، يشارك الناس أحاسيسهم ويعطف عليهم . ومن ناحية أخرى كان فولتير واقعياً وعميقاً ، فى حين كان روسو مثالياً خيالياً . وأخيراً فإن فولتير كان يكتب من وجهة نظر بورجوازيه ، فامتدح الاستبداد المستنير ، دون أن يثق كثيراً فى مقدرة الجماهير الجاهلة فى شئون السياسة . أما روسو فكان يكتب فى قوة مؤيداً ضرورة تحرير الجماهير من نير القوة السياسية المستبدة .

ولم تلق آراء روسو حتى قيام الثورة الفرنسية رواجاً كبيراً ، ولكنها وجدت فى ألمانيا كثيراً من المتحمسين لها . وكان أول تلاميذ روسو الألمان هو إسحاق ايزيلين (١٧٢٨ - ١٧٨٢ م) مؤلف كتاب «فروض فلسفية حول تاريخ الأنسانية» وقد ظهر فى جزئين . وعلى

الرغم من إعجاب ايزلين بنظريات مونتسكيه السياسيه فإن تأثير روسو عليه يبدو أكثر وضوحاً وخاصة فى اهتمامه الزائد بالمجتمع البدائى . ويعتبر كتابه — باستثناء كتابات لافاتيه Lafateau أحسن ماكتب عن تحليل ثقافة العصور البدائية ونظمها ، على الرغم من أن الكاتب حاول على غير أساس أن يميز بين الحياة الطبيعية التى حياها الإنسان وبين حياته المسيحية . كذلك تأثر إيزلين بمونتسكيه فى ناحية أخرى هى أهتمامه البالغ بالتحليل المقارن لحضارة الشعوب الكبرى فى التاريخ وعاداتها وسلوكها .

أما أعظم تلاميذ روسو الألمان فى مجال التاريخ فهو الشاعر المسرحى والمؤرخ فردريك شيلر (١٧٥٩ — ١٨٠٥ م) الذى كانت أهم أعماله تاريخ ثورة الأراضى المنخفضة ضد الحكم الأسبانى ، ثم كتاب «تاريخ حرب الثلاثين عاما» . وتضم هذه الأعمال خليطاً من عواطف وخلجات روسو والقوى الأصيلة لشاعر وكاتب مسرحى عظيم . فنى علاجه لتاريخ ثورة الأراضى المنخفضة رآها فى صورة ملحمة بطولية تدور حول الرغبة فى التخلص من الطغيان ، بينما فى وصفه لحرب الثلاثين سنة رأى فى جوستاف أودلف ، والنشتين بطلى مسرحية تاريخية عظمى : ولسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى أنه فى خضم هذا العمل المسرحى الفذ ، لم يكن هناك مجال متسع لوصف العوامل الاقتصادية والثقافية وصفاً نثرياً . ولكن يعوض ذلك قوة الكاتب الهائلة على اعطاء تحليل أولى واضح للحركات السياسية مثل عرضه الرائع لظروف حرب الثلاثين عاماً . ولكن ما أن تبدأ القصة حتى نجد صفاته الشاعرية والمسرحية تتغلب تماماً على صفاته كمؤرخ . وعلى هذا فإن شيلر مثله مثل كارليل — تنتمى أعماله إلى الأدب الرفيع اكثر من انتمائها إلى التاريخ بمعناه العلمى . هذا فضلاً عما يلاحظ على أسلوبه من أنه يتبع المدرسة الإنسانية أكثر من تبعيته للمدرسة العقلانية .

.

أما يوحنا مولر Johannes Müller (١٧٥٢ — ١٨٠٩ م) فهو من أبرز المؤرخين المعاصرين لشيلر وأقدرهم وإن كان لايصل الى مرتبته فى كل النواحى . كان مولر يعتبر فى وقت ما أقدر المؤرخين الألمان فى عصره ، فى حين أنه كان يعتبر نفسه تاكيتوس الثانى . وكما أن تاكيتوس مجّد الجمهورية الرومانية ، فإن مولر فعل نفس الشئ بالنسبة للعصور الوسطى فتغنى بعظمتها وتزعم الرأى المنادى بالعودة إلى مثلها وأنظمتها . واشهر مؤلفات مولر هو كتاب «تاريخ الاتحاد السويسرى» . وعلى الرغم من أن مولر كان ينافس ماكولاى فى قوة ذاكرته ويضاهى فوستيل دى كولانج فى حماسته لدراسة المصادر التاريخية ، فإنه كان يفتقر تماماً إلى مقدرة ماكولاى على التحليل والتنظيم والسرد ، وإلى قدرة فوستيل على النقد . حقيقة أنه قرأ كل المصادر المتوافرة لديه ولكنه لم يكن يملك القدرة على حسن استخدامها أو استيعابها ، بل كان مفتقراً أيضاً إلى المقدرة الناقدة التى تجعله قادراً على اكتشاف وبالتالى استبعاد مافى سرده

من تناقض واضح ، وهو ذلك التناقض الذى يعزى بصفة رئيسية إلى طبيعة الكاتب فى التنقل السريع من عقدة إلى أخرى ومن هدف إلى آخر .

ولقد أضاف مولر إلى تمسك روسو بالحرية وولائه لها شيئاً آخر وهو تقليد الأسلوب البلاغى الكلاسيكى تقليداً متصلاً . ذلك أن مؤلفه عن تاريخ سويسرا جاء بمثابة ملحمة عن الحرية تجمع بين طريقتى روسو وتاكيتوس . وبعد ذلك أصبح من المعجبين بنابليون الفاتح . وقد أدى علاج مولر لتاريخ ألمانيا وسويسرا فى العصور الوسطى إلى اتجاه نحو عبادة الأبطال فضلاً عن تفسير العصور الوسطى تفسيراً عليا لا عالمياً — وهى الاتجاهات التى ازدادت شيوعاً بفضل كتابات كل من شاتوبريان ، والترسكوت الإبداعية من اتباع المذهب الرومانسى هذا كله بالأضافة إلى إعجاب مولر بالكنيسة الأم فى العصور الوسطى نرى هكذا أن كتابات مولر تمثل مرحلة انتقال من المدرسة العقلانية إلى المدرسة الرومانتكية فى الكتابة التاريخية . ويعتبر كتابه «أربعة وعشرون سِفْرا من التاريخ العام» الذى وضع خطته ولم يكمله على جانب عظيم من الأهمية لسببين هما اتساع مجاله وتأكيده فكرة أن التاريخ من صنع الرب وتدبيره .

أما يوحنا جوتفريد هردر Herder (١٧٤٤ — ١٨٠٣م) فهو وإن كان من تلاميذ روسو إلا أنه يمثل بصورة أكبر بعض أوجه الكتابة التاريخية عند العقلانين ، فضلاً عن أنه مؤرخ له أهميته بوصفه أحد مؤسسى فلسفة التاريخ . ولقد أحتوى كتابه الهام «آراء حول فلسفة تاريخ البشرية» عديداً من المبادئ والآراء السائدة فى ذلك العصر ، فهو يجمع بين حماسة روسو المتطرفة للعودة بالإنسان إلى حياته الطبيعية الأولى وتحريره من السلطة الحاكمة وقيودها وبين مفهوم فولتير الخاص بحقيقة الطابع القومى ودوامه ، فضلاً عن عقيدة مونتسكييه التى تؤكد العلاقة بين الشخصية القومية والظروف الطبيعية والمفهوم الخيالى الذى تبناه هيجل بعد ذلك عن تطور الإنسانية تدريجياً نحو حالة الحرية . وعلى ذلك فإن جوتفريد كانت له نظرة متطورة حتى إنه يعتبر أب الحماسة التاريخية ، فى المانيا . ولقد كان فى إصراره على تميز الشخصية القومية والوحدة العضوية للتطور الثقافى مايؤكد ويثبت رومانتيكيته فضلا عما فى ذلك من تأكيد الاتجاه نحو تقدير العواطف القومية عند كتابة التاريخ . ووسناقش فلسفته التاريخية فى مكان آخر من هذا الكتاب .

أما المؤرخ فردريك كريستوف شلوزر Freidrich christoph Schlosser (١٧٧٦/١٧٧٧ ـ ١٨٦١ م) فقد استوعب مفاهيم روسو عن طريق الإيمان بنظرية كانت عن «الأمر المطلق Categorical imperative . فى كتابه تاريخ الأباطرة الا إيقونيين» وفى كتابه الذى لم يتمه عن تاريخ العالم وفى كتابه الضخم المعظم «تاريخ القرنين الثامن عشر والسادس عشر» ، نجده وقد سبق لورد أكتون فى وضع مبدأ أن التاريخ ينبغى أن يحكم على

الرجال طبقاً لمعايير أخلاقية سامية . وعلى هذا الأساس حكم شلوزر على الأحداث التاريخية والشخصيات العامة طبقاً لمبادئ (كانت) الخاصة بمعايير الأخلاق الفردية . وازاء حبه الجم لكتاب دانتى «الكوميديا الإلهية» اتسم عمله بمسحة من الكآبة فضلاً عن انتقادات سريعة ذات صبغة غير موضوعية بحتة . هذا على الرغم من انه لم يكن كاتباً ناقداً وإن علاجه للتاريخ السياسى كان علاجاً سطحياً ، فى الوقت الذى أغفل التاريخ الإجتماعى الاقتصادى . إما أهميته كمؤرخ فتكمن فى كونه أحد أوائل الكتاب المرموقين الذين أكدوا الأهمية السياسية للأدب القومى وأثر ذلك الأدب . ولم تتضح القيمة العظيمة لنظرة شلوزر إلى التاريخ إلا بعد سنوات عديدة عندما استخدمها الباحثون فى تصحيح أفكار بيركهاردت ، سيموندس عن استقلال حركة النهضة وانفصالها التام عن ثقافة العصور الوسطى .

أما كارل فون روتيك Karl von Rotteck (١٧٧٥ — ١٨٤٠ م) فهو يعكس فى كتابه المطول عن تاريخ العالم إيمان روسو الشديد بالحرية ، كما هاجم فى عنف كل الحركات التى استهدفت كبت الحريات على طول التاريخ البشرى . وكان يهدف من ذلك الى معارضة سياسة نابليون ومن بعده الرجعيين من أعضاء مؤتمر فيينا فى الانتقاص من الحريات . لذلك غدا كتابه بفضل أسلوبه الحماسى الرائع إنجيل أوربا الحرة ، فصدرت منه خمسة وعشرون طبعة حتى سنة ١٨٦٦ وتمت ترجمته إلى عدد كبير من اللغات . وكرس روتيك حياته فى أواخرها لدراسة العلوم السياسية .

وثمة مؤرخ من أقدر المؤرخين العقلانين يصعب وصفه بأنه من أتباع هذه المدرسة أو تلك وهو المؤرخ السويسرى جنا تشارلز ليوناردو سيموندى سيسموندى (١٧٧٣ — ١٨٤٢ م) الذى شارك فولتير فى إعجابه بالطبقة البرجوازية كما كان متأثراً برأى مونتسكيية الخاص بتأكيد أهمية العوامل التجارية والاقتصادية فى تطور الحضارة . وفى نفس الوقت تأثر كثيرا بحب روسو للحرية وحماسته لها فضلاً عن انه كان معجباً إلى حد بعيد بأسلوب جيبون . ومع ذلك فانه لم يشارك كل من فولتير وجيبون احتقارهما للعصور الوسطى كما أنه رفض رأى مونتسكييه الذى يؤكد تأثير العوامل الجغرافية وأهميتها ولم تعجبه فى نفس الوقت آراء روسو الديمقراطية . أما نظرته إلى مجال التاريخ فكانت أوسع من نظرة جيبون . وهوفى كتابه «تاريخ الجمهوريات الإيطالية فى العصور الوسطى» اثنى على روح الاستقلال التى تمتعت بها تلك الدويلات الإيطالية وبين أثر هذا الروح فى تفوقها التجارى . وكان يرى أن نشأة القوميات الإيطالية جاءت بمثابة انبثاق الحرية الإنسانية وسط فساد الأقطاع الحقير ومظاهر الطغيان . كذلك أهتم سيسموندى بالعوامل التجارية والأقتصادية أكثر مافعل أى كاتب آخر

من المدرسة العقلانيه باستثناء هيرين ، ومع ذلك فإنه لم يكن واضحاً فى عرض تأثير العوامل الاقتصادية على الحياة السياسية فى العصور الوسطى ، ولم يستطع أن يوضح أثرها الكامل على سياسة المدن الإيطالية فى تلك العصور . وكل الذى فعله هو أنه أخذ بنظرة الثورة الفرنسية إلى ايطاليا العصور الوسطى وإيطاليا عصر النهضة مثلما فعل ميكافللى وجويكاردينى فى نظرتهما إلى عصرهما بروح عصر النهضة . أما كتاب سيسموندى عن تاريخ الفرنسيين فجاء عرضاً شيقاً فيما يتعلق بالعصور الوسطى . وفيه يتضح بجلاء نظرة الكاتب الواسعة الأفق إلى مادة التاريخ . ويعتبر كتابه هذا أول تاريخ كامل نسبياً عن فرنسا . وكان لسيسموندى بالإضافة إلى ذلك اهتمام كبير بالأدب ، فألف كتاباً هاماً عن تاريخ الأدب فى جنوب أوربا ، وهو كتاب يصور تأثير مدام دى ستايل عليه . كذلك يتضح من هذا الكتاب مدى تعلقه بالمدرسة الرومانسية ، وذلك بتصويره الأدب كنتاج للشخصية القومية ، والواقع أن سيسموندى كان عالما شديد العناية بعصره ، وإذا كان لا ينافس جيبون فى موهبته الأدبية الفنية ، فحسبه أنه كتب بأسلوب واضح رائع .

من بين التطورات الهامة التى مرت بها الكتابة التاريخية فى فترة أنتشار المذهب العقلانى والكشوف ازدياد الأهتمام بالتاريخ العالمى . واذا استبعدنا السجلات التاريخية العالمية المعقدة والتى مضت على وتيرة واحدة التى كتبها افريكانوس (الافريقى) ، وايوزيبوس ، وجيروم ، فإن أول كتب عن تاريخ العالم هى تلك التى ظهرت فى غرب أوربا التى كتبها اوروزيوس فضلاً عما كتب فى عصر الحركة الإنسانية على يد سابيلكوس ودوجليونى فى إيطاليا ، وفرانسوادى بلفورست فى فرنسا ، يوحنا كلوفر فى هولندا ، والسير والترالى فى انجلترا . وكلها كانت محاولات هزيلة لكتابة تاريخ عالمى .

وبعد ذلك وفى حوالى منتصف القرن الثامن عشر بدأت الكتب التى تعالج تاريخ العالم تظهر بأعداد ضخمة وفى مجلدات كبيرة . وساعد على نمو هذا الاتجاه عدة عوامل : أهمها ما أثارته الحركة الأنسانية من اهتمام كبير بالماضى القديم وما أثارته حركة الاصلاح الدينى والحركة المضادة لها من زيادة الاهتمام بتاريخ الكنيسة المسيحية ، فضلاً عن أن الكتب التاريخية التى ظهرت عن الكشوف أعطت المؤرخين مجالاً فسيحا للرؤيا بحيث أخذوا ينظرون إلى العالم كله بطوله وعرضه . هذا بالأضافة إلى أن العقلانيين فتحوا باباً عريضاً للأعمال التاريخية الطموحة . وكان من الطبيعى أن يأمل كل كاتب صاحب خيال قوى فى أن يعالج فى كتاب تاريخى واحد قصة الانسان كاملة على هذه الأرض .

وكانت أول محاولة لإصدار كتاب عن التاريخ العالمى من النوع التعاونى عندما اشترك عدد من الكتاب معظمهم من الإنجليز — فى وضع كتاب تاريخ العالم منذ بدايته حتى الوقت الحاضر وهو الكتاب الذى ظهر بين سنتى ١٧٣٦ م — ١٧٦٥ م . وممن أشتركوا فى وضع هذا الكتاب جون كامبل ، جورج سيل ، يوحنا سوينتون ، ارخيبالدبور ، جورج بزالمانزر . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يكن ممتازاً أو مبتكراً ، فإنه حوى قدراً هائلا من المعلومات عن كل الشعوب فى كافة العصور ، بما فى ذلك شعوب ماوراء البحار . وقد كتب أساسا من وجهة النظر المسيحية المتزمتة وبالتالى لم يتعرض بالنقد للمسائل المتعلقة بالكتاب المقدس والأساطير

القديمة إلا نادراً . ومع ذلك فإنه أول تاريخ كامل عن العالم . وقد ساعد بدرجة كبيرة على خلق مفهوم أكثر شمولاً لتاريخ الجنس البشرى ، مما حقق له نجاحاً لا بأس به .

وقد سبق لنا فى معرض حديثنا عن المؤرخين العقلانيين ذكر أعمال أخرى عامة تناولت تاريخ العالم بأكمله ونكتفى هنا بالأشارة إليها وإلى غيرها لنعطى فكرة ولو عامة عن عددها ومقدار طموحها .

ففى المقام الأول يأتى كتاب جنا أدمز John Adams « نظرة على التاريخ العالمى » (١٧٩٥) وكتاب الكسندر تيتلر Alexander Tytler « عناصر التاريخ العام » (١٨٠١) وكلاهما من الإنجليز . وبعد ذلك يأتى كتاب أوجست شولزر ـ محاضرات فى التاريخ العالمى (١٧٧٢) وكتاب يعقوب دانيال ويجلين « التاريخ العالمى » (١٧٧٥) وكتاب يوحنا مولز الذى لم يستكمل فى أربعة وعشرين جزءاً فى التاريخ العام (١٧٧٩) وكتاب يوحنا كريستوف جاتيرر « التاريخ العالمى » وقد صدر ما بين ١٧٨٥ ـ ١٧٨٧م ، ثم هناك كارل روتيك « التاريخ العالمى » وقد صدر ما بين ١٨١٢ ، ١٨٢٧ . وكتاب سيزار كانتو « التاريخ العالمى » (١٨٣٧) ثم كتاب فردريك شلوزر « التاريخ العالمى للشعب الألمانى » (١٨٤٢ ـ ١٨٥٦م) وكتاب ليوبولدفون رانكه « تاريخ العالم » الذى أكمله أحد تلاميذه بعد وفاته ، وكتاب فرانسوا لورنت Francois Lurent « دراسات فى تاريخ البشرية (١٨٧٠) . وكانت بعض هذه الكتب مطولة للغاية فمثلاً كتاب روتيك يقع فى أحد عشر مجلداً وفى كتاب لورنتس يقع فى ثمانية عشر مجلداً ، بينما يقع كتاب شلوزر فى تسعة عشر مجلداً . وتوجد كتب أخرى غير ما سبق ذكره ، لأن ما ذكرناه ليس سوى نماذج محددة . هذا إلى أننا سنشير فيما بعد إلى الاهتمام الجديد بمثل هذه الأعمال والاقبال على انتاجها .

اتساع المعرفة وأثره فى التقويم التاريخى

أمتد الاتجاه الناقد للنشاط العلمى إلى البحث فى المادة التاريخية التى كتبت فى العهد الوثنى فضلاً عن ثقافة الأقدمين . ذلك أن الباحثين واصلوا العمل على الذى سبق أن بدأه سكاليجر ، كاسوبون وآخرون فى فترة الحركة الإنسانية . ثم كانت جهود ريتشارد بنتلى (١٦٦٢ — ١٧٤٢ م) الذى ينسب إليه ذلك التقدم الكبير فى علم نقد النصوص وتطبيقه على كتاب العصر القديم ، فضلاً عن أنه أصدر طبعات ممتازة لمؤلفات هومر وغيره من كتاب العصر الوثنى . أما ج . أ . فابريكيوس فقد وضع الاسس العلمية لدراسة الأدب الأغريقى ، كما أن برنارد دى مونتفوكون Montfaucon (١٦٥٧ — ١٧٤١ م) جمع مختارات عامة

من الأدب القديم فى كتابه شرح الآداب القديمة . وكان لنشأة المذهب التقدمى الفضل فى التحرر من النظر إلى الماضى الوثنى بعين الاحترام التقليدى وهو ذلك الاحترام الذى فرضه رجال المدرسة الإنسانية أصحاب النظرة العاطفية . على أن هذا الاتجاه الجديد لم يكن شبيهاً بعداء أوزويوس للماضى الوثنى ، وإنما كان يمثل نظرة عاقلة شلبتها النظرة التاريخية والاعتقاد فى تقدم الثقافة . وسنناقش فيما بعد الدراسة الناقدة لمصادر التاريخ القديم فى ذلك الدور التى قام به سيجونيوس Sigonius, ، بويلى Pouilly, ، بيروزنيوس Parizonius, وبيفورت Beaufort ، ذلك فى معرض حديثنا عن نشأة المدرسة التاريخية الناقدة .

أما الدراسات المرتبطة بالتقويم التاريخى فاستمرت على نفس الأسس التى وضعها سكاليجر ، أوشر . وقد أعطى إسحاق نيوتن اهتماماً كبيراً للمشكلة فى كتابه التقويم الزمنى للممالك القديمة وعدل فية تاريخ الخليقة بطريقة خاطئة اذ قربه خمسمائة سنة عن التاريخ الذى أعطاه سكاليجر وأوشر . وهناك آخرون ممن أحرزوا تقدما ضئيلاً فى سبيل الوصول إلى تقدير سليم لعمر الأرض . أما العلماء الربوبيون الذين آمنوا بالله عن طريق العقل وعلى رأسهم شارل بلاونت فكانوا يميلون إلى اعطاء تقديرات للزمن أطول من تلك التى اعطاها أوشر وأتباعه ، وذلك بسبب تحررهم من قيود المفاهيم المسيحية المترمتة من ناحية ولتأثرهم الشديد بالعلم الجديد من ناحية أخرى . وكان أن أوضح علماء التاريخ الطبيعى وعلماء الجيولوجيا أن تاريخ بداية الخليقة كما تحدده المفاهيم المترمتة لا يتمشى مع الأفكار الجديدة بالنسبة لتاريخ الأرض وعمرها والحياة عليها . وهكذا قدر العالم الطبيعى الفرنسى العظيم بوفون Buffon أن عمر الارض لا بد وأن يكون ٧٥ ألف سنة .

وشهد ذلك العصر كذلك مولد تقسيم التاريخ إلى عصور وهى الفكرة التى مازالت تلقى قبولاً عاماً . فمن وجهة نظر المسيحية نجد اهتماماً عاماً على تقسيم ماضى البشر الى عصرين أساسيين : العصر الوثنى ، والعصر المسيحى . ثم تحول هذان العصران تدريجياً إلى ماعرف بالتاريخ القديم والعصور الوسطى . وأشهر الكتاب الذين أسهموا فى ذلك التعريف الجديد هما أوتو أوف فريزنج ، فلاتيوس بلوندوس . وقد سبق أن أشرنا إلى تقسيم بودن Bodin للتاريخ إلى ثلاث مراحل : تاريخ الشرق القديم ، تاريخ حوض البحر المتوسط ، تاريخ أوربا . ولكن قيام الحركة الإنسانية وحركة الأصلاح الدينى البروتستانتى أوحيا إلى كتاب آخرين عاشوا بعد تلك الأحداث بأن عهداً جديداً قد بدأ فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وبأن هذا العهد الجديد يمكن أن يعرف بالعصر الحديث فى التاريخ . ومازال هذا التقسيم الثلاثى للتاريخ مصطلحاً عليه ، وقد ظهر لأول مرة فى كتابات جيزبرت فوتيوس Gisebert Voëtius(١٥٨٨ — ١٦٧٨) عندما كان يعالج تاريخ الكنيسة . ذلك أنه ذهب إلى أن الفترة القديمة أنتهت عند أوغسطين ، وأمتدت الفترة الوسيطة من عهد أوغسطين إلى

عهد لوثر ثم بدأت الفترة الحديثة منذ عهد أوغسطين وامتدت الفترة الوسيطة من عهد أوغسطين إلى عهد لوثر ثم بدأت الفترة الحديثة منذ عهد لوثر وطبقت نفس هذه الفكرة على التاريخ الدنيوى بواسطة أحد رواد المدرسة الإنسانية فى هولندا وهو كريستوف كيلر الشهير بكرستيان كيلاريوس (١٦٣٤ ١٧١٧ م) ، إذ اعتبر أن التاريخ القديم يبدأ من بدء الخليقة وينتهى عند عهد قسطنطين . واعتبر أن العصور الوسطى تمتد من عهد قسطنطين حتى سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك سنة ١٤٥٣ . وأن التاريخ الحديث يبدأ منذ سنة ١٤٥٣ م . ومازال هذا التقسيم يلقى قبولاً عاماً واسعاً يفوق أى تقسيم آخر . وجعل كثير من الكتاب فى عصر رينال أن الكشوف الجغرافية التى حدثت بعد سنة ١٤٩٢ أكثر أهمية من حركة النهضة وحركة الإصلاح الدينى بالنسبة لتحديد معالم البداية للعصور الحديثة . ولكن الفكرة لم تلق قبولاً كبيراً حتى القرن العشرين .

ومن أهم واعظمها أسهم به ذلك العصر فى مجال اهتمام الدراسات التاريخية بماضى البشرية . ظهور نظرية التقدم ظهوراً تدريجياً . ذلك أن ثمة حقيقة بارزة لها أهميتها . هى أن أكثر من تسعة وتسعين فى المائة من عمر الانسان على الأرض مضى دون أى إدراك للتقدم الذى حققته الحضارة البشرية فى تلك الحقبة . والحقيقة هى أن التقدم البشرى حتى القرن السابع عشر كان يتم طبيعياً وتلقائياً . ولم يكن بأى حال نتيجة جهد جماعى لتحقيق تقدم جنسى أو حضارى بدافع من وعى وإدراك للوصول إلى حالة مثالية

وقد تمسك العبرانيون القدامى بنظرية خروج الإنسان من الجنة نتيجة لترديه فى الخطيئة . ومن ثم اعتقدوا أن الكمال كان للإنسان فى ماضيه . وأنه لاخير فى مستقبله . وظهرت عند الوثنيين القدامى فكرة مشابهة إلى حد ما وهى فكرة الانحدار من عصر ذهبى . أما الإغريق والرومان فقد شاع بينهم الاعتقاد فى تطور الحضارة البشرية فى حركة دائرية . فهى تعلو ثم تعلو حتى تصل إلى نقطة معينة وبعدها تأخذ فى الهبوط حتى تصل إلى مستوى أقرب مما بدأت منه . ومرة أخرى تبدأ تعلو لتنخفض .. وهكذا فى صورة دورات متكررة .

اما المسيحيون فأخذوا بآراء العبرانيين بالنسبة لتردى الإنسان . وربطوا بين هذه الفكرة وما ردده الوثنيون من الانحدار من عصر ذهبى . وخرجوا من ذلك بأنه ليس للإنسان أن يتوقع دولة مثالية على هذه الأرض . وأن حالة النقاء والطهر الكاملين لن يصل اليها الإنسان إلا فى العالم الآخر . ومن وجهة النظر المسيحية . وكما جاء فى سفر الرؤيا فإن قيام القيامة ونهاية الحياة سوف يسبقه نذر على الأرض بالغة الرعب والفظاعة . ثم نشأ تدريجياً اعتقاد بأن القدر يدخر للإنسان مستقبلا أفضل على هذه الأرض . وقد أوضح روجر بيكون فى القرن الثالث عشر مايمكن أن يفعله العلم التطبيقى من أجل الانسان . كما عرض مونتين Montaigne فكرة جديدة عندما اقترح بأنه ينبغى أن تهتم الفلسفة بسعادة البشر على هذه الأرض أكثر من اهتمامها بالخلاص فى الحياة الأخرى . وأشترك فى نفس الوقت كل من فرانسس بيكون . وباسكال . وديكارت فى الدعوة للتخلص من نفوذ الماضى وسيطرته على الحاضر . لقد أعتقد

كل من بيكون ، وباسكال أن الشعوب الحديثة أرقى من الشعوب القديمة وعرضا فكرة أن الوصول إلى الدولة المثالية يصبح سهلاً ممكناً إذا ما أستخدم العلم فى حل مشكلات البشر.

وبدأ ظهور نظرية التقدم بمعناها التقليدى فى كتابات بعض المؤرخين مثل برنارد دى فونتنيل (١٦٥٧ — ١٧٥٧ م) . الذى لم يخرج فى كتابه «حوار الموتى» (١٦٩٣) عن فكرة أن القدامى لم يكونوا أحسن حالاً من المحدثين. ولكنه اتخذ بعد ذلك بخمس سنوات موقفاً أكثر تقدماً فى كتابه «حديث مطول عن القدماء والمحدثين» يتشابهون بصفة أساسية من الناحية البيلوجية التى لم يطرأ عليها أى تقدم. أما فى الفنون الجميلة التى هى أساساً تعبير تلقائى عن الروح والنفس الإنسانية ، فإن فونتنيل يرى أنه ليس هناك أى قانون للتقدم. إذا كان للقدامى أعمالهم العظيمة فى هذا المجال ، وإن أحسن أعمال المحدثين فى الفن والشعر والخطابة لاتقل عظمة عن أكمل وأحسن ما أنتجه القدماء ، ثم قال إن الأمر يختلف تماماً فى ميادين العلم والصناعة ، إذ حدث فيها تقدم وتطور ولايزال العالم ينتظر فى تلك الميادين مزيداً من التقدم فى المستقبل ويضيف فونتنيل أن الإعجاب بالقدماء الذى لايسانده عقل أو منطق إنما هو عقبة رئيسية فى طريق التقدم. ومن المشكوك فيه أن يكون هناك من استطاع على مر الزمن بما فى ذلك زماننا أن يعالج نظرية التقدم بمثل ما عالجها فونتنيل من نجاح وتوفيق.

أما شارل برولت (١٦٢٨ — ١٧٠٣) وهو أحد معاصرى فونتنيل ، فقد أورد نفس الآراء فى كتابه «مقارنة بين المحدثين والقدماء» وهو الكتاب الذى صدر بين سنة ١٦٨٨ ، ١٦٩٦ . وكانت تستحوز عليه فكرة أن ثقافة جيله بلغت مرحلة الكمال مما جعله غير حريص على أن يأمل تقدماً أكثر فى المستقبل. وقد اتخذ مقدم دير القديس بطرس موقفاً أكثر إيجابية بالنسبة للتقدم المنشود فى المستقبل وذلك فى كتابه «حديث حول التطور» الذى ظهر سنة ١٧١٨ م . فأوضح أن التقدم أمر واقعى وحقيق وأن ماتحقق فى عصره أبرز مما تحقق فى عصر أفلاطون وأرسطو. وكان مهتماً بصفة خاصة بالتقدم الاجتماعى فرأى ضرورة إنشاء أكاديمية للعلوم السياسية لرعاية التقدم الأجتماعى. وأظهر ثقة كبيرة فى قدرة الحكومة الرشيدة على تحقيق ذلك التقدم. وبذلك يعتبر هذا الأب سابقا فى آرائه على كل من هلفتيوس والفلاسفة النفعيين. أما هلفتيوس الذى بلغت شهرته ذروتها فى منتصف القرن الثامن عشر فكان من الكتاب الفرنسيين المتفائلين فى إمكان تحقيق الإصلاح الاجتماعى. وقد أعتقد أنه إستطاعة البشر أن يصلوا إلى ذروة الكمال ، ورأى أن السبيل لذلك هو استثارة عاطفيه وتعليم عقلانى. هذا إلى أنه أعتقد فى المساواة بين البشر وأن التفرقة القائمة عندئذ يمكن التغلب عليها بنشر التعليم والتربية.

وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر ظهر فيلسوف التاريخ الإيطالى جيوفانى باتستافيكو (١٦٦٨ — ١٧٤٤) بمفهوم جديد للتقدم ، إذ عبر عن اعتقاده فى أن التقدم

البشرى لا يحدث بطريق مباشر أو فى خط مستقيم وإنما يأخذ شكلاً لولبياً . وأوضح أنه على الرغم مما قد يبدو من وجود دورات للتطور ، فإن هذه الدورات لاتعود إلى النقطة التى بدأت منها لأن كل دورة تكبر وتعلو عن سابقتها .

ثم كان أن ظهر فى فرنسا بعد فيكو بفترة بسيطة نظرية للتقدم أكثر واقعية وصاحبها هو جاك تيرجو Jacques Turgot (١٧٢٩ — ١٧٨١ م) الذى كان من الزعماء الذين أسهموا فى خلق فلسفة التاريخ . ذلك أن تيرجو أكد بصفة قاطعة فكرة استمرار التاريخ والخاصية المتطورة للتقدم ، كما أوضح انه كلما ازدادت الحضارة تعقيداً كلما ازدادت سرعة التقدم البشرى ، ولذا فإن التقدم كان بطيئاً للغاية فى العصور البدائية ثم ازدادت سرعته فى العصور الحديثة .

أما كوندرسيه Condorcet وهو الكاتب الفرنسى البارز فى فترة الثورة الفرنسية فكان له رأى اكثر تفاؤلاً إذ أنه لم يكتف بالتعبير عن اعتقاده فى أن التقدم أمر حقيقى ، وإنما قسم تاريخ الحضارة إلى عشر حلقات كل منها تمثل مرحلة من مراحل تطور الجنس البشرى والحضارة البشرية . وأوضح أن تسعا من هذه المراحل قد أنقضت فعلاً ، وأن الثورة الفرنسية والعلم الحديث قادا الجنس البشرى إلى حافة المرحلة العاشرة التى سوف تخلق عهداً من السعادة والرخاء لم يعرف مثله من قبل .

ومن بين آخرين كثيرين أسهموا بآرائهم فى فكرة التقدم يبرز الفيلسوف الألمانى هردر الذى حاول أن يصنع قوانين للتقدم مبنية على العمل المشترك للطبيعة والعناية الإلهية . كذلك هناك عمانويل كانط الذى حاول إثبات حقيقة التقدم الأخلاقى . أما الانجليزى البارز وليم جودوين (١٧٥٦ — ١٨٣٦ م) فقد أعتقد أنه يمكن الوصول إلى الكمال عن طريق إلغاء الدولة والحيازة والتملك وبث المنطق فى العقول عن طريق التربية الخاصة . وهناك أيضاً هنرى دى سانت سيمون (١٧٦٠ — ١٨٢٥ م) الذى سار على نفس منهج الأب مقدم دير القديس بطرس ، والذى أكد ضرورة وجود علم اجتماع يوجه التقدم البشرى .

وأخيراً تبلورت كل هذه الأفكار وتجسمت فى الفلسفة التاريخية وعلم الأجتماع كما تناولها أوجست كانط (١٧٩٨ — ١٨٥٧ م) الذى أوجد نظاماً شاملاً للقوانين الخاصة بالتقدم الفكرى ، وصاغ فلسفة عريضة للتاريخ ، مقسما الماضى إلى عدد كبير من الفترات وأجزاء الفترات ، وموضحاً أن كل فترة ترتبط بمرحلة معينة تميزها عن مراحل التقدم الثقافى .

وعلى الرغم من أن نظرية التقدم أحتفظت بذلك التأييد الحماسى الذى حظيت به منذ عهد كانط ، إلا أن بعض الاتجاهات غير المتفائلة أخذت فى الظهور ذلك أن بعض المفكرين من أمثال الفلاسفة الألمان فردريك نيتشه ، وأزوالد سبنجلر ، عادوا إلى الاخذ

بفكرة قريبة من نظرية الدورات التى كانت معروفة فى العصور القديمة . ومن الأمور التى شاعت كذلك الاتجاه نحو استبدال فكرة التغير بالتقدم ، بمعنى أن الأشياء آخذة فعلا فى التحسن ، ولا تستطيع الآن أن نقطع بصحة هذا القول ، لكننا ندرك تماما أن هناك تغيراً يأخذ سبيله فى كل مجالات الحياة والفكر . وأهم من ذلك أننا نعترف بسرعة هذا التغير فى مجالات العلم والحضارة المادية ، وبطئه الشديد فى النظم والأخلاق . وهذا التفاوت فى سرعة التقدم بين كل من الحضارة المادية والنظم الاجتماعية هو مايعبر عنه اليوم ، بالتخلف الثقافى ، وهو أن من شأنه أن يضع الحضارة الحديثة على طريق محفوف بالمخاطر .

المـراجع

1- **J.E. Gillespie:** A History of Geographical Discovery 1400-1800. Holt, 1933.
2. **M. W. Spiphauz:** The background of Geography, Liyopin cott, 1935.
3. **A. P. Newton ed...:** Travel and Travellers of the Middle Ages. Knopf, 1926.
4. **Guilday:** Church Historians, pp. 128 - 52.
5. **Smith:** A History of Modern Culture vol. II chaps VII - VIII.
6. **Flint:** Historical philosophy in France, pp. 334 - 339.
7. **Ritter:** Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft Book IV.
8. **Wegele:** Geschichte der deutschen Historiogrephie, Book III.
9. **Fueter:** Histoire de l'historiographie moderne pp. 361. 80. 415. 516.
10. **T.P. Peardon:** The Transition in English Historical writing, 176 - 1830. Columbia University press, 1933.
11. **Adolf Rein:** Das Problem der europärischen Expansion in der Geschi chtsschreibung, Hamburg 1979.
12. **Geoffrey Art Kinson,** Les Relations de vogages du XVII siecle et l'evolution des idées, paris 1925.
13. **Glbert Chinard:** L'Amérique et la rëve exotique dans la litterature française au xvii et xviii siecle paris 1934.
14. **A. C. Wilgus:** Histories and Historians of Hispanic America pan American Union 1942.
15. **J.B. Black:** The Art of History, Grofts 1926.
16. **Thompson:** History of Historical writing vol. II chaps XXX VIII-XXXIX
17. **H.L. Bond:** The Literary Art of Edward Gibbon, oxford university press 1960.

18. **Ferdimand Scheill:** Six Historians pp. 93-122 University of chicago press 1956.

19. E.T. Oliver: Gibbon and Rome, Sheed and Ward 1959.

20. **F.E. Manuel:** The Age of Reason, Cornell university press 1951.

21. The Eighteenth Century confronts the Gods. Harverd University press 1959.

23. **Roman Rolland et al.:** French Thought in the Eighteenth Century David Mc Kay 1953.

22. **J.S. Spink:** French Free Though from Gassendi to vollaire, Oxford University press 1960.

24. **J.H. Brumfitt:** Voltaire: Historian. Oxford University press 1957.

25. **R.R. Palmer:** Catholics and unbelievers in Eighteenth Century France. Pincerton University press 1939.

26. **F.C. Green:** Jean - Jacques Rousseau. Cambridge University press 1955.

27. **Freidrich Meinecke:** Die Entsenhung des Historismus, Munich 1936. 2 vols.

28. **G. M. Young:** Gibbon. Appleton, 1933.

29. B. Pier, Roberston als Historiker Und Geschichtsphilosoph, lepzig 1929.

30. **W. C. Lehmann, Adam:** Ferguson and the Beginnings of Modern Sociology. Columbia University press 1930.

31. **J. B. Bury:** The Idea of progress. Dover 1955.

32. **C. L. Becker:** The Heavenlycity of the Eighteenth century philosophers. Yale University press 1932.



الفصل الثامن

الرومانسية وفلسفة التاريخ

الرومانسية بوصفها رد فعل للمذهب العقلاني

كشفت كتابات تلاميذ روسو الذين أشرنا إليهم فى الفصل السابق عن رد فعل مباشر لآراء فولتير العقلانية القديمة ، وظهر رد الفعل هذا حتى قبل أن يصدر لويس السادس عشر مرسومه الملكى بإجراء انتخابات لإختيار أعضاء مجلس طبقات الأمة . والواقع ان قيام الثورة الفرنسية جاء عاملا مدعما لهذا الاتجاه ضد المذهب العقلانى ، إذ بدت أحداث الثورة الفرنسية بالنسبة للعنصر المحافظ من الناس وكأنها تهدم ما نادى به العقلانين من آراء تافهة تجعل الكوارث هى التى تصنع التاريخ ، وأنه من الممكن تغيير النظم الاجتماعية عن طريق الاستجابة لهدى العقل وتوجيهاته .

على أن سوء الحظ شاء أن تؤدى المحاولة العظيمة التى بذلت لتصحيح ما فى مبادئ روسو من تصنع إلى رد فعل عكسى إتسم بأنه أقرب إلى الصحة والثبات من النظريات العقلانية . ذلك أن الرومانسية فى الكتابة التاريخية تعنى ارتداداً مؤكداً نحو الجهل ، وكانت هذه الحركة مرتبطة أشد الارتباط بما تعرضت له الفلسفة السياسية والأجتماعية من رد فعل أقترن أساسا بأسماء : بيرك Burke ، دى بونالد ، دى ميستير De Maistre, فون هالر Von Haller [1] .

وكانت القاعدة الأساسية فى كتابة التاريخ عند الرومانسيين هى الاعتقاد بأن التطور الثقافى لأية أمة إنما تدريجيا ولا شعوريا . هذا إلى أن الرومانسيين آمنوا بأن كل مقومات الثقافة القومية ترتبط فيما بينها ارتباطاً أصيلا وتتخذ فى تطورها طريقا واحدا . وإمتاز تفكيرهم بعنصر خيالى جعلهم يتصورون أن هذه القوى الخلاقة اللاشعورية تتحرك وتعمل بشكل غامض

(1) F.W.A.Dunning, A History of political Theories from rousseau to Spencer (Macmillan 1920) chap. v.

يتحدى أى تحليل فكرى مباشر . ومعنى هذا أن تطور ثقافة أية أمة ونظمها انما يخضع لتأثير تلك القوى الروحية الغامضة ، التى اطلق عليها فون رانكه فيما بعد اسم (روح العصر) Zeitgeist . وأعطى الرومانسيون أهمية خاصة للتقاليد القومية والأفكار السائدة التى تشكل روح العصر والأمة . وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه المفاهيم إلى عقيدة (القدرية السياسية) وهى العقيدة التى تصور الأمة عاجزة أمام عظمة القوى الروحية الخلاقة . وهكذا صوروا الثورة على أنها عمل آثم لا جدوى من ورائه ، تبتغى إدانته وبالتالى فقد بدأت تبرز فلسفة والهدوء السياسى ، التى لامست ملامسة تامة التيار الذى نادى به انصار مبدأ الحرية من أصحاب النظريات الاقتصادية والسياسية .

وانبثق عن هذا الاتجاه ــ خاصة فى انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ــ تلك الخرافة الخادعة الممجوجة التى تصور الشعوب الأنجلو ساكسونية .كأحسن مثال للشعوب المتسمة بالهدوء السياسى ، وأنها شعوب تتسم بمقدرة سياسية أصيلة . ثم برز اعتقاد لا يقل فى خطئه عن سابقه يصور الفرنسيين فى صورة النموذج الصرف للأمة الثورية غير المستقرة التى تفتقر تماما إلى القدرة السياسية[1] وكان هذا الاعتقاد الخاطئ فى أساسه سببا ـــ أكثر من غيره ـــ فى تشويه الدقة التاريخية والفلسفة السياسية فى القرن التاسع عشر . واستحال التغلب عليه تماما حتى يومنا هذا .

ثم ان انتشار فكرة ان الثقافة القومية ذات طبيعة نقية لها صبغتها الوطنية الخاصة وذاتها المستقلة ، ادت إلى تضييق وإنحسار النظرة العالمية الممتازة التى كانت لدى اصحاب المذهب العقلانى ، مما ركز الإهتمام بالتاريخ القومى[2] . ولم تلبث أن اصبحت العصور الوسطى هى أهم ما تدور حوله البحوث التاريخية عند كل الأمم ازاء النظرة إلى هذه العصور بوصفها ذات خصوبة خاصة بالنسبة للبحث التاريخى ، فضلا عن أن العصور الوسطى شهدت إنبثاق مختلف الثقافات القومية . هذا بالإضافة إلى أن تعاطف الرومانسية مع كثير من ردود الفعل العقلانية فى العصور الوسطى فيما يتعلق بمشاكل الوجود والتطور الثقافى . ومما قوى هذا الاتجاه الأخير أن كثيرا من الرومانسيين كانوا إما كاثوليك أو ممن رجعوا إلى الكاثوليكية . واعتقد الرومانسيون ان اللغة هى أعظم سمات الشخصية الفريدة للثقافة القومية ، وهو الاعتقاد الذى تأصل فى ألمانيا حيث كانت اللغة هى الرباط الرئيسى للأمة ، مما أدى إلى وجود أبحاث عظيمة فى فقه اللغة إقترنت بأسماء هامبولدت ، وولف ، وجريم ، لاشمان .

---

(١) رغم ان الرومانسيين كان اتجاههم إلى التركيز على الناحية القومية فإنه كانت هناك نغمة عالمية فى فلسفتهم ترجع إلى حد ما إلى ان اهتمامهم بالثقافة الفلسفية التاريخية كان لها نطاقها العالمى . ولذلك هردر وقد جمع مادة عن روح الأغانى عند كل الشعوب وشيجل كتب عن الأدب العالمى (المؤلف)

(٢) Cf. H. G. Ford, the Anglo- saxson Myth American Mercury, Septemer 1924- and J. T. Shotwell' The political capacity of the Franch' in political science quarterty March-1909.

وعلى الرغم من أن الكتابات التاريخية للمدرسة الرومانسية كانت تمجد الأمة التى، إنتمى إليها أولئك الكتاب ، فإنها لم تزد عن كونها مجموعة من التراجم . ويرجع ذلك إلى حقيقة ما أحسوا به من سحر الحديث عن شخصية من الشخصيات . هذا إلى أن التراجم كانت تتفق مع افقهم الأدبى العريض . ويبين لنا هذا الاتجاه الذى بدأ — حتى فى المرحلة المبكرة من الرومانسية — كيف شاعت نظرية الشخص العظيم وإنتشرت قبل عهد كارليل بوقت طويل .

وازاء ما آمن به أصحاب المدرسة الرومانسية من أنه لا أمل يرجى وراء التحليل الفكرى المفصل لتعليل أحداث التاريخ ، فان فلسفتهم التاريخية دارت فى حلقة مفرغة . فبدون إعطاء أى تفسير علمى لتطور روح الأمه نجدهم يعزون خصائص النظم القومية وشرائع الأمة وآدابها ونظام الحكم فيها إلى عبقرية الأمة . وصورت خصائص القومية على أنها النتاج الفنى والأدبى والتشريعى والتنظيمى لبناء هذه القومية . وعلى الرغم مما يبدو من اتجاه معاد من أصحاب المدرسة الرومانسية لحركة الاستنارة ، وعلى الرغم كذلك من أفكارهم الفلسفية المتطرفة ، فانه من الانصاف لهم أن نقرر ما أكدوه من أهمية العنصر اللاشعورى على التطور التاريخى فضلاً عن تأكيدهم لحقيقة هامة وحيوية ، هى الترابط الأصيل بين مقومات الثقافة القومية . ولا يمكن أن نغفل الحقيقة الخاصة بأن اصحاب المدرسة الرومانسية كان مفهومهم عن تطور الثقافة وتطور الأنظمة أكثر سلامه وأوسع أفقا من مفهوم المؤرخين العقلانين بوجه عام . وإذا كانوا قد بالغوا فى خيالهم عن طبيعة العصور الوسطى وأهميتها ، فإنهم كانوا أصحاب الفضل فى تصحيح نظرة العقلانين الى تلك العصور ، وهى نظرة كانت مفعمة بالازدراء . ولم يبق على لامبرخت الذى جاء بعد ذلك بحوالى قرن من الزمان أن يتناول كل ما هو قيم حقا فى المذاهب الرومانسية وأن يصيغ منها نظريته الشهيرة عن التطور التاريخى بوصفه عمليه تحول وتغيير بالنسبة للأمة والبشرية جميعا .

الرومانسية والكتابة التاريخية

كان أثر الرومانسية على الكتابة التاريخية كثيرا ومتشعبا ، ذلك أن مبادئها دخلت فى مجال البحث فى الأصول القانونية على يد أدموند بيرك ثم استخدمها فى نفس المجال بعد ذلك بطريقة منتظمة كل من كريستيان هويونلد (١٧٦٦ — ١٨٢٤ م) وكارل فردريك ايخهورن (١٧٨١ - ١٨٥٤ م) . وقد تناول ايخهورن فى كتابه (تاريخ القوانين والنظم الألمانية) نشأة القانون الألمانى بالمدرسة . وكان ايخهورن إينا لأحد الأوائل الذين درسوا الحضارة

الشرقية دراسة علمية ، وأخذ عن أستاذه جوستاف هوجو (١٧٦٤ — ١٨٤٤) فكرة أن القانون هو نتاج موهبة قومية . والواقع أن ايجهورن نفسه كان وطنيا متحمسا ، بحكم أنه عاصر الفترة النابوليونية ، وساءه ما لحق ببروسيا حين إمتشقت الحسام ضد نابليون من هزائم فى موقعتى يينا واورشتاد سنة ١٨٠٦ . وقد شرع فى تطبيق تلك الآراء القومية فى دراسة مسهبه قام بها عن أصول القانون الالمانى . وقد عالج فى هذه الدراسة القانون الألمانى ككل وتناول سوابقه واتضح تأثير كل جوانب الثقافة القومية على تطور هذا القانون وأكد بصفة خاصة الطبيعة المتطورة للقانون . وقد نجد فى عمله هذا القومية الألمانية ووجه الانظار نحو الدراسات القانونية الألمانية .

وسار فردريك كارل فون سافينى (١٧٧٩ — ١٨٦١ م) فى نفس اتجاه ايجهورن ، فوضع كتابا بعنوان تاريخ القانون الرومانى فى العصور الوسطى وأوضح تأثيره على الثقافة والنظم . ولسافينى الفضل كذلك فى تأسيس الجمعية العلمية التى نسبت إليه والتى نشرت زبدة الدراسات الخاصة بتاريخ القانون . وعبر سافينى عن آراء المذهب الرومانسى واتجاهاته فى مناظرة شهيرة جرت بينه وبين ثيبو حول موضوع تقنين القانون الألمانى . ولما كانت هذه الفكرة ضد الاتجاه الرومانسى فإن سافينى عارضها بشدة . ويمثل دوره فى هذه المناظرة الخالدة أعظم وأقدر دفاع عن المفهوم القائل بأن القانون ليس إلا نتاج العبقرية القومية لأى شعب من الشعوب[1] . ثم كان أن تجسدت نفس وجهة النظر هذه فى كتاب ألفه عالم عظيم فى فقه اللغة هو يعقوب جريم (١٧٨٥ — ١٨٦٣) بعنوان الآثار التشريعية للشعوب الجرمانية ، وفيه استغل المؤلف معرفته الواسعة باللغة والعادات ليثبت أن القانون نتاج لروح الشعب .

والملاحظ ان اهتمام الرومانسيين حتى ذلك الحين بالقانون كان إهتماما ذا طبيعة تاريخية بحتة حتى جاء إدوارد جانز Eduard Gans (١٧٩٨ — ١٨٣٩) وخرج على التقاليد التى وضعها سافينى وأدخل لونافلسفيا على المناقشة التاريخية الخاصة بالقانون متأثرا فى ذلك بفلسفة هيجل . وعلى هذا الأساس قام جانز باستقصاء الحقائق المرتبطة بقوانين الميراث ، وذلك منذ أيام الصين القديمة حتى القانون الجرمانى فى العصور الوسطى . كذلك كتب جانز عن القانون الرومانى ودخل فى مناقشات عديدة مع سافينى حوله . وبدأت فى ذلك الدور حركة تناولت جوانب الثقافة القومية المختلفة بإرجاع أصولها الى العصور الوسطى . وقد تناولت هذه الدراسة كذلك أصول الثقافة الميروفنجية وتضمنت دراسة المساكن والمدن والطوائف الحرفية وما شابه ذلك . والملاحظ أن الكتاب الألمان كانوا يميلون إلى تأكيد نظرية سيادة الاصل التيوتونى فى حين قال الفرنسيون بأن ثقافة العصور الوسطى ونظمها أساسها غالى رومانى .

---

(1)Aiw Small: Oregins of Socabgy (Cuniwessity of chicago pness 1925) Chap

أما فى ميدان الأدب وعلم الجمال فقد ظهرت وجهة النظر الرومانسية فيما كتبه رفقاء جريم واعنى شاتوبريان ، ومدام دى ستايل ، وفيليمن ، وجرفينوس ، وهم الذين جمعوا فى عمل فاق غيره من كافة النواحى عددا هائلا من القصص الشعبى والخيالى وما شابهه مما يعرف بأدب مارشن Marchen . أما فرانسو رنييه أوغسط دى شاتوبريان (١٧٦٨ — ١٨٤٨ م) فعلى الرغم من ميوله المحافظة فأنه عبر عن عملية تحول فكرى ملحوظ عندما كتب أول مؤلف هام له تحت عنوان «بحث تاريخى سياسى وأخلاقى حول الثورات» (١٧٩٧) وجاء مؤلفه هذا من وجهة نظر معارضة للثورة الفرنسية . وقد استعرض فيه اثنى عشر ثورة كبرى من الثورات التى قامت فى الماضى يثبت عدم جدواها وشراستها وإنها عمل تافه لم يخلد شيئا . ومع ذلك فانه اعترف إن الثورة الفرنسية كانت امرا لامفر منه . وفى عمله هذا نجده يشارك النظريات الفلسفية الفرنسية فى عدائها للمسيحية ، وإن كان قد تحول سنة ١٧٩٩ مثلما فعل أوغسطين الى الولاء للديانة المسيحية على أثر وفاة أمه . وهكذا مر فرانسو فى تحول فكرى جارف وتمكنت عواطفه من أن تنطلق من معاقلها ليخرج سنة ١٨٠٢ كتابة «عبقرية المسيحية» الذى أكد فيه ما أحدثته المسيحية من إلهام قوى للفن والشعر وكيف أنها دفعت البشرية نحو التقدم والكمال . وتميز هذا الكتاب بالاستعارات والتشبيهات الجميلة خاصة فيما جاء من وصف للطبيعة . وإستفاد شاتوبريان من زيارته للعالم الجديد وبما شاهد وحصل عليه من معرفة فضلا عن انه إستغل خياله أحسن إستغلال . ثم ظهر كتابه الثانى عن المسيحية فى عصرها الأول بعنوان الشهداء (١٨٠٩) وهو الكتاب الذى كان أبعد فى مسحته التاريخية من الكتاب السابق ، اذ إمتاز بمسحة الورع التى برزت فيه وتمجيده للمسيحية فى أيامها الأولى ، فضلا عن وصفه الرائع لغابات بلاد غاليا القديمة وللحياة التى عاشها المسيحيون الأوائل والمقابر التى دفن بها شهداؤهم ، كما تناول بالوصف الحضارة الرومانية فى ظل الامبراطورية . والواقع أن شاتوبريان كان له أكبر الأثر فى خلق الإهتمام بالوصف التصويرى وابتكار صورة عاطفية عن أصل المسيحية وتطورها . وكان لأعماله التى أشرنا اليها أخيرا أثر أكبر من غيرها فى القضاء على فكرة المتحفلين فى العصور الوسطى . وإمتاز كتابه (الشهداء) بنغمة قوية مما ادى الى رواجه ، اذ نجد شاتوبريان المسيحية الفرنسية . هذا الى أن ما كتبه عن ملك فرنسا الاسطورى فاراموند يعتبر من أروع وأبدع ما كتب . والحق أن مواهب شاتوبريان كانت أدبية أكثر منها علمية ويقول عنه الأستاذ رايت «أن شاتوبريان» واحد من أعظم الكتاب الذين يدعون لأنفسهم ماليس لهم وينسبون لأنفسهم نتاج غيرهم ، ولكنه أمتلك من الصفات ماغفر له كل ذلك ، اذ أنه ترك أثرا فى عصره لم يكن لأى شخص آخر منذ ايام روسو ، فضلا عن أنه يعتبر أب الرومانسية الفرنسية[1]

C.H.C. Wright - A history of French leter a ture (Oxford).

ثم يأتى الحديث عن مدام آن لويز دى ستايل (١٧٦٦ – ١٨١٦) Madame Anne Louise destaef كانت ابنة نيكر وزير مالية فرنسا قبل الثورة. عشقت المذاهب الحديثة للثورة الفرنسية بتأثير من أفكار روسو. لكنها كرهت نابليون كعدو مزعوم للثورة والجمهورية. لذلك تركت فرنسا وسافرت فى طول البلاد وعرضها. وتأثرت بآراء شليجل وكونستانت. ويسبق عملها عن الثورة بما جاء به دى توكوفيل De Tocqueville من إنها (الثورة) نتاج طبيعى لظروف فرنسا فى القرن الثالث عشر.

أما أعظم كتاب لها فهو ما اسمته بالأدب وعلاقته بالظروف الاخلاقية والسياسة للأمم، والذى صدر سنة ١٨٠٠ فقد استخدمت تاريخ الأدب لتؤكد نظريتها عن أن النماذج والأنماط الأدبية هى نتاج مباشر للمحيط الإجتماعى الذى يتأثر هو الآخر فى عمق بالوضع الجغرافى وخاصة المناخ. وقد استقت هذه الفكرة الأخيرة من مونتسكيو. وأكدت أن الديمقراطية هى نموذج إجتماعى جديد يحتاج إلى لون جديد من النماذج الأدبية. ولقد أوضح آخر وأطول أعمالها عن ألمانيا والذى صدر سنة ١٨١٠ أنها تأثرت كثيرا بالرمانسية المسيحية. وحاولت فى كتابها الأخير أن تبث المثل الفرنسية عن القومية فى ألمانيا وأن تثير أهتماما بالأدب الألمانى لدى القراء الفرنسيين.

ثم لدينا ابل فرانسو ڤيلامين Abel François Villemain (١٧٩٠ – ١٨٦٧) كان استاذا للأدب فى السوربون وواحدا من مؤسسى الدراسات الأدبية العملاقة فى فرنسا. وكانت محاضراته واحدة من المحاولات الأولى العملاقة فى الأدب الأوروبى المقارن. وطبع أجزاء منها فى مقتطفات من الأدب الفرنسى فى العصور الوسطى ومقتطفات من هذا الأدب فى القرن الثامن عشر. وقلد مدام دى ستايل وأكد بصفة خاصة القول باعتماد الأدب فى كل وقت على الأفكار السائدة فى المحيط الحضارى. وتبع هذا سانت بيف وتاين Saint Beuve and Taine

وسوف نتناول فيما بعد الكاتب جرفينوس بوصفه نموذجا للكتابه التاريخية الرومانسية، ونكتفى هنا بالاشارة إلى كتابه الهام «تاريخ الشعر الألمانى» الذى حاول جاهدا فيه أن يبين العلاقة بين كل مرحلة من مراحل الأدب والشعر الألمانى من ناحية وبين الثقافة التى انبثق منها من ناحية أخرى. وثمة دافع سياسى معين دفع جرفينوس إلى تأليف هذا الكتاب وفضلا عما برز فيه من اتجاه خاص نحو الأدب الألمانى فقد كان يرغب فى أن يحث كبار مفكرى عصره للتخلص من الاهتمام بالشعر وتحويل جهودهم نحو العناية بدراسة موضوعات الاصلاح السياسى فى ألمانيا وأعتناق المذهب الليبرالى. وهكذا يبدو أنه بينما امتدح كبار الشعراء الألمان فى الماضى، اذا به يخالف نفسه ويقول إن الألمان استنفذوا طاقتهم الخلاقة فى مجال الشعر وأن جوته يمثل آخر العباقرة الالمان فى ميدان الشعر.

وفى انجلترا كان أبرز كتاب المدرسة الرومانسية فى مجال التاريخ والأدب هو السيروالتر سكوت (١٧٧١ — ١٨٣٢ م) الذى جاء انتاجه فى الأدب أكبر وأهم مما كتبه عن تاريخ الأدب ولا يوجد هناك أديب فعل أكثر مما فعله سكوت بما فى ذلك شاتوبريان نفسه وذلك فيما يتعلق باثارة الاهتمام بحياة العصور الوسطى ونظام الفروسية فيها . وتجلت مقدرته الأدبية الفنية فى المقدرة على اعادة صياغة الماضى فى صورة تتفق والصبغة المحلية الإقليمية . وكانت لكتبه «ايفانهو» و «تاليزمان» كذلك لرواياته عن اسكتلندا فى العصور الوسطى أثر كبير لا فى مجال الأدب وتذوقه فحسب بل على نظرة المؤرخين الى العصور الوسطى منذ أيام اوغسطين تيرى حتى اندرو و هوايت . ثم إن سكوت أخرج بعض الأعمال التاريخية البحتة مثل مؤلفه الطويل بعنوان حياة نابليون ، ولكنها جاءت ضئيلة الاهمية اذا ما قورنت بتأثير رواياته التاريخية على فكر المؤرخين الجادين .

وبينما جرت العادة على إرجاع بداية الكتابة التاريخية الرومانسية إلى عهد تلاميذ والترسكوت ، شاتوبريان ، اذا بالأستاذ بيردون وآخرين يؤكدون أن هذا النوع من الكتابة التاريخية بدأوها فى انجلترا قبل عصر سكوت وشاتوبريان . ودعم هذا الاتجاه الإيمان بالحياة الطبيعية البدائية فضلا عن الورع والخيال اللذين سادا بريطانيا فى العصور الوسطى . كذلك لعبت العنصرية دورا هاما فى هذا المجال إذ استبدلت الآراء التى سادت العصور الوسطى عن الأصل الطروادى للبريطانيين بنظرية جرمانية مفادها أن كل الأجناس الأوربية الهامة انحدرت من أصل قوطى بحيث يكون الحديث عن التاريخ الانجلو ساكسونى أمرا ثانويا إلى جانب بطولات القوط واعمالهم المجيدة .

وكان أن ظهر الاهتمام الجديد بانجلترا الأنجلوساكسونية فى عدد من المؤلفات ، أهمها تلك التى وضعها جنا ويتكر John Whittaker ، شارون تيرنر . أما عن ويتكر فكان أحد النقاد والمتحاملين على كل من هيوم وروبرتسون وجيبون . استهدف أن يعيد كتابة تاريخ العصور الوسطى فى انجلترا بشكل جاد . وحاول أن يحقق ذلك فى كتاب مطول عنوانه تاريخ منشستر (١٧٧١ — ١٧٧٥ م) . ولكنه لم يتم منه سوى الأجزاء الخاصة بعصر ماقبل الرومان . وحاول أن يرجع الخواص المميزة للنظم الانجليزية مثل البرلمان ، والاقطاع وحرية المواطنين ، إلى عصر ماقبل النورمان ، وبذل كل جهده ليبرز السحر الرومانسى ، لذلك الدور المبكر من التاريخ الانجليزى ، كما نافس بوسويه إلى حد كبير فى قدرته على تلمس القدرة الألهية فى صنع التاريخ .

أما شارون تيرنر الذى جاء بعد ذلك ، فهو أكثر مقدرة من ويتكر ووضع كتابه الرئيسى بعنوان «تاريخ الانجلو ساكون» (١٧٩٩ — ١٨٠٥) وفيه حث على ضرورة زيادة الأهتمام الدقيق بتاريخ بريطانيا المبكر وأوصى بدراسة الأنجلو ساكون قبل مجيئهم إلى انجلترا

دراسة دقيقة . وقد أثنى على الانجلوسا كسون ومجدهم وقارنهم بأسلافهم الرومان الذين كانوا قد اصابهم الوهن والانحلال . وهنا نلمس البوادر الأولى لفكرة تفوق الانجلوسا كسون على الرومان وهى بداية النعرة الجرمانية العنصرية التى وجدت التعبير الكامل عنها فى كتاب شارلز كنسجلى (الرومان والتيوتون) . ومع ذلك فان كتاب تيرنر أول كتاب دقيق واضح عن انجلترا الانجلو ساكسونية وأدت به حماسته للانجلوسا كسون إلى وقوعه فى عدة أخطاء مثل محاولته إرجاع أصل البرلمان الانجليزى الى ما كان موجودا فى انجلترا الانجلوساكسونية من مجالس تضم أساقفة وحكام المقاطعات وبعض مندوبى الملك ، ومحاولته ايضاح أن نظام المحلفين كان موجودا فى انجلترا الانجلو ساكسونية وجاء هذا بادرة لتسرب الروح الجرمانية لدى مؤرخى النظم الانجليزية . أما كتاب تيرنر عن التاريخ الانجليزى من الغزو النورمانى حتى القرن السادس عشر فجاء أقل مستوى وإن كان إهتم إهتماما غير عادى بثقافة العصور الوسطى وآدابها ، وأوضح فيه علاقة بريطانيا بالقارة الأوربية . وكان يشارك هويتاكر إعتقاده بأن الرب هو صانع التاريخ يدير أحداثه ، وأننا فى دراسة التقدم البشرى نجد يد الله هى الموجهة والصانعة والراعية له .

ويمكننا كذلك ان نلمس بوضوح فى اعمال جون بنكرتون ، ويوسف سترت أكثر من محاولة لتمجيد الثقافة البريطانية فى العصور الوسطى وتصويرها تصويرا رومانسيا . ففى كتاب بنكرتون تاريخ اسكتلندا الذى ظهر بين سنتى (١٧٨٨ – ١٧٩٧ م) حماسة بالغة لإحصاء وتمجيد أدب بريطانيا فى العصور الوسطى وخاصة الشعر فى تلك العصور . وكان بنكرتون من أوائل زعماء الدعوة العنصرية ، اذ اعتقد فى الأصل القوطى للشعوب الأوربية الرئيسية ، وشبه القوط بشعب اسكتيا الذين ورد ذكرهم فى الكتابات التاريخية القديمة على أنهم أصل الشعوب القديمة . بل لقد ذهب إلى حد القول بأن البكتيين وهم شعب اسكتلندا كانوا من أصل قوطى . والواقع أن هذا التمجيد للقوطية لم يكن سوى نوع من الآرية المبكرة فى القرن الثامن عشر . أما يعقوب سترت Jacob Strutt فانه اتجه بالرومانسية لدراسة تاريخ العصور الوسطى من الجوانب الاجتماعية والثقافية ، وهما الجانبان اللذان سبق أن ايدى أصحاب المدرسة العقلانية اهتماما بدراستهما . وله فى ذلك كتابان هما نظرة شاملة على ملابس الشعب الانجليزى وعاداته ، وقد ظهر هذا الكتاب بين سنتى ١٧٩٦ – ١٧٩٩ م) وكتاب « رياضة الشعب الانجليزى ووسائل التسلية عنده » وقد صدر سنة ١٠٨١ . وكان سترت مبتكرا ومعقولا فى اعتقاده ان الألعاب الرياضية تعكس روح الشعب أفضل مما تعكسه الحروب التى يخوضها ذلك الشعب أو سياسته الدستورية والدبلوماسية .

ويدخل الاتجاه الرومانسى الى تاريخ الكاثوليكية البريطانية فى العصور الوسطى على يد مؤرخ كاثوليكى هو يوسف بيرنجتون (١٧٤٦ – ١٨٢٧) Joseph Barington فضلا عن اخوين من أسرة ميلز من اتباع الكنيسة الانجلية . أما بيرنجتون فكان قسيسا شارك الرومانسيين

حماسهم للحرية . ومثلما حاول سبتلر أحد رجال المدرسة العقلانية من جعل كنيسة العصور الوسطى الكاثوليكية تخدم المذهب العقلانى وتؤيده ، كذلك حاول بيرنجتون أن يبين أن الكنيسة الانجليزية الكاثوليكية فى العصور الوسطى كانت تؤيد بحماسة مبدأ حق المواطنين فى الحرية ، وركز على أحداث معينة لأثبات وجهة نظره ، مثل قضية توماس بكت . كذلك لجأ بيرنجتون فيما كتبه من أبحاث وكتب أخرى مثل ما كتبه عن ابيلارد ، وهلواز Heloise إلى تحميد كاثوليكية العصور الوسطى فى بريطانيا والقارة الأوربية . ومع ذلك فإنه ينتقد فى كتابه تاريخ الأدب فى العصور الوسطى الذى ظهر سنة ١٨١٤ الأدب والعلوم فى تلك العصور . أما يوسف واسحاق ميلز فقد أظهرا فى كتابهما (تاريخ كنيسة المسيح) الذى ظهر ما بين ١٧٩٤ — ١٨٠٩ حماسا للكاثوليكية الرومانية على الرغم من أن كتاباتهما جاءت من زاوية الكنيسة الأنجيلية ، ذلك أنهما حاولا جاهدين أن يوضحا أن المسيحية الحقيقية — أى تعاليم يسوع — هى التى كانت سائدة بصرف النظر عن شكل الكنيسة الخارجى ومذهبها ، وخرجا من ذلك إلى القول بأن العصور الوسطى شهدت كثيرا من خيرة المسيحيين الكاثوليك . ومن هنا فإنهما حرصا على هدم وجهات نظر البرتستانت والعقلانيين سواء فيما يتعلق المنسحبة فى العصور الوسطى . وكان موقفهما الرئيسى يتلخص فى أن المسيحية خرجت إلى الوجود فى (ثوب رومانى) وأن المؤرخ الوفى للمنسيحية لا ينبغى أن يتأثر بجهله الحقيقية عندما يعالج تاريخ الكنيسة .

ولم يقف أصحاب المدرسة الروائية من المؤرخين الرومانسيين عند حد التأثر بالنظريات العامة والأراء التى اوردوها فحسب ، بل أنهم تأثروا كذلك باللون الأدبى الذى تضمنته روايات والترسكوت التاريخية بما تحويه من تأكيد وتركيز مستمرين على إبراز الطابع الإقليمى والمحلى . والحق ان هذا الاتجاه ليس الاتجاه السليم للتاريخ لأنه كان يستهدف اساسا تصوير أحداث من الماضى بطريقة تجعلها تبدو فى صورة الأحداث المعاصرة فى وضوحها والعيش فى أجوائها ، ومن ثم فإن إنتاج أصحاب هذا الأتجاه جاء عملا أدبيا أكثر منه كتابة تاريخية بالمعنى العلمى الصحيح . ومع ذلك فإن أثر هذا الاتجاه على الكتابة التاريخية السليمة يكمن فى أن عنصر التشويق الأدبى فيه أثار اهتماما كبيرا بالتاريخ فى شكل لم يسبق له مثيل . وكان أن انضم إلى ميدان الكتابة التاريخية فى الوقت المناسب كثير من العلماء البارزين أمثال ليوبولدفون رانكه الذى كانت جهوده وحده فى ميدان التاريخ أفضل من كل ما أسهم به رجال المدرسة الروائية الرومانسية بأسرها . ومن أهم ما أنتجته هذه الباقة المتنوعة فى مجال الكتابة التاريخية الرومانسية ، يحتل كتاب اوغسطين تيرى Augustine Thierry (١٧٩٥ — ١٨٥٦ م) عن تاريخ الغزو النورمانى لإنجلترا وقصص عن العصر البروفنجى أهمية خاصة . هذا فضلا عن كتاب آمابل دى بارانت (١٧٨٢ — ١٨٦٦ م) — تاريخ الدويلات الأيطالية — تاريخ الأراضى المنخفضة والتاريخ العالمى لهزيخ ليو (١٧٩٩ —

١٨٧٨) وكتاب تاريخ القرن التاسع عشر لمؤلفه جورج جوتفريد جرفينوس (١٨٠٥ — ١٨٧١ م) .

أما عن تيرى Thierry فقد تأثر فى شبابه بقراءة كتاب الشهداء لشاتوبريان ثم روايات والترسكوت التى قرأها بعد ذلك ببضع سنوات ، مما جعله يعطى اهتماما خاصا لإبراز الجانب المحلى فى كتاباته . وعندما أخذ يكتب كانت لديه فلسفة سياسية معينة خلاصتها الاخلاص للبرجوازية والنظام الجمهورى مع كراهيه للأرستقراطية وهو الشعور الذى كان قد استقاه إلى حد ما من سانت سيمون ، ثم أنه كان يعتقد ان الطبقات الأرستقراطية قامت على القهر والغزو ومساندة الغزاة الأجانب . وعبر فى كتاباته عن العصور الوسطى لكراهيته الشديدة للأرستقراطية الفرنسية القائمة فى أيامه ، فصور طبقة النبلاء فى العصور الوسطى فى صورة جماعة وحشية مستغلة غير مهذبة . اما فى كتابه عن الغزو النورماندى فقد وجد فى تاريخ وليم الفاتح والغزو النورماندى ما يدعم آرائه . كذلك فى كتابته عن الميروفنجين تتبع أصول الأرستقراطية الفرنسية وبين انها تنحدر من سلسلة من الدخلاء الأجانب تبدأ بالفرنجة ثم النورمان . ولا شك فى أن تعصبه العنصرى زاد من كراهيته للطبقات الأرستقراطية . على أن تيرى لم تتوافر لديه قدرة ناقدة كبيرة عند رجوعه إلى المصادر التاريخية ، فعلى الرغم من انه استبعد المصادر الثانوية التى لايعتد بها ، إلا أنه لم يكن على قدر من الكفاية تمكنه من التحقق من صحة مختلف الروايات . ومع ذلك فإنه تمتع بخيال تاريخى بناء خصب وحاسة فنية وأسلوب سلس جذاب ، وكان لفلسفته السياسية الفضل فى جعل كتاباته التاريخية مقبولة لدى المفكرين البورجوازيين فى فرنسا . واذا كانت كتبه قد لاقت رواجاً هائلا عند صدورها الا أنها غير مقبولة اليوم بوصفها لا تعبر عن كتابة تاريخية حقيقية متزنة عن فرنسا أو انجلترا فى العصور الوسطى أما كتاباته عن الكوموناث الفرنسية فى العصور الوسطى فإنها تعبر تماما عن ميوله البرجوازية .

أما بارانت فكان بوصفه مؤرخا أقل كفاية من تيرى ، ولكنه كان أعظم منه فى قدرته على تصوير الصبغة المحلية للتاريخ ، وكان متأثرا بسكوت شأنه شأن تيرى واتجه فى انتاجه إلى تقديم سرد روائى ممتع جذاب يقوم على اساس تاريخى . واختار لدراسته تاريخ مقاطعة برجانديا فى العصر الذى تناولته أقلام كبار المؤرخين فرواسار وكومين . ومن المعلومات التى استقاها من المصادر المعاصرة لتلك الفترة حاول اخراج رواية رائعة . وعلى هذا الأساس يمكن القول ان عمله كان اعادة صياغة لحنث من الأحداث بأسلوب بلاغى . ومع ذلك فقد كانت تنقصه القدرة الناقدة التى تمكن الكاتب من تقدير مدى صحة المصادر التى استند اليها . ولم يسمح بارانت لآرائه الخاصة أن كان لديه شئ من هذه الآراء — أن تترك انطباعها على سرده التاريخى ، ولذلك فان عمله جاء خاليا تماما من أية تأملات أو تفسيرات أو شرح أو نظرة فلسفية . ومع ذلك فإن أسلوبه الساحر كان كفيلا بأن يجذب إليه جمهرة كبيرة من القراء المتحمسين .

أما عن ليو Leo فانه خير نموذج يعبر عن اتجاه المدرسة الروائية فى الكتابة التاريخية الرومانسية فى ألمانيا . وكانت أهم اعماله هى تلك التى تناول فيها المدن الإيطالية المستقلة فى العصور الوسطى فأعاد تصويرها مبرزا اللون المحلى الذى إصطبغت به كتابات المؤرخين فى العصور الوسطى . وعلى الرغم من تأثر ليو فى شبابه بالمذهب الليبرالى Liberalism فانه تحول بعد ذلك إلى الجانب المحافظ . ومع أنه أحتفظ بمذهبه البروتستانتى من الناحية الشكلية ، الا أنه سرعان ما أصبح متحازاً من الناحية العاطفية الى كاثوليكية العصور الوسطى ، الأمر الذى جعل له نفس روح شاتوبريان تقريبا . ولم يظهر هذا الاتجاه عند دراسته للعصور الوسطى فحسب ، ولكن ظهر أيضا فى حكمه القاسى على اليهود وعلى لوثر وعلى حركة الإصلاح الدينى وعلى الثورة الهولندية ضد أسبانيا الكاثوليكية . ولكنه فقد شعبيته أثر نزاعه مع فون رانكه وغيره من الأعداء الذين دخل معهم فى صراع مرير . وأما اسلوبه فقد أتصف بالوضوح وتفوق على كل من ثيرى وبارانت فىاستخدامه المصادر بشئ من القدرة على التفضيل بينها .

أما جرفنيوس فكان تلميذا لشلوزر وكانت أكثر أهتماماته بالناحية السياسية على حين أنه كان أقل اهتماما بالجانب الأخلاقى من استاذه . وكان شاغله السياسى هو تحرير ألمانيا ، ولذا فإن غرضه السياسى الواضح من وراء كتابه عن تاريخ الشعر الألمانى هو إثبات أن ألمانيا انتجت مايكفيها من روائع الشعر وأنه لم تعد هناك حاجة للمزيد منه ، وأنه على شعراء عصره أن يحولوا أنتباههم إلى السياسة . وكانت أهم أعمال جرفنيوس كتاب بعنوان «تاريخ القرن التاسع عشر» تتبع فيه بصفة خاصة الحركات والاتجاهات الدستورية والديمقراطية والجمهورية . وقد اعتبر المعركة من أجل الحرية نضالاً للأفكار الديمقراطية التى صحبت حركة الإصلاح الدينى وتحدت الأرستقراطية الموروثة عن كنيسة العصور الوسطى من ناحية وعن النظام الملكى وطبقة النبلاء فى تلك العصور من ناحية أخرى . ويوضح ذلك أن تفهمه لحركة الإصلاح الدينى كان محدودا لأن هذه الحركة فى بعض نواحيها جاءت تدعيما للحق الألهى للملوك والملكية المطلقة . ولم يكن يحفل بالوحدة الألمانية حيث أن تحقيقها يتم على اساس التضحية بالحرية .

وثمة تأكيد للجانب الموضوعى فى المدرسة الروائية ، يبدو فى اعمال مجموعة من الشعراء الغنائيين الموضوعيين أمثال ميشليه ، وكارليل ، وفرويد Froude وهم الذين يعبر انتاجهم عن محاولة لإبراز الطابع المحلى على سير الأحداث التى يسردونها وفى نفس الوقت إبراز الإنطباعات والاتجاهات الذاتية للمؤلف . وقد استهدفوا تصوير الاحداث للقارئ وكأنها تدور فعلا أمام عينيه حتى يشارك الكاتب إحساساته وانطباعاته .

ويعتبر كتاب تاريخ فرنسا الذى ألفه جولس ميشليه Jules Michelet (١٧٩٨ - ١٨٧٤ م) من أعظم الكتب الأوروبية التى كتبت عن تاريخ فرنسا فى أى عصر

سواء من ناحية فصاحته او من ناحية عرضه المتير . ذلك أن المؤلف تملكته مشاعر حب جارف لوطنه وتوافرت لديه قدرة خيالية خلاقة رائعة ، وكتب بأسلوب اتسم بروعته وقدرته على استخدام الكلمة والتأثير بها فضلا عن المهارة فى استخدام الرمزية . وظلت نظرة ميشليه الرومانسيه وطريقته فى كتابة التاريخ ثابتة دون أن يطرأ عليها تغيير طوال حياته ، وإن كانت اتجاهاته السياسية والدينية فضلا عن مزاجه قد انتابها التغييرات الكثيرة مما أثر على نغمة كتاباته التاريخية . ذلك أنه بدأ كاثوليكيا مخلصا ولكنه تحول بعد ذلك إلى الليبراليه وعشق العلم والمعرفة

وقد اقنعته دراسته وترجمته لكتاب فيكو عن العلم الجديد أنه من الممكن التوفيق بين العلم والعقيدة ، وبهذه الروح خرجت كتاباته المبكرة ذات اهمية ضئيلة . ثم أنه نتيجة لاعتناق تلك الآراء انتقد نفسه فى كتابه الكبير الذى ألفه تحت عنوان (تاريخ فرنسا) . وبعد ذلك آمن مبادئ الثورة الفرنسية وروحها ولعب دورا بارزا فى سياسة فرنسا التحررية . ولما كانت الكنيسة الكاثوليكية تقف من وراء الرجعية السياسية فى فرنسا ، فان ميشليه لم يتحول تدريجيا إلى ديموقراطى حر متطرف فحسب بل إلى عدو للكنيسة وبهذه الروح كتب الأجزاء الخاصة بالعصر الذى عقب العصور الوسطى من كتاب (تاريخ فرنسا) . ويعلل هذا الاختلاف الواضح بين روح الكتابة فى الأجزاء الأولى وبين روحها فى الأجزاء الاخيرة من كتابه .

كان ميشليه يعتبر التاريخ الرواية التى تحكى مأساة الحرية الانسانية ، ولذا لم يهتم اهتماما كبيرا بفلسفة التاريخ بقدر ما اهتم بالتعبير الفنى الكامل عن الدراما الانسانية فى ماضى العصور . وكتب ذات مرة يقول :

« رأى أوغسطين تيرى فى التاريخ رواية تسرد ورأى فيه جيزو تحليلا للاحداث أما أنا فاعتبره بعثاً . » وكانت وطنيته قد تبلورت فى صورة حب قوى « لروح الشعب الفرنسى » . والواقع أنه فعل أكثر مما فعل أى مؤرخ رومانسى فرنسى آخر لإذكاء القومية الفرنسية . ولم يفعل ذلك فى كتابه عن تاريخ فرنسا والثورة الفرنسية فحسب ، بل ايضا فى كتابه الشعب الذى يعتبر مثالا رائعا للقومية الرومانسية وعلى الرغم من ان ميشليه قد قلب مصادر التاريخ الفرنسى باجتهاد كبير وعلى نحو أشمل مما فعله أى مؤرخ فرنسى روائى آخر ، فانه لم يقم بغربلة تلك المصادر وتقييمها مثلما فعل فون رانكه . وكل ما فعله هو أنه تناول هذه المصادر بحثا عن لون محلى يضفيه على سرده وهو نفس ما فعله برانت . وكان ميشليه يعتقد أن خير ما تجمع منه المادة الخام للدراما التاريخيه هى المصادر . وكان كتابه « تاريخ فرنسا » عبارة عن مناظر مثيرة عظيمة متابعة أكثر منها سردا محكما منتظما . ومن القطع الرائعة التى تستحق اهتماما خاصا تلك التى كتبها عن الرواية وعن جان دراك . وعلى الرغم من اهتمامات الرومانسية والأدبية ، فان علاجه للأسس الجغرافيه والتاريخ الفرنسى جاء خير ملخص كتبه مؤرخ حتى الأزمنة القريبه . هذا إلى ان ما كتبه ميشليه عن العصور الوسطى جاء عرضا مشحونا بالعاطفه عن اصول الأمة

الفرنسية ، كما أنه يتضمن فى نفس الوقت إشادة بالكاثوليكية الفرنسية بصورة تجعل القارئ يتذكر شاتوبريان الذى اثنى عليه ثناء عاطراً .

ثم كان أن حدث تغيير فى مزاج ميشليه فترك العصور الوسطى فى نهايتها لينتقل فجأة إلى الثورة الفرنسية . وكان كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » تحفة ادبيه رائعة وجدلا حرا مضادا للكنيسة . وقد فسر الثورة الفرنسية على أنها العمل النبيل للشعب الفرنسى المتحرر ، وأثنى بصفة خاصة على دانتون . وصور الثورة فى صورة انتصار عظيم على طغيان الكنيسة والملكية على السواء . وبعد أن انتهى من هذا الكتاب بدأ يملأ الفراغ الذى كان قد تركه فى كتابه عن تاريخ فرنسا من عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية . وفى هذا الجزء انتقد الملكية والارستقراطيه الفرنسية أنتقاداً شديدا ، كما انتقد كذلك الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية . وكان جريئاً وجدداً فى إدانته لمذبحة سانت بارتولوميو وإلغاء مرسوم نانت . وكلا الحدثين يرتبط بالتراث القومى للأمة الفرنسية ويفخر به الفرنسيون جميعا ويوضح ذلك مدى سلطان المذهب الكاثوليكى على النظرة التاريخية الفرنسية فى ذلك العصر . ومن الطبيعى أن يكون حقد ميشليه على المستبدين مصحوبا بالعطفة على الذين وقع عليهم الغبن .

أما الكاتب الانجليزى توماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١ م) فهو لا يرقى إلى مستوى سابقيه من الكتاب ، وليست له أهمية كمؤرخ ، بل إنه على النقيض من ميشليه - لم يكن يقيم وزنا كبيرا للجماهير فى الوقت الذى بالغ فى أهمية الشخصيات الكبرى فى التاريخ . وكان كارليل يعتقد أنه « لا بد من تدريب قطيع العامة ولا بد من قيادتهم وأن يلقوا عقابهم على أيدى من هم اسمى وأرق منهم » كذلك كان يعتقد أن التاريخ ليس إلا « ترجمة جماعية » للشخصية العامة البارزة على مر العصور[1]

ويعتبر كارليل مسئولا مثل اى مؤرخ آخر عن عدم الاهتمام والاحتقار التقليدى الذى صار سكينه المؤرخ الحديث لأمور الحياة اليومية العادية وهى الأمور التى كان لها فى غالب الأحيان تأثير التطور الاجتماعى أكثر مما كان لكبار الشخصيات . وعلى الرغم من السمو الأدبى الذى تكشف عنه تراجمه للشخصيات التى تناولها ، الا أن اهتمامه ظل مركزا حول مدى ما أنجزته هذه الشخصيات من أعمال عادت بالنفع على الجميع . ومن كتبه (رسائل وخطب كروmويل) و (تاريخ فردريك الكبير) و (الثورة الفرنسية » وقد ضمنها جميعا آراءه فى مهارة فائقة . وعلى الرغم من أن هذه الأعمال ليس لها إلا قيمة متوسطة حيث انها مصادر المعرفه

(١) قامت نظرية كارليل على اساس ان التاريخ تجميع لعدد هائل من التراجم الخاصة بالعظماء والحقراء. من هو صاحب الفضل العظيم ذلك الذى كسب معارك كاناى وتراسيمين أم ذلك الفقير المجهول الذى كان أول من صنع لنفسه قما من الحديد . ولكن من الناحية العلمية أعطى كارليل اهتماما للعظماء وتجاهل الوضعاء وان لم يعبر عن احتقاره لهم (المؤلف)

وعلى الرغم من تحيز الكاتب الواضح وإفتقار كتبه الى المنهج الناقد وقلة إعتماده على المصادر جيدة النشر والترتيب ، فانه كان على الرغم من هذا كله صاحب شهرة كبيرة «كأعظم كاتب انجليزى فى تصوير الشخصيات» .

ثم ان كتاب كارليل عن كرومويل يمثل جهدا عظيما فى الدفاع عن شخصية كرومويل . وقد نجح المؤلف فى ذلك الدفاع تماما . ولكنه لم يأت فى هذا الكتاب بجديد فى مجال التاريخ الدستورى كما أن التوفيق خانه كلية فى تحليل العوامل الإقتصادية والإجتماعية التى لازمت الحرب الأهلية وقيام الكومنولث . أما كتابه الخاص بترجمة حياة فردريك الكبير فقد جاء فى صورة صندوق جمع فيه صورا عديده من أعظم صور البلاغة التاريخية . وقد إحتوى هذا الكتاب على تصوير لأبرز الشخصيات العامة فى عهد فردريك أو مع ذلك فإنه عجز عن أن يجعل من كتابه مرجعا لتاريخ النظم فى عصر الملكيات المستبدة المستنيرة أما كتاب «الثورة الفرنسية» فانه مجموعة من «الشخصيات المصورة» مجردة عن أى فهم عميق لأصول تلك الحركة العظيمة وطبيعتها وسيرها . هذا إلى أنه يقر الرأى غير السليم القائل بأن الثورة الفرنسية كانت من بدايتها من عمل الغوغاء القوميين المهمجيين . ثم إنه لم يلتزم الدقة لا فى كثير من التفاصيل فحسب ، بل وفى الفكرة العامة . ومع ذلك فان كتابه قطعة أدبية ممتازة ويناقش كتاب ميشليه الذى يمتاز عنه بشروحه وفى تفسيره للأحداث . وقد لاقى كتاب كارليل رواجا كبيرا فى عصره ومازالت له نفس الشهرة لدى جماهير القراء الذين يبتغون المتعة أكثر من المعرفة . وأحسن حكم على كارليل هو ذلك الحكم المختصر الذى أصدره ليزلى ستيفن عندما قال عنه . إن هناك فرقا بين من يصنع العبارة وينمقها ويضفى عليها الجمال وبين من يستهدف البحث لذاته .

ونتطرق بعد ذلك الى الحديث عن أحد تلاميذ كارليل وهو جيمس انطونى فرويد James Anthony Froude (١٨١٨ - ١٨٩٤ م) الذى اقترن اسمه بعدم الدقة فى السرد التاريخى وإن كان أكثر كفاية من استاذه كمؤرخ . وترجع أخطاء جيمس الى ضعف ذاكرته وإهماله المستمر ، لكنه لم يتعمد الخطأ وعدم الدقة بل كان يقدر القيمة العظيمة لمنهج النقد . وقد أنتج أول كتاب مطول فى التاريخ الانجليزى ، اعتمد فيه بصفة اساسية على الوثائق غير المنشورة . ولايقر خيرة الناقدين له اليوم وأكثرهم حيدة التهمة التى رماه بها معاصروه ومن بعدهم فيوتر من أنه كان يغير من مصادره ويزورها عمداً لكى تتوافق مع معتقداته . وجاء كتابه (تاريخ انجلترا منذ سقوط ولزلى حتى هزيمة الارمادا الاسبانى) عبارة عن ملحمة انجليزية تصور الخلاص من عبودية روما . ويبدو تأثيره بمنهج استاذه كارليل فى حرصه على تناول الشخصيات الكبرى ، ومن ذلك علاجه لشخصية كل من هنرى الثامن ، بيرليه ، نوكس . ولانجد من بداينه بين مؤرخى المدرسة الروائية الانجليزية سوى ماكولى وفى

هذا يقول جوش Gooch : «ليس هناك مؤرخ آخر سوى فرويد يملك أسلوبا سهلا سلسا نقيا مثل إسلوبه» .

ولقد مر فرويد شأنه شأن ميشليه بتقلبات نفسيه عميقة ولكنها غدت واضحة قبل أن يبدأ وضع مؤلفه التاريخي الكبير . ففي بداية أمره كان يعطف على الحركة المؤيدة لسلطان الكنيسة العليا في اكسفورد لكن ذلك أدى به الى اتجاه مضاد لاتجاه كل من مانتج ونيومان . فأصبح عدوا لروما ومؤيدا لحركة الإصلاح الديني في انجلترا وشجعه كارليل على أن يكتب أول عرض مطول لثورة الكنيسة الأنجليزية على سلوك البابوية في روما باستخدام المصادر الأصلية . وكانت هناك ثلاثة خيوط حددت الطريق الذي سار فيه أولها : حرصه على إبراز مفاسد الكنيسة في روما ، ثم ما تشربه من استاذه كارليل من تقديسه للشخصيات الكبيرة ، وأخيرا إعجابه بماكولي كروائي . والحق انه فاته كل من كارليل وماكولي في اثارته للانفعالات النفسية . هذا إلى أنه جمع الى حد ما بين قدرة ماكولي الروائية ومقدرة كارليل على تصوير الشخصيات ، فضلا عن أنه كان في سرده أشبه بالمحامي الذي يرتب مرافعته الطويلة المليئة بالأدلة . وقد دافع بحرارة عن هنري الثامن ولكنه لم يظهره في صورة الجدير بالثناء والمديح في مجال السياسة الواقعيه ، كما أنه لم يوضح ما قام به هذا الملك في الميادين الاقتصادية والسياسية . ولم يعط فرود للملكة اليزابيث وزنا كبيرا وإنما عزا عظمتها إلى بورليه . ونظر الى جون نوكس على انه الرجل الذي ساعد حركة الإصلاح الديني في انجلترا في حين أن نظرته كانت عدائية الى ماري ملكة الاسكتلنديين . وعلى الرغم من كافة أخطائه فان انتاج فرويد يمثل اكمل تاريخ مبتكر قام به مؤلف على حدة لحركة الإصلاح الديني في انجلترا . ولعلنا نجد تبريرا جزئيا لما إتسم من تطرف ومبالغة في الحقيقة الخاصة بأن حركة الإصلاح الديني في انجلترا تعرضت على أيامه لهجات فيها الكثير من الزيف من جانب السلطات الكنيسة العليا والمرتدين الجدد الى الكاثوليكية .

واذا ما أنتقلنا الى الحديث عن الكتابة التاريخيه المتأثرة بالرومانسية في روسيا نجد هناك كتاب نيقولا كارامازين (١٧٦٦ - ١٨٢٦م) بعنوان (تاريخ الدولة الروسية) وهو يحكي قصة الروسي حتى سنة ١٦١١م ويعزي التقدم الذي حققوه الى عبقرة الشعب الروسي نفسه ، خاصة تلك العبقرية التي استمدها من تراثهم الشرقي وكنيستهم الشرقية كذلك إنتقد كارامازين المذهب الحر (الليبرالي) والثقافة الغربية مما حقق لكتابه رواجا في دوائر مدرسة الفكر الروسي المعادي للغرب .

وفي بولندا وضع المؤرخ القومي الشهير جواكيم ليلويل Joachim Lelewel (١٧٨٦ - ١٨٢٦) كتاب بعنوان (تاريخ بولندا في العصور الوسطى) وهو يتفق في مادته مع المفهوم الرومانسي عن التطور الثقافي . أما في إيطاليا فهناك كذلك سمات

رومانسية عديدة فى أعمال بعض الكتاب الإيطاليين أمثال كارلو ترويا ، موليجى توستى ، سيزار باليو ، سيزار كانتو ، وسوف نتناول أعمالهم فى مجال آخر .

أما فى الولايات المتحدة فكان أبرز ممثلى مدرسة كارليل وفرود هو حنا لوثروب موتلى (١٨١٤ – ١٨٧٧ م) الذى كان صديقا لبسمارك وزميلا له فى الدراسة . وقد كرس حياته لسرد نضال الأراضى المنخفضه ضد اسبانيا وقيام الجمهورية الهولندية . وكان عشقه للحريه ودفاعه عنها قد فاق كل من ميشليه وفريمان ، فوجد فى تتبع الثورة الهولندية وقيام الجمهورية الهولندية مادة مناسبة تماما للدفاع عن الحرية . ولا يوجد من المؤرخين الانجليز سوى كارليل من يدانيه فى التصوير اللفظى وروعة الوصف ووضوحه هذا إلى ان موتلى تتلمذ فى صباه على يد بانكرفت ، وتعلم اللغه الالمانيه ووجد من شجعه على الذهاب إلى المانيا للدراسة فيها . وفى جوتنجن قابل بسمارك . ولقد دفعه تأثره بآراء بانكروفت وما كتبه هذا الكاتب عن الثورة الأمريكية إلى الحديث عن الحرية وتقصى نشأتها ونشأة الثورة الهولندية وعلى الرغم من ان موتلى من الموحدين المسيحين فانه لم يكن من البروتستانت المتعصبين انما كان مقتنعا بطغيان سلطة الكنيسة فى روما ، ومن ثم فان كتابه قيام الجمهورية الهولندية ، جاء جدلا فصيحا مؤيدا مبدأ الحرية والنظام الجمهورى ، وإستمراراً للهجوم على الكاثوليكية والإستبداد الأسبانى . وكان وليم الصامت يمثل شخصية البطل فى هذا الكتاب ولذا قارنه موتلى بالزعيم الأمريكى فى واشنطن . أما دور الاشرار فى كتابه فقد قام به فيليب ، الفا Alva ثم أتبع موتلى هذا الكتاب بكتاب آخر لا يقبل وضوحا عنوانه ، تاريخ هولندا المتحدة ، ثم كتاب ثالث عنوانه حياة بارنفلدت ونهايته ، وتعرض هذا الكتاب الأخير للنقد من جانب اتباع المصلح الدينى كالفن فى هولندا بسبب مهاجمة تطرف اتباع كالفن فى تقرير شاتولور ، وموريس . والواقع أن موتلى نقب طويلا بين المصادر فى صبر ولذا كان عمله دقيقا نسبيا . واذا كان هناك خلاف حول مدى تعصبه وتحيزه ، فانه لا يوجد خلاف حول القيمة الأدبية الكبرى لأعماله الرائعة فضلا عن قدرته على تصوير الشخصيات .

وبعد ، فانه اذا كانت المناهج الرومانسيه قد استحوذت بعض الشئ على عقول كبار العلماء أمثال فون رانكه ، فان تلك المفاهيم ساعدت على زيادة اهتمام الكاتب بالتاريخ أكثر مما أضرت باهتمامه بالبحث . هذا الى أن الرومانسية بما أكدته من عبقرية الأمة وما لها من اساس عاطفى كان لها أثر كبير وبعيد فى دفع عجلة التاريخ القومى الذى هيمن على الكتابة التاريخية فى القرن التاسع عشر .

لم تنشأ فلسفة التاريخ لأول مرة فى العصر الرومانسى ، وإنما وجدت تلك الفلسفة داخل إطار نظرية التقدم التى ظهرت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر والتى عالجناها فى الفصل السابق . والواقع أن المؤرخين المسيحيين من يوزيبوس حتى بوسويه كانت لهم فلسفة تاريخيه محددة قائمة على الملحمة المسيحية . وظهرت هذه الفلسفة فى أروع صورها فى أعمال كل من أوتو الفريزى ، بوسويه . ولكن الرومانسية هى التى أمدت فلسفة التاريخ بطاقه كبيرة ودفعتها دفعة قوية . ولم يلبث هذا التأثير أن تخطى دائرة الرومانسيين الصرفة الى دائرة العقلانين الذين جاءوا بعد ذلك . والواقع انه كانت لدى الرومانسية اسباب كافية ووجيه للإهتمام بالفلسفة المرتبطة بتاريخ الانسانيه ، اذ أدى اهتمام العقلانين والرومانسيين على السواء بالتاريخ إلى توفير كمية هائلة من المعلومات التاريخية العملية التى يعتمد عليها والتى يمكن منها التوصل إلى أحكام وعموميات كثيره . ثم كان أن أكد الرومانسيون بصفة خاصة فكرة الترابط والوحدة الأصلية بين أفرع الثقافة القومية ومبدأ التطور فى الثقافة والنظم . هذا كله بالأضافة إلى أن نظرة الرومانسية إلى باقى البشرية وهى نظرة يشوبها بعض الغموض والعاطفه خلقت جوا فكريا مثاليا للتفاعل فى ذلك الوقت .

وثمة جدل طويل دار حول تحديد من هو الأب لفلسفة التاريخ ، ورشح لنيل هذا الشرف العظيم عدد كبير من المؤرخين من هيرودوت حتى هيجل . ولكن يبدو من المناسب أن نرجح أكثر الأراء قبولا وهو اختيار فيكو بوصفه أول كاتب له أنتاج قيم فى الفلسفة التاريخية وقد سبق أن أشرنا الى رأيه الخاص بأن التقدم يتم على شكل دائرى حلزونى ، بمعنى أن التطور التاريخى فى رأيه عبارة عن عمليات خلق وتغيير فى فكر البشر بصفة عامة وتغيرات فى سمات الروح الانسانية من عصر لآخر . وحدد فيكو ككثير من فلاسفة التاريخ اللاحقين ثلاث مراحل رئيسية للتطورالتاريخى ، وهى بالنسبة له المراحل الآلهية والبطولية والانسانية . اما المرحلة الألهية فانها تميزت بسيطرة المشاعر والعواطف الجياشة فى عالم الروح ، كما أن من سماتها سيادة الثيوقراطيه فى عالم السياسة . اما المرحلة البطولية فهى مرحلة ظهور قوة الخيال الشعرى وسيطرتها على الفكر الجماعى ، وقد افسحت هذه المرحلة المجال للأرستقراطيه فى عالم السياسة .

وأخيرا تمثل المرحلة الثالثة المعرفة الايجابيه فى الفكر الجماعى وهى التى انجبت الحركة السياسية التى تجسدت فى الملكيات الدستورية والجمهوريات . وكان فيكو كما سبق أن أوضحنا يعتقد أن هذه الدورات الثلاث تعيد نفسها ولكن ليس على نفس المستوى ، اذ أن هناك تقدم حلزونى الشكل فى ثقافة الجنس البشرى . ومن الواضح أن أفكار فيكو جاءت متوافقة فى كثير من النواحى الرومانسيه ، وعلى الأخص فكرته عن التغيرات التى تطرأ على الروح الجماعية للجنس البشرى وفكرته عن يد الله فى صنع أحداث التاريخ . هذا الى أن فيكو كما سبق أن أشرنا مصدر وحى والهام مباشر لواحد من أبرز المؤرخين الرومانسيين هو ميشليه .

ما أسهم به الألمان فى مجال فلسفة التاريخ

اذا كانت هناك تأملات فلسفية عامة حول التطور التاريخى فى كتابات روسو ، تيرجو ، كوندرسيه وغيرهم ، إلا أن يوحنا جوتفريد فون هردر هو صاحب أول جهد هام فى وضع فلسفة للتاريخ ، وهو الأمر الذى تم فى كتابه المكون من أربعة أجزاء بعنوان (أفكار حول فلسفة تاريخ الجنس البشرى) . والواقع أن منهج هيرور كان حدا فاصلا بين مدرسة روسو العقلانيه من ناحية والمدرسة الرومانسية من ناحية أخرى ، حتى ان البعض يضعه فى قائمة العقلانيين فى حين يضعه البعض الآخر فى قائمة الرومانسيين . واعتقد هردر أن مسيرة التاريخ هى نتاج للعمل المتداخل والتزاوج الذى يتم بين الظروف الخارجيه المحيطة وبين ما يعرف بالجوهر أو الروح Geist وهى الحصيلة الديناميكية للدوافع الشخصية . وليس لهذه الكلمة الألمانية Geist مقابل فى الانجليزية دقيق . كذلك اعتقدهردر أن كل حضارة تنمو ثم تزدهر وبعد ذلك تخفت وتنحدر طبقا لقوانين النمو الطبيعية .

وقد أجمل روبرت فلنت آراء هردر الرئيسية فى فلسفة التاريخ على النحو التالى :

١ ـ إن آخر مراحل الطبيعة البشرية هى المرحلة التى تعرف بالمرحلة الإنسانية ولتحقيق الوصول إليها وضع الله مصائر الشعوب فى ايديهم هم ..

٢ ـ لابد على مر الزمن من خضوع القوى المدمرة فى الطبيعة للقوى التى تصون وتحفظ ، بل لابد فى النهاية من تسخير هذه القوى المدمرة نفسها لكى تبلغ البشرية مرحلة الكمال .

٣ ـ قدر للجنس البشرى أن يمر بدرجات مختلفة من الحضارة وبثورات عديدة ولكن رقيه الدائم ووفاته يكمنان أساسا فى الاعتماد على العقل والعدل .

٤ ـ لابد على مر الزمن من أن يزداد التعقل والعدل رسوخا بين الناس وذلك طبقا لطبيعة

العقل البشرى ذاته ، وهو أمر يساعد مرحلة الانسانية على أن تقوى وتوسخ جذورها .

٥ —هناك قوة خيرة عاقلة تحدد مصير الجنس البشرى ، ولذلك فانه ليس شيئا أجدر ولا سعادة أفضل من تمكين هذه القوى العاقله من ان تتصرف وتخطط لمصير البشرية .[1]

ومنذ أيام هردر حتى زمن هيجل ظلت الفلسفة التاريخية تتأثر بآراء ونظريات المفكرين الألمان من اتباع المذهب المثالى التجريدى German Transcendental Idealists . ولم يفعل أصحاب هذه النظريات والآراء الثقيلة النطق الا الشئ القليل أكثر مما عمله اتباع لوثر وبوسويه . وكل ما هنالك هو انهم ادخلوا تغييرات على مصطلحاتهم . فالوجود المطلق عندهم هو الله عند السابقين عليهم ، والكشف عن اسرار الكون تقابل ما عبر عنه اتباع لوثر وبوسويه بأنه القدرة الالهية وتصرف الله فى هذا الكون .

وبعد مرور سنوات قليلة من قيام هردر بنشر أول نبذه عن فلسفته التاريخيه ظهر رأى آخر عن نفس الموضوع ينسب الى أعظم الميتافزيقين الألمان عما نويل كانط (١٧٢٤ — ١٨٠٤ م) ذكره فى كتابه (فكرة عن التاريخ العالمى) . وهو الرأى الذى أوضحه كانط فى كتاب لاحق بعنوان « السلام الدائم » . أما خلاصة هذا الرأى فهى ان ديناميكية التاريخ ترجع الى الصراع القائم بين كل من شخصية البشر والمجتمع أو بين الأنانية والإيثار أو بين الفردية والجماعية . فالاولى ينجم عنها التقدم والثانية هى التى تحدد نظام المجتمع البشرى . وتتولد الحضارة من المزج بين الأثنين . والدولة المثالية أو التى بلغت مرحلة الكمال هى تلك التى تجمع بين الحد الأقصى من الفرديه الخلاقه والحد الأدنى من سيطرة أو رقابة الدولة فى سبيل ضبط النظام . وواجب رجالات الدولة وسلطاتها هو تيسير السبيل لهذا الجمع والترابط . ويتطلب النجاح فى ذلك إنتشار السلام حتى يمكن تسخير كل خبرة جميع المواطنين وذكائهم لحل هذه المشكلة . ولهذا ذهب كانط الى أن نبذ الحروب وإلغائها أمر ضرورى لتحقيق حالة مثالية من الحضارة .

ومن ناحية أخرى ظهر مفهوم غاية فى التجريد لفلسفة التاريخ فى كتاب بعنوان (خصائص العصر الحالى للفيلسوف الألمانى جوهان جوتليب فيخته (١٧٦٢ — ١٨١٤م) . وقد نجح هذا الفيلسوف الى حد ما فى فصل فلسفة التاريخ عن التاريخ نفسه . اذ كان يعتقد أن ترتيب العصور ترتيبا تاريخيا كما أرادها الله تكمن فى خمس فترات :

١ — عصر البراءة وكان العقل يظهر فيه بشكل غير معقول فى صورة غريزة عمياء

(1) Robert Flint, The Philosopny of History m France and Germany (Scibner 1874) p. 386.

ويتضح وجهة نظر هردر وعبقريته القلة فى أول كتابه الذى صدر سنة ١٧٧٤ بعنوان
'Auch eine phiosaphie Geschichte

٢ ـ عصر السلطة وهو الذى تطلب ان يكون العقل عاملاً ثانويا بالنسبة للطاعة السلبية .

٣ ـ عصر اللامبالاة بالحقيقة وهو الذى ألغى فيه تحكيم العقل .

٤ ـ عصر العلم الذى تجلت فيه الحقيقة وعلت فيه كل شئ وبدأ الانسان يشعر فى هذا العصر بقيمة العقل .

٥ ـ عصر الفن وفيه اصبحت الانسانية حرة وبدأت تضفى على نفسها من الابداع والرونق ما يناسب عصر العقل المطلق .

وقال فيخته فى كتابه (رسائل الى الأمة الالمانية) (١٨٠٧) ان الامل فى المستقبل معقود على الشعوب الألمانية ، فهذه الشعوب مكونة من عنصر نقى غير مختلط له معين لا ينضب من الحياة الروحية ومن القوة ، اما الشعوب اللاتينيه فهى نتاج إختلاط اجناس بعضها ببعض وبالتالى فقد ازدهرت حضاراتها قبل الأوان . وكانت على عهد فيخته فى طريق انحدارها الفعلى . وليس عجيبا ان تكون آراء فيشيت قد ساعدت على سرعة نمو القومية فى المانيا[١] .

أما عن المسفة فردريك ويلهلم جوزيف فون شيلنج (١٧٧٥ — ١٩٥٤) فقد جمعت ما بين مذهب الباطنية الرشيدة وبين الإيمان بالتقدم عن طريق الرعاية السماوية . كان فون شيلنج متأثرا الى حد بعيد بآراء فيخته . ففى كتابه (النظام المثالى التجريدى) إسترسل فى الجهد الذى بذله فيخته فى سبيل الجمع بين خبرة البشرية وذكائها وبين الطبيعة ومؤثراتها وبيان تعاونهما فى سبيل الكشف عن الوجود المطلق . «فالطبيعة روح منظورة والروح طبيعة غير منظورة . وكلاهما يتقدم بصفة مستمرة فى تتابع منتظم وعلى مراحل وصور متدرجة» . والتاريخ ليس إلا عملية رؤيا ذاتيه للوجود المطلق . وفيه يتبين شيلنج ثلاث مراحل :

١ ـ المرحلة التى تحكمت فيها عوامل القدر أو المصير وهى فترة الإمبراطوريات القديمة .

٢ ـ ثم هناك المرحلة التى أفسح فيها القدر المجال للطبيعة مما أدى الى انتظام أمور البشر ، وبدأت هذه المرحلة بتوسع روما وفتوحاتها .

٣ ـ مرحلة المستقبل الذى سوف تثبت فيها تولى العناية الإلهية لأمور البشر .

أما يوحنا جوريس Johann Goerres (١٧٧٦ — ١٨٤٨ م) فتعتبر آراؤه سبقا غير دقيق للنظرية التى وصفها ارنست هيكل Ernest Hqeckel ،

---

(1) C.F.H.C Englebrecht: Johann Gott lied fichete (Colmbia Press 1933)

ج. ستانلى هول والتى تقول ان الجنس البشرى يمر فى نفس مراحل التطور التى يمر بها الفرد . ومن ثم فقد وجد جويرس أربع مراحل فى التاريخ تمثل التقدم نحو النضوج وهى :

١ ــ المرحلة التى كان البشر يتجمعون فيها تجمعا طبيعيا طبقا لما تفرضه العوامل الجغرافيه عليهم.

٢ ــ مرحلة الأجيال ذات الخصائص المميزة وفيها أخذ الناس ينفصلون الى اجناس وقبائل وأمم.

٣ ــ المرحلة الأخلاقية السياسية التى بدأت بقيام دول متحضرة يحكمها القانون .

٤ ــ المرحلة الدينيه وهى التى صار الإنسان فيها قادرا على إدراك الوحى الالهى ومشيئة الله .

وثمة تفسير فلسفى هام آخر للتاريخ جاء فى كتاب بعنوان (فلسفة التاريخ) ألفه كارل ويلهلم فردريك فون شليجل (١٧٧٢ ــ ١٨٢٩م) وهو الذى ذهب الى ان المشكلة الرئيسية فى الفلسفة هى التوصل الى كيفية إعادة الوحدة والانسجام لحياة الانسان الباطنيه ، وكيف يستطيع الانسان فى شخصيته البشرية ان يتصور الرب فى صورته المفقودة . وأوضح شليجل ان مهمة التاريخ الأساسية هى تتبع ما بذله الجنس البشرى من محاولات لتصحيح تصوره للإله . كذلك أوضح نفس الفيلسوف ان الغرض الرئيسى من فلسفته التاريخيه هو أظهار جهود الانسانية فى إحياء الصورة المفقودة للإله ، وذلك عن طريق دراسة ما بذلته العناية الالهية من جهد فى سبيل خلاص البشرية وظهرها على مر العصور منذ الوحى الالهى الأول حتى الخلاص الأوسط (مجيئ المسيح) ومنه الى الكمال النهائى . وازاء ذلك تتبع شليجل التاريخ من العصر الصينى المبكر حتى ايامه بهدف تتبع حب البشر لله ورجوعه إليه . وقد اعتنق الكاثوليكية وهو بصدد البحث عن تأكيد لآرائه من الوجهة العاطفية ، وعند علاجه للعصور الوسطى مجدها الى مدى بعيد . وكما هو متوقع من كاتب مثله كان نقده لاذعا للبروتستانتية واعتبرها من عمل الانسان فى حين كانت الكاثوليكية فى نظره من عمل الله .

وأكثر الفلسفات الألمانية للتاريخ شهرة فى تلك الفترة كانت تلك التى وصفها أحد رجال الجدل الدينى وأشدهم أثرا وهو ويلهلم فردريك هيجل (١٧٧٠ ــ ١٨٣١م) الذى جاء كتابه (فلسفة التاريخ) عملا ينم عن ذاتيته الى حد كبير . ذلك أن هذا الكتاب عبارة عن سجل لعملية الكشف عن الشعور الذاتى بالحرية فى الروح البشرية . ولعل أحسن ملخص وضع له هو ذلك الذى كتبه روبرت فلنت منذ أكثر من نصف قرن :

« ان مدار الشمس رمز لمدار الروح واذا كان ضوء الشمس كما هى معروفة لنا فى الطبيعة يتحرك من الشرق الى الغرب ، فان ضوء شمس النفس البشرية بذاتيتها يتحرك فى

نفس الاتجاه . فآسيا هي بداية تحرك هذه المعرفة أو البداية المطلقة للتاريخ . وأوربا هي الغرب الفاصل أو نهاية التاريخ . والتاريخ مر بثلاث مراحل أو عصور عظيمة هي : عصر المشرق ، العصر اليوناني ، الروماني ، والعصر الحديث أو الجرماني . وكانت الروح في العصر الاول تغط في نوم عميق نتيجة للجهل وعدم الدراية بالحرية التي هي جوهر هذه الروح ، ومن ثم فقد خضعت الروح لاستبداد ديني ودنيوي ، حيث ان فرداً واحداً هو الذي نعم بالحرية في حين ان حقوق الأفراد لم تكن معروفة . ثم تنبهت الروح في العصر الثاني لبعض هذه الحقوق ولكن ليس لها جميعا ، فتحرر بعض الأفراد ولكن ليس كلهم . وأخيرا جاء العصر الثالث لتعرف الروح طبيعتها تماما وتقدر ضرورة هذه الحرية وتعرف ان للجميع حقوق أصيلة في حرية الفكر »[1].

وكانت هناك دوافع قومية قوية وراء فلسفة هيجل مثلما كان الحال مع فلسفة فيخته للتاريخ . ذلك أن فلسفة هيجل نادت بأن الألمان في عصر ما بعد حركة الإصلاح الديني قد عهد الله اليهم بمهمة إيصال نعمة الحرية الى الجنس البشري . وتكشف هذه الحقيقة عن الشكل العام لنظرة هيجل للتاريخ ، إذ يرى أن التقدم نتيجة الاحتكاك والتركيب . ويرى هيجل أن الحركة أو الفكرة أو النظرية تخرج الى الوجود ثم يظهر بعد ذلك عكسها ، ونتيجة للاحتكاك بين الفكرة ونقيضها يتولد الشكل النهائي الذى هو بمثابة خطوة الى الأمام على طريق الحقيقة . ثم يتخذ هذا الشكل النهائي صورة نظرية أخرى ويظهر لها هي الأخرى نقيض ، وهكذا تستمر العملية . والواقع أن نظرية هيجل هذه عن التقدم صار لها أثر كبير على الفكر التاريخي اللاحق ، خاصة من خلال تبني كارل ماركس لها وتسخيرها لخدمة فلسفة التاريخ المادية[2] . وكان لهيجل أيضا أثر كبير في ظهور أعمال أخرى هامة في مجال البحث التاريخي وخاصة تلك الدراسات الكبرى الخاصة بالفلسفة اليونانيه التي قام بها ادوارد زيلر ، والأبحاث الخاصة بالاصول المسيحية التي قام بها فرديناند كريستيان . واذا كان تأثير هيجل على التاريخ قد ظهر في اتجاهين متضادين هما الماركسية والقومية ، فإن تأثيره في المجال الثاني أقوى اليوم وأكثر ظهورا ، حتى أن الاحتفال بالذكرى المئوية لوفاته سنة ١٩٣١ كان احتفالا قوميا بحتا .

وكان لظهور علم الأحياء وفكرة الكيان العضوي للمجتمع — أي التشابه بين الكيان العضوي للفرد والمجتمع — أثر كبير على فلسفة التاريخ . وقد بين ذلك شارل كريستيان فردريك كروز (١٧٨١ — ١٨٣٢ م) في كتابه (الفلسفة العامة للتاريخ) . كان كروز تلميذا لكل من فيشت شيلنج ، وإعتقد أن البشرية تمر بمراحل من التطور من المفيد جدا مقارنتها بحياة

(1) Flint, Op, cit 515. C. F. G. S. Morris, Hegel's philsopho of the state and of History scott - Foresmand (1892).

(2) CF. Sidney Hook, From Hegel to Marx (Reynal and 11 it ch 1. cock) 1936.

الإنسان . فنجد فى البداية المجتمع البدائى الذى يقابل عصر البراءة أو الطفولة عند الإنسان يليه عصر الشباب والنمو ، ويمكن تقسيمه الى ثلاثة عصور فرعيه : عصر الاشراك بالله ويمتد من الشرق القديم الى عصور اليونان والرومان ، ثم عصر التوحيد والسيادة الكنسيه وهى على وجه التحديد العصور الوسطى ، وأخيرا عصر الحرية وقد زالت فيه كل سلطة خارجة على العقل . اما العصر الثالث من عصور البشرية فهو ذلك العصر الذى يسيطر فيه الانسان على كل من الطبيعة والمجتمع . وبذلك يتحقق وحدة كل الشعوب فى دولة عالمية عظيمة يسودها الرخاء . ونستطيع أن نلمس فى هذا الرأى عن تطور البشرية سابقة خاصة على آراء هـ.ج .ولز .

أما الرد على فلسفة التاريخ الرومانسيه والمثالية فى المانيا سواء بالتأييد أو المعارضة ، فقد ظهر فى فلسفة فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) وهى فلسفة تشاؤميه مضادة للمسيحيه ولكن نيتشه إشترك مع الرومانسين فى سمة واحدة هى عبادة الانسان الاعلى أو الأسمى .

ـ الكتاب الفرنسيون والبلجيكيون والايطاليون

انعكس المفهوم الرومانسي للتاريخ في فرنسا في مؤلفات عدد من الكتاب منهم فكتور كوزين (١٧٩٢ – ١٨٦٧ م) الذي تتلمذ على هيجل ، وعمل على ادخال آراء هذا الفيلسوف الألماني إلى فرنسا وقد أوضح كوزين في محاضراته التي ألقاها سنة ١٨٢٨ عن فلسفة التاريخ إن هناك ثلاث مراحل رئيسية في التطور البشري :

١ ـ مرحلة اللانهائية Infinite وكان الإنسان فيها يثق في الآلهة ويعتقد فيها اعتقاداً كلياً

٢ ـ مرحلة المحدود (التناهي) Finite : وفيها نشأ التأمل الذي خلق إحساسا بالحرية الشخصية والقوة ، الأمر الذي جلب الفوضى للجميع .

٣ ـ مرحلة الدمج والربط والإتحاد : وهي التي نجمت عن إندماج المرحلتين السابقتين إندماجا مثاليا . فتم الاتحاد بين الإعتقاد في وجود توجيه الهي وبين شك الإنسان بحريته .

ونهج كوزين نهجا دينيا وكان من أنصار فكرة أن التاريخ من تدبير الله وتوجيهه فقال ان تاريخ البشر هو أساسا كشف عن قدرة الله ونظام حكمه لهذا العالم وهو الأمر الذي يظهر للعباد تدريجياً . وكان كوزين كذلك من أنصار نظرية اهتمام التاريخ بالانسان الأسمى وهو ما نادى به معاصره الانجليزي توماس كارليل . كما كان يرى أن عظماء الرجال يعكسون روح عصرهم وفيهم يكمن تاريخ الفرد والتاريخ العالمي وبناء على ذلك فان تناول حياتهم يعني تقدم الانسان . فالتاريخ العالمي هو عدة تراجم لشخصيات عظيمة يتم الربط بينها جميعاً .

أما ثيودور جوفروي (١٧٩٦ – ١٨٤٢) فقد نهج كتابه «فلسفة التاريخ» على فلسفة التاريخ فلسفة فكرية . كان جوفروي يعتقد – وهو سابق لعصر دراون – ان الفرق الأساسي بين الإنسان والحيوان هو ان الحيوانات لا تتغير ، بينما يتقدم الانسان ويتطور . وكان يرى ان التغيير في أفكار البشر يحدد كل مراحل التطور البشري الأخرى . ولهذا فان فلسفة التاريخ في جوهرها ما هي إلا ملاحظات وتحليل التعديل الذي يطرأ على الأفكار وتأثيره على حقائق التاريخ الخارجية ، أي على السلوك والعادات والنظم والدول . ويذهب جوفروي إلى أنه كانت هناك ثلاث أنظمة رئيسية للحضارة في تاريخ البشرية وهي الأنظمة البرهمية

الاسلامية والمسيحيه . وأكد أن النظام المسيحى سيتفوق على باقى النظم . وهناك فى العالم المسيحى ثلاث أمم ينسب لكل منها رسالة معينة تؤديها من أجل تقدم الحضارة : الأمة الألمانية وهى أمة العلم والثقافة والمعرفه وتمد البشرية بالحقائق . والأمة الفرنسيه التى تركزت مواهبها فى الفلسفة - أى تفسير الحقائق التى يجئ بها الألمان . أما الأمة الإنجليزية فهى الأمة العملية التى تستغل الحقائق والنظريات الفلسفية فى الصناعة والنظم الدستورية والروح العامة . وواجب هذه الأمم الثلاث هو ان تدرك صفاتها ومواهبها الخاصة وأن تتعاون جميعا من أجل خير البشرية .

ثم عادت أفكار هردر وهيجل إلى الظهور مع شئ من التعديل والمرونة المبتكرين ، وذلك فى مقدمة لترجمة هردر بعنوان (مقدمة لفلسفة التاريخ) وهى الترجمة التى قام بها ادجار كونيت (١٨٠٣ - ١٨٧٥) ذلك أن هذا المترجم شارك جوفروى رأيه بأن الأفكار هى العامل الرئيسى المسبب للتاريخ البشرى والتطور الإجتماعى . هذا إلى أنه جمع فى كتابته بين تعلقه الشديد بالحرية وإخلاصه الجم للنظام الجمهورى . وكان يعتقد أن مهمة النظام الجمهورى هى حماية الحرية . ومن ثم فإن كتابه (المسيحية والثورة الفرنسية) جاء شديد النقد لعصر الارهاب الذى مرت به فرنسا أثناء الثورة وكان كونيت Quinet ينظر إلى التاريخ على أنه أداة لتحقيق التقدم فى مجال الحرية والارادة الحرة . فالتاريخ من البداية للنهاية عرض وتطور للحرية ، وبيان مستمر لاحتجاج عقل الجنس البشرى ضد العالم الذى يطغى عليه ويقيده ، وتنال الروح حريتها عبره ، وتوسع دائرة نطاق هذه الحرية . على أن كونيت كان متحمسا للبروتستانتيه قدر حماس شليجل للكاثوليكيه ، وكان ينظر إلى البروتستانتيه بوصفها سبيل التحرر الرئيسيه فى الأزمنة الحديثة . وكان يعتقد أن الثورة الفرنسية فشلت لأنها لم تحتضن فى المقام الأول البروتستانتيه وإختارت أن يكون العقل دينها وعقيدتها .

أما بقية الكتابات الهامه التى أسهم بها الفرنسيون فى فلسفة التاريخ فهى من تراث عصر العقلانيين من ذلك ما جاء به تيرجو فى كتابه الذى صدر فى السوربون (حديث حول التقدم التاريخى للعقل البشرى) إذ سبق فيه تقسيم أوجست كونت الشهير للتقدم الفكرى للجنس البشرى إلى ثلاث مراحل : اللاهوتيه ، الميتافزيقيه ، العلمية . يقول تيرجو :

«قبل التعرف على علاقة الحقائق الطبيعية بعضها ببعض ، كان من الطبيعى جدا أن نفترض من هذه الحقائق صنعتها وأنتجتها كائنات ذكية غير منظورة . فكل شئ حدث دون تدخل الإنسان كان له ربه وصانعه الذى عبده خوفا منه أو رجاء فيه ، وهذه العبادة أشبه ما تكون بالاحترام الذى تكنه للرجال الأقوياء الأشداء البأس . وما الآلهة سوى رجال أكثر أو أقل قوة وكمالا طبقا لما أضفاه عليهم العصر الذى وجدوا فيه ودرجة الاستنارة التى توافرت فى ذلك العصر وهى التى بها تبلغ الإنسانية درجة الكمال . ولكن عندما تبين للفلاسفة استحالة

قبول العقل لهذه الخرافات بدأو – دون التوصل إلى معرفة حقيقيه بتاريخ الطبيعه – يعللون الظواهر تعليلاً خياليا وذلك بتعبيرات مجردة ، بالجوهر وبالقدرة العقلية (الملكة العقلية) . وإزاء عجزهم عن هذا السبيل فى تفسيرها أخذوا يناقشونها كما لو كانت وجوداً حقيقيا . وأخيراً فقط ، أمكن من خلال ملاحظة تأثير الأجسام المتجانسة بعضها مع بعض وضع فروض أخرى استطاعت الرياضة تطويرها والخبرة اثباتها وتأكيدها . »

وقد أخذ بنفس هذه الفكرة الفيلسوف الفرنسى المبرز كونت كلود هنرى سانت سيمون (١٧٦٠ – ١٨٢٥) الذى تميزت أفكاره بالابتكار والخصوبة ، ولا يوجد فى عصره من يسبقه فى هذا الشأن سوى بنتام Bentham ، وان كان ذا قدرة ضئيلة على ابراز الآراء والعقائد وشرحها . وذهب سانت سيمون إلى هناك فترتين رئيسيتين فى التطور الفكرى للجنس البشرى وهى فترة الظن والتخمين اللاهوتى (Theological Conjecture) غير المبنى على أدلة كافيه وفترة الإيجابيه التى بدأها بيكون ، وديكارت ثم أخذ سانت سيمون بالنظرية الآلية لتطور التاريخ مؤكدا التشابه بين تطور الفرد وبين تطور المجتمع . ففى عصور التاريخ المتظمة يتحد المجتمع ويترابط سلميا بفعل مجموعة من الآراء والنظم . ثم يأتى بعد ذلك فترة ناقدة تمهد للتغيير والتقدم وتتميز بالنقد الإجتماعى والمدارس الفكرية المعارضة وعدم الاستقرار العام بالنسبة للأنظمة القائمة فى المجتمع ..

وفى فلسفة التاريخ التى وصفها فيليب بوشيز (١٧٩٦ – ١٨٦٦ م) وهو أحد تلاميذ سانت سيمون ، نجد اتجاها لاهوتيا واضحا خاصة فى كتابه (مقدمة لعلم التاريخ) ذلك ان بوشير أكد تأثير العامل الجنسى على تطور الأمم والأفراد . وسبق هربرت سبنسر عندما بين ان التقدم له صفاته العالية والبشرية . ولكنه لم يوافق سبنسر ايمانه بمذهب الطبيعة aturalism ؛ بل كان شأنه شأن بوسويه فى اعتقاده الجازم فى ان التوجيه الإلهى وقدرة الله هى الموجهة لتطور البشرية والحضارة . وكان بوشيز يعتقد كذلك ان هناك اربع مراحل رئيسية فى التاريخ تتميز كل منها بظاهرة أساسية :

١ ـ مرحلة آدم وهى التى إلى قيام النظم الإنسانية .
٢ ـ مرحلة نوح وهى التى شهدت نشأة القبائل والأجناس .
٣ ـ المرحلة التى تنسب لنبى غير معلوم من أبناء سام ، وهى تتضمن نشأة الاحساس بالرغبة فى الاتصال والارتباط بين بنى البشر والمساواة فيما بينهم والتخصص فى العمل .
٤ ـ مرحلة الكشف عن الحقيقة والحياة عن طريق يسوع المسيح .

أما بطرس ليرو pierre leraux (١٧٩٨ – ١٨٧١) وهو من تلاميذ سانت سيمون ايضا فقد جاء بعقيدة التضامن الإنسانى وبأن التقدم ذو طبيعة عالمية مستمرة وقد شرح ذلك فى كتابه الانسانية ؛ Humanity

وتحوى كتابات أوغسط كومت Auguste Comte (١٧٩٨ – ١٨٥٧) جهدا يتم عن دقة فى البحث – إذ جمع بين آراء سانت سيمون وبين ما ابتكره هو من أفكاره . وأهم ما ألفه كونت هو كتاب ، مبادئ فلسفة إيجابية ، ومبادئ النظام الإيجابى . أما الكتاب الأول فقد استعرض فيه كونت آراءه عن التطور الفكرى فى حين أنه تناول فى كتابه الثانى وهو الأطول – آراءه عن التطور الفكرى والإجتماعى جميعا . وكان يعتقد أن التطور الفكرى للجنس البشرى من خلال ثلاث مراحل : اللاهوتية ، والميتافزيقيه ، والعلمية أو الإيجابية . وقد تميزت المرحلة الأولى بحكم قوى ما وراء الطبيعة . وإمتازت الثانية بالاعتماد على المقولات والإفتراضات الميتافزيقيه فى حين تميزت الفترة الثالثة بازدياد تأثير الفلسفة الناقدة والمعرفة العلمية

وقسم كونت علاجه لعلم الإجتماع إلى قسمين : الإجتماعيات الساكنة والاجتماعيات المتحركة وتناول فى علم الإجتماع المتحرك مناقشة مشكلة التطور الإجتماعى وبين ثلاث مراحل للتطور الاجتماعى والفكرى جميعا . المرحلة الأولى وهى أساسا مرحلة المجتمع الشرق القديم

وكانت ذات صبغة دينية فى نشاطها العقلى والفكرى كما كانت ذات صبغة عسكرية فى نشاطها السياسى والاجتماعى . ثم تلتها المرحلة الميتافزيقيه والقانونية وهى مرحلة الإغريق والرومان فى العصور الوسطى . وقد استمرت هذه المرحلة النظرة العسكرية ولكن الصناعة وحصول المواطنين على حريتهم المدينية مضيا قدما بتطور الفكر الفلسفى وساد القانون . وأخيرا وبمجىء الثورة الصناعية وتطور العلم الحديث جاءت المرحلة العلمية الصناعية التى بددت الأوهام والخرافات وكرست الجهود للتطور الصناعى . وقد اقتبس العالم الاجتماعى الأمريكى البارز فرانكلين هنرى جيدنجز (١٨١٠ – ١٨٨٧) نفس فلسفة كومت مع ادخال تعديلات طفيفه عليها ، كما كان لهذه الفسفة تأثير على المؤرخ الألمانى المشهور كارل لامبرخت .

أما بلجيكا فقد أنجبت واحدا من أبرز فلاسفة التاريخ وأكثرهم أنتاجا هو العلامة فرانسوا لورنت (١٨١٠ – ١٨٨٧) الذى قضى فترة طويلة استاذا فى جامعة غنت . وعبر عن فلسفته التاريخيه فى الجزء الأخير من كتاب صدر فى ١٨ جزءا بعنوان « دراسات فى تاريخ البشرية » . والواقع إن كتابه جاء تاريخا عالميا فيه من الجهد الشئ الكثير . كما كان لدى المؤلف من المعرفة التاريخية أكثر مما توافر لأحد غيره ممن كتبوا عن فلسفة التاريخ حتى عصره . وعلى ذلك فانه فشل فى استغلال هذه المعرفة العريقة التى توافرت لديه عند تناوله لفلسفة التاريخ ، مثل الفلسفة التى بلغت فيها نظرية القدرة الإلهية فى تسير دفة التاريخ ذروتها . وقد انتقد لونت فلسفات التاريخ السابقة لما فيها من اعتراف بمذهب القضاء والقدر ، فكان فيكو فى نظره صاحب النظريات القديمة فى القدرية وفولتير وفردريك الأعظم دعاة قدرية الصدفة ، أما مونتسكيه فصاحب النظريه القائله بقدرية المناخ ، فى حين ان هردر كان من المؤمنين بقدرية

الطبيعة . وريتان بقدرية الجنس . أما هيجل فكان يؤمن بالقدرية الأحدية بمعنى ان الله والكون شئ واحد . أما كونت فكان من دعاة القدرية الايجابية . وبالكل من القائلين بقدرية القوانين العامة[1] . أما فلسفة التاريخ عند لورنت فكانت نمطا متطرفا من الايمان بالله بناها على أساس فكرة أن التاريخ يبرز عظمة الله وأنه «الله» هو الذى يدفع الانسان قدما نحو الحضارة الحديثة ويعطينا لورنت بذلك مثلا رائعا للقدرية اللاهوتيه ولعل أهم مظهر لفلسفة التاريخ وأكثرها متعة عنده هو تأكيده لتطور مبدأ القومية وما أسهمت به هذه القومية فى مجال التطور الفكرى والأخلاق للجنس البشرى . وقد دافع لورنت دفاعا نبيلا عن فكرة وحدة أمم العالم المعاصر وتعاونها .

أما الايطاليين فكان لهم أيضا نصيب كبير فى فلسفة التاريخ وعلى رأس فلاسفة التاريخ الإيطاليين يلقى قيصر بالبو (١٧٨٩ - ١٨٥٣) الذى كان يرى أنه من حق البابوية تزعم حركة الوحدة الإيطالية ، وتضمن كتابة (تأملات تاريخيه) آراءه فى فلسفة التاريخ . وهى صدى لما سبق أن ردده بوسويه فقال بنظرية الرعاية الإلهية فى توجيه أحداث التاريخ .

وهناك أيضا جوسيب فيرارى (١٨١٢ - ١٨٧٦) الذى كان شديد التأثر بفيكو . وقد وضع فيراوى فلسفة للثورة الغرض منها التجسيم لفكرة أنه ينبغى النظر إلى الثورات على أنها جهود بناءة وليست مدمرة فى مجال التطور البشرى . أما أفكاره التى ضمها كتابه (نظرية العصور السياسية) الذى ظهر سنة ١٨٧٤ فكانت أكثر أهمية ، إذ قال فيها إن التقدم البشرى جاء نتيجة جهود عوامل رئيسية معينة وقد أمكن لكل عامل من هذه العوامل أن يسود فترة ١٢٥ عاما . ولقد مرت عملية سيادة كل عامل من هذه العوامل بمراحل أربعة : الإعداد والتحضير ، الازدهار ، الارتداد،التحلل والإضمحلال . وسنشير فيما بعد إلى آراء بندتو كروس .

فلسفة التاريخ فى إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية

لم يكن هناك فلاسفة تاريخ بالمعنى المعروف فى إنجلترا . حقيقة إنه ظهر فى إنجلترا اتباع للمدرسة الفلسفية المثالية التجريدية كما كان فيها اتباع لهيجل وكونت ، ولكن عملهم لم يتعد دائرة إدخال تلك الأفكار الفلسفية إلى انجلترا وان كان بعضهم قد جاء ببعض الشروح والتأويلات التى أتقنوا بحثها ودراستها ، على نحو ما فعله فردريك هاريسون ورجال فلسفة المجتمع اليقينى أو الوضعى من حيث إدخال آراء الفيلسوف كونت إلى انجلترا ونشرها فيها [2] .

ولكن ليس معنى هذا ان دور الفلاسفة الانجليز اقتصر عند هذا الحد فهناك كتاب

(1) Flint Op. Cit. p. 324.

(2) J. E. Mc Gree, Crusade for Humanity: The History of organized posirivism in England (Watts 1931).

انجليز أتوا خلال القرن التاسع عشر ببعض آراء متعلقة بفلسفة التاريخ ، كانت أعظم وأقيم من كثير مما إدعاه رجال الدين أو العقلانين الذين إستعرضنا جهودهم فيما سبق باستثناء عمل أوغسط كونت الذى لا يدانيه أحد فى قوة آرائه . هذا إلى ان معظم أبحاث الإنجليز فى هذا الصدد جاءت متأثرة بالمذهب المادى الجديد والمذهب الطبيعى فضلا عن فلسفة النشوء والتطور .

ونجد فى كتابات هربرت سبنسر (١٨٢٠ – ١٩٠٣) ربطا بين تاريخ الإنسانية وتطور الثقافة البشرية خاصة فى الجزء الثانى من كتابه «المبادئ الأولى» وفى كتابه «مبادئ علم الاجتماع» ذلك أنه كان يرى أن التطور الاجتماعي والثقافى يتفق مع قوانين التطور الكونى – فهناك تكامل تدريجي للمادة يعقبه تمييز تام بين الأجزاء . كذلك حرص سبنسر بصفة خاصة على تخليص التاريخ البشري من نظرية ان احداثه من صنع الله وتدبيره . ثم انه يرى ان التطور الاجتماعى لا يتم بتوجيه إلهى ، وان الإنسان نفسه لا يستطيع تخطيطه أو التحكم فيه ، فتطور المجتمع عمليه طبيعية تماما كتطور الكون فى مجموعه . وأوضح سبنسر ان هناك ثلاث مراحل رئيسيه للتطور الاجتماعى :

١ – مرحلة المجتمع القبلى الذى نشأ من الجماعات الصغيرة المنتشرة .
٢ – عصر القوة العسكريه الذى اندمجت فيه الجماعات القبلية الصغيرة عن طريق الحرب لتكن دولا .
٣ – العصر الصناعى وفيه كرس الجهد الاجتماعى قبل كل شئ لتحقيق الأهداف الصناعية والإنتاجية .

أما هنرى توماس باكل (١٨٢١ – ١٨٦٢) فكان أحد الإنجليز من اتباع المدرسة العقلانية فضلا عن أنه تأثر بمذهب كونت فى الفلسفة اليقينية (الوضعيه) ومذهب الطبيعة الاحيائية الجديد . لقد صاغ باكل فى كتابه «تاريخ الحضارة فى إنجلترا» بعض القوانين الطبيعية الخاصة بالتطور التاريخى وطبقها تفصيليا على تاريخ إنجلترا ولكنه توفى قبل ان يكمل هذا العمل . وكان باكل شأنه شأن هولباخ Holbach يعتقد أن الإنسان عموما ليس إلا جزءا من الطبيعه ، ومن ثم فان قوانين التطور التاريخى يمكن اخضاعها لقوانين الطبيعة . وهذه القوانين يتم تحديدها على النحو التالى :

١ ـ القوانين الطبيعية التى تتعلق بتأثير التربة والمناخ والثروة وسائر جوانب الطبيعة على الإنسان . وخلاصة هذه القوانين أن التأثيرات الجغرافية تتناسب تناسبا عكسيا مع نمو الذكاء . فالذكاء كان أقوى ما يمكن فى المجتمع البدائى وأضعف ما يكون فى الحضارات المتقدمة .
٢ ـ القوانين الأخلاقية وهى ثابتة لا تتغير . وقد فشل باكل فى تقدير إتجاه التطور فى هذا

المجال .

٣ ـ القوانين الفكرية وهى التى تؤكد أن التطبيق المطلق للمنهج العلمى كان نافعا للإنسان دائما كما أنه ساعد مساعدة فعالة فى التعجيل بتطور الحضارة .

وقد صور باكل هذه القوانين بأسلوب مبسط مستشهدا بتاريخ كل من فرنسا وأسبانيا واسكتلندا ولكن المنيه عاجلته وحالت دون اتمام خطته الكبرى ألا وهى تطبيق هذه القوانين بالتفصيل على تاريخ الحضارة الإنجليزية .

ولعل أعظم محاولة قام بها كاتب إنجليزى لتطبيق مبادئ دارون على التطور البشرى كانت تلك التى قام بها الاقتصادى والترباجهوت Walter Bagehot (١٨٢١ - ١٨٧٧) فى كتابه « العلوم الطبيعية والسياسية » وقد حاول فيه الاستفادة من مذهب دارون فى التوصل إلى تفسير نفسى للتطور البشرى فقال ان هناك ثلاثة أدوار بارزة فى التقدم البشرى :

١ ـ دور تكون العادات أو دور المجتمع البدائى .

٢ ـ دور التصارع بين العادات أو عصر تكون الأمم وهى الفترة التى نجمت عن الحروب التى كان من شأنها اندماج الجماعات القبلية وتكوين دول فيها .

٣ ـ دور البحث والنقاش حيث أمكن بهذا البحث التخلص من المعتقدات والشعائر الجامدة واخضاع كل ذلك لمنطق وإحكام المناقشة الحرة .

وأوضح باجهوت ان العصر الذى تكونت فيه الأمم قد شهد قيام إمبراطوريات الشرق القديمة ، أما عصر المناقشة فقد بدأ فى اليونان وروما ولكن حدث نكوص فى العصور الوسطى وإرتداد إلى شيئ أشبه ما يكون بالرجوع إلى عصر تكون الأمم فى الزمن القديم . كذلك أوضح باجهوت أن نظام الحكم الديمقراطى – وهو الذى يرجع فى اصوله إلى نظام الجمعيات القبلية لدى الألمان القدماء – قد احيا عصر المناقشة .

أما سير ليزلى ستيفن (١٨٣٢ — ١٩٠٤) كاتب المقالات الشهيرة والمحرر والناشر البارز فقد حاز شهرة عريضة بما بذله من جهد لتخليص التاريخ من فكرة إرجاع أحداثه إلى توجيه إلهى ، فضلا عن إدخال وجهة نظر لا أدرية على الفلسفة التاريخية . وأبرز أعماله فى هذا الصدد كتابه (علم الاخلاق) الذى حاول فيه أن يبتكر نظرية طبيعية وتفسير طبيعى للأخلاقيات على أساس آراء دارون كما حاول أن يدافع عن فكرة أن الغرض الرئيسى من قوانين وشرائع السلوك السليمة هو المحافظة على حياة الجماعة ودفع عجلة التطور الاجتماعى

أما روبرت فلنت (١٨٣٨ – ١٩١٠) فيتمتع بأهمية خاصة لما له من دراسات تاريخية خاصة بتطور التاريخ وفلسفته فى العصور الحديثة ، وخاصة انه كان استاذا للاهوت فى جامعة أدنبره . وأهم مؤلفاته فى هذا الصدد كتاب باسم (فلسفة التاريخ فى أوربا وألمانيا » وقد صدر

سنة ١٨٧٤ م . كما صدرت له دراسة عن فلسفة فيكو سنة ١٨٨٤ م . ثم وسّع الفصول الخاصة بكتابه عن فلسفة التاريخ فى أوربا وهى الفصول التى تناول فيها الحديث عن فرنسا وبلجيكا ، وكون منها مجلدا بعنوان (فلسفة التاريخ فى فرنسا) وقد صدر له سنة ١٨٩٣ م . وكان من المتوقع أن يتبع هذا المجلد بمجلدات أخرى عن فلسفة التاريخ فى ألمانيا وغيرها من الدول وأن يضمنها آراءه بالنسبة لفلسفة التاريخ ولكنه لم يصدر شيئا منتظما عن هذا الأمر . وإستطاع فلنت فى تعليقاته الناقدة أن يجمع ببراعة بين إيمانه الراسخ بالله وبين أراء المذهب التجريبى الإنجليزى هذا إلى انه عارض فى صرامه الفلسفه المثالية التجريديه وآراء هيجل . ولعل أهم ما أسهم به فى مجال فلسفة التاريخ هو إثارة اهتمام القراء الإنجليز والأمريكين بما كتبه لآخرون عن هذه الفلسفة .

ثم كان أن ظهر خلط عجيب بين المذهب الطبيعى العلمى وبين معادلة التقدم الفكرى فيما كتبه بنيامين كيد Berjamir Kidd (١٨٥٨ – ١٩١٦ م) وخاصة فى كتابه (التطور الاجتماعى) . وكانت نظرة كيد إلى التاريخ تشبه إلى حد ما نظرة (كونت) له ، بمعنى انه كان يعتبر التاريخ صراعا بين ما يسعى إليه الفرد من مبادرة وتحرر وبين ما يفرضه المجتمع من قيود وسيطرة . ولكن بينما كان (كونت) يعتقد أن الحوافز الرئيسية للتقدم هى الدوافع الفردية فانه كان من رأى (كيد) أن ما تفرضه الجماعة من قيود على الفرد هى المصدر الرئيسى للتطور البشرى . هذا إلى ان كيد رأى أن اتباع ما يمليه العقل يقوى روح الفردية ومن ثم يبعث على الفوضى ولذلك نادى بأهمية وجود قيود اجتماعية ، وضرورة ارتكاز هذه القيود على قوة أو دعامة تفوق سلطان العقل ، وهى – فى نظره – قوة الدين .

ثم ان كيد تقبل آراء سبنسر عن التطور الاجتماعى ومراحله الحربية والصناعية ، ورأى أن المسيحية انقذت البشرية من خضوعها للمرحلة العسكرية (الحربية) عن طريق ما لهذه الديانة من سلطان يفوق سلطان العقل ، وعن طريق هذه العقيدة للسلوك السليم ، فضلا عن نظامها الأخلاقى المبنى على عدم إيثار النفس . ولكن كان ينبغى على الكاثوليكية بعد أن ادت مهمتها وقامت بواجبها ان تفسح الطريق للبروتستانتية التى أطلقت العنان لفيض من الإيثار ظل حتى ولذلك الحين مكبوتا أو وجه توجيها خاطئا . وقد تشربت الطبقات الحاكمة بهذا الأيثار حتى وجدت نفسها غير قادرة على مقاومة الحركة التى استهدفت الديمقراطية والعدالة الاجتماعية . وهكذا يبدو أن كيد كان يسعى إلى انكار أوحجب النظرية الماركسية القائلة بأن المكاسب انما تحققت عن طريق كفاح الطبقات الدنيا ضد سادتهم .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد شهدت إهتماما كبيرا بفلسفة التاريخ وخاصة ما ظهر فيها من حماسة لآراء هيجل وكومت وغيرهم . والملاحظ ان المؤرخين المحترفين خاصة بعد

عصر اندرو . و . هوايت لم يهتموا كثيرا بفلسفة التاريخ[1] ، وكل ما فعله موريس ، وهاريس ، ورويس وغيرهم هو نشر فلسفة هيجل ، كما تولى حنا فيسك ترويج مذهب هربرت سبنسر الخاص بتطور الكون . كذلك طبق حنا ديوى فى نفس الوقت نظريات دارون على الفلسفة ، كما أقتبس فرانكلين هـ . جيدنجز رأى كونت فى تفسير التطور الاجتماعى . أما هنرى آدمز فقد اقترح اخضاع المعلومات التاريخية للقوانين العلمية خاصة القانون الثانى من قوانين القوة الحرارية الخاص بإستثناء الطاقة . أما اخوه بروكس آدمز فكانت أفكاره أقوى آلرا ، وهى الأفكار التى ضمنها فى كتابيه (قانون الحضارة والتدهور) و (نظرية الثورة الاجتماعية) . وهناك اخيرا ج . د . فورست الذى جمع بين صيغة معدلة من فلسفة هيجل وبين المعرفة الكاملة بالحقائق التاريخية وذلك فى كتابه (تطور الحضارة الغربية)

والواقع ان الحركة التاريخية ذات الطابع العلمى لم تقدم فى الولايات المتحدة إلا فى وقت متأخر جدا . لذلك نجد أن المؤرخين من رجال الفكر كانوا مهتمين فيها بتفسير التاريخ أكثر اهتمامهم بنظريات فلسفة التاريخ[2] .

الاتجاهات الحديثة

وهناك أبحاث أخرى فى مجال فلسفة التاريخ غير تلك التى استعرضناها بايجاز فيما سبق فمثلا أقتبس كارل ماركس نظرية هيجل لكى يخلق تفسيرا ماديا للتاريخ حيث يصور العوامل التكنولوجية والاقتصادية بأنها العناصر الحاسمة فى التطور البشرى والاجتماعى . وقد بين ماركس ان الصراع الطبقى كان أقوى هذه العناصر الاقتصادية تأثيرا وان طبقة البروليتاريا (العمال) سوف تطيح فى النهاية بالرأسماليين المستغلين وتخلق مجتمعا تذوب فيه الطبقات[3]

أما عالم الجمال الإيطالى البارز بنديتوكروس Bendetto Croce فقد أخذ بوجهة نظر هيجل للتاريخ ، ولكنه إستبدل المنطق بالفن[4] فالتاريخ بالنسبة له ابراز الحقيقة فى الوقت الحاضر إبرازا يحمل بين طياته انطباعات الماضى ، ويضم بين ثناياه بصيص نور المستقبل . ورأى

(1) G.B Adans History and the philosophy of History in American Historical Review, January 1909.
(2) CF. shotwell: Inroduction to the History of History, Chap XXVII
(٣) M. M. Boher Karl Marx Interpretation of History (Harvard University press ·1927).

American Historical January 1934 p. 230.

History: its theory and practice (Harcourt, 1921) وانظر كذلك كتاب ركروس بعنوان

تأرجح كروس بين اتجاهات مختلفة وكان أحد هذه الاتجاهات بعيداً كل البعد عن الصيغة التاريخية (المؤلف) .

كروس أن مهمة الفلسفة هي تفسير ما غمض من حقائق كل مرحلة من مراحل التطور التاريخي ، ولذلك نجده ينادى بالتوفيق بين التاريخ والفلسفة . وعلى هدى الفكرة المثالية التى تقول بأنه ليس هناك حقيقة منفصلة عن العقل أو الروح ، أعلن كروس أن التاريخ فى جوهره ليس إلا قصة العقل البشرى . ويبدو ذلك فى نظريات الفن وأعماله وفى التصرفات العملية والأخلاقية ، ولقد أشتهر كروس بجدله المنطقى فى مجال فلسفة التاريخ . فقد أوضح أن هؤلاء الذين يرفضون الفروض الفلسفية الراقية ويصدون فى وجهها الأبواب سرعان ما يجدون أنفسهم وقد انغمسوا فى فلسفة ضحلة وضيعة ، ولذلك يطالب كروس بأنه من الخير أن نلتزم صراحة بفلسفة التاريخ السامية ذات المكانة الراقية .

وثمة كتاب مطول ظهر بعد الحرب العالمية الأولى إحتوى من النقاش حول فلسفة التاريخ الشئ الكثير ألفه اوزوالد سبنجلر وأسماه « أضمحلال الغرب » ويستعرض المؤلف فى هذا الكتاب غزارة علمه ، ولكن فلسفته التى يعرضها تتصف فى بعض جوانبها بطابع تشاؤمى يبدو تأثرها بآراء يتشه كما يبدو فيها التأثر بنظرية التطور الدائرى الحلزونى للتاريخ . لقد أوضح سبنجلر أربعة أنماط عظيمة للحضارة على الرغم من ذكره لأنماط أخرى كثيرة . وهذه الأنماط الأربعة هى :

١ — الحضارة الهندية التى بدأت حوالى سنة ١٨٠٠ ق . م

٢ — الحضارة القديمة وقد بدأت حوالى سنة ٩٠٠ ق . م

٣ — الحضارة العربية التى بدأت فى العهد المسيحى وشملت قيام المسيحية والإسلام .

٤ — الحضارة الغربية وهى التى خرجت إلى حيز الوجود حوالى سنة ٩٠٠ م .

وقال ان كل حضارة من هذه الحضارات مرت بدورة رباعية كاملة : الربيع والصيف والخريف والشتاء . وأوضح سبنجلر ان الحضارة الغربية تمر الآن بشتاءها وقد تسلم هذه الحضارة الغربية الزمام إلى الجنس الأصفر .

وعلى الرغم من أن الفلسفة العامة لكتاب سبنجلر موضع شك واستنتاجاتها محل جدل كبير فانه لابد وان نقر أن هذا الكتاب كان له أثر كبير وأنه جاء بآلاف الفروض المثيرة ، مما ترك أثر فى عقول كثير من القراء . كذلك نشر سبنجلر كتاباً صغيرا عنوانه (الإنسان والتقدم الفنى) أحدث دويا كبيرا ، وظهر فيه جهله التام بأوليات علم الأحياء والأجناس البشرية [1] . وتولى الفيلسوف الألمانى لودبج شيتن الرد على سبنجلر فى كتابه « التطور والتفاؤل » .

ثم ظهر تطور جديد فى فلسفة التاريخ فى أعمال المؤرخ وعالم الاجتماع الألمانى بولس

---

(1) Henry Hazlett. in the narion, February 24, 1932.

بارث (١٨٥٨ — ١٩٢٢ م) . قام بارث بدراسة فلسفة هيجل وأتباعه دراسة عميقة وحاول أن يفصل بين فلسفة التاريخ والتاريخ ذاته ، وان يربط بين فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، حيث انه اعتبر ان فلسفة التاريخ هى جوهر علم الإجتماع ولذلك جاء كتابه الهام المطول « فلسفة التاريخ كعلم اجتماع » لا بحثا هاما لفلسفة التاريخ فحسب بل جدلا قويا لتأييد فكرة ان فلسفة التاريخ هى علم الاجتماع ، وهى فكرة رحب بها المؤرخون التقليديون .

اما كيرت بريزج Kurt Breysig فهو احد أتباع لانبرشت وأحد العلماء المرموقين فى مجال التاريخ الإجتماعى . وقد تعرض لموضوع التاريخ فى كتابه (مع التفسير التاريخى) وفيه صبغ فلسفة هيجل بالفلسفة الماركسية مؤكدا أثر العوامل المادية من ناحية والمثل من ناحية أخرى . ومما تجدر الاشارة إليه تركيزه على أهمية القيادة ودورها .

أما أهم بحث فى مجال فلسفة التاريخ فى العصر الحديث فهو كتاب المؤرخ ارنولد . ج . توينبى بعنوان « دراسة التاريخ » وهو كتاب عملاق ظهر فى اثنى عشر جزءاً فيما بين سنتى ١٩٣٤ ، ١٩٦١ . وهناك كتاب بيترم سوركن Pitririm Sorokin بعنوان القوى الاجتماعية والثقافية وقد ظهر فى أربعة أجزاء بين ١٩٣٧ ، ١٩٤١ .

وقد درس توينبى قيام وسقوط اثنى وعشرين حضارة وانتهى إلى حيث انتهى يوسف هيرجشمير Joseph Hergesheimer بأن يدفن الكون فى ساحة أحد الكنائس الإنجليزية أما سوركن فقد صور التطور الاجتماعى بأنه يتذبذب بين فترات إزدهار وفترات ذبول وتدهور .

المراجع

1- **G.B. Adams** «History and the philosophy of History in American Historical Review january 1902.

2- **D.S. Mugzey ed,** Essays in Inlelleotual History Dedicated co James Harvey Robinson chapsiv - x - XIII- Harper 1929.

3- **Fueter:** Histoire de l'historiographie moderne, pp. 517-73-647-57.

4- **R. Flint:** The Philosophy of History in France and Germany Scribner 1874.

5- **Flent:** The philisophy of History in France.

6- **G.P. Gooch:** History and historians in the Nineteenth century claps II-IV, IX-X-xvii-xxvi- Longmans, Green 1952.

7- **Thompson:** History of Historical Writing vol 11. Chaps XI-XIIV-XIVII-

8- **Reinhold Aris:** History of Politcal thought in Germany from 1789-1813. London 1936.

9- **R.T. Clark Herder:** His life and thought univeristy of calfornia press 1955.

10- **H.C. Englebrecht:** Johamn Gottleib Fichte, Columbia un. press 1955

11- **J.C. Herold:** Mistress to an Age: A life of Madame de stael. Bobhsmeril 1958.

12- **L.M. Young:** Thomas Carlyle and the Art of History Univ. pa. press 1939.

13- **T.P. Donovan:** Henry Adams and Brooks Adams, univ. of Okla press 1961.

14- **Wegele:** Geschichte der deutschen Historiographie Book IV, V.

15- **Rudolph Haym:** Die Romantische Schule, Berlin 1914.

16- **K.H. Poetzach:** Studien zur Fruhroncntischen Politk und Geschichlts auffassung. Leipzig 1907.

17- **Gott freed Salomon:** Das Mittelater als Ideal in der Romantik Munich 1922.

18- **Peardon:** The Transition in English Histoucal Writing.

19- **Kenneth Bell and G.M. Margan:** The Great Historians Mac millen 1925.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٤/٣٢٧٢

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠٣٥٧ - ٨

يعتبر هذا الكتاب مدخلا لتاريخ الكتابة التاريخية،والكتابة التاريخية هى أحد مظاهر التاريخ الفكرى للجنس البشرى .

والحق أن التاريخ يعمل فى محيط أصعب من المحيط الذى يعمل فيه أى علم معروف مثل الجغرافيا أو الفيزياء أو الكيمياء . فان المهمة الرئيسية للمؤرخ أن يفحص كل الوثائق بكافة أنواعها ليميز الصحيح منها من الزائف ثم ينتقل إلى التأليف التاريخى بناء على ما توصل اليه من النتائج .

ومن هنا كانت أهمية هذا الكتاب الذى يدرس تاريخ الكتابة التاريخية

٢٨٠ قرشــــا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب